قصة تاريخية إسلامية :

فاتح السند
محمد بن قاسم

المؤلف

نسيم حجازي

المترجم

الدكتور ظهور احمد اظهر

قومي كتب خانه

١٩- فيروز پور رود ○ لاهور (باكستان)

قد أستبقينا عنوان الكتاب " محمد بن قاســــم
(مكان القاسم) كونه في الاصل باللغه الاورد يـــة

الطبعة الأولى : ٢,٠٠٠

تاريخ الطبع : محرم الحرام ١٤٠١هـ
نوفمبر ١٩٨٠م

ثمنه : ٤٠ روبية

الناشر : قومى كتب خانه ، ١٩ - شارع فيروز بور - لاهور
طبع فى : المطبعة العربية ، ٣٠ - شارع ليك ، لاهور - باكستان

الإهداء

إهـــداء إلى

الأمـــة الاسلاميـــة

بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة النـاشر

يسرنا جـدا أن نقدم للناطقين بالضاد بصفة خاصة وقراء الآداب العربية فى كل مكان من أقطار العالم بصفة عامـة هذه الترجمة العربية لقصة "محمـد بن قـاسم" التـاريخيـة الإسلاميـة التى تعتبر من بواكير الإنتـاج الأدبى للكاتب الـكبير الأستـاذ نسيم حجـازى ، ذلك الكاتب الإسلامى الذى اختار أبطال التاريخ الإسلامى لرواياته التاريخية والذى كرس حياتـه كلها لإرشاد الجيل المسلم الناشىء وتوجيهه إلى أهداف ساميـة والطموح إلى مكارم الأخلاق ومعالى الأمجاد إلى جـانب الوعى الشامل لمواجهة التحديات المعاصرة التى تهدد كيان الأمة الإسلامية ومبادئهـا الخالـدة وذلك بدراسة تاريخنـا ومعرفتـه لنتمكن من الاتعاظ بأخطائنـا الماضيـة ونعتبر بزلاتنـا الغـابرة حتى نتجنب مواطن الفتن والهلاك ونتقدم نحو مستقبل أفضل ، فنشكر المؤلف على هذا المجهود الـكبير كمـا نشكـر الـدكتور ظهور أحمـد أظهـر على تـرجمـة القصة وتعريبها .

وكذلك فاننا نـرى من الواجب أن نقدم أخلص عواطف الشكر مشفوعة بالمشاعر الأخوية النبيلة للأخ الـكريم الأستاذ خالـد العبد الله الحمدان القنصل الثقـافى السعودى فى باكستان فقـد كان حريصا أشد

ما يكون على تعريب القصة وتقديمها للجيل العربى الناشىء فهو الذى شجع المترجم كما أنه شجعنا على نشر القصة وتوزيعها فان الفضل فى ذلك كله يرجع إليه فجزاء الله خير جزاء .

ونشكر الأستاذ نعمان طاشكندى للنظر فى الترجمة ومراجعتها كما نشكر الأستاذ الدكتور شير زمان لتوجيهاته فى إنجاز هذا العمل .

محمد أحسن

فى ١٨/٢١/١٩٨٠م .   صاحب "قومى كتب خانه" ، بلاهور

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

لعل المكانة الكريمة التي يحظى بها الكاتب الروائي الكبير الاستاذ نسيم حجازى لدى المثقفين فى باكستان ، ولدى الشباب ، وبخاصة طلاب الجامعات والكليات ، لن تستطيع هذه الكلمات البسيطة ان تعبر عنها .

فكاتبنا إلى جانب كونه أحد أدباء الرعيل الأول ، الذين ساهموا بجهد فعال فى تنشئة الجيل الجديد ، وتوعيته بدوره كمسلم أولا ، وباكستانى ثانيا ، فان له أيضا دورا عظيماً ومشاركة لا تنكر فى الحركة الإسلامية التاريخية ، تحت قيادة الزعيم الفذ القائد الأعظم محمد على جناح ، والتى أدت فى النهاية إلى قيام دولة باكستان الإسلامية فى شبه القارة الهندية ، يهنأ فيها المسلمون اليوم بحرية العبادة والارادة .

لقد قدم الأستاذ حجازى لقراء لغته القومية الأردوية ما ينوف عن ثلاثين قصة ورواية طويلة ، من تلك التى تتناول البطولات الإسلامية ، وأمجاد أمتنا التليدة ، ولا يزال يغذ السير على نفس الطريق ، وفى كل ما أبدعته ريشته البارعة ورسمته يراعته الملهمة كان يحومُ حول دائرة واحدة ، هى دائرة الإسلام و مجده ، وما

قدمه هذا الدين من حضارة وثقافة ومثل للعالم أجمع . . مبشرا في ذات الوقت بان مستقبل الامة الزاهر انما يكمن فى بعث تلك الحضارة العظيمة بكل ما تحمل من معنى .

إن الالهام فى ريشة هذا الفنان يبدو فى أجلى صورة عند ما يبدأ فى تصوير مآسينا فى التاريخ ، ويبدو أروع وأدق حينما يستلهم العلاج لمثل تلك المآسى من مبادئ الاسلام السمحة ومثله الرفيعة ، وهو فى هذا وذاك يضعنا بين يدى مجد خالد يضيء الطريق ، ويدعم الثقة فى القلوب ، وينفخ روح العزة والفداء فى الصدور .

وفى قصة (محمد بن القاسم الثقفى) يرسم الكاتب اجمل اللوحات لجهاد شعب عظيم انطلق كالعاصفة ، يحطم بنيان الظلم ويدمر قلاعه وحصونه ، ويشع على أنحاء الأرض نورالعدل ، وبرد السلام ، ويحرر البشرية المضطهدة من براثن الهمجية ، وقيود الذل والعبودية ، هاديا الجميع الى سواء السبيل . . سبيل الاسلام .

يتناول فى هذه القصة بطولات ذلك القائد ذى السبعة عشر ربيعا ، الذى اصغى لصرخة قادمة من اعماق السند . . صرخة استغاثة رفعتها فتاة عربية مسلمة ، قيدها الظلم ، وقهرها البغى ، وجرحها العدوان ، فانتفض لها واهتز . . واهتزت معه اركان العالم الا سلامى واحفاد خالد والمثنى وسعد وابى عبيدة فى الشام والعراق .

فكانت الثمرة . . . وكانت النتيجة دخول الاسلام الى شبه

القارة الهندية ، و سقوط قلاع الظلم والهمجية ، وطلوع شمس الاسلام الوضاء فى ربوعها المعتمة . . بدخول الناس فى دين الله افواجا ، لتقوم من بعد ، فوق ارضها دول للاسلام ، سطرت على صفحات التاريخ اروع البطولات والا مجاد ، ورثتها فى النهاية باكستان الدولة المسلمة الفتية .

اما ترجمة القصة الى العربية فهى اول محاولة من نوعها لترجمة قصة اردوية الى العربية كما يقول المترجم الدكتور ظهور احمد أظر وفى نفس الوقت اول خطوة للمترجم فى هذا المجال لخدمة العربية ، لقد بذل الدكتور ظهور احمد ـ الاستاذ المشارك بجامعة البنجاب ـ فى محاولته المشكورة هذه ما وسعه جهده وحرص ان تأتى الترجمة حرفية الى حد كبير ، ليتمكن من نقل روح القصة الى العربية . . بيد ان هذا جعله يقع فى كثير من الاحيان فى تعابير لعلها لا تناسب المستوى الذى ينبغى الا يغيب عن البال عند ترجمة مثل هذا المجهود الادبى الكبير ، الذى لقى فى اصله مكانة جد عظيمة . . وحتى لو أريد عمدا ان تكون الترجمة حرفية فان التعابير التى تغلب عليها العجمة لا ينبغى أن تطغى أثناء ذلك .

وجاء جهدى المتواضع بعد الدكتور ظهور أحمد ، ليعالج ــ وفى حدود ـ هذه النواحى ، و فى نفس الوقت حرصت على عدم المساس برغبة الدكتور ظهور أحمد فى أن تغلب الحرفية[1] ما وسع ذلك .

---

(١) أنالم أرغبافى الحرفية أبدا ولست من القائلين بها .

إن هـذا المجهود المتواضع الـذى يشرفنـا أن نقدمـه ، نـرجو أن يلقى عنـايـة قـراء العـربيـة الـكرام ويلقى التشجيـع الـذى يـدفعنـا لنقـل الـمـزيـد من روائـع الأدب الاردوى إلى لـغـة الضاد ، كمـا يسعـدنـا ان نتلقى كـريم ملاحظاتهم وآراء هم السديـدة التى ستكون نبـراسا لنـا ، ولا ننسى أن نقدم شكرنـا لاؤلئـك الذين شجعوا هـذا الجهد وساعدوا على إنجازه .

نعمـان محمد طاشكنـدى

جامعـة العلامـة إقبال المفتوحـة ، إسلام آباد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

هذه قصة عربية اسلامية لكاتب باكستانى مسلم ، كتب ما يزيد على ثلاثين قصة ورواية طويلة ، من الروايات الاسلامية التاريخية ؛ باللغة الاردوية - لغة باكستان القومية - ولايزال يواصل انتاجه الرائع البديع متغنيا بأمجاد الاسلام الماضية حينا ، ومبشرا بالمستقبل الزاهر المجيد حينا آخر . . تراه يصور المآسى فى تاريخنا ، لينبهنا على الأخطاء التى عرقلت سيرنا وتقدمنا ، والتى خسرنا بسببها ما خسرنا ! ويحدد المعالم لنكون على وعى فى زحمة الأحداث ؛ حتى لا نقع فى نفس الاخطاء مرة اخرى - وهو فى هذا وذلك يضعنا بين يدى المجد الخالد فى تاريخنا ، ليضيء لنا طريق الحق ويدعم الثقة بأنفسنا وليؤكد ايماننا بالله ويمهد السبيل لأجيالنا الناشئة حتى تعيش حاضرها بين امجاد الماضى و آمال المستقبل !

أما القصة فهى عربية اسلامية بكل معانى الكلمة . . قصه تصور شعبا حرا أبيا ، أخرجه الله للناس كافة ، ليحرر البشرية من براثن الاستبداد والعبودية والظلم والحرمان ، وليهديها لطريق الحق والأمن والسلام . . انها قصة بطل اسلامى يافع ، جاء لاغاثة بنت

من بنات الاسلام صرخت مستغيثة ضد الظلم والذل والهمجية والطغيان ، فهزت صرخاتها العالم الاسلامى كله ، ولبى نداءها ابناء الاسلام تحت راية القائد البطل اليافع محمد بن القاسم الثقفى رحمه الله فدخل الاسلام شبه القارة الهندية ، فأضاء بنوره الوضاء نواحيها المظلمة من ادناها الى اقصاها ، فانتشر دين الله ودخل الناس فيه أفواجا ، وقامت دول اسلامية تركت آثارا خالدة عاطرة ورثتها باكستان الدولة الاسلامية الناهضة ! هذه هى القصة !

وأما المؤلف فهو الكاتب الاسلامى الكبير الأستاذ الأديب "نسيم حجازى" الذى ساهم فى تكوين الجيل المسلم الجديد ، مساهمة لا يمكن انكارها أو تجاهلها ، كما انه قام بدور بناء فى انشاء باكستان ، وشارك فى الحركة الاسلامية التاريخية الحاسمة لمسلمى شبه القارة ، التى قادها الزعيم الفذ القائد الأعظم محمد على جناح رحمه الله !

والأستاذ نسيم حجازى له تأثير بالغ فى نفوس الجيل المسلم الناشئ وعلى الأخص طلابنا فى المدارس والكليات والجامعات حيث انه واصل ـ ولايزال ـ تزويدهم بغذاء ادبى صالح ، هم فى أشد الحاجة اليه . . بخاصة الأدب القصصى الذى يقرأونه فيحبب اليهم الاسلام ، ومبادئه السامية السمحة التى جاء بها النبى محمد ﷺ . . لقد كان جيلنا الناشئ فى حاجة الى مثل هذه التغذية الأدبية الصالحة لتملأ عليه الفراغ الهائل فى وجه الزحف الاحمر والحركات الهدامة الأخرى التى تجتاح المجتمعات الاسلامية ، لابسة ـ لبوس الفكر والأدب والثقافة ! لقد استطاع أدب الأستاذ نسيم حجازى أن يزود جيلنا الناشئ بهذه التغذية الأدبية الصالحة ، ويملأ هذا الفراغ الهائل !

أمـا تـرجمة القصة فهى خطوة أولى من المترجم فى خدمة لغة الناطقين بالضاد كما أنها محاولة أولى من نوعها ، فانها أول قصة ترجمت من الاردوية الى العربية !

إنـه عمل متـواضع جدا ، ولـعلـه يلقى تشجيعا من القراء العرب الكـرام ! ونرى من الـواجب أن نشكـر الأخ الكريم الأستـاذ خالـد العبـد الله الحمدان القنصل السعودى بلاهور فهو الـذى شجعنى على القيام بهذه الترجمة ولولاه لما تمت ! فالفضل كله بعد الله تعالى يرجع إليه فجزاه أحسن الجزاء ووفقنا جميعا لما يحب ويرضى وهو ولى التوفيق.

ظهور أحمد اظهر

لاهور فى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

كانت الرسائل التى تلقيتها من قرائى الكرام بعد اخراج قصتى : "داستان مجاهد" قصة المجاهد - قد أيدت رأيي فى أن تاريخ المسلمين القديم ، وأمجادهم الماضية لا تزال وستبقى موضع فخر واعتزاز لأجيالنا الناشئة ، التى ما فتئت تجد حلاوة ورغبة فى قصص ابطالها ، ولا شك فى أن هذه القصص والأمجاد هى أحلى وألذ من قصص قيس وفرهاد وغيرهما من ابطال الحب والغرام !

ولعلنى لو تركت على سجيتى ، لاخترت موضوعا آخر من موضوعات تاريخ الاسلام الا أن القراء الكرام ، الذين اقترحوا على بأن اؤلف قصة اخرى على منوال "داستان مجاهد" كانوا قد ألحوا على فى أن أتناول قبل كل شئ ، قصة محمد بن القاسم الثقفى رحمه الله ، وما خلف من مجد للاسلام فى شبه القارة الهندية .

كما أن الأخ "شيخ محمد أحسن" بعد أن قرأ نسخة مخطوطة من "داستان مجاهد" كان قد اعطانى عنوان هذه القصة بالذات وهو "فاتح السند" !

والى نهاية شهر مارس من عام ١٩٤٥م ، لم يستقر رأيي على ان أتناول قصة حياة هذا القائد الشاب العظيم ، ولم أزل أستمع الى ما

أبداه الى كل من الاخوة احسن وسليم بانى بتى وآخرين من أصدقائى بكل تريث و هدوء! مع أن حبي واجلالى لعماد الدين محمد بن القاسم الثقفى لم يكن ليقل عن أحد من أصدقائى ـ وانما كان السبب لهذا التمهل والتردد انني لم أكن أرانى أهلا لأن أتناول هذا الموضوع العظيم فقد كنت أعتقد بأن الأمجاد الخالدة العاطرة التى حققها هذا القائد الاسلامى الفذ ، وعمره لم يتجاوز السابعة عشرة ، لا يمكن لكاتب مثلى أن يستوفى حقها ، ويستوعب نواحيها حق استيعاب!

لقد كان أصدقائى الكرام يطالبوننى بأن أرسم بحرا من الهمم والعزائم ، الذى ترتفع أمواجه فتصارع نجوم السماء! أما أنا فقد كنت مثل رسام لم يوفق حتى الآن يتخيل فى ذهنه نهيرات وجداول من هذا النوع!

على كل حال فقد بدأت عملى فى نهاية شهر مارس من العام المذكور آنفا ، وقد استطعت اليوم أن أحقق أمانى هؤلاء الاصدقاء وأحلامهم الذين اختاروا ريشتى المتواضعة لرسم عظيم! فاذا أعجب القراء الكرام لون من الوان هذا الرسم فانما يرجع الى حبي واجلالى لمحمد بن قاسم ويرجع كذلك الى تشجيع وتعضيد هؤلاء الأصدقاء المخلصين الذين أحببت أن يبلغ هذا العمل رضاهم ويحقق ما تمنوه من الألوان الباهرة فى هذا الرسم العظيم بريشة متواضعة!

والجزء الأول من هذه القصة التاريخية الاسلامية والذى سميته "ناهيد" أو (بنت الاسلام تستغيث) هى قصة فتاة عربية مسلمة ارتفع صوتها مستنجدة بأبناء الاسلام فغيرت بصوتها مجرى التاريخ فى شبه القارة الهندية ـ وأما الجزء الثاني الذى سميته : "القائد الشاب" أو (ابن

الاسلام يغيث) فهى قصة شمس من شموس الاسلام فى تاريخنا المجيد ، التى طلعت فى سماء العرب فأضاءت أرض السند ولكنها ، ويا للأسف ! أفلت عند منتصف النهار !

ولن تكتمل كلمة التصدير هذه بدون أن نلم الماما بذكر الصديق المغفور له "مير جعفر خان جمالى" ! فهو الذى زودنى بالتسهيلات الكاملة فى اخراج هذا الكتاب ، تلك التسهيلات التى كنت اتمناها وانا اشتغل فى تأليف قصتى الأولى "داستان مجاهد" ! ولا أريد أن أحط من شأن المشاعر التى اكنها نحوه فى قلبى بذكر كلمات الشكر العادية !

كويته

فى ٣ اكتوبر ١٩٤٥م　　　　　　نسيم حجازى

القسم الأول

ناهيد

او

بنت الإسلام تستغيث

- ابو الحسن
- فى بلاط سرنديب
- القراصنة
- جنجو وقصته
- ديبل
- الأسرى
- اضطراب "مايا"
- الأخت والأخ
- الأصدقاء والأعداء
- الأمل الأخير

القسم الثانى

القائد الشاب

أو ابن الاسلام يغيث

- رسول قتيبة
- من البصرة إلى دمشق
- الجندى والأمير
- الانتصار الأول
- المحسن إلى الجميع
- نجم الصباح
- القائد الجديد لقوات السِّنْد
- الهزيمة الأخيرة للملك داهر
- من برهمن آباد إلى الرور
- معبودهم !
- أسير سليمان !
- غروب الشمس !

القسم الأول

نـاهيـد

أو بنت الاسلام تستغيث

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الحسن

كانت العلاقات بين العرب وبين شبه القارة الهندية ترجع إلى عصر متقدم جدا ، و يحدثنا التاريخ أن العرب كانوا على صلة مستمرة دائمة بموانئ الهند ومدنها الساحلية الى جانب صلاتهم القديمة المستمرة بجزيرة "سرنديب" (سيلان أو سرى لانكا الآن) كما أن بعضا من التجار العرب كانوا قد هاجروا الى هذه الجزيرة واستوطنوها فى العصر الجاهلى القديم ـــ وحين ظهر الدين الجديد فى البلاد العربية وانتشر فى آفاقها ، لم يتمكن هؤلاء من التحول عن عقائدهم الدينية القديمة ، التى ورثوها كابرا عن كابر ، الا أن الفتوح العظيمة والانتصارات الاسلامية الباهرة على الفرس والرومان كانت قد أثارت عصبية قومية فى نفوس هؤلاء العرب المهاجرين .

وكانت بلاد الفرس فى تلك الحقبة من التاريخ تعتبر دولة متحضرة متقدمة بالنسبة الى البلاد العربية ، ومن ثم فقد كانت المنتوجات الفارسية تحتل مكانة كبرى فى أسواق الهند ، أكثر من تلك التى كانت تتمتع بها البضائع التى ترد هذه الاسواق من البلاد العربية ، كما آن التجار الفرس كانوا يتمتعون بثقة ومكانة لدى الهنادكة

اكثر مما كان يتمتع بهما التجار العرب ! وحتى التسهيلات والامتيازات التى كان الهنادكة يقدمونها للقوافل التجارية السورية كانت تفوق بكثير على ما كانوا يقدمونه للتجار العرب لما كانوا يشعرون به من سطوة الأمبرا طورية الرومانية القديمة ، وكان الرومان قد احتلوا بلاد سوريا فيما احتلوا من بلاد الشرق الاوسط فى تلك الحقبة من التاريخ وبالاضافة الى ذلك كله فقد كان حكام الهند وملوكها يعتبرون بلاد الفرس أقوى جيرانهم .

بيد أن الفتوح والانتصارات الاسلامية الباهرة التى تحققت فى عهد الخليفتين الراشدين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما كانت قد غيرت نظرة الدول المجاورة للبلاد العربية نحو الشعب العربى المسلم الذى غير مجرى التاريخ البشرى !

ومع أن الثورة الجديدة التى حدثت فى قلب الجزيرة العربية ما أتيح لها أن تحدث تغييرا كبيرا وفوريا ، فى نفوس هؤلاء التجار العرب المهاجرين الى جزيرة "سرنديب" ومناطق الهند الأخرى ، الا أن الفتوح والانتصارات التى حققها الدين الاسلامى فيما بعد على الكفر والضلال ، كانت قد أصبحت موضع فخرهم وسرورهم ، إذ كانوا يعتبرونها انتصارات عربية على الفرس والرومان ، وهذا الاعتبار هو الذى أحدث تغييرا جوهريا فى نفوسهم ، فحل الحب محل البغض نحو الدين الاسلامى الحنيف ! ومن ثم فان كل من سافر الى البلاد العربية منهم ، تلقى هذا الدين الجديد بالقبول فعاد وهو يؤمن بالله ورسوله ويحمل معه رسالة الاسلام الخالدة !

كان عبدالشمس رئيس الجالية العربية هناك ، وكانت أسرته

التى هاجرت الى "سرنـديب" قـد استوطنتها منـذ أمـد بعيـد ، فكان ميلاده ونشأته على أرض هـذه الجزيرة ، وكان زواجة فيهـا من أسرة عربية مهاجرة مثل أسرته ، وكانت رحلاته وأسفاره البحريـة كلها بين "سرنديب" و"كاثياوار" ومن ثم لم يكن يعرف شيئا عن القبيلة التى ترجع اليها أصوله ، حتى أنه لم يكن يعرف مواطن قبيلته ومساكنها فى الجزيـرة العربيـة ، ولـكن أنبـاء الفتـوح والانتصارات الاسلاميـة الباهـرة فى (اليرموك) و(القادسيـة) وغيرهما من المعـارك العظيمـة الهـائلة ، كانت قـد انتشرت فى آفاق العالم كله ، وهى التى أثـارت عواطف عبدالشمس وأمثاله نحو موطنهم الأصلى .

وهـذه الأنباء نفسها هى التى كانت قـد جعلت ملك "سرنديب" فى ذلك الـوقت يتوق الى ايجـاد تفـاهـم وعلاقـات صداقـة مـع ذلك التاجر العربى الخـامل الـذكر حيث دعـا عبـد الشمس وأصحابـه الى بلاطه و أكرم وفادتهم وقدم لهم الهدايـا الغـاليـة الثمينة ثم ودعهم توديعا حارا .

وفى سنة ٥٤هـ ومـا أن تولى الملك الجـديد مقاليـد الحكم بعـد وفاة والده حتى دعا عبد الشمس الى بلاطه وقـال له : لم يزر بلادنـا أى تاجر جديد من بلادك منذ أمد بعيد ـــ وقـد كنت أريد أن أعرف عن أحدث الأوضاع والظروف فى بلاد العرب ، كما أننى مهتم بدين العرب الجديد ـــ فاذا كنت تحب السفـر الى بلادك فنحن مستعـدون لأن نزودك بكل ما تحتاج إليه من الوسائل والتسهيلات اللازمة .

فرد عبد الشمس : انك أيها الملك قـد عبرت عما أشعر به فى قلبى ! انى جاهز للسفر إلى بلادى ! !

ووافق التجار العرب الآخرون من اصحاب عبدالشمس أن يرا فقوه فى هذا السفر سوى خمسة منهم .

ولم يمض إلا عشرة أيام حتى كانت إحدى السفن مستعدة لمغادرة الميناء إلى البلاد العربية — وكان التجار العرب قد بدأوا ينزلون فيها بعد أن ودعوا أسرهم وأولادهم — أما عبدالشمس الذى كانت زوجته قد توفيت فلم يستطع أن يودع ابنته الوحيدة إلا بعد عناء ودموع صدعت قلبه وكانت تسمى "سلمى" وكان أهل المدينة كلهم يعتبرون هذه الفتاة قمة فى الجمال النسوى ولؤلؤة فريدة فى الحسن والبهاء ، وإلى جانب جمالها الرائع كانت قد أجادت الفروسية والسباحة ، وبرعت فيهما للغاية وكانت إذا اعتلت صهوة جواد أدهشت الفرسان براعتها ، كما أنها كانت تدهش ابرع السباحين ، إذا رأوها تقفز فى الشلالات أو تسبح فى البحر كما تسبح الحيتان !

وبعد عشرين يوما من توديع عبدالشمس وزملائه رست على الشاطىء سفينة تجارية من سفن تجار "كاثياوار" ، فنزل عبدالشمس واثنان من زملائه فأخبروا بأن سفينتهم قد غرقت وأن زملاءهم الآخرين ابتلعتهم أمواج البحر ، ولو لا هذه السفينة التجارية التى أنقذتهم بعد محاولات استمرت لبضع ساعات لإنقاذهم من الأمواج المتلاطمة ، لغرقوا ولحقوا بزملائهم .

حزن الملك لهذا الخبر حزنا شديدا ، أما الرجل الذى كان قد أنقذ هؤلاء العرب الثلاثة ، فكان رئيس التجار فى بلده وكان اسمه "دليب سنك" فدعاه الملك إلى قصره وأكرمه ، وأفاض عليه بجوائزه مكافأة له على إنقاذه لهؤلاء الثلاثة من التجار العرب ،

وكان من بين الجوائز التى قدمها له الملك ثلاثة أفيال كبار — ولما وجد "دليب سنك" وزملاؤه كرم الملك وسخاءه أبدوا عن رغبتهم فى النزول عنده والتوطن فى بلاده تحت رعايته ، فأذن لهم الملك بذلك وأصدر أمرا رسميا بالانفاق من خزائنه الخاصة على بناء المساكن والمنازل للتاجر "دليب سنك" وزملائه .

ولم يمض على الخدمات المخلصة الأمينة الفائقة التى قام بها "دليب سنك" إلا بضع سنوات حتى أصدر الملك أمرا بتعيينه قائدا أعلى للقوات الملكية البحرية .

﴿ ٢ ﴾

وبعد هذه الحوادث بثلاث سنوات ، كان ابو الحسن أول تاجر مسلم وصل الى تلك الجزيرة النائية ، تاجرا ومبلغا فى نفس الوقت — لقد استغرقت الرحلة بضعة أسابيع قبل أن تصل سفينة ابى الحسن وزملائه التجار الى سواحل جزيرة "سرنديب" الخضراء .

فاذا بالرجال والنساء والأطفال الموجودين على مقربة من الميناء يهرعون لاستقبال هؤلاء الضيوف العرب ، فركب بعضهم الزوارق الصغيرة ، والبعض الآخر استبقوا الى السفينة سابحين ، وإذا بوجه غريب بين وجوه النسوة السود المحليات شبه العاريات الراكبات فى زورق من الزوارق يثير انتباه أبى الحسن فيتبينها فيراها حمراء اللون حلوة بيضاء الوجه جميلة ، تختلف بنية وصورة عن نساء الجزيرة كلها وكانت واقفة فى وسط الزورق تزجر الملاحين وتوبخهما ليسرعا فى التجديف ، ويسبقا الآخرين الى السفينة .

وفعلا سبق زورقها الى السفينة ، فأخذت الفتاة تنظر الى أبى الحسن الشاب العربى الذى أشاح بوجهه ، بدل أن يتجاوب مع نظرات جريئة لفتاة اجنبية ، اذ أن ملابس النسوة شبه العاريات كانت قد أثارت تبرم أبى الحسن وزملائه وضيقهم ، كما لم يعجب الفتاة الجميلة الجريئة عدم اهتمامهم بها واهمالهم إياها ، فكأنها اعتبرت ذلك إهانة لشخصيتها الأبية ، وجرحا لمشاعرها الأنثوية ، فقالت بضع كلمات فى لغة "سرنديبية" إلا ان الرد من اهل السفينة لم يكن غير السكوت والإهمال واللا مبالاة .

وفجأة انتبه أبو الحسن على صوت صراخ وغياث ، فنظر نحو البحر فاذا بتلك الفتاة الجميلة ، قد انغمست فى أمواج البحر المتلاطمة ، وأخذت تقاوم لججه الزاخرة ، وعلى الرغم من أنها كانت تصرخ وتستغيث إلا أن البحارة وأصحاب الزوارق كانوا ينظرون اليها بلا مبالاة وباهمال ويضحكون منها ! الأمر الذى أثار مشاعر أبى الحسن فألقى إليها سلما من الحبال ، ولكنه عندما بدا له أن أعضاء الفتاة وجوارحها قد شلت ، وأنها لا تستطيع أن تصل إلى السلم ألقى بنفسه فى الماء دون أن يخلع ملابسه محاولا إنقاذها ، ولكنها غاصت فى الماء وغابت فى أعماقه ، مما أدهش وآلم أبا الحسن ، فبدأ ينظر مضطربا الى هنا وهناك ، وفى تلك الأثناء كان عدد كبير من الزوارق قد وصل إلى السفينة ، بينما كان سكان الجزيرة يضحكون ضحكات عالية ويتمتعون بهذا المنظر المثير الغريب .

وعبثا حاول ابو الحسن انقاذ الغريقة واكثر من مرة ولما يئس من ذلك وفشل فى مهمته أمسك بحبل السلم ليصعد إلى سفينته ، ففاجأه

أحد زملائه الموجودين على السفينة يصرخ قائلا : ها هى . . . أنها هناك يا أبا الحسن ! فى تلك الناحية من السفينة أراها تغرق وكأن سمكة تكاد تبتلعها مما دفع رجال الجزيرة ونساءها الى القهقهة والضحاك العالى مرة أخرى ! ولم يستطع أبو الحسن أن يفهم سبب وصول الفتاة الى الناحية الأخرى من السفينة ، فسارع يغوص فى البحر مرة أخرى فى شىء من القلق والدهشة ، فمر من تحت السفينة سابحا غائطا حتى وصل الى الجانب الآخر منها فراعه إذ لم يجدها هناك فسمع زميله يصرخ قائلا : أنها قد غرقت ! . . . ابتلعتها سمكة ! !

فعاد أبو الحسن إلى ناحية السفينة الأولى بعد أن يئس من العثور عليها إلا أنه رأى زملاءه فى هذه المرة يشاركون الأهالى فى ضحكاتهم العالية فقال له عربى من زملائه تفضل ! تعال يا سيدى ! فهى تعرف السباحة أحسن منك .

فأخذ أبو الحسن حبل السلم وهو خجل جدا إلا أنه لم يستطع أن يضع قدمه الثانية على السلم إذ أخذه شخص برجله وأسقطه فى الماء ! فحاول أن يسترد قوته ونظر إلى ما حوله فما راعه إلا أن لحظ الفتاة تستبقه وترتقى السلم بكل سرعة .

وعندما وصل أبو الحسن إلى ظهر السفينة، وجد زملاءه قلقين مضطربين أمام ضحكات الفتاة ، ونظراتها إلى أبى الحسن .

وقالت له بلغة عربية فصحى : إنى آسفة يا سيدى على إز عاجك ، وثيابك هذه التي ابتلت بسببي . . . وكان حديثها باللغة العربية قد أدهشي

الجميع فظلوا ينظرون إليها فى إعجاب واستغراب !

فقال لها ابوالحسن : السيدة عربية ؟ فمالت الفتاة برأسها تنفض شعرها ثم قالت : نعم يا سيدى أنا فتاة عربية ! وقد كنا ننتظر وصول سفينة عربية منذ زمن ، وأننى أرحب بكم كل الترحيب . . ! وعلى فكرة ! ما هى الأمتعة والبضائع التى جئتم بها هذه المرة ؟ !

أما أبو الحسن وزملاؤه فلم يعجبهم لقاء فتاة عربية فى زى كزيها ، فظلوا ينظرون بعضهم الى بعض فى شيء من القلق والاضطراب والاشمئزاز .

فدهشت الفتاة العربية من موقفهم، وإذ لم تجد الرد على سؤالها عادت تقول : لقد سألتكم عن البضائع التى جلبتموها إلينا ؟ ! ما لكم ؟ ماذا دهاكم ! ؟ أفليس بين النساء العربيات من تعرف السباحة و تجيدها ؟ فيم تفكرون يا سادتى ؟ حسنا ! لا بأس ! أنا أرى بنفسى .

فقال لها أبو الحسن : على مهلك يا سيدتى ! فقد جئنا بالخيل ! تفضلى ! دعينى أريك ! أن الذى دهانى وأدهشنى هو أن عرب هذه الجزيرة لا يزالون يعيشون حياة أشنع وأسوأ من حياة الجاهلية الأولى ! أو لم يعلم أحد نسائكم كيف يلبسن الملابس أو يواجهن الرجال الأجانب بالحياء والاحتشام ! ؟

فأغضبت كلمات أبى الحسن الفتاة العربية وتوردت خداها وقالت له بلهجة قاسية : اوليست هذه هى الملابس الإنسانية ؟ !

ـــ "لا يا سيدتى! يبدو أن ضوء الإسلام لم ينور بيوتكم حتى الآن".

ثم أخذ جبته فوضعها على عاتق الفتاة ثم قال لها : "تستطيعين الآن التجول فى سفينتنا هذه" !

فاستسلمت الفتاة لأبى الحسن وغطت ذراعيها المكشوفتين وساقيها العاريتين ، وبدا عليها وكأنها تأثرت بشخصية أبى الحسن أكثر من كلماته .

كانت بضاعة أبى الحسن لا تحتوى إلا على خمسين فرسا عربية فلاحظت الفتاة الخيل كلها واحدة بعد الأخرى حتى وقفت عند فرس فوضعت يدها على ظهرها وقالت : "اريد ان اشترى هذه الفرس بالذات فكم ثمنها" ؟

قال أبوالحسن : "حقا أنك تعرفين الخيل ! لقد بقيت فيك ميزة عربية واحدة ! إن هذه الفرس هى اجود الخيل عندى الآن ولكنك لا تستطيعين ان تدفعى ثمنها وقد لا تستطيعين ان تعتليها ايضا ! إن هذه الفرس ليست لركوب النساء ، إنها جميلة وسريعة العدو ، ولكنها عنيدة جموح فى الوقت نفسه" !

فابتسمت الفتاة وقالت له : حسنا يا سيدى ! سوف نرى ! ولكن لماذا أرسيتم السفينة بعيدا جدا ؟

فقال لها ابوالحسن : أننى أرى من الواجب أولا أن أستأذن حكومة هذه البلاد ثم ننزل .

وقالت الفتاة ! لا يهمك هذا فقد كان ملك "سرنديب" فى انتظار سفينة عربية منذ أمد بعيد — وتستطيعون أن تتقدموا بالسفينة إلى الساحل الآن ! ها هو ذا قائد القوات البحرية قد أقبل نحونا !

وكان القائد "دليب سنك" قد تعلم اللغة العربية وكان يتحدث بها بطلاقة . فقال وهو يصعد الى السفينة : أهلا بكم أيها السادة ! ولكن لماذا أوقفتم السفينة على هذه المسافة البعيدة من الميناء ؟

فأجابته الفتاة مكان أبي الحسن تقول : إنهم يرون من اللازم أن يستأذنوا الملك قبل دخول السفينة الميناء للارساء .

فقال "دليب سنك" لا داعي لذلك ! فان جلالة الملك سوف يسره قدومكم كما أن زيارتكم له تسركم أيضا .

وقالت الفتاة : إني ذاهبة الآن ، ولكن لا تنس يا سيدي أن الفرس البيضاء قد صارت ملكا لي ! وسوف أدفع لك ما تحب من الثمن .

قالت الفتاة هذه الكلمات ثم رمت بالجبة إلى عربي من زملاء أبي الحسن واقتحمت الماء وأخذت تسبح بسرعة كبيرة نحو الساحل .

﴿ ٣ ﴾

أما عبدالشمس فقد كان على علم بوصول السفينة العربية ، فاستقبل أباالحسن وزملاءه مع وجهاء المدينة الذين كانوا قد اجتمعوا بهذه المناسبة ، فأخذ الضيوف العرب معه وأنزلهم في داره ، إلى جانب اسطبل واسع أعده لخيلهم ، وبعد بضع ساعات من وصولهم كان قد اجتمع أكثر من مائتي شخص يرغبون في شراء الخمسين فرسا من أبي الحسن وأصحابه ، وكانوا يتسابقون ويتنافسون في دفع أغلى الأثمان ! واقترح "دليب سنك" على التجار العرب أن تعرض

الخيل على الملك قبل أن تباع فى السوق العامة ! فقد يحب جلالته أن يشترى البعض منها ، فأيده عبدالشمس ، وبينما كان الحديث يدور بينهم فى هذا الموضوع جاءهم رسول الملك وقال لهم : إن جلالة الملك يحب أن يقابل التجار العرب ويرى خيلهم .

فقال "دليب سنك" للرسول : اذهب إلى جلالته وقل له أننا على أثرك للمثول بين يديه !

ثم قال وهو يخاطب أباالحسن : "ان ابنة عبدالشمس قد اختارت فرسا لنفسها وأرى من المناسب أن نتركها ههنا" !

فقال أبوالحسن : إذا كان عبدالشمس يحب أن يشترى تلك الفرس لنفسه فلا بأس أما ابنته فانها لا تصلح لها إذ هى عنيدة جموح !

وفجأة يندهش لصوت نسوى يرتفع من ناحية يقول ! "لا يا أبت ! ليس هذا هو السبب . بل هو يعتقد أننا لا نستطيع أن ندفع ثمنها الغالى" ! !

رفع أبوالحسن رأسه فاذا بالفتاة الجريئة الجميلة النشيطة التى رآها على السفينة تحمل فى إحدى يديها لجاما وفى الأخرى سوطا ! وراعه أكثر من ذلك أنها لم تكن فى زى النسوة المحليات وإنما كانت قد استبدلته بملابس السيدات العربيات ! فخجل أبوالحسن قليلا ثم قال لها : إذا كنت لا تصدقيننى ولا تثقين بقولى فحاولى إلجامها فاذا نجحت فى ذلك فالفرس لك مكافأة لذلك . . !

فتقدمت الفتاة بسرعة نحو الاسطبل ، فأسرع الناس من ورائها ،

وبعد أن أجالت بطرفها بين الخيول الموجودة هنالك ، تقدمت ناحية الفرس البيضاء ، وما أن رأت هذه الفتاة حتى تركت علفها ورفعت أذنيها تنظر نحوها فجاءت فوضعت يدها على ظهرها تمسحه فجفلت الفرس وقامت على رجليها الخلفيتين مما جعل الخيول الباقية تحاول التخلص من الحبال للفرار .

فقال لها أبوالحسن : "مهلا يا سيدتى ! انتظرى قليلا ! ثم تقدم إلى الفرس فحل وثاقها وأخرجها من الأسطبل وبعد أن شدها إلى شجرة قال لها : تفضلى يا سيدتى ! عليك الآن باختبار الفرس وفروسيتك" .

فاذا بالفتاة تتقدم نحوالفرس بكل سرعة فتأخذها من فيها الأسفل باحدى يديها وتلجمها بيدها الأخرى فأخذت الفرس تضطرب وتثب وتقفز كما يضطرب ويقفزالحيوان المفترس الجريح ! أما المشاهدون الموجودون هنالك فأدهشتهم الفتاة بركوبها ذلك الحيوان الجموح العنيد ولما تنته دهشتهم حتى رأوا تلك الفتاة الجميلة الناعمة تنجح فى إلجامها ! فرغم محاولات الفرس الحران والعصيان خرجت من الدار قافزة وأخذت تعدوبها بسرعة البرق .

فقال عبدالشمس مفتخرا بابنته : إن الخيول العربية لم تنجب حتى الآن فرسا لا تستطيع سلمى أن تذللها للركوب !

ومع ذلك فانى آسف يا أبا الحسن ! فقد خسرت الرهان! ولكن لا تحزن يا سيدى ! وتأكد أنك ستأخذ ثمنها بالكامل !

﴿ ٤ ﴾

وكان الملك قد قرر فى نفسه أن يشترى الخيل كلها قبل أن يراهـا . أمـا الأثمان التـى دفعت إلى العـرب من الخزائن الملـكية ، فقد كانت اكثر بـكثير مما كان العرب يتمنونه . وقـد وجه الملك إلى ابى الحسن عـدة أسئلة عن دين العـرب الجديد وفتوحهم وانتصاراتهم وقام بـدور الترجمان القائد "دليب سنك" فرد أبو الحسن على أسئلـة الملك كلهـا وتحـدث عن جوانب وعظمة دين الإسلام ، فسر الملك بمزايا الدين الاسلامى ومحاسنه . ثم ودع أبا الحسن توديعـا حارا على موعـد منه بلقـاء آخـر . وعنـدما عـاد أبو الحسن إلى منـزل مضيفه عبـدالشمس علم بـأن الفتـاة "سلمـى" لم تـعـد حتـى الآن وأن عبدالشمس قـد خرج مع بعض النـاس يفتشون عنها ، وفجأة دخلت الفـرس الـدار بسرعة شديـدة وبدون لجام ، بينما كان أبو الحسن يتجول فى فنـاء الدار بعد صلاة الظهر ، فنظـر ابو الحسن إلى أصحابه مضطربا ثم قال : الله يعلم ما الذى حدث بها ؟ لا شك فى أن هـذه الفرس جموح ، ولـكنها لا تترك فارسها مطروحا ملقى على الأرض ، وكذلك اللجام فقد يمكن أن ينقطع أما أن يسقط فهذا مما لا يتصور . إنى ذاهب وراءها !

فقـال لخادم من خـدام عبدالشمس أن يأتى له بلجام آخـر ، فألجم الفـرس وركبها دون سرج ثم تركها على سجيتها تذهب حيث تشاء ، وعرف أبو الحسن من سرعـة الفـرس بأنهـا متعبة وأنهـا قـد سارت سيرا طويلا .

ومرت الفرس من غابة غناء كثيرة الأشجار ، فوقفت فجأة عند شلال بعد أن قطعت بضعة أميال من المسافة ، فرأى أبو الحسن أنه ليس طريقا صاعدا يؤدى الى أعلى ، فنظر إلى ما حوله ، ثم نزل من الفرس وشدها بشجرة وأخذ ينادى سلمى يهتف باسمها ولم يزل يفتش عنها وبناديها وقتا طويلا حتى تعب ، فجلس على حجر عند ذلك الشلال ليستريح قليلا ثم أدى صلاة العصر قبيل الغروب ، وبعد الصلاة سار الى الناحية التى يسقط منها الماء على شكل شلال سريع وكانت سلمى تستريح هناك على بعد بضعة أقدام تحت شجرة مورقة فرآها أبو الحسن نائمة . فما راعه الا تنين ضخم فى مثل ضخامة الإنسان وطوله حوالى أربع أذرع يقترب من الفتاة النائمة . فأخذ ابو الحسن يعدو نحوها عدوا سريعا، ويناديها ويهتف باسمها ، فلم تفق فأخذ بذراعيها وجرها. ففتحت سلمى عينيها صارخة مذعورة على هذا الحدث المفاجئ ، أما التنين الضخم فانه عندما رأى فريسته قد أفلتت منه أخذ يهسهس ويندفع إليها !

وفى أثناء ذلك كان ابو الحسن قد جرد سيفه من غمده وحين اقترب التنين من أبى الحسن رفع رأسه فتنحى أبو الحسن بسرعة كبيرة ثم ضربه ضربة أطارت برأسه . ثم قال لها وهو يغسل سيفه فى ماء الجدول : إنك لخرقاء ، أفى مثل هذا المكان يستريح الإنسان ؟! وكانت سلمى لا تزال خائفة مذعورة ترتعد وترجف ، فقالت له : لقد تعبت فجلست هاهنا فأخذتنى سنة من الكرى ولكنى لا أعرف كيف نمت ومتى ؟ !وقد جئت هنا أكثر من مرة قبل هذا ولكننى لم

أر تنينا مثل هذا أبدا ! ولولا أنقذتنى لنهشنى هذا التنين ! وأنت كيف وصلت إلى هنا ؟ !

إنك لتعرفين كيف وصلت ! ولكن قولى لى أنت لماذا تركت الفرس يعود بعد أن وصلت إلى هذا المكان الموحش ؟

فقالت له سلمى وهى تبتسم : من قال لك أنى تركته ؟ وإنما اسقطنى وراح .

فقال لها أبو الحسن فى لهجة خشنة : يبدو أنك تدربت فى ظروف سيئة وبيئة متخلفة ، ومن ثم أراك على شاكلة العرب الجاهليين سيرة وخلقا ، ولكن أولئك العرب الجاهليين مع كثير من المعايب والسيئات الموجودة فيهم ، كانوا يعتبرون الكذب وقول الزور جريمة خلقية عظيمة وخاصة مع الضيف ! اننى لم أصدق ولم يكن من الممكن أن أصدق حين رأيت الفرس تعود من عندك، بأنها أسقطت فارسها وتركته وعادت ! لأن هذه الفرس قد تدربت فى اسطبل أبى الحسن وتحت إشرافه ! انها لا شك عنيدة جموح ولكنها لا يمكن أن تخذل فارسها ! قولى بصراحة ، ألست أنت التى حللت اللجام ثم أرسلتها بعد ضربها وتخويفها ؟ !

فأطرقت سلمى برأسها وغضت بصرها وقالت : إذا كان هذا يسوؤك يا سيدى ! فانى أعاهدك على قول الصدق ولن أكذب بعد اليوم .

ـــ أنك فتاة فيها أشياء لا تعجبنى ، وهى لا تعجب أى مسلم .

ـــ ولن تستطيع أن تأمرنى بتغيير سلوكى وأخلاقى التى لا تعجبك ،

ولكنى أرجوك أن لا تغضب منى فقد كان من حقى أن أرتجل أنا لا أنت ، فأنا التى اقترفت الخطأ ، انى مرتجلة وأرجوك أن تركب أنت الفرس .

وبعكس ما كانت تتوقعه سلمى بهذه المناسبة ، رأت منه نفس الإهمال وعدم الاهتمام . فقال لها بلا مبالاة : لو لا مخافتى بأنك امرأة ولو بقيت وحيدة لأزدردك سبع من سباع هذه الغابة ، لما أعجبنى السفر معك فى مثل هذا المكان والوقت .

فأحست كأن نفسها قد تحطمت ومشاعرها قد جرحت فسكتت للحظات . ثم قالت : هل كان يحزنك لو أكلتنى تلك الحية العظيمة الخبيثة يا سيدى ؟

— ما كنت لأحزن لك أنت وحدك ، وانما يحزننى كذلك موت أى انسان من أبناء آدم .

— فلماذا خاطرت بنفسك من أجلى إذن ؟

— إن إنقاذ نفس انسانية من الهلاك فريضة على كل مسلم .

سكتت سلمى بعد ذلك وفجأة سمعنا صوت سنابك الخيل من بعيد ، فقال لها أبو الحسن : اسمعى أنهم لا يزالون يفتشون عنك حتى الآن . وبعد لحظات وصل عبدالشمس وأصحابه ، ولم يكن فى حاجة إلى أن يسأل منها تفاصيل ما حدث ، وإنما كفاه أنه وجد ابنته قد عادت إليه بخير وسلامة ، ولكن سلمى حكت قصة الحية العظيمة لأبيها ، وإنقاذ أبى الحسن إياها من شرها ، فشكره عبدالشمس على مساعدته إياها .

ولكنى أرجوك أن لا تغضب منى فقد كان من حقى أن أرتجل أنا لا أنت ، فأنا التى اقترفت الخطأ ، انى مرتجلة وأرجوك أن تركب أنت الفرس .

وبعكس ما كانت تتوقعه سلمى بهذه المناسبة ، رأت منه نفس الإهمال وعدم الاهتمام . فقال لها بلا مبالاة : او لا مخافتى بأنك امرأة ولو بقيت وحيدة لأزدردك سبع من سباع هذه الغابة ، لما أعجبنى السفر معك فى مثل هذا المكان والوقت .

فأحست كأن نفسها قد تحطمت ومشاعرها قد جرحت فسكتت للحظات . ثم قالت : هل كان يحزنك لو أكلتنى تلك الحية العظيمة الخبيثة يا سيدى ؟

ــ ما كنت لأحزن لك أنت وحدك ، وانما يحزننى كذلك موت أى انسان من أبناء آدم .

ــ فلماذا خاطرت بنفسك من أجلى إذن ؟

ــ إن إنقاذ نفس انسانية من الهلاك فريضة على كل مسلم .

سكتت سلمى بعد ذلك وفجأة سمعتا صوت سنابك الخيل من بعيد ، فقال لها أبو الحسن : اسمعى أنهم لا يزالون يفتشون عنك حتى الآن . وبعد لحظات وصل عبدالشمس وأصحابه ، ولم يكن فى حاجة إلى أن يسأل منها تفاصيل ما حدث ، وإنما كفاه أنه وجد ابنته قد عادت إليه بخير وسلامة ، ولكن سلمى حكت قصة الحية العظيمة لأبيها ، وإنقاذ أبى الحسن إياها من شرها ، فشكره عبدالشمس على مساعدته إياها .

﴿ ٥ ﴾

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بينما عبدالشمس على سريره فوق سطح داره ينام كالمستيقظ ، اذا بصوت حلو يرتفع فى أجواء المدينة ، فأعجبه ذلك الصوت وأطربه . . . لقد كان المؤذن ينادى لصلاة الفجر ، ففتح عينيه ، وجلس على سريره ، ثم أخذ يتثاءب ويتمطى لبعض الوقت ، ثم نظر نحو سلمى فوجدها لا تزال نائمة فى سبات عميق فأيقظها ، ثم نزل فى الفناء يستمتع بالهواء الطلق البارد ونسمات الفجر الحالمة .

أما أبوالحسن وصحبه فكانوا قد اجتمعوا واصطفوا فوق الأعشاب الخضر لأداء الصلاة ، يؤمهم أبو الحسن فقرأ بعد الفاتحة بعض الآى من الذكر الحكيم بصوت جميل حلو جذاب ، فسمعه عبد الشمس فأثارت كلمات القرآن الكريم بحرا متلاطما من العواطف والمشاعر فى قلبه ، فوقف معجبا مأخوذا يستمع إليه وإذا بجيرانه من العرب يستيقظون ويقفون موقفه هذا ويستمعون إلى كلام الله المجيد فى إعجاب وتأثر ، ويتأملون فى هؤلاء الشبان الذين جاءوا إليهم حديثا من موطنهم الأصلى بهذه العبادة الجديدة ، . . تغير عبد الشمس تماما قبل أن يبدأ الامام قراءته للركعة الثانية ، فصار وكأنه مسحور أو سكران . فتقدم تلقائيا نحو المصلين بضع خطوات ثم تراجع ثم وقف ثم تحرك مرة أخرى حتى رأى نفسه وقد اصطف مع المصلين تحت تاثير لاشعورى من العواطف والمشاعر ، فتبعه أصحابه كلهم كأنهم قد دفعوا دفعا نحو شبان قومهم ، وبعد أن تنتهى الصلاة فاذا بأبى الحسن يعانق عبد الشمس وإذا بعينى عبد الشمس تذرفان الدموع فرحا

وسرورا ، فيهنئه أبو الحسن وزملاؤه على تأثره بالإسلام كما يهنئون أصحاب عبد الشمس من العرب على ذلك .

قال عبد الشمس لأبي الحسن : إن لهذا الكلام لطلاوة وحلاوة وان لصوتك لسحرا ، من فضلك أريد سماع المزيد مما كنت تقرأ .

فيرد ابو ألحسن بأنه لم يكن صوتى يا سيدى ! وإنما هو تأثير كلام الله الحق .

فقال عبد الشمس : لا شك أن هذا الذى سمعته لا يمكن أن يكون كلام إنسان أسمعنى المزيد منه .

أشار أبو الحسن إلى واحد من أصحابه وكان اسمه طلحة ، . . يحفظ القرآن الكريم ، فجلس الجميع فى حلقة مستديرة ، وتلا طلحة سورة يسين فى جو عاطفى روحى أخاذ بصوت حلو جميل رقت وخشعت لها نفس عبد الشمس و نفوس أصحابه إلى أبعد الحدود .

وبعد تلاوة الآيات القرآنية تحدث أبو الحسن عن حياة الرسول ﷺ وسيرته وخلقه الكريم وسلط الضوء على شتى جوانب الإسلام ، ثم دعاهم إلى هذا الدين القيم الحنيف فأسلم عبد الشمس وأصحابه وآمنوا بدين الله الحق لأنهم كانوا قد سمعوا عن أمجاد العرب وعظمة الرسول ﷺ قبل ذلك كثيرا ، وبعد أن أعلن الشيخ عبد الشمس إسلامه وقرأ الكلمة الطيبة ، اختار لنفسه اسما إسلاميا جديدا هو عبد الله بدل عبد الشمس .

أما سلمى التى كانت تشاهد كل ما يجرى من خلف شجرة من أشجار

النارجيل ، فقد تقدمت على استحياء نحو والدها ، وقالت له : يا ابتاه هل للنساء أن يدخلن فى دين الله و يؤمن به ؟ فنظر عبدالله (عبد الشمس) نحو أبي الحسن مبتسما . فقال أبو الحسن : ان رحمة الله قد وسعت النساء والرجال على السواء .

فقالت سلمى : اذن غيروا اسمى أنا أيضا ، انى أريد أن أدين بالإسلام .

فقال لها أبوالحسن : أما اسمك فحسن ، ولا حاجة إلى تغييره ، وكفالك أن ترددى كلمة التوحيد .

فرددت سلمى الكلمة الطيبة قائلة : "لا إله إلا الله محمد رسول الله" . فدعا الله الجميع بأن يبارك فى اسلامها ويثبت أقدامها على دينه .

وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، وما هى إلا لحظات حتى كان المطر الوابل يغمرهم فيسرعون إلى داخل المنزل ، وما أن توقف المطر حتى كان القائد "دليب سنك" يأتيهم ليبلغهم بأن الملك فى انتظارهم.

فانطلق أبو الحسن مع "دليب سنك" وبقى أصحابه يتحدثون إلى عبدالله ويتجاذبون معه ألوان الحديث .

عاد أبوالحسن إلى أصحابه من البلاط الملكى عند الظهيرة ، وأخبرهم بأن الملك وبعض حاشيته يريدون شراء المزيد من الخيول العربية ، لذا فان السفينة سوف تعود بعد ثلاثة أيام .

رجاهم عبدالله (عبد الشمس) بالإقامة عنده لبضعة أيام أخرى إلا أن أبا الحسن أقنعه بضرورة السفر ووعده بسرعة العودة .

فقال عبدالله : اننا لا زلنا فى حاجة الى معرفة اكثر بالدين الاسلامى فحبذا لو تركتم طلحة هنا يعلمنا القرآن واصول الدين وأحكامه .

فقال أبو الحسن وهو ينظر إلى طلحة : إذا لم يكن لديه مانع يمنعه عن البقاء فلا مانع لدى بل ويسرنى أن يبقى بينكم .

فوافق طلحة على البقاء وأبدى سعادته وسروره بذلك ـ

وفى اليوم التالى خرج أبو الحسن وأصحابه ليعدوا أشرعة المركب ويشتروا المواد الغذائية اللازمة فى سفرهم ، فكما أشار "دليب سنك" وعبدالله فقد أنفق أبو الحسن جميع ما معه من المال فى شراء ثمانية أفيال وقدرا كبيرا من جوز الهند ملأ به السفينة .

وفى مساء نفس اليوم كان أبو الحسن يتجول فى حديقة منزل عبدالله حين سمع صوت أقدام من ورائه فالتفت فوجد سلمى واقفة ، وقد غطى وجهها الجميل الناضر قبل يومين هالة من الحزن والكآبة واذا بعينيها الجميلتين اللتين كانتا اكثر خلابة وسحرا من الكواكب الزهر قد استحالتا الى ينبوع للدموع المنهمرة .

فسألها فى شئ من عدم الاهتمام : ماذا تفعلين هنا يا سلمى ؟ فكأن هذا الإهمال واللا مبالاة من أبى الحسن لم تعجبها ، فحاولت أن تخفى دموعها إلا أنها اخفقت فى ذلك ففاضت واستعبرت باكية وهى تقول فى صوت كئيب محطم : أتسافر بعد غد يا سيدى ؟

ـ نعم ! ولكن ما بك ؟ لم تبكين ؟

ـ لا ! لا شئ : لا شئ أبدا .

لكن الابتسامة التى اختلطت بالدموع الحارة كان لا بد لها من أن تؤثر فى نفس أبى الحسن فقال لها : انك يا سلمى لا زلت كما كنت من قبل ، ولا أرى فيك أى تغيير حتى بعد الإسلام ، لا يجوز لك أن تبرزى الآن أمام الرجال الأجانب ، فان الحياء هو أجمل حلى للفتاة المسلمة .

ـ انك لا زلت حاملا على حتى الآن ، رغم انى غيرت ملابسى ، وأديت الصلاة كما أمرتنى ، وما خرجت من الدار منذ ثلاثة أيام ، أفلا يجوز لى أن أظهر أمام رجل مسلم ؟

ـ نعم : هذا لا يجوز أيضا ، وقد تركت طائحة عندكم وسيوضح لك واجبات المرأة المسلمة وفرائضها الدينية ، كما يعلمك أصول الدين وأحكامه .

فقالت سلمى: لست فى حاجة إلى تعلم آخر غير شئ ما تأمرنى به أنت ، إنى مستعدة لأن اقتحم بحرا من المهالك والأخطار من أجلك . اننى جاهزة لأن أرمى بنفسى مكتفة مكبلة من أعلى جبل على حكم منك ولا أبالى .

قال أبو الحسن : ما دام رضاى عزيزا عليك يا سلمى فاننى لا أريد منك شيئا غير ان تدخلى بكل جوارحك فى هذا الدين ، وأن تصطبغى بصبغته من الرأس إلى القدم . . أن المسلم الصادق لا يبتغى إرضاء أى انسان . وانما كل همه مرضاة الله ، والنزول عند أوامره الإذعان لنواهيه ، فانك بعد أن أسلمت قد دخلت ميدانا لا ينتهى فيه الكفاح والعمل ، كفاح وعمل مستمر لاحد له ولا قرار ، ان

الذى يدخل هذا الميدان لا يجوز له أن يسكب الدموع أو ينتحب . . على الانسان المؤمن أن يقتحم معركة الحياة المليئة بالمحن بقلب ذكى قوى لا يخاف ولا يتردد ، مضحيا بأكبر آماله وتمنياته .

يجب على الإنسان المؤمن الصادق فى دينه ان لا يشتكى الألم ، حتى ولو وخزت سهام الأعداء صدره ، ومزقته تمزيقا . . إنك الآن لو ذهبت الى بلاد العرب لوجدت نساءهم يودعن أزواجهن وإخوتهن وأولادهن بكل صبر وحماسة ليخرجوا مجاهدين فى سبيل الله ، وقلوبهم مطمئنة ، إنك لن تجدى واحدة منهن تجزع وتسكب الدموع . . لا بل لن تجدى واحدة منهن تبدو حزينة أو آسفة على فراقهم . . وليس من سبب سوى أنهن يفضلن رضاءالله على كل ما سواه . . إنك لو دخلت فى دين الله من أجل رضائى وعلى أمر منى فاننى أقول لك بكل صراحة ، ومع الأسف الشديد انك ما فهمت الإسلام وهدفه ومعانيه . إنك إذا أردت رضاء الله فعليك أن تعودى إلى المنزل ، وأنا أبعث إليك بطلحة ليبدأ فى تعليمك القرآن الكريم ، إننى لا أود منك أن تستقبلينى وأنت تصارعين أمواج البحر على بعد ميل أو أكثر من الساحل لتختبرينى فى فن السباحة . . لا أريد أن اكون فى حاجة إلى أن أفتش عنك فى الغابات والجبال . . وإنما يسرنى أن أرى بيت عبدالشمس وقد تغير تماما — بتغيراسمه ، وأن يعرف الناس أن فتاة مسلمة تعيش وتنشأ فى داره .

وهنا سألته سلمى وفى قلبها لآ مالٍ لا حصر لها : ومتي تعود إن شاء الله ؟

لا أستطيع أن أعين يوما بالذات ولكنى أريد أن أعود بعد أن أشترى صفقة من الخيول العربية التى أنوى الحصول عليها ، أما إذا رزقنى الله الخروج مجاهدا فى سبيله فقد لا أعود إليكم ثانية .

ومرة أخرى انتشرت سحب الحزن على وجه سلمى ، فقالت وقد ترقرقت الدموع فى عينيها : لا ! لا ! لا تقل هذا . . إنك سوف تعود الينا مرة أخرى باذن الله .

نعم . . انك اذا دعوت الله عز وجل فى غيابى بكل ايمان وإخلاص فليس مستحيلا عليه عز اسمه أن يعيدنى إليكم مرة أخرى . فقالت : إذا دعوت أنا . . ؟ ماذا تقول ؟ ! . . إننى لو كنت مستجابة الدعوة لما عزمت أنت على هذا السفر .

وفجأة . . انتبه ابوالحسن فرأى أنه قد أطال الحديث معها فقال فى لهجة فيها خشونة وجفاء : دعيك يا سلمى ، فلو أن دعوات نساء العرب كلهن كانت على شاكلة دعواتك ، فما كان لنور الإسلام أن ينتشر خارج حدود الجزيرة العربية .

فعادت سلمى وقد هدها الندم والخجل . . وفى طريقها إلى غرفتها كانت تردد — فى نفسها — هذه الكلمات : حقا إننى لحمقاء . . . لماذا قلت له كل هذا ؟

وبعد لحظات صعدت على سطح الدار ، فرأت الشمس على وشك الغوص فى أعماق البحر ، وقد بدت تلمع كما يلمع طبق حديدى حمى فى وهج النار ، ورأت فى السماء قطعا من السحاب ينعكس فيها الشفق الأحمر . . ونسمات من الهواء البارد الرطب

تهز أوراق شجر جوزالهنـد لتحدث موسيـقى حلوة خلابـة . . وفجأة تراءت لها فى الأفق سفينة عربية فتركز عليها نظرها ، واضطرب قلبها وأخذ يخفق سريعا فرفعت يديها داعية و هى تقول :

يا خالق البر والبحر . . ارحمنى واعطنى قلب المرأة المؤمنـة الصادقـة واهـدنى صراطا مستقيما يبلغني رضاه وعنـدمـا يعود إلى مرة ثانية لا يرى منى ما يغضبه .

﴿ ٧ ﴾

وفى اليوم الثالث كانت السماء قـد تلبـدت بالسحب ، وسلمى تنظر نحو البحر فى قلق ولهفة . . لقد كانت سفينة أبى الحسن تبدو لها وهى تشق عباب البحر ، كانها ترقص على أمواجـه المتلاطمـة ، فاذا برياح شديدة تثير الرعـد والبرق وينـزل المطر غـزيـرا ، وكلما اشتد المطر كانت السفينة تتضاءل أمام عينيها حتى اختفت عنها ، ولم تنجح كل محاولاتهـا لمنع دمـوعهـا ففاضت من عينيها غزيـرة وسالت على خديها ، حتى امتزجت بقطرات المطر فلم تـزل تناجى ربها وتقول : يا رب . . أنت الحفيـظ عليـه ، وأنت وحـدك القادر على سلامته ، وعودتـه إلينا .

كان اللقـاء الأخـير الـذى جـرى بـين أبى الحسن وسلمـى فى حديقـة المنـزل قد غير من أفـكارها وعـاداتها كثـيرا . . لقـد كانت حزينـة حقا بسبب الإهمـال وعـدم الاهتمام الذى أبـداه أبو الحسن إلا انها مع ذلك كانت تعتبره مثلا لأرفـع مستوى إنسانى . وقد أيقنت وتأكدت بأن الذى لا يـرضي بـه أبـو الحسن من أخلاقهـا إنمـا هي

الرذائل والسيئات لا غير .

فلم تظهر أمام رجل من غير المحارم من بعده أبدا . وكانت عندما رأت أبا الحسن وأصحابه قد تحركوا نحو الميناء وجهت سؤالا إلى نفسها : هل يمكن أن أحتل مكانة فى قلبه ؟ . . فكانت كلما تذكرت حديثه إليها ، استولت عليها هواجس اليأس أحيانا ، ولمحت أنوارا من الأمل تضيئ جوانحها أحيانا أخرى .

لم ينتشلها من أفكارها هذه إلا صوت أبيها العجوز عبدالله الذى سألها : ماذا كنت تعملين فوق سطح المنزل فى هذا المطر يا سلمى ؟

ــ لا شىء يا أبت ! إننى . . . . . . أنا . . . . . . وكانت تريد أن تختلق أى عذر إلا أنها تذكرت نصيحة ابى الحسن فصارحت اباها قائلة : انظر إلى سفينتهم التى ابحرت يا ابت .

فقال لها ابوها : لقد ارتحلوا منذ زمن ، وعليك الآن أن تغيرى ملابسك فان طلحة سوف يأتى بعد دقائق ويبدأ فى تعليمنا القرآن الكريم .

فقالت سلمى : واين تركته يا أبى ؟

ــ لقد كان فى منزل الأخ زيد و سيأتى حالا .

وخلال أيام ، وعقب الدروس التى تلقتها سلمى عن طلحة ، تبدل حالها تماما ، فأخذت تفضل مرضاة الله على كل شئ ، ولكنها كلما دعت ربها بعد كل صلاة، دعت أول ما تدعو لشخص أبى الحسن لا غير .

ومضت ستة أشهر على ذلك الحادث ، ولم تعرف سامى شيئا عن أخباره خلال هذه المدة ، فبدأت كآبتها تستحيل الى قلق واضطراب فكانت تصعد على سطح الدار صباحا ومساء . . وتتصور كل سفينة تبدو لها على صفحة البحر ، وكأنها تحمل إليها رسالة من أبى الحسن أو تبشرها بعودته . . وكانت تبعث خادمها أكثر من مرة إلى الميناء ليأتيها بخبر أبى الحسن ، فكان كلما عاد الخادم خائبا ، نظرت سلمى إليه بقلق ويأس وسألته : هل فتشت جيدا ؟ ! ألم يكن بين الوافدين أى عربى ؟

فيرد الخادم : لا يا سيدتى ! انهم قد جاءوا من مدينة كذا وكذا ، وقد فتشت جيدا فلم أجد بينهم عربيا . .

لقد كانت تعيش حياة من يخوض فى بحر من الخوف والرجاء ويتشبث بكل وسيلة ضعيفة كانت أو قوية فتقول للخادم : لماذا لم تسأل البحارة ؟ فلعل البعض منهم قد رآه أو رأى سفينة عربية فى ميناء من الموانئ او سمع عنها شيئا ! ؟ فيسرع الخادم مرة أخرى إلى الميناء بينما تأخذ سلمى فى بناء قصور جديدة من الأمانى والآمال مكان انقاض الأمانى والآمال المنهارة ، أما الخادم فيعود بنفس الوجه اليائس الذى لا ينبئ ألا عن الفشل والخيبة والحرمان . لتستحيل قصور الامانى والآمال إلى أنقاض واطلال . . وهكذا كانت أيام سلمى تصبح مع أمل جديد ، وتمسى وقد خاب هذا الأمل ، فكأن آمالها وأمانيها كانت تطلع بطلوع الشمس وتغرب مع غروبها ، وتستحيل خفقات قلبها إلى سيل منهمر من الدموع فى سكون الليل الرهيب . . لم تظهر اسرار قلبها لأحد ، إلا أن طلحة وأباها اكتشفا

ذات مساء من أمرهما ما رابهما كثيرا . . كان اليوم غائما ، ثم بدأ المطر غزيرا ، وكان طلحة وعبدالله يتحدثان فى بعض الشؤن . أما سلمى فكانت تشاهد هطول المطر وهى واقفة أمام شباك غرفتها .

فاذا بالرجلين يعرجان فى حديثهم إلى ابى الحسن ومهمته ، فقال عبدالله : الله وحده يعلم لماذا تأخر ، ولم يصل حتى الآن ، وقد مضت ثمانية أشهر منذ أن سافروا إلى بلادهم .

فقال طلحة : إذا كان الله عز وجل قد وقاه الحوادث البحرية فان هذا التأخير لا سبب له ، سوى أن يكون قد خرج مجاهدا فى سبيل الله .

وقال عبدالله : أخبرنى اليوم "دليب سنك" بأن سفينة ملبارية قد غرقت فى البحر على مسافة ثلاثين ميلا من هنا . ولم يبق من بحارتها وركابها إلا خمسة رجال . وقد وصلوا اليوم فى قارب من القوارب .

فقال طلحة : وكم رجلا كان على ظهرها ؟ .

— لعلهم كانوا عشرين رجلا ، فان السفينة كانت كبيرة جدا كما كان عليها بضائع تجارية كثيرة .

— وكيف غرقت السفينة ؟

إن البحارة عندما لاح لهم هدفهم أصبحوا لا يخفاون بأمر فاصطدمت السفينة بصخرة عاتية فتحطمت .

وكانت سلمى فى الغرفة المجاورة وقد طار بها الخيال بعيدا . . . وألهاها عن الرجلين وحديثهما . ولم تسمع من كلامهما سوى الجملة

الأخيرة "فاصطدمت السفينة بصخرة فتحطمت" فهزتها هذه الكلمات وصعقت وجمد الدم فى عروقها فصارت وكأنها جسم لا حراك به !

ارتفع صوت عبدالله الذى كان يتحدث إلى طلحة فى الردهة قائلا : إن هذه الصخور خطيرة جدا ، ولا تخلو سنة دون أن تصطدم بها سفينة فتتحطم . . . ويعتقد أهالى تلك المنطقة بأن هذه الصخور انما هى معابد لإلهة من آلهة الهنود .

فأخذت سلمى ترتعد ، بعد ما سمعت كلام أبيها ، ثم قامت وخرجت من غرفتها ومثلت بين يدى أبيها فقال لها أبوها ، وقد لاحظ وجهها الشاحب الحزين وعينيها الشاخصتين الكامدتين : ما لك يا ابنتى ؟ .

لم تستطع الفتاة أن تنطق بشىء إذ كانت تحت ضغط شديد من المشاعر والعواطف إلا أن نظراتها التى غمرها الحزن والألم كانت تقول بلسان الحال : إننى قد سمعت الذى تريد أن تخفيه عنى .

فسألها طلحة ، وقد أخذته الدهشة : ما بك يا بنيتى ؟

فارتجفت شفتاها وانتشرت سحب رقيقة من الدموع على عينيها الغائرتين وقالت بصوت متقطع : قل لى يا أبى متى غرقت السفينة (تعنى بها سفينة أبى الحسن) ومن الذى أخبرك بهذا ؟ . . . لماذا لا تتكلم ؟ . . . أرجوك أتوسل إليك . . . قل لى ماذا حدث . . . فاننى على استعداد لأن أسمع منك أسواء الأنباء وأهولها .

ثم تحدج صوتها وتقطع بسبب النحيب الشديد وحالة التشنج التي أصابها .

فرد عليها أبوها وقد اضطرب : كنا نتحدث يا ابنتي ، عن سفينة ملبارية ، وقد أخبرني بغرقها "دليب سنك" اليوم .

ولكن سلمى لم تمهل أباها ليكمل جملته فقالت : لا ! لا ! انك تخفي عني شيئا . . . انني لا أريد منك تسلية تخدعني بها . ثم أسرعت إلى غرفتها وهي تبكي وتنتحب .

فلم يستطع الوالد العجوز أن يفهم ماذا تريد ابنته . فنظر إلى طلحة بنظرات الاعتذار ، ثم دخل غرفة سلمى فوجدها منكبة على سريرها وهي تبكي وتنتحب . فحزن عبدالله لحزن ابنته وجلس بجانبها يربت على رأسها ويحنو عليها ثم قال لها وهو يلاطفها : ما بك يا بنيتي ؟ !

فعدلت سلمى من جلستها ومسحت دموعها ، ثم قالت : لا شيء يا أبت ، عفوك يا والدي ! إنك لن تراني باكية بعد اليوم .

ـــ ولكن ما سبب بكائك هذا ؟ ومثل هذه الأنباء نسمعها كل يوم . . . ما لنا وغرق السفينة الملبارية ؟

امعنت سلمى النظر في وجه أبيها واحست ببعض الطمأنينة ، ثم قالت : أحقا ما تقول يا أبت ؟

فقال لها عبدالله وقد تبرم : ولم أكذب عليك يا ابنتي ؟ ما كنت تشكين من قبل فيما أقوله لك ، فما الذي حدث حتى لا تصدقينني اليوم وما دمت لا تصدقينني فهذا طلحة فتأكدي منه .

فأطرقت برأسها كالخجلى ثم قالت : اعتذر إليك ، وأرجو عفوك يا أبي ، فقد ظننتك تتحدث عن سفينة عربية .

أفتعتقدين يا ابنتي بأنني لو سمعت شيئا كهذا عن سفينة عربية أنني أكون أقل حزنا منك .

وفى المساء وبينما كان الخادم يؤدى صلاة العشاء ، بعد أن قدمت لطلحة وعبدالله طعامهما ، والخادمة مشغولة بغسل الأوانى ، فاذا بطارق يطرق الباب فقالت سلمى للخادمة : لعل زيدا أو قيسا يطرقان الباب ، فهل أغلقت الباب الرئيسى ؟

قالت الخادمة : من الذى يمكنه أن يأتى فى مثل هذا المطر ؟ وقد أغلقت الآن الرتاج ، فلو كانا يريدان الزيارة لأتيا عند صلاة المغرب إضافة إلى ان زيدا مريض ! وأما قيس فرجل عجوز وأراه قد أدى الصلاة فى منزله ثم نام .

ـــ فقالت سلمى : ومع ذلك فان أحدا يطرق الباب .

ـــ إنما هو وهم منك يا سيدتى ؟ ولعل الرياح هى التى تهز الباب .

ـــ لا ، لا ! إنى أسمع أحدا يتحدث . . . لعله هو . . . أنا ذاهبة لأرى . بدأ قلب الفتاة يخفق بسرعة ، وكان الظلام شديدا يستحيل معه أن يرى الناظر شيئا بعيدا ، ورغم ذلك وبشىء من الصعوبة توجهت نحو الباب الرئيسى فى ضوء البرق المتلألىء .

وحين لم تجد أحـدا على الباب تمزق قلبهـا يأسا ، فأرادت أن ترجع أدراجها وإذا بشخص يدفع البـاب بشدة ، وهو يقول : هل فى الدار أحد ؟

بدت وكأن قدميها قد تسمرتا على الأرض فلم تزل ذاهلة ساكتة لبعض الوقت ثم سارعت إلى البـاب وفتحته فرأت رجلا طويلا واقفا أمامها يقول لها دون ان يتبين شخصها :

ـــ أهذا هو منزل عبدالله ؟

وقبل أن تحرك سلمى شفتيهـا ، ومض البرق الخاطف فتبينهـا أبو الحسن فعرفها وعرفته فدخل الباب وهو يقول : أنا أبو الحسن ! آسف يا سيدتى ! لازعـاجكم فى مثـل هـذا الوقت ، فلقد خرجت فى المطر وابتلت ثيابك .

فقالت سلمى فى نفسها : ليتك تستطيع أن تعرف مقدار ما أجده من الفرح والسرور فى قطرات الماء هـذه التى بللت ثيابى ، ثم قالت لأبى الحسن وهى تنظر نحوه تفضل !

كان طلحة وعبدالله قد سمعا صوته فعرفاه، فنهضا من مكانهما ، وخفا لاستقباله فى الردهة، فرحب به عبدالله قائلا : من ؟ أبو الحسن يا أهلا بك ومرحبا .

فقال أبو الحسن وهو يضع قدمه على درج الردهة : نعم . . . أبو الحسن يا سيدى وآسف جدا حيث أزعجتكم فى مثل هذا الوقت.

وسأله طلحة قائلا : لعلك بخير يا أبا الحسن وأين زملاؤك ؟

ـــ نعم ، بخير وعافية ، أما زملائى فقد تركتهم فى السفينة ولم أكن أعلم بأننى سوف أمر بكل هذه المراحل وأنا فى طريقى إليكم ، فقد زلت قدمى مرة وعثرت مرتين حتى سقطت فى الجدول ثم طرقت أبواب خمسة منازل وكل مرة أظنها منزلكم كما أن بعض الكلاب الوفية قد استقبلتنى بترحابها المعتاد فى منزل من هذه المنازل . فنادى عبدالله ابنته سلمى التى كانت لا تزال واقفة ذاهلة خارج الردهة . وقد امتزجت قطرات المطر بحبات دموعها ، فأخذت تغسل خديها الورديتين إلا أن تلك الدموع كانت دموع الفرح والسرور على لقاء الحبيب . فانتبهت على صوت أبيها فأسرعت تدخل الردهة قائلة : نعم حاضرة يا أبى !

اذهبى يا ابنتى . عجلى باحضار الطعام لأبى الحسن ولسائر الضيوف فانى ذاهب إليهم لأرجع بهم ولكن قبل كل شىء احضرى طاقما من الثياب لأبى الحسن ليستبدل ملابسه .

فقال أبو الحسن : لقد تناولنا طعام العشاء ، ولا داعى لأن تتكلفوا الآن .

وبعد أن غير أبو الحسن ملابسه انشغل بالحديث مع طاحة وعبدالله إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأخبرهما أبو الحسن عن سبب تأخره فقال : اننى كنت قد بعثت فى مهمة إلى افريقيا عقب وصولى إلى البصرة .

ولم يمض أسبوع على عودة أبى الحسن حتى كان هو وسلمى قد أصبحا زوجين سعيدين وذلك بعد أن أبدى كل منهما رغبته فى عقد الزواج هذا وسبقه رضا عبدالله بذلك .

﴿ ٨ ﴾

وبعد مرور ثلاث سنوات على عقد الزواج كان أبو الحسن قد وفق فى بناء مسجد عظيم لإقامة الصلوات إلى جانب منزل فاخر لأسرته ، وتبعه بعض أصحابه فبنوا لإنفسهم منازل وعمروها ، وخلال خمس سنوات . ولجهود أبى الحسن وطلحة وزملائهما فى مجال الدعوة والتبليغ دخل عدد لا بأس به من الأسر المحلية فى دين الله ، فقام أبو الحسن ببناء مدرسة لتربية أولاد المسلمين وتعليمهم ، وفوض مهمة التدريس إلى طلحة .

تقدمت تجارة أبى الحسن وازدهرت بمساعدة صهره عبدالله ، ورزق بولد فى السنة الثانية من الزواج سماه خالدا ، كما ولدت له سلمى ابنة فى السنة الرابعة سماها (ناهيد) وأما الولد الثالث الذى ولد بعد السنة العاشرة من زواجهما فقد توفاه الله قبل أن يتجاوز عمره الشهر الثالث . أما عبدالله أبو سلمى فقد توفى بعد أن أصيب بحمى موسمية امتدت لبضعة أيام وكان خالدا إذ ذاك قد بلغ السابعة من عمره ، كما أن ناهيد كانت قد بلغت السنة الخامسة من عمرها .

وكان أبو الحسن الرجل المسلم الصالح يتمتع بأنواع من نعم الله عليه . فقد اصبح أغنى أغنياء المدينة ، كما كان اسعد الناس بزوجته الصالحة وأولاده البررة . الا أن هذا التنعم لم يكن يمنعه عن الخروج من البيت واقتحام المخاطر والجهاد فى سبيل الله . . فقد كان يخرج كل عام للحج ويقطع مسافات بعيدة فى البر والبحر ، وتوالى خروجه مجاهدا فى سبيل الله خمس مرات مع الجيش الإسلامى

المجاهد المقاتل فى آسيا الصغرى وافريقيا الشمالية .

وكان كلما عاد من الحج أو الجهاد تفرغ لأولاده يعلمهم الفروسية والفنون الحربية الأخرى وأصول الدين الإسلامى وكان خالد ابنه البار يحقق آمال أبيه فى الفروسية والمسايفة والرمى والملاحة وغيرها من الفنون الحربية .

وكذلك ناهيد ، فانها كانت قد اتقنت الرماية والفروسية وركوب أعند الخيل ، وهى لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها وكان طلحة يعترف بذكائها اللماح وتقدمها الباهر فى ميدان التربية والتعليم .

وكان أبو الحسن على صلة طيبة مع الملك ، كما كانت الملكة قد أتخذت سلمى صديقة لها منذ زمن طويل ، وكانت تبعث بالمحفة مرتين فى الأسبوع لتأتى بسلمى وابنتها ناهيد إلى القصر الملكى . وكذا الأميرة فانها كانت صديقة وفية لناهيد بل أنها لم تكن تتردد فى الذهاب إلى بيت ابى الحسن وزيارة صديقتها فى أية لحظة .

أما الأمير فقد كان أكبر سنا من خالد بأربع سنوات ، إلا أنه — مع ذلك — كان يعتبر خالدا نموذجا مثاليا يستأهل اتباعه .

فى يوم من الأيام ، تحدث "دليب سنك" إلى الملك عن كفاءة خالد ومهارته الحربية الممتازة ومدحه وأطراه كثيرا ، مما جعل الملك يسأل — هل يستطيع أن يبارى ابننا الأمير .

فرد عليه "دليب سنك" : يا مولاى أن سمو الأمير قد نشأ وترعرع فى مهد النعمة والترف وأما خالد فهو ابن لجندى مجاهد .

ـــ ولكنه أصغر منه بكثير .

ـــ فأجاب "دليب سنك" : مولاى لو لم تكن نساء العرب يربين أولادهن كما ربت سلمى خالدا ابنها ، لما انتصر العرب على نصف الدنيا اليوم . . . لقد سمعت أن أمهات العرب لا يترددن فى ارسال أولادهن مجاهدين فى سبيل الله ، وأعمارهم لم تتجاوز الأربع عشرة سنة .

فسأل الملك : كم عمر خالد الآن ؟

ـــ مولاى ! قد يكون اثنتى عشرة سنة .

ـــ وما هى الميزة التى توجد فى هؤلاء الأولاد ولا توجد فى أولادنا ؟

فقال له "دليب سنك": مولاى أخشى أن يسوءك أو تغضب على .

فقال الملك : قل ولا تتردد .

ـــ مولاى ! هناك فرق جوهرى بيننا وبينهم ، فنحن نعترف بكثير من الآلهة وبالإضافة إلى ذلك فان كل قوة من قوى العالم تستطيع أن تقهرنا وتخوفنا فنخر لها ساجدين . وأقول على سبيل المثال بأننا إذا واجهنا جبل يعوق طريقنا ويصعب علينا تجاوزه أو صعوده لا نحاول أن نقهره أو نختبر قوتنا لقهره وتسخيره والانتصار عليه وانما نعتبره إلها يستحق أن نسجد له .

وأما هؤلاء القوم فانهم لا يعترفون إلا بالله الواحد القهار ولا يشركون به شيئا ، إنهم يعتبرون الشرك بالله أكبر الكبائر وأنجس المعاصى ، إنهم لا يسجدون لأحد سوى الله ، ولو كان أقوى الأقوياء فلا غالب عندهم فى الكون إلا الله عز وجل ، وكذلك فان هؤلاء

المسلمين يؤمنون بأن الموت ليس نهاية الإنسان ، وانما هو معبر يعبره كل واحد ثم يبدأ حياة جديدة .

وقد أخبرنى أبو الحسن يوما بأن خالد ابن الوليد أحد كبار القادة العسكريين المسلمين كان يزحف نحو سوريا فكتب إليه حاكمها يقول : إنك انما تريد الاصطدام بجبل . إن جيشك لا يزيد عن أربعين ألف جندى ، أما الجيش الذى عندى فلا يقل عن مائتين وخمسين ألف فارس . وقد تسلحوا بأجود السلاح وأفتكه ، فرد عليه قائد الجيش الإسلامى : إننى على علم بقوتك العسكرية ولكنى أظنك تجهل شيئا واحدا وهو أن جنود الإسلام يتمنون الموت أكثر بكثير مما يحب جنودك الحياة .

فقال الملك : يا "دليب سنك" أود أن يتولى أبو الحسن تربية الأمير وتدريبه العسكرى ، فاتصل به ، وقل له فانه إذا وافق على هذا فنحن مستعدون لأن ندفع له تعويضا معقولا .

فوافق أبو الحسن على أن يقوم بتدريب الأمير ولكنه اعتذر أن يقبل أجرا مقابل ذلك .

بعد عامين من تدريب متواصل للأمير ، قال أبو الحسن للملك : إن ولدك أيها الملك يستطيع الآن أن ينافس أو يتحدى أفرس الشبان فى بلادك .

فسأله الملك : أريد أن أعرف إذا كان يمكن له أن يتحدى خالدا فى الرماية والفروسية أم لا ؟

فأجاب أبو الحسن : أن خالدا قد مهر في الرماية في مرحلة كان الأمير يقضي حياته في اللهو واللعب . لقد أتقن خالد الفروسية والركوب على ظهور الخيل حين كان ابنك يستمتع بالركوب على عواتق الخدم . إن خالدا جندي وفارس بفطرته وطبعه . أما الأمير فهو بفطرته تربى في مهد الإمارة .

— وكيف الأمير في المسايفة ؟

— إنه أكبر سنا من خالد ، وسواعده أقوى من سواعده . ولم أرهما يتبارزان في هذا المجال إلا أنني أعتقد أنه أحسن من خالد في المبارزة بالسيوف .

فدعا الملك ابنه وسأله قائلا : هل أنت مستعد لتبارز ابن استاذك بالسيف ؟

فقال الأمير: لا ، يا أبت لأنه أخي الأصغر، فان غلبني يخزيني . وإن غلبته يخجلني—أن غلبة الصغير على الكبير قبيح ، وأما تغلب الكبير على الصغير فأقبح .

《 ٩ 》

مضى ثمانية عشر عاما على زواج أبي الحسن : وكان خالد قد بلغ الستة عشر عاما ، أما ناهيد فكانت قد أكملت الأربعة عشر ربيعا من عمرها ، ومع تولي الوليد بن عبدالملك امر الخلافة في دمشق بدأت الفتوح والانتصارات الإسلامية الجديدة تتسع وتنتشر شرقا وغربا .

وفى يوم من الأيام وصل إلى ميناء "سرنديب" سفينة لتجار من السند يرافقهم تاجر مسيحى من أهل عمان ، فجرى حديث بين تجار السند وبين عرب "سرنديب" فأخبرهم السنديون عن الفتوح والانتصارات الإسلامية الأخيرة ، التى تمت فى تركستان وافريقيا الشمالية ، فأيدهم ذلك التاجر المسيحى العمانى القادم من البلاد العربية حديثا ، وكان أبو الحسن وبعض أصحابه يتأهبون للحج وزيارة الحرمين الشريفين ، فكان الرغبة للجهاد فى سبيل الله تلاقت مع الشوق والحنين إلى زيارة الحرمين بعد سماعهم لهذه الأخبار .

وكان مما يرغب فيه الملك دائما الاستماع إلى أحاديث التجار الوافدين وقصصهم واخبارهم عن الممالك والبلاد النائية التى لم يكن يعرف عنها شيئا ، وحتى أسماءها . فلما سمع عن الفتوح الإسلامية الأخيرة دعا أبا الحسن إلى بلاطه وأبدى له عن رغبته فى إرسال بعض الهدايا وبعض التحف الذهبية والجواهر إلى خليفة المسلمين وأمير العراق . فقال له أبو الحسن : يسعدنى ذلك أيها الملك فلا شيء أحب الى من أن أذهب بهداياك إلى أمير المؤمنين ووالى العراق .

أما تجار السند فانهم عادوا الى بلادهم بعد أن باعوا بضائعهم واشتروا بدلها بضائع محلية جديدة ـــ وعقب عودة هؤلاء التجار أخذ أبو الحسن وأصحابه يستعدون للسفر إلى الحرمين للحج والزيارة وكان عدد الحجاج العرب أكبر فى هذه المرة إلى جانب عدد لا بأس به من الحجاج المسلمين المحليين الذين دخلوا فى دين الله حديثا .

واستخلفوا طلحة وثلاثة من العرب الآخرين للإشراف على المنازل العربية التى يذهب أهلها للحج . وقد اصطحب البعض منهم زوجاتهم وتركوا أولادهم الصغار عند طلحة بينما لم يصطحب البعض منهم أحدا من أسرته .

كان أبو الحسن يعتزم فى هذه المرة أن يصطحب زوجته وأولاده إلا أن زوجته سلمى مرضت فجأة قبل موعد السفر بثلاثة أيام فاضطر إلى أن يعدل عن إرادته .

أما خالد الذى كان يتحفز للخروج مجاهدا فى سبيل الله فقد كان حاله حال فرخ الصقر الذى بدأت تظهر حواصله ، وأخذ يحاول أن يطير ويخفق بجناحيه ، ولكن مرض الأم حال دونه هو الآخر ، ومنعه من الخروج وكان عزاؤه عن هذا الحرمان المفاجئ هو وعد ابيه بارساله للسياحة الى بلاد العرب بعد عودته من السفر .

وفى يوم الوداع كانت سلمى تعانى من الحمى الشديدة ورغم ذلك لم تلجأ إلى سريرها بل ظلت تساعد زوجها على الاستعداد للسفر فقالت له قبل أن تودعه فى ضراعة والحاح : إننى لست مريضة يا أبا الحسن خذنى معك ولا تنس وعدك .

فقال لها أبو الحسن بلهجة كئيبة : لا يا سلمى ! إن ركوبك السفينة مع هذه الحمى الموسمية تضرك أكثر . فاذا برئت باذن الله ، فسآخذك معى فى المرة القادمة ، وقد تركت ناهيد وخالدا يشرفان على علاجك كما أن طلحة سوف يعتنى بك اعتناء خاصا .

فقالت وقد استعبرت باكية : لا ! لا بد أن تأخذنى معك يا

أبا خالد ! فانني، على استعداد لأن أتحمل معك كل شدائد السفر وآلامه . قال أبو الحسن وهو يجس نبضها : لا تلحى على يا سلمى فان الحمى قد اشتدت واحمر وجهك إضافة إلى أنك ما سافرت بالبحر من قبل ، وسوف أعود عاجلا إن شاء الله .

لا يا أبا الحسن ! إنى أعلم أن سفرك هذا يكون طويلا ، ولعلى لا أستطيع أن أنتظرك كثيرا . . . قالت ذلك وهى تبكى .

فقال لها أبو الحسن ، وقد اعتراه حزن عميق : اتبكين يا سلمى ؟ وقد قلت لك قبل سنوات أن نساء المسلمين لا يودعن رجالهن المجاهدين وهن يسكبن الدموع .

فكأن هذه الكلمات السحرية قد أثرت فى نفسها فمسحت دموعها وحاولت أن تبتسم وهى تقول : إننى لا أحزن على فراقك أو خروجك مجاهدا فى سبيل الله ، وإنما كنت أبكى على عدم استطاعتى الخروج معك فى سبيل الله ! فلو أنك أخذتنى معك للجهاد لما أمكن لك أن تلومنى أو توبخنى ، أننى أستطيع يا أبا الحسن أن أقف بجنبك فى وجه سيل منهمر من السهام ، ولكننى لا أحتمل أن أصعد فوق سطح الدار صباح مساء لأنظر نحو البحر منتظرا عودتك .

فقال لها : إن هذا النوع من الانتظار والصبر هو جهاد النساء، فما لا يستطيع الرجال أن يفعلوه وهم فى ميدان الجهاد ، يمكن للنساء أن يقمن به وهن فى دورهن ، إنه لا يمكن لنسائنا أن يصبحن خالدا أو المثنى رضى الله عنهما ، ولكن يمكن لهن أن يصبحن أمهاتهما وينجبن أمثالهما ، إن جنودنا اليوم يقاتلون فى أماكن بعيدة جدا ،

ولكن حبهم لهذه الغربة واقتحام المعارك القاسية إنما يرجع إلى هؤلاء النساء المؤمنات اللواتى يقمن بدور الازواج والأمهات والأخوات ، إن ثقة هؤلاء الرجال المجاهدين بهؤلاء النساء المسلمات لا تترك لهم المجال لأن يفكروا فى إخوانهم وأخواتهم وأولادهم الصغار .

ما رأيك يا سلمى فى الجندى الذى يعتقد بأن زوجته قد بكت على فراقه حتى عميت أو أن أولاده الصغار يهيمون متشردين فى الأزقة والشوارع فانى له أن يضحى بنفسه راضيا باسما ؟

ولنفترض أننى لا أعود إليك أفلا ترسلين خالدا للجهاد فى سبيل الله ، كما تبعث أمهات العرب أولادهن للجهاد ؟

فقالت سلمى : تأكد يا أبا الحسن كما أنك لا تحب أن تكون أبا غير صالح فكذلك لا أحب أن أكون أما غير صالحة .

وفى المساء تحركت سفينة أبى الحسن ، فصعدت سلمى فوق سطح الدار وأخذت تنظر نحو البحر ومعها ابنتها ناهيد ، فحاولت أن تمسك دموعها ولكنها كانت غزيرة فلم توفق إلى ذلك .

فقالت لها ناهيد : أتبكين يا أماه وقد وعدت أبانا بأنك لن تسكبى الدموع أمامنا على فراقه .

فقالت لها سلمى وهى لا تزال على السطح تمسح دموعها : يا ليتنى أملك نفسى يا بنيتى ! إن قلبى أضعف من قلب أبيك .

فاجابتها ناهيد وهى تجسس نبضها : لقد اشتدت الحمى عليك يا أماه ويجب أن تستريحى الآن على السرير داخل الغرفة .

فى بلاط سرنديب

اعتلى ملك سرنديب عرشه وقد جلس من حوله الكبار من حاشيته على كراسى من الأبنوس حسب درجات كل منهم ، فكان على الكرسى الأول من اليمين ولى العهد الأمير (أودى رام) وكان شابا جميلا رشيقا ذا هيبة ورهبة ، بينما اصطف بعض رجال الحاشية وراء الكرسى صامتين مطرق رؤسهم وقد وضعوا أيديهم على صدورهم — وإذا بالحاجب يدخل البلاط فيؤدى التحية ثم يعلن قائلا : يا صاحب الجلالة ! (دليب سنك) يستأذن فى المثول بين يديكم . فيبدو القلق والاضطراب على وجه الملك ويقول : وهل عاد (دليب سنك) ؟ وأين أبو الحسن وأصحابه ؟

الحاجب : مولاى ! ليس معه أى واحد منهم غير شاب عربى وهو أيضاً يرجو إذن مولاى للمثول بين يديه .

فقال الملك بشيء من القلق : على بهما ! وأسرع .

يخرج الحاجب وبعد بضع دقائق يدخل (دليب سنك) ومعه شاب عربى لا يزيد عمره عن عشرين أو اثنين وعشرين عاما ، وكان (دليب سنك) يحمل طبقا فضيا وضع فيه علبة ذهبية وخنجر ذا مقبض متلألئ مرصع بالجواهر ، توقف (دليب سنك) ثلاث مرات بين الباب والعرش ثم تقدم مطرقا رأسه فوضع الطبق أمام الملك ، ثم

وقف بين يديه وقد طوى يديه ، أما الملك وولى العهد وبقية الحاشية فلم يحفلوا به وانما كان كل اهتمامهم بذلك الشاب العربى المرافق له فظلوا ناظرين إليه طوال الوقت .

إن العصر الذى ترجع إليه قصتنا هذه ، هو العصر الذهبى فى تاريخ ابناء الصحراء العربية فان الأمواج المتلاطمة من الفتوح والانتصارات العربية الإسلامية كانت قد أطاحت بعروش الكفر والضلال وزعزعت بنيان القلاع والحصون التى كان الباطل يلجأ إليها ويلوذ بها ، وكانت هذه الأمواج المتلاطمة لجيوش الإسلام قد بدأت هجومها الثانى لتجرف بأنقاض الكفر والباطل ، وكان خيل المسلمين قد وطأت نعالها أرض بلاد الترك وأرمينية وإفريقيا الشمالية ، وكان تيار هذه الفتوح والانتصارات الباهرة قد وصل إلى سواحل مكران من شبه القارة الهندية أيضا ، كان هذا هو العصر الذى تعود فيه — سكان البلاد المجاورة إذا لاح لهم أى عربى ، أن يروا فى جبينه سعادة الاسكندر اليونانى وفراسة أرسطو وهيبة سليمان وجلاله . إن الشعب المتخلف الذى كان يعيش بالقتل والغارة على بعضه البعض كان قد أصبح شعبا قويا قاهرا ، وحقق عزة وكرامة لم يتحققا إلى اليوم لأية أمة من الأمم .

إن هذا الشرف وهذه العزة والكرامة لم يكن من سبب سوى الإسلام . لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم سكان الجزيرة والصحراء العربية فأعزهم بالإسلام وأكرمهم به ، حيث بعث فيهم رسولا منهم وشرفهم فجمع الرسول ﷺ شملهم ، ووحد كلمتهم ،

وكون أمة واحدة من شتات القبائل المتحاربة المتعادية فانتصرت على العالم المتحضر فى ذلك الوقت بسرعة منقطعة النظير وانطلقت مبشرة بدين الله الخالد ومجاهدة فى سبيل الحق .

إن ذلك الشاب العربى الذى كان واقفا فى بلاط ملك (سرنديب) لم يكن إلا من سلالة أولئك المجاهدين الذين كانوا قد أرغموا المملكتين العظيمتين فى الشرق والغرب فى معركتى اليرموك والقادسية التاريخيتين .

كان هذا الشاب من أولئك الشبان الذين إذا نظر الإنسان إلى صورة أحد منهم لم يكن فى حاجة لأن يفتش أو يبحث عن سيرته . إن الملك وحاشيته كانوا قد عرفوا آلافا من شمائله ومناقبه بنظرة واحدة . . . تقدم هذا الشاب بضع خطوات دون أن يحفل بالملك أو بلاطه ولاحظ الحاضرون أن كل حركة من حركاته ؛ وكل خطوة من خطواته ، كانت تدل على إيمان بالله قوى وثقة بالنفس لا حد لها وإذا بشفتيه تتحركان وينصت الحاضرون . . . إنه حياهم بصوت رنان استمر يدوى فى آذانهم بعض الوقت فرد التحية عليه ولى العهد وقام من كرسيه مبتسما وقام بقيامه جميع الحاشية ، فصافحه الأمير فتبادر الكبار واحدا بعد الآخر يصافحون الشاب العربى كأنهم قد نسوا ملكهم وتقاليده فى البلاط . وقدم له ولى العهد كرسيا ليجلس بجواره ، وبدأ يتحدث إليه باللغة العربية الركيكة المتقطعة ، وسأله عن اسمه .

فقال الضيف العربى : الزبير .

ـــ ومن أين جئت ؟

ـــ من البصرة .

ـــ وهل تعرف شيئا عن أبى الحسن وأصحابه ؟

ـــ لا ، ولكننى أخشى أن يكون قد حدث لهم حادث فى الطريق

فاغبر وجه ولى العهد وغطاه سحب من القلق والهم .

وكأن الملك لم يستطع أن يفصل بين رضاه وغضبه على ما فعله ولى العهد ، فوقف حائرا دون أن يقرر شيئا ، وكانت الحاشية قد التفت تماما حول الكرسيين اللذين شغلهما الأمير والشاب العربى "الزبير" ونسيت تقاليد البلاط التى تقضى بالالتفات كل الالتفات إلى العرش الملكى . . . كان هذا الوضع غريبا وجديدا بالنسبة للملك إلا أنه بعد أن سمع الكلمات العربية الركيكة من لسان ابنه سره ذلك فتغلب رضاه على الغضب والمضض وأخيرا خاطب الزبير قائلا : لقد سررنا بزيارتك أيها الشاب العربى .

فقال له الزبير : شكرا وإن خليفة المسلمين ووالى العراق يقرآنك السلام . . . نطق بهذه الجملة بلهجة تجمع بين العربية واللغة المحلية لسرنديب فابتسم الملك وولى العهد أما الحاشية فاندفعوا فى الضحك .

فقال الملك : من أين تعلمت لغتنا ؟

فأجاب الزبير ، وهو يشير إلى (دليب سنك) هذا هو أستاذى وللمرة الأولى اعتنى الملك والحاشية بأمر (دليب سنك) .

فقال له الملك : حسنا يا دليب . هل عرفت شيئا عن أبي الحسن ؟

فقال (دليب سنك) : أيها الملك لم تذهب سفينة من سفننا التجارية إلى أى ميناء عربى هذا العام — وكما نعرف ، فان أبان الحسن وجماعته كان لهم أقارب فى البصرة ومكة المكرمة ومدينة المنورة ودمشق ولكن جميع هؤلاء الأقارب قد أخبرونى بأنه لم يصل أى واحد منهم للحج ، وقد بحثت عنهم فى كل مدينة من هذه المدن فى طريق عودتى ، ولم أعثر على أى أثر لهم ، ويبدو لى أن سفينتهم قد أصيبت بحادث قرب سواحل السند ، وأن الهدايا التى بعث بها الملك إلى خليفة دمشق ووالى العراق لم تصل إليهما ، ولكنهما مع ذلك كانا يشكران الملك . وقد جئت بهذه الهدايا لجلالتكم من عندهما . إن هذه العلبة الذهبية تحوى جوهرة وقد بعث بها خليفة دمشق ، وأما هذا الخنجر فقد بعث به والى العراق ، وقت جئت بثمانية من الخيول العربية أربعة منها أبيض اللون وقد بعث بها الخليفة وأما الأربعة الباقية منها وهى أسود اللون فقد بعث بها والى العراق . وقد أدخلت كلها فى الأسطبل الملكى .

انحنى الملك وأخذ العلبة ثم فتحها ، واستمر يمعن النظر لبعض الوقت فى الجوهرة اللامعة ثم أخذ الخنجر وبدأ يثنى على مقبضه ثم

قدم كلتا الهديتين إلى ولى العهد وهو يقول : أنظـر يا ولى العهد هذه هدية ملك يفلح حديده كل حديد ، وأن ملكه يحوى الكثير من الأنهار والجبال والبحار . ولـديه جنود يعتبرون القلاع الحصينة كأنهـا بيوت صنعهـا الأطفـال من الرمـال ليلعبوا بهـا ، وأنهم يعبرون الأنهـار على ظهور الخيل. وهذا الخنجر قد بعث به والى العراق الذى يرتعد كبار الملوك خوفا منه .

أما ولى العهد فقد طار مع الخيال إلى جهة أخـرى . فنظـر إلى الهديتين دون أن يعبأ بهما وحولهما إلى الوزير . . . أن هـذه الهدايا التى كان ملك سرنديب البسيط القلب يعتبرها أغلى من خزائن الأرض كلها تداولها الحاشية فدارت فى أيديهم حتى عادت إلى الملك الـذى كان يمسح بمقبض الخنجر مرة ويفتح العلبة مرة أخرى ، وأخيرا نظر إلى الزبير قائلا : إننى لأتمنى أن أرى ملـككم بعينى .

فقال الزبير : ليس لنا ملك .

فقال الملك وهو يبتسم : هـذا ما كان يقولـه أبو الحسن إن المسلمين لا ينصبون أحـدا ملكا عليهم ، يـا للأسف ! مـا أطيبه من إنسان كان أبـو الحسن لقد كان مبـارزا خبيرا ، وصادقا فى قولـه ، ما أكبر حزن ابنته عليه ومـا أكرم عبدالرحمن ويوسف ، يعلم الله مـا سيكون عليه مقدار الحزن الـذى سوف تجـده أسرهم عنـد ما يبلغهم هذا الخبر . هـل قابلتهم أنت ؟

ـــ لا يا سيدى فقـد جئت تواً إليك . وأخـرج رسالتـه من جيبـه ثم قال للملك : هذه رسالة أعطانيها والى العراق .

فأومأ الملك إلى (دليب سنك) فأخذ الرسالة من الزبير وبدأ يترجم للملك ويقول :

"إن والى البصرة يسلم على الملك : وأنه يشكره على حسن معاملته مع يتامى التجار العرب وأياماهم وأنه يرغب فى أن يقوم الملك بترتيبات لترحيل هؤلاء الأيامى واليتامى إلى البصرة وأنه يرسل مع مبعوثكم قائدا من قواده واسمه الزبير فى سفينة كرسول منه إلى الملك ويأمل فى أن جلالتكم سوف تقومون با رسالهم بكل سرعة ممكنة ، وأن والى البصرة يرى أن أبا الحسن وأصحابه قد لاقوا حتفهم على السواحل القريبة للهند . وإذا اتضح أن قراصنة البحر قد أغرقوا سفينتهم ونهبوا أموالهم فانهم سوف يعاقبون على ذلك معاقبة شديدة" .

فأطرق الملك برأسه بعد أن سمع ما جاء فى الرسالة ، وبدأ يفكر فيها ، فلحظ الزبير ولى العهد الذى كان ينظر إلى السقف بعينيه المغرورقتين وقال له : أنك قلق أيها الأمير ! ويبدو أنك تأنس إلى العرب وتحبهم كثيرا .

فبدأت شفتاه المغلقتان ترتجفان وحاول يائسا أن يمسك دموعه ثم قام من مكانه وذهب إلى غرفة خلفية .

والملك نفسه كان يحب أبا الحسن حبا كثيرا وكان نعيه إليه صعبا جدا ، إلا أن وجود رسول خليفة المسلمين كان يمنعه من أن

يترك نفسه على سجيتها . وبعد أن نهض ولى العهد من مكانه ، أمر الملك جميع حاشيته بالخروج ليختلى بدليب سنك ، وقال للزبير : إن ولى العهد كان يحب أبا الحسن ويأنس إليه وكذلك أنا فقد كنت أعتبره أخا لى . . . إنى لحزين على موته حزنا شديدا ، ولكن كيف نستطيع أن نتأكد بأن أبا الحسن وأصحابه قد ماتوا حقا . فقد يمكن أن يكون القراصنة قد قبضوا عليهم فى الطريق . وأكثر ما يحزننى هى ناهيد المسكينة فانها لم تنس موت أمها إلى الآن . أنها قد لا تتحمل هذا المصاب الجلل . فقال الزبير : من هى ناهيد هذه ؟

فقال الملك : إنها ابنة أبى الحسن الوحيدة ، وأنا أيضا أعتبرها ابنة لى ، كم هى فتاة طيبة ، ثم التفت إلى (دليب سنك) وقال له : يا دليب سنك ، اذهب بضيفنا إلى دار الضيافة وعليك أن تتأكد بأنه لاتواجهه أية صعوبة أو مشكلة ، وسأرسل ولى العهد إلى بيوت العرب ليعزى أسرهم وأولادهم .

قال الزبير : لقد جئت إليك مباشرة ، ولم استطع زيارة هؤلاء الصبيان وأود أن أزورهم الآن . . .

فقال الملك : على الرأس والعين ، يا دليب ! رافقه أولا إلى بيوت العرب .

﴿ ٢ ﴾

وجد الزبير و (دليب سنك) عند باب بيت أبى الحسن ، شابا

فى التاسعة عشرة من عمره ، فبادر الشاب (دليب سنك) بالسؤال قائلا : هل صحيح أن سفينة أبى الحسن لم تصل إلى جدة ؟

فتقدم (دليب سنك) نحوه وعانقه وهو يقول : لقد فتشت عنه فى كل مدينة دخلتها ، وفى كل ميناء أرسيت فيه سفينتى ، ولكنى لم أجد له أى أثر . . .

فقال خالد : لقد عدت من الميناء لتوى وأخبرنى بعض الملاحين العرب بأن سفينتهم قد غرقت عند سواحل السند ، وحبذا لو قابلت حاكم (ديبل) لعله يستطيع أن يخبرك أو تعثر على أثر منه .

فأجابه (دليب سنك) : إن ملك السند وعماله وكبار رجاله متكبرون جدا ، وقد خشيت أن لا أحصل على رد مقنع من حاكم ديبل فبدل أن أذهب إليه شخصيا رجوت حاكم مكران المسلم أن يرسل رسوله ليأتى بالخبر اليقين ، وقد قابلت حاكم مكران مرة أخرى بعد أن زرت خليفتكم فى دمشق والحجاج بن يوسف الثقفى فى البصرة ، وقد أخبرنى بأن رسوله قد عاد من عند حاكم ديبل الذى أخبره عن عدم معرفته بمثل هذه السفينة ، فقال خالد : لقد وصلت إلى هنا من الميناء مباشرة ولا أعرف إذا كنت قد أبلغت الأسر العربية عن حادث السفينة ؟ ! - ما ذهبنا إلى بيوت العرب حتى الآن، لأن الملك كلفنى بايصال هذا الضيف العربى الكريم إلى دار الضيافة الرسمية .

فالتفت خالد إلى الزبير قائلا : إن من واجبنا أن نستضيفك

وأرجوك أن تأتى معى حتى تكون موضع السلوان والعزاء لهذه الأسر العربية المنكوبة .

فقال الزبير لدليب سنك : هيا بنا يا دليب .

فرد قائلا : إذا كنت ترى من المناسب أن تذهب مع خالد فأنا أذهب لأقوم بترتيب وإعداد السكن لك .

فذهب الزبير مع خالد ، وفى الطريق سأل خالدا : أأنت ابن أبى الحسن ؟

— نعم ، ولكن من أخبرك بهذا ؟ !

— لم أزل أسائل (دليب سنك) عنكم ونحن فى الطريق ، وإن صورتك لا تختلف عن الصورة التى رسمتها فى ذهنى عنك ، وقد تأثرت كثيرا من موقفك الباسل الجلد نحو هذا الخبر المؤلم فكأنك خالد حقا .

فقال خالد وهو يبتسم ابتسامة حزينة : لقد كنت ألححت على أبى بأن يأخذنى معه وهو يستعد لهذا السفر ، ولكنه رفض ذلك لأن أمى كانت مريضة ولأول مرة وجدت نفسى أبكى أمامه ، فكأن دموعى قد أحزنته ، فوبخنى قائلا : يا بنى إن كل خالد لا يناسبه أن يسكب الدموع ! فقد سميتك باسم ذلك المجاهد العظيم الذى لم يكن يشكو ألما وقد مزقت الجروح جسمه !

﴿ ٣ ﴾

كانت بيوت الجاليات العربية تقع على ضفة نهر فى زاوية من زاويا المدينة وكانت أشجار جوز الهند الخضراء تغطى ضفتى النهر . وبعد مسافة قصيرة أومأ خالد إلى دار يحيط بها سور من الحجر قائلا : هذا منزلنا !

كانت اشجار الموز ، وجوز الهند قد كونت حديقة غناء داخل السور .

وكان أمام هذا المنزل الحجرى الصغير مصطبة وفوق المصطبة باحة مسقوفة من الخيزران وعلى الباحة المسقوفة عريش أخضر غمر كل جوانب الباحة وكان الهواء الساكن قد رفع درجة الحرارة . . . ونظر خالد نحو الزبير فرآه يفرز عرقا ، فوجد من المناسب أن يستريح الزبير فى ظل الباحة المسقوفة ، بدل أن يأخذه إلى داخل الدار . . . جلس الزبير على مسند القدمين وأشار خالد إلى غلام أسود فأخذ هذا مروحة يدوية ، وبدأ يحرك بها الهواء ، كان هذا الغلام الأسود يجد متعة فى عمله هذا ، إلا أن الزبير قال لخالد : يحسن أن لا تزعجه فى هذا الحر الشديد ، وقل له أن يستريح ، فرد الغلام باللغة العربية قائلا : إنك ضيفنا يا سيدى وأرجوك أن لا تحرمنى من خدمتك .

قال الزبير : ما هذا ؟ هل تعرف العربية ؟ !

فبادر خالد : إنه معنا منذ طفولته وقد رباه والدي .

فرأى الغلام ضرورة إلى المزيد من التعريف بنفسه فقال : وأنا مسلم واسمى على .

ثم خاطب خالد الغلام بلغة سرنديب المحلية لم يفهمها الزبير، فترك الغلام المروحة وانطلق نحو شجر جوز الهند فتسلق إحداها وقطف بعضا من ثمارها ، و عاد به إلى خالد وضيفه الزبير.

شرب الزبير من ماء جوز الهند ثم أخذ يتحدث مع خالد ، ومع أنه كان حزينا على مأساة والده إلا أنه كان يحاول أن يستمع إلى الزبير بعناية حتى يؤدى دوره التقليدى العربى كمضيف لضيف غريب ، إلا أن الزبير كان يلاحظه ويشعر بأن الابتسامة الشاحبة الكئيبة على شفتيه كانت أشد وأقسى من الآهات والعبرات .

وكان خالد يترك مكانه بين الحين والآخر خلال الحديث لينظر إلى الرتاج الخارجى وأخيرا قال لعلى : يا على أين ناهيد ؟ لم لم تأت إلى الآن ؟ اذهب وعد بها . . . فقام على وخرج من فوره ، بينما توجه خالد نحو الزبير وقال له : إن الملكة والأميرة ابنتها تحبان اختى حبا جما ، وقد حضرتا هذا الصباح فأخذاها معهما إنه ليحزنها سماع هذا الخبر . . . إنها لا تزال تزور قبر أمها كل يوم والآن . . .

قال هذا ثم سكت بعد أن اطاق زفرة حارة من أعماقه .

فسأله الزبير بلهجة حزينة : ومتى توفيت أمك .

ـــ منذ شهرين ، وأن عانت من آلام الحمي الموسمية لستة أشهر

عقب مغادرة أبي للحج ، إلا أن الذى تسبب فى موتها لم تكن هى الحمى الموسمية ، وإنما حزنها على فقد زوجها فانها كانت تصعد كل صباح ومساء إلى سطح المنزل ، و تحدق ببصرها نحو البحر وكلما تراءت لها سفينة من بعيد استبشرت وتلألأ وجهها سعادة وفرحة ، ثم بعثتنى إلى الميناء لآتيها بخبر السفينة وكلما عدت إليها خائبا ورأت وجهى الكئيب من بعيد غاب رونق وجهها وبدأت تنظر إلى نظرات حيرى حتى أنها فى المرة الأخيرة ولم تكن تستطيع أن تصعد درجة واحدة ، ورغم ذلك فانها الحت علينا أن نصعد بها إلى السطح فذهبنا بسريرها فوق سطح الدار فلم تزل ترقب البحر وترنو نحو مياهها دون انقطاع ومن سوء الحظ لم تظهر لنا سفينة على سطح الماء طوال نهار ذلك اليوم وحين سمعت المؤذن ينادى بأذان المغرب نزلت لأصلى فى المسجد القريب من هنا وحين رجعت وجدتها قد فاضت روحها ولا تزال عيناها عالقتين نحو الأفق البعيد فوق البحار كأنها تنظر إلى سفينة بعيدة قادمة ، وأخبرتنى ناهيد أن آخر ما نطقت به من الكلمات هى :

تأكدى يا ناهيد أن أباك سيأتى يوما ولا بد له أن يأتى لأنه زوج أمين وفى . وأما أنا فلست بوفية إذ أغادركم دون أن أنتظر مقدمه .

كان الزبير قد عاش حياة المجاهد المقاتل ولم ير خلال اثنتين وعشرين سنة من عمره إلا السهام والقنا — كما كان ملاحا شجاعا جريئا تعلم كيف يواجه العواصف والأمواج المتلاطمة ، لكن

سامعه لم تكن قد تذوق الكلمات الحلوة العذبة ، ورغم أنه قد تأثر كثيرا من الذى سمعه إلا أنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة التى يعزى بها خالدا أو يسليه عن الأحزان العميقة التى ناءت بكلا كلها على صدره الناشئ الصغير البرئ ، فلم يزد أن قال : يا خالد لقد آلمنى موت أمك . وفى قلبها حسرات لا حصر لها ، ليتنى أستطيع أن أتحمل بعض ما تحتمله من همومك وأحزانك .

وجاء على يعدو قائلا : إنها قادمة فى الطريق إلينا .

وبينما كان الزبير يلتفت نحو الباب الخارجى ويركز نظره عليه إذا بناهيد تدخل وترى غريبا مع أخيها فتخجل و تتردد عند الباب ثم تستر وجهها بخدرها وبعد أن تمكث لبضع ثوان تبدأ خطواتها مسرعة داخل الدار ويسمع الزبير صوتا محزنا مؤثرا يقول : أصحيح أن أبانا . . . ؟ فلم يمهلها الانتحاب الذى خنقها وحالت العبرات دون إكمال سؤالها .

كانت عينا الزبير قد اختطفتا نظرة سريعة على جمال نسوى بارع ولم تكن عيناه مستعدتين بل قل إنها لم تكن تريد أن تلقى نظرة على فتاة ولو خاطفة ، ولكن عندما دخلت ناهيد كان وجهها سافرا ، فوقعت النظرة الأولى على وجهها ثم تحولت عنه قبل أن تغطى وجهها بالخمار ، ثم غض الزبير طرفه وبدأ ينظر إلى الأرض بين يديه .

إن هذا الحياء فى أخلاق الزبير وسيرته إنما كانت نتيجة وأثر مجهود تربوى قام به أبواه ، كما كان يرجع للبيئة التى نشأ فيها

الزبير وترعرع ، وقد كانت الثقة بالنفس هى سمة أخرى من سمات الزبير الممتازة ، لقد سافر إلى بلاد بعيدة مع أبيه و عرف كملاح خبير فى أوائل شبابه . وفى خلال أسفاره البعيدة فى البلاد المختلفة كان الزبير قد لاحظ أكثر من مرة تلك الفتيات المرحات الشاطرات اللواتى يبحثن دائما عن الأنظار المتاثرة بجمالهن وحتى فى الشام وفلسطين كانت أنظار جريئة كثيرة اعترفت بأوصاف الرجولة والجمال فيه إلا أنه كان من شبان عصره الكثيرين الذين كانوا يغضون أبصارهم عندما كانوا يرون امرأة غير محرمة .

كان الزبير يسأل (دليب سنك) عن أولاد العرب الصغار اثناء سفرهما وكان يرسم لكل واحد منهم صورة معينة فى ذهنه ، وأما فيما يتعلق بأبى الحسن وأولاده ، فان ما سمعه عنهم ، جعله يقدر بأن هؤلاء ربما يختلفون كثيرا عن بقية أولاد العرب ، سواء فى الصور والأشكال أو فى العادات فكان هذا هو السبب الأول لاهتمامه بأولاد أبى الحسن أما السبب الثانى لهذا الاهتمام فقد نشأ من حديث خالد وما سمع منه من المعلومات عن أسرة أبى الحسن .

ولكن السبب الأكبر لهذا الاهتمام إنما كان يرجع إلى احساسه بأن ناهيد إنما هى بنت من بنات قومه ناءت بها آلام لا تحتمل ، و زاد اهتمامه هذا عندما ذهب على ليأتى بناهيد .

وأعادت ناهيد كلامها : أجبنى يا خالد ! هل هذا صحيح ؟ لماذا تخفى عنى وقد سمعت الخبر ؟

فقام خالد وتقدم نحوها قائلا : يا ناهيد ، هذه إرادة القدر

ولا حيلة لأحد أمامها وحاول الزبير أن يعزيها قائلا : إننى آسف يا سيدتى فأنا لم أستطع ان آتى إليكم بما يسركم .

فتقدمت ناهيد إلى داخل الدار دون أن تقول المزيد وكانت خطواتها بطيئة ، ثم أسرعت تجرى حتى دخلت غرفتها .

بقى خالد قائما لبعض اللحظات ثم نظر إلى الزبير وقال : دقيقة يا سيدى وأعود إليك حالا .

فأسرع خالد يعدو نحو غرفة ناهيد ، فدخل عليا فكانت قد ارتمت على السرير تبكى وتنتحب فأخذها خالد بيدها ملاطفا إياها وهو يقول : اصبرى يا ناهيد .

أما على فقد بقى مذهولا جامدا أمام الزبير لبعض الوقت ثم تقدم بخطوات بطيئة نحو غرفة ناهيد فسمعها تنشج وتصيح باكية مستعبرة فأظلم الفضاء أمام عينيه وكاد الحزن يصدع صدره ودخل الغرفة خائفا مترددا وقال لخالد وهو يضع يده على ساعده : لماذا تبكى اختنا ناهيد ؟ فنظر خالد إلى عينيه المغرورقتين ثم وضع يده على عاتقه وقال : إن أبانا لن يعود بعد اليوم يا على . وإذا بالولد يصيح صارخا من هول الخبر المفاجىء : لا لا ! لا تقل إنه لن يعود إنه سيعود ولا بد أن يعود .

وانفجرت عيناه المرتجفتان بدموع منهمرة فخرج من الغرفة باكيا وهو يضغط على شفتيه محاولا أن يحبس صياحه يريد أن يذهب إلى مكان لا يراه ولا يسمعه أحد حتى يبكى على سجيته وتخفف من ارتياعه وهموم قلبه إلا أن كثيرا من الجيران كانوا قد أسرعوا إلى

منزل أبى الحسن بعد ما سمعوا صراخه ، واجتمعوا حوله ، ولم يمض إلا بضع دقائق حتى كانت الأسر العربية كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها قد أتوا إلى منزل الأسرة المنكوبة واجتمعوا فى الفناء يصيحون ويتساءلون فأسرع خالد إليهم ليعرف سبب صياحهم فبدأوا يمطرونه بأسئلتهم عما جرى .

وأثناء ذلك يبدو طلحة على المسرح فيأمر الناس بالسكوت ثم يسأل خالدا : أصحيح أن السفينة قد غرقت ؟

فيومئ خالد بالإيجاب .

فينظر طلحة إلى الزبير ، ويقول له : أ أنت الذى جئت بهذا النبأ ؟ فيرد الزبير قائلا : آسف يا سيدى فقد قدر لى أن لا أكون رسولا يأتى بما يبشر ويسر .

وسأل طلحة ، وكيف وقع حادث الغرق ؟

فأجاب الزبير : هذا ما لم نستطع أن نتأكد منه حتى الآن .

ثم أن الزبير قام بزيارة الأسر العربية واليتامى والأيامى وسألهم عن رأيهم فى السفر إلى البلاد العربية ، فأبدى اليتامى والأيامى عن أملهم فى العودة إلى بلادهم وحنينهم إليها بصوت واحد . ولم يزل الزبير يتحدث إلى هذه الأسر والجموع والأفراد حتى حان وقت صلاة العصر و أذن المؤذن فتوجه مع الناس إلى المسجد .

وألح طلحة على الزبير أن يؤم الناس فى صلاتهم وعندما خرجوا من المسجد وجدوا ولى العهد ودليب سنك على الباب ونظر ولى العهد

إلى خالد فاستعبر باكيا وفاضت عيناه السوداوان المتألقتان بالدموع فعانق خالدا وضمه إلى صدره .

وقال دليب سنك للزبير : إن الملك قد أرسل فى طلبك وأنت أيضا يا خالد يجب أن تصاحبه .

فقال الزبير : لقد جئت الآن من عنده فهل حدث شيء خاص ؟

ــ إن نعى أبى الحسن كان قد أثر فى قلب الملك كثيرا فلم يستطع أن يتحدث إليك طويلا .

قال الزبير : يبدو أن ولى العهد أيضا كان يحبه أعمق الحب فانه لا تزال عيناه مغرورقتان بالدموع .

فقال دليب سنك : نعم ! إن سمو الأمير قد أصيب بصدمة شديدة لأن أبا الحسن كان يحبه كثيرا .

﴿ ٤ ﴾

وتراءى للزبير وهو فى طريقه إلى القصر الملكى مواكب الناس فى جموع محتشدة فرحة مرحة . وقبل أن يقول الزبير شيئا بادره (دليب سنك) قائلا : إن الملك قد سر سرورا عظيما بالهدايا والخيول التى أهديتها إليه وقد أمر جلالته بترتيب موكب للخيل يشارك فيه جموع الأهالى فها وأنت ترى كبار رجالنا وقد أخذوا بلجم الخيل يقودونها ولولا حزن جلالته بنعى أبى الحسن لاشترك شخصيا فى هذا الموكب الكبير !

فاقترب الزبير من الموكب فرأى ثمانية من كبار الحاشية الذين كانوا يحتلون الكراسى الأمامية قد أخذوا بأزمة الخيل يقودونها ويتقدمون الموكب وأما البرود التى كانت قد وضعت على ظهور الخيل فقد كانت مطرزة مزركشة مرصعة بالجواهر .

نظر ولى العهد إلى الزبير وهو يبتسم وقال : هل يكرم الخيل بمثل هذا فى بلادكم أيضا ؟

أجاب الزبير : لا ، إن الذى يهمنا فى بلادنا أكثر من ذلك هو العلف والماء الذى يحتاج إليه هذا الحيوان الكريم المفيد .

قال دليب سنك : إن هذا ليس إكراما للخيل وإنما هو تكريم لمن أرسل بهذه الخيول .

كانت السماء قد غطتها الغيوم ، وكان الهواء يميل للبرودة قليلا وكان الملك جالسا أمام شباك فى الطابق الثانى من القصر وهو يرنو إلى البحر فانتبه على وقع أقدام الزبير وأصحابه فالتفت إليهم فنهض وصافح الزبير ثم التفت إلى خالد وقال له : يا بنى ! لقد أحزننى كثيرا موت والدك ، وأعتقد أن سفينته قد غرقت بسبب العاصفة الشديدة . ولكن إذا اتضح أن بعض الناس قد هاجموهم فى الطريق وأغرقوا السفينة فأنا مستعد لأن أضع جميع خيلى وسفنى تحت تصرف حاكم البصرة للقضاء على القراصنة المهاجمين .

ثم جلس الملك على كرسيه وأشار إلى الزبير وخالد أن يجلسا على الكراسى الموجودة هناك ، فجلس الزبير وخالد بينما ظل (دليب سنك) واقفا حتى نظر إليه الملك قائلا : اجلس يا دليب !

أنك قد قمت بعمل عظيم مجيد وقد قررنا أن تتقدم كبار الرجال فى البلاط وأن مقعدك غدا سوف يكون بجانب مقعد ولى العهد !

فتقدم دليب سنك إلى الملك ومس قدميه بيديه يعظمه ثم جلس عل الكرسى . وقال الملك ، وهو يخاطب الزبير : إننى لا أملك أن أخالف أمر حاكم البصرة إلا أنه يسوؤنى أن تأخذ هؤلاء الصبيان العرب وأمهاتهم معتقدا بأنهم جالية مهماة عندنا أو أننا لا تهتم بأمرهم ألتى اعتبرهم كأولادى . وأنهم إذا أرادوا البقاء عندنا فسنتولى الصرف عليهم من الخزانة الملكية ، وعليك أن تسألهم وتناقش معهم قبل أن تأخذهم معك ، فاذا كانوا يشكون من شىء أو يواجهون مشكلة فلك أن تأخذهم معك .

فأجابه الزبير قائلا : إنهم لا يشكون شيئا أيها الملك . وأشكرك بالنيابة عن حكومة بلادى والعرب جميعا على حسن معاملتك معهم . إلا أننا لا نرضى أن تبقى صغارنا اليتامى بعيدين عن بلادنا فان خير التربية والتعليم هو ما يتلقونه فى بلادهم ، وإذا أراد أى واحد منهم أن يعود إليك بعد التربية والتعليم فلا أحد يمنعهم عن ذلك .

فسأل الملك : هل تريد أن تأخذ الجميع معك ؟

ــ لا فان طلحة وبعض التجار سيبقون فى بلادك .

ــ حسنا أما خالد وأخته فانهما سيبقيان أيضا عندنا .

ــ لا أنما سيذهبان معى .

فرد ولى العهد فى لهجة حزينة : لا ! لا ! لا لسمح لهما بالسفر أبدا فانى وخالدا قد تآخينا .

"فأما ناهيد فهى أختى أنا" .

يرتفع فجأة صوت نسائى من وراء الحجاب ، ثم تظهر فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها بندقية اللون مثل لون ولى العهد إلا أسارير وجهها المستدقة وعيناها الجميلتان الذكيتان وتمثل بين يدى الملك ثم تنظر إلى خالد قائلة : "يا أخى ، أن والدتى تطلبك" !

نهض خالد وذهب إلى غرفة أخرى ونهضت الفتاة على اثره وهى تقول للملك : يا أبت لا تصغ إلى ما يقوله هذا ، تعنى الزبير . فالتفت الملك إلى الزبير قائلا : أرأيت ؟

قال الزبير : حسنا ، سأتركهما وشأنهما !

وعاد خالد بعد مدة قليلة مطرقا رأسه ثم جاس على كرسيه فقال له الملك :

يا بنى ! إنه قد فوض الأمر إليك ، فقل لى أنت ، هل تحب أن تبقى عندنا أم لا ؟

فرد خالد : لقد أحسنت إلينا كثيرا يا سيدى ، فلو كنت أحب حياة الأمن والراحة لبقيت عندك ، وما فارقتك أبدا . . . ولكن شعبنا الآن مشغول بالجهاد فى سبيل الله فى أما كن بعيدة ، وأن عروقى يجرى فيها دم المجاهد فى سبيل الله ، وقد سمعت أن أولاد العرب الذين هم أصغر منى قد خرجوا مقاتلين فى سبيل الله ، وأننى لأود أن لا أحرم نفسى من سعادة الجهاد وفضله .

فأطرق الملك برأسه يفكر ثم رفع رأسه قائلا : يا بنى لا شك أنك ابن أبى الحسن وما دمت قد اعتزمت على الجهاد ، فلا يمكن أن تقف قوة فى سبيلك أن الشعب الذى تلد نساؤه أبناء من أمثالك لسعيد جدا .

قال خالد : اننى أرجوك يا سيدى أن تأذن لى بالسفر ، راضيا بذلك . فرد عليه الملك قائلا : إن رضا ابن ابى الحسن لا يمكن أن يكون سببا لسخطى .

القرصان

وبعد عشرة أيام وعند الصباح كانت سفينتان فى الميناء قد تهيأتا للابحار فكان على إحدى السفينتين الزبير والأيامى واليتامى العرب ، وأما الثانية فكانت أعدت للهدايا من الأفيال والذهب والفضة والجواهر بعث بها الملك إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والخليفة الوليد بن عبد الملك الأموى ، ويقودها (دليب سنك) وكان عدد الأفيال المرسلة حوالى العشرة .

خرج الملك وولى عهده يودعان الزبير وأصحابه فى الميناء ، ولم يترك الملك امرأة من الأيامى أو ولدا من اليتامى إلا وقد قدم له هدية ثمينة كما أهدى إلى الزبير كثيرا من الأشياء إلا أنه لم يأخذ منها غير ترس مصنوع من جلد الكركدن ، أما الملكة فكانت قد ألحت على ناهيد أن تلبسها قلادة من الجواهر الثمينة فلم تقبلها من الملكة إلا بعد إصرار وإلحاح . وكانت الأميرة قد جاءت إلى منزل ناهيد يوم الوداع وقدمت لها خاتمها الالماسى الذى قبلته بعد إلحاح وإصرار منها .

وقبل أن ينحدر خالد إلى السفينة ، عانقه الأمير ولى العهد وقد فاضت عيناه بالدموع ثم ألبسه قلادته الخاصة المصنوعة من الجواهر

ثم حلت أشرعة المركبين فبدأت نسمات الهواء تحركهما وودع أهل المدينة ضيوفهم بدموع ودعوات ثم عادوا .

كان إلى جانب الغرفة الواسعة بأسفل المركب والمخصصة للنساء المحجبات ، زاوية خاصة خصصت لهن فوق ظهر المركب باقامة الستائر المصنوعة من الخيزران ، وأما خالد فقد كان يتجول فى السفينة كلها ويساعد البحارة فى أعمالهم ، بينما كانت ناهيد واقفة فوق ظهر المركب وبجانبها على ، وهى ترقب الأشجار الطويلة الخضراء من جوز الهند . . . تلك الأشجار التى قضت فى ظلالها أجمل أيام حياتها .

وبدأ المساء يزحف رويدا رويدا وبدا ساحل (سرنديب) كخط ضئيل أخضر فى الأفق البعيد يتضأل شيئا فشيئا حتى غاب فى ظلام الليل فانهمرت الدموع من عينى ناهيد . . . الدموع التى كانت تحاول أن تمسكها ولكنها لم تتمالك فترقرقت ثم تقاطرت . أما على فقد اختلط حزنه على مغادرة وطنه ومفارقته إياه بسروره وسعادته على توفيقه فى مرافقة خالد وناهيد .

كان الجو صافيا والرياح هادئة ، فبقيت النساء والأطفال على ظهر المركب بينما بقيت ناهيد فى مكانها ترقب نجوم السماء إلى وقت طويل ـــ أما خالد فقد كان فى حديث مع الزبير والبحارة فى فى الناحية الثانية من الحجاب .

كان من بين اليتامى العرب ولد فى الثامنة من عمره يسمى هاشما . وكان نائما فوق ظهر المركب على مقربة من ناهيد ، توفيت

أمه قبل بضعة أيام ، وأما أبوه فقد كان من بين أصحاب أبى الحسن المفقودين ، وفجأة استيقظ الولد اليتيم واستوى جالسا ثم بدأ ينظر إلى السماء ويرنو إلى ما حوله ، فقالت له ناهيد ما : بك يا هاشم ؟

قال هاشم : أين على ؟

إنه وخالد يتحدثان مع البحارة .

أعود بعد دقائق ، أريد أن أسأل عليا سؤالا ثم آتى ، فبدأ يمشى على مهل فى الظلام ، حتى وصل إلى على فسأله قائلا : يا على ! ماذا يحدث عند ما تغرق السفينة ؟

فقال له على بكل براءة ووداعة وبساطة : لا يحدث شىء غير أنها ترسب فى البحر وتصل إلى قعره .

فاندفع البحارة فى الضحك على هذه السذاجة البريئة .

ثم قال له هاشم : نعم ، هذا ما كنت أعرفه ، إنما أريد أن أعرف مصير الركاب ؟

— أما الركاب فتأكلهم الحيتان .

— لا ! هذا ليس صحيحا ! لا تأكل الحيتان الناس وإنما هم الذين يأكلون الحيتان .

فقال له على: أما على الأرض فان الناس هم الذين يأكلون السمك ! وأما فى البحر فان الحيتان هى التى تأكل الناس .

لم يستطع الولد البرئ الساذج أن يدرك حقيقة الأمر فعاد إلى سريره ليستريح بقية الليل .

وما هى إلا أيام حتى كانت هاتان السفينتان تمران بسواحل ملبار وقد عرجتا فى طريقهما إلى موانئ السواحل الغربية للحصول على المواد الغذائية والماء ـ ولم يقع لهما أى حادث خلال هذا السفر وفى ميناء ملبار ، ألقت السفينتان المراسى حيث رحب بهما بعض التجار العرب من أصدقاء الزبير ثم قررت القافلة العربية أن تقيم هنالك لأربعة أيام ليستريح الأطفال والنساء والملاحون الذين أتعبهم السفر المضنى الطويل .

وفى خلال هذه الأيام الأربعة كان أمر الهدايا الملكية التى بعث بها ملك (سرنديب) قد انتشر انتشارا واسعا فى المدن والقرى القريبة الساحلية .

وحضر حاكم المدينة يوم الوداع شخصيا ليودع القافلة ، فقابل الزبير و(دليب سنك) ونبههم بأن يكونوا على وعى فى الطريق ضد خطر القراصنة وهجومهم على السفن العربية، فقال (دليب سنك): لا تشغل بالك بهذا الموضوع يا سيدى فان السفينتين مسلحتان تسليحا كاملا .

كان اليوم الثالث من الرحلة حينما نبه الحراس القائمون على أشرعة المركبين بأنهم رأوا سفينتين على بعد فى الأفق الشمالى . . . وقف الملاحون حائرين مندهشين على ظهر المركب . . . وكانت سفينة (دليب سنك) فى المقدمة ، فأمر بايقاف سفينته حتى تقترب سفينة الزبير . فوقفت السفينتان تاركتين مسافة قصيرة بينهما فقال : (دليب سنك) للزبير : لعل هاتين السفينتين يقودهما القراصنة فعايننا

أن نستعد لمواجهة أى طارئ ، وعليك أن تذهب بمركبك إلى الناحية الغربية ، وأنا أستطيع أن أواجه هؤلاء القراصنة .

فقال الزبير : لا يمكن أن ندعك فى وجه الخطر .

وقال (دليب سنك) : إننى لست أشك فى شجاعتك وبطولتك ولكن من واجبنا الأول هو الدفاع عن هؤلاء الصبيان والنساء .
فأجابه الزبير : وإذا كان هؤلاء قراصنة فانه يمكن أن يقفوا فى طريقنا من الناحية الغربية أيضا ، وإذا كان كذلك ، فان الفرار أخطر من المواجهة ولا يمكن لنا أن نخذل الأصدقاء فى وجه الخطر .

ـــ كما تشاء ! وعليك أن تأمر النساء بالانحدار إلى أسفل السفينة
قال هذا ثم التفت إلى زملائه يصدر إليهم التعليمات لمواجهة الموقف .

قال الزبير لخالد : أنت يا خالد ! قل للنساء أن ينحدرن معك إلى أسفل .

وحمل ملاحو السفينتين أسلحتهم ، وأخذوا يرقبون السفينتين القادمتين من بعيد : وبعد لأى تبين (دليب سنك) علم إحدى السفينتين الأسود فقال صارخا : هما سفينتا القراصنة ، عليكم بالاستعداد لمجابهتهم .

قال الزبير وهو يخاطب أصحابه : أيها الأخوة ! إن هؤلاء الصبيان والنساء إنما هم أمانات وودائع لدينا ـــ ولا بدلنا أن نوصلها إلي البصرة بأمن وسلام . ولولا أن حمايتهم فى ذمتنا لما اقترحت

عليكم خطة الحرب هذه أننى أريد منكم شخصين يتطوعان لمهمة خطيرة جدا .

بادر خالد بتقديم نفسه لهذه المهمة الخطيرة ثم تبعه الملاحون الآخرون واحدا بعد الآخر . فقال الزبير : لابد من سباحين خبيرين وأخص بالذكر إبراهيم وعمر بالذات لهذه المهمة الخطيرة .

وبناء على أمر الزبير أنزلوا قاربين فى البحر من ظهر المركبين وشدت الأشرعة بالقاربين ، وكانوا قد احتفظوا بعلف جاف على مركب (دليب سنك) للأفيال : فأنزل الملاحون بعض الحزمات من العلف ووضعوها فى القاربين فركبهما عمر وإبراهيم وفى أيديهما مشعلان . وبعد أن استلم الزبير وخالد الكنائن والأنواس ، أخذوا يرقبون العدو المهاجم حتى يقترب منهم وكانت السفينة التى فى المقدمة تتجه اتجاها أقرب إلى سفينة الزبير منها إلى سفينة (دليب سنك) وفى أثناء ذلك كانت قوارب عمر وإبراهيم قد انفلتت حتى وصلت وراء الأعداء المهاجمين .

وكان الزبير يسرع على ظهر المركب ويهرول من ناحية إلى أخرى وهو يصدر الأوامر والتعليمات إلى زملائه وأصحابه وبدأت السفينة المهاجمة تمطر سفينة الزبير بالسهام كلما ازدادت قربا منها ، وأثناء ذلك انطلق سهم من عند رأس الزبير ، وفى نفس الوقت سمع صوتا نسويا يقول : اجلس لتحافظ على سلامتك فقد أصبحنا عرضة لسهام العدو . . . والتفت إلى الوراء فاذا بناهيد واقفة وفى يدها قوس وسهام ، ولم يكن يبدو من وراء حجابها إلا عيناها فقال

لها الزبير : ماذا تعملين هنا ؟ اذهبى إلى أسفل السفينة .

فقالت ناهيد بكل ثقة وعزم : لايهمك فانى أجيد الرماية .

ثم تقدمت فجلست قرب أحد البحارة المقاتلين موجهة سهامها نحو المهاجمين .

استمرت حرب السهام لبعض الوقت واز داد القراصنة اقترابا، وبدأوا يقذفون بسهام النار ، أما عمر وإبراهيم فكانا قد اقتربا من سفينتى القراصنة من الناحية الأخرى ، وحين بدا أن قاربيهما على وشك الالتصاق بسفينتى القراصنة أشعلا العشب بالمشاعل بأيديهما ثم وثبا فى الماء أما القراصنة الذين كانوا يستعدون للوثوب على السفينة التى يهاجمونها فقد أدهشتهم النيران ، وأخذوا يلتفتون إلى بعضهم البعض حائرين ، وفى أثناء ذلك وبسبب الرياح الشديدة كانت ألسنة النار المشتعلة فى القوارب قد امتدت إلى أشرعة السفن . وفى بضع دقائق كانت النار قد أحاطت بسفينتى القراصنة فبدأوا يقفزون فى البحر وهم يصيحون ويصرخون، وكان رجال الزبير و(دايب سنك) يواصلون رميهم بالسهام . وإذا بسفينة من تلك التى التهمتها النيران تقترب من سفينة الزبير ، فانتبه لذلك فأمر بالابتعاد فورا ، خوفا من أن تنتقل النيران إلى سفينته إلا أن حوالى ثمانية من القراصنة كانوا قد صعدوا فوق ظهر مركب الزبير ، فدارت بينهم وبين أصحاب الزبير معركة حامية انتهت بالقضاء على القراصنة ، وخلال ذلك انطلق سهم من سفينة القراصنة الأخرى ، والتصق بالساعد الأيسر للزبير ، وفى الوقت نفسه خرج سهم من قوس ناهيد ليستقر فى صدر أحد القراصنة .

أما الزبير فلم يتألم من السهم الذى أصابه وإنما كان يبتسم لما أصابه ، فوضع القوس وبدأ يحاول إخراج السهم من ساعده ولما رأت ناهيد ذلك وضعت هى الأخرى قوسها وأمسكت بساعد الزبير باحدى يديها وأخرجت السهم بيدها الأخرى ، وما أن قلعت السهم من ساعده حتى بدأ الدم يتدفق بغزارة فشمرت ناهيد كم الزبير ثم خلعت حجابها عن وجهها ، وجعلت منه عصابة على جرح الزبير .

وكانت سفينة الزبير قد سحبت السلالم الحبلية فصارت القرصان يقفزون فى الماء تاركين سفينتهم التى أصابها الحريق . فأخذ الزبير قوسه مرة ثانية وهو يقول لها : يا ناهيد اذهبى الآن إلى النساء واخبريهن بأننا قد انتصرنا على العدو بفضل الله وعونه . قالت ناهيد وهى تنحدر : أرجو أنك لا تشعر بألم كثير .

— لا ، إنه جرح يسير ، ولا تهتمى بأمرى ، قال لها هذه الكلمات وللحظة واحدة نظر إلى وجهها من غيرارادة فرأى الوقار العسكرى قد أضاف إلى تناصف وجهها مزيدا من الجمال النسوى وفجأة شعرت ناهيد بأنها بدون حجاب ، فانحدرت مسرعة نحو الطابق الأسفل عند النسوة .

نزل بعض الرجال من سفينة القراصنة المحرقة فركبوا قاربا ، وبينهم رجل يبدو كأنه رئيس القراصنة وقد رفع علما أبيض ، وأشار الزبير إلى الرماة بالامتناع عن الرماية ، وكان عمر وإبراهيم قد أكملا عملهما ، واقتربا من سفينة الزبير وأيقن الزبير بأن سفينته قد أمنت فأمر بالإرساء وإلقاء السلالم الحبلية فصعد عمر وإبراهيم على ظهر المركب ، فلفت خالد نظر الزبير إلى أصحاب (دليب سنك)

الـذين كانـوا لا يزالون يـرمون بالسهـام على القـراصنة الـذين القوا بـأنفسهم فى البحـر فـأشار الـزبير إليهم بيـده يطاب منهم التـوقف ، فاطمأن القـراصنة وبدأوا يصعدون إلى السفينة بالسلالم ، وفى النهايـة وصل قـارب زعيم القراصنة ، فوقف بين السفينتين ، وكان ينظر إلى البحارة كأسد جريح . . . لقد كان رجلا قوى البنيـة طاعنا فى السن قـد خط الشيب لحيتـه وفى نفس الـقـارب الـذى كان يـركبـه رأس القراصنة ، رأى الزبير شابا وفتاة يختلفان عن القراصنة زيا وصورة .

وعرف الزبير أن هذا الـرجل القوى البنيـة الرهيب الشكل هو رئيس القراصنـة فأشار إلى ملاحى القارب ، فبـدأ هؤلاء يجدفون نحـو السفينة فصعد جميعهم بالسلالم واحدا تلو الآخـر ـــ أمـا الفتاة فكان يبـدو على أساريـر وجهها آثـار التعب والمـرض ، فقـد كانت تصعد السلالم رويـدا رويـدا وقـد أمسك بـيـدهـا ذلـك الشاب الأ نيـق ذو الملابس الجميلة .

وعندما وصل الشاب فوق السفينة قال بضع كلمات بلغـة ـــ لم يفهمها أحد ثم بدأ يحدق بنظره نحو القراصنة ، ومع أن الزبير لم يفهم كلامه إلا أنه تأكد بأنه يشكو إليه هؤلاء القراصنة ويشكر له صنيعته .

فجعل الـزبير يسليه بلغـة تجمع بين السنديـة والسرنديبية مما أثـر كثيرا فى نفس الشاب والفتـاة ، فأخـذا ينظـران إليـه نظـرات الشكر والامتنـان وأرادت الفتـاة أن تقول شيئـا إلا أن صوتهـا الخـافت لم يساعدها فقد تلعثمت وانعقـد لسانهـا وأخـذت تنظـر إلى الزبير بعينين دامعتين ، وكانت الـفتـاة تبـدو فى حـوالى السادسة عشر من عمـرهـا

ذات وجه جميل كأنها زهرة ذبلت عند منتصف النهار ، فخفف عنهما الزبير مرة أخرى . . . وكان آخر من صعد إلى السفينة هو رئيس القراصنة الذى كانت تبرق عيناه بصواعق الانتقام بدل عبرات الندم .

وفى بضع لحظات نزل (دليب سنك) من سفينته وصعد إلى سفينة الزبير بواسطة زورق صغير وأخذ سوطا يريد أن يضرب به رئيس القراصنة إلا أن الزبير تقدم فأخذ بيده ، وحين رأى (دليب سنك) على كم الزبير قطرات الدم سأله قائلا : هل جرحت ؟

فأجاب الزبير بلا مبالاة : إنه جرح بسيط !

فانتبه (دليب سنك) على صوت الشاب الوجيه الذى كان يتحدث فالتفت إليه وأخذ يتحدث معه ثم تحول (دليب سناك) إلى رئيس القراصنة يسائله ، ثم قال للزبير وأصحابه بالعربية : فى الزورق صندوق ، اذهبوا وهاتوا به هنا .

ذهب عدد من البحارة إلى الزورق ، فوجدوا فيه صندوقا صغيرا مصنوعا من خشب الصندل فشدوه بحبل ثم عادوا به إلى المركب فما فتحه (دليب سنك) حتى اندهش البحارة وبدأوا ينظرون إلى ما ملئ به من الذهب والجواهر واللالى .

وأشار الزبير إلى (دليب سنك) بأن يستوضح من الشاب وأن يسأله حكايته فقص عليهم الشاب الوجيه ذو الملابس الجميلة ما حدث له .

(٣)

كان الشاب اسمه (جى رام) . . . ينتمى إلى أسرة (راجبوتية) فى منطقة (كاتياوار) سافر إلى بلاد السند فى عنفوان شبابه يطلب شهرة واسعة طيبة فحقق تفوقا فى الرماية فى سوق برهمن آباد السند فقدره ملكها وأكرمه بالجوائز وجعله ضابطا فى جيشه ، وبعد أن قام بخدمة الملك لمدة سنتين فاز (جى رام) بمنصب نائب الحاكم لمدينة (ديبل) وقبل أن يمضى أسبوع على وصوله إلى (ديبل) سمع بنعى أبيه ومرض أمه فأخذ إجازة لبضعة شهور وذهب إلى (كاثياوار) فماتت أمه بعد عشرة أيام من وصوله إلى هناك ولم يبق فى بيته غير اخته الصغيرة واسمها (مايا ديوى) فحالت دموعها ونصائح أقاربه دون عودته إلى السند ، إلا أنه سئم من حياته الراكدة بعد أربعة أشهر قضاها فى منزله ، فحضر إلى بلاط ملك (كاثياوار) وقدم نفسه لخدمته .

وخلال ذلك كان ملك السند قد بدأ مناوشات ومصادمات مع الدول المجاورة الصغيرة لتوسعة حدود بلاده ، مما جعل رؤساء وأمراء تلك البلاد يعترفون بسيادته كجار قوى ، وصاروا يدفعون إليه قدرا معينا من مداخيل بلادهم .

أما ملك (كاثياوار) فلم يكن يخاف أى خطر مباشر من ملك السند إلا أنه أراد إرضاءه والتحبب إليه بارسال بعض الهدايا الثمينة من الذهب والفضة والجواهر .

لم يرد ملك (كاثياوار) أن يقلد (جى رام) منصبا فى بلاطه

وإنما رأى من الأنسب أن يستغل نفوذه وتأثيره فى بلاد السند ، فأرسله إلى ملك السند بصندوق ملئ بالذهب والجواهر ، وكان يعتقد (جى رام) أن الملك (داهر) لن يسمح له بالعودة إذا كان وحيدا ، لذلك لم يرمن المناسب أن يترك أخته وراءه وحيدة فى المنزل . بينما كانت هى الأخرى تصر على السفر معه ، فقرر فى نفسه أن يصطحب أخته (مايا ديوى) فى سفره فخرجا بعد أن خلفا ابن عمهما على الدار والعقار فى طريقهما إلى بلاد السند ، إلا أن السفينة التى كانت تحملهما تعرضت للقراصنة بين (كاثياوار) وبلاد السند . وقاتل أصحابه ضد هؤلاء القراصنة بكل جرأة وشجاعة إلا أنهم فشلوا فى مواجهتهم ، وقبض القراصنة على الصندوق الملئ بالجواهر والذهب وأفرجوا عن الجميع بعد أن أوصلوهم إلى الشاطئ غير (مايا ديوى) و(جى رام) وكان رئيس القراصنة يعتقد بأن (جى رام) و(مايا ديوى) هما من أقارب ملك (كاثياوار) وأنه سوف يفديهما بمبالغ جديرة بالاعتبار لذلك كان رئيس القراصنة ينوى أن يعرج بهما على بعض سواحل بلاد (كاثياوار) ثم يساوم الملك لفدائهما إلا أن بعض جواسيسه أخبره بوصول سفن (سرنديب) فاتجه نحو (مالا بار) بدل أن يرسى على سواحل (كاثياوار) .

وعند ما سمع الزبير هذه القصة خفف عن روعهما وقال : أن هؤلأ القراصنة قد ارتكبوا جريمة نحونا ، كما أنهم ارتكبوها نحوكم ، وأننى لم أقرر إلى الآن طريقة معاقبتهم إلا أننى أعرف العقوبة لمثل هؤلاء فى بلادكم .

فأجابه جى رام قائلا : إنه لا رحمة مع أمثال هؤلاء القراصنة الظالمين فى أية شريعة سواء فى بلادنا أو فى بلادكم ، أنهم حبسونى وأختى عند ما بدأ القتال بينكم و بين هؤلاء ، وكانوا يريدون أن يتركونا محبوسين هناك بعد أن أخذت السفينة تحرق ، ولم أكن لأستعطفهم لولا أختى الصغيرة التى أرغمتنى على البقاء بجانبها واستعطاف هؤلاء من أجلها ، وكانوا قد أخذوا وعدا منى قبل أن ينزلونا فى الزورق أن أشفع لهم عندكم للإفراج عنهم ، ولست أقصد أن تطلقوا سراحهم ، وإنما أرجو ألا يتم إعدامهم ، وأن يبقوا فى السجن إلى أن يهتدوا إلى سواء الصراط . ويتوبوا ، ولم تستطع (مايا ديوى) الصبر كثيرا ، فقالت لأخيها بضع كلمات وقبل أن يرد عليها أخوها ، بادره (دليب سنك) قائلا : نأسف يا سيدى ! فلم نكن نعرف أن أختك مريضة ، يا خالد يا بنى ! خذها إلى أختك.

فتقدم خالد ، فأخذت مايا ديوى تنظر إلى أخيها ، فسأل (جى رام) دليب سنك .

أعلى المركب نسوة أيضا ؟ ! فأجاب : نعم ! إن أختك يا سيدى ! لن يمسها أى سوء ! يا ابنتى ! تفضلى ! استريحى .

(٤)

وقبل أن تتحرك السفينتان ثانية نقلوا جميع القراصنة إلى سفينة (دليب سنك) إلا رئيسهم ، وألح الزبير على (دليب سنك) أن لا يعاملهم معاملة قاسية قبل أن يقضى فى عقوبتهم ؛ واحتفظ الزبير برئيس القراصنة كرهينة لأنه كان يريد ضمانا منهم على حسن سيرتهم وسلوكهم

كما أن الشاب (جى رام) فضل أن يبقى على مركب الزبير من أجل أخته المريضة .

أما خالد فقد أوصل الفتاة (مايا ديوى) إلى أخته ناهيد التى رحبت بالفتاة المنكوبة وأكرمتها وقدمت لها مضجعا خاصا لتستريح واجتمعت النسوة العربيات حولها ، وقد كان اللقاء الأول بين الضيفة والمضيفات بدون ترجمان وجرى الكلام والحديث بالإيماء والإشارة فقط .

قال دليب سنك للشاب (جى رام) قبل أن ينحدر إلى سفينته : أظنك ستجد صعوبة فى تناول الطعام ، أما أنا فقد عشت طويلا بين المسلمين ، ولم أعد أومن بالمنبوذية أو المحظرين مسهم ، أننا نجتمع على مائدة واحدة إنك لا تجد شخصا من أصحابى العاملين معى لم يأكل على مائدة المسلمين ، إلا أننى أترك لك رجلا من أصحابى يعد لك طعاما وأن مضيفيك لن يكرهوك على أن تجتمع معهم حول مائدتهم .

كما أنه قال بعض الكلمات للزبير أيضا ، ثم انحدر إلى سفينته ، وقبل أن يصل كان أصحابه قد حلقوا رؤس القراصنة العجائز ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إلا الرجل العجوز الطاعن فى السن فقد اكتفوا منه بحلق نصف رأسه ولحيته وشاربا واحدا فقط ، كما أنهم استخدموا لذلك شفرات ثلمة وكان عدد القراصنة الذين بقوا على قيد الحياة لا يزيد عن ستة فقط . أما ناهيد والنسوة العربيات الأخريات فقد قمن بعيادة (مايا ديوى) وتمريضها خير قيام وكانت

ناهيد قد جلبت معها بعض الأعشاب المفيدة للحمى الموسمية فاستخدمتها لعلاج (مايا ديوى) حتى برئت باذن الله فى خلال ثلاثة أو أربعة أيام .

أما الزبير فقد أهمل جرحه فى البداية معتقدا بأنه جرح بسيط إلا أن الجرح أفسد وتقيح فى اليوم الثالث بسبب المناخ الرطب مما اضطره إلى أن يلزم السرير بسبب ازدياد الألم والحمى ،

زاره (دليب سنك) أكثر من مرة كما أن عليا وخالدا وهاشما كانوا يبلغون ناهيد ونساء العرب الأخريات بأحوال الزبير ، كان (جى رام) يلازم الزبير ، وأما أخته (مايا ديوى) فقد لاحظت بذكائها النسوى الحاد ما كان يجرى فى قلب ناهيد وما كان يحزنها ويقلقها فكانت (مايا ديوى) تزور الزبير حينا بعد حين ، بحجة اللقاء بأخيها ، وكانت كلما عادت حاولت أن تسلى ناهيد بلغة الإشارة والإيماء أو بجمل عربية متقطعة التقطتها من أفواه السيدات العربيات .

وفى مساء أحد الأيام ساء حال الزبير ـــ وجاء دليب سنك لتضميد الجرح ثم عاد إلى سفينته وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم وكانت الريح شديدة والملاحون منشغلون بأعمالهم كل فى مكانه ، وكان على وخالد و (جى رام) عند الزبير يهتمون بأمره ويمرضونه . .

وقامت السيدات العربيات لصلاة العشاء بينما صعدت (مايا ديوى) إلى أخيها لتعرف خبر الزبير ، وعند ما فرغت ناهيد من صلاتها رفعت يديها تدعو الله وتناجيه ليشفى الزبير ، وإذا بخالد يفاجئها بأن الزبير قد أغمى عليه ، وقالت سيدة عجوز : إن رجالنا

جميعهم مشغولون بأعمالهم بسبب العاصفة ولا بدلنا أن نذهب إليه :

فقامت النساء جميعهن واجتمعن حول سرير الزبير وعند ما رأت (مايا ديوى) أن السيدات المحتجبات قد حضرن عند المريض أشارت إلى أخيها أن يخرج فخرج من عند الزبير ، واستلقى فى زاوية فى السفينة ولم تمض لحظات حتى كان قد غرق فى نوم عميق ، لأنه لم ينم منذ عدة ليال ، بسبب سهره المتواصل بجانب الزبير وفى منتصف الليل انخفضت درجة حرارة الحمى ، وأفاق الزبير وعادت السيدات العربيات إلى غرفتهن إلا ناهيد و (مايا ديوى) وكذلك خالد وعلى الذين لازموا الزبير .

وبعد ثلث الليل فتح الزبير عينيه ، فرأى ناهيد و (مايا ديوى) فى ضوء السراج فقال لهما : أنتما هنا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل اذهبا واستريحا .

فتلألأ وجه ناهيد الذابل فرحا وسرورا وقالت له : وكيف أنت الآن ؟ أنا الآن بخير والحمدلله من فضلك أسقنى ماء .

فقامت (مايا ديوى) وملأت كوبا من الماء من الجرة وأعطته لناهيد ، فأخذت برأس الزبير وهى خجلى تتردد حتى أجلسته وأسندته باحدى يديها وقربت كوب الماء إلى فمه بيدها الأخرى .

شرب الزبير الماء ثم استلقى على وسادته وقال لناهيد : إن أخاك قد كلف نفسه كثيرا من أجلى إين هو الآن ؟

هو يستريح فى الخارج .

وأنت ايضا عليك أن تستريحى ، وأنـا الآن بخير وإن المـرهم صنعه (دليب سنك) قد أفادنى كثيرا .

(٥)

لم تمض بضعة أيـام حتى كان الـزبير قـد أبل ، واستطاع أن يتحرك ويمشي بسهولة ، وكان الشاب (جى رام) قد تأثر كثيرا بأخلاق العرب المسلمين حتى أن آنسه الزبير كان قد استحال إلى حب ومودة شديدة ، وعرف منه كثيرا من أحوال العرب الحديثة ، وقد اضطرب فى البدايـة عنـد ما عرف فكرة المساواة التى جاء بهـا دين العـرب الجديد ، إلا أن تعليمات الزبير ونصائحه كانت قد أقنعته بأنـه لابـد من دين تعتنقه البشرية كافة من أجل خير الناس أجمعين ، دين يمنح الحقوق المتساوية لكل فرد وشعب ويلقن البشريـة التقوى والأعمال الحسنـة مكان فوارق الـدم واللـون والنسل ، وكان يجتنب أن يمسه مسلم أو يجتمع معـه عـلى المائـدة فى البدايـة ، إلا أن صحبة الزبـير وملازمته أثرت فى نفسه فبدأ ينظر إلى فكرة الممسوس والمنبوذ بعين الهـزء والسخريـة حتى جاء يوم جلس فيـه على مائـدة الزبير دون أن يستشير أخته أو يعرف رأيها فى ذلك .

أمـا (مايا ديوى) فكانت قـد تغيرت فـكرا وعقلا قبـل أخيها ، ولـكن هـذا التغير لم يحدث بسبب دينى أو تحت تـأثير مباشر لتعاليم الإسلام ، كمـا أثـر فى نفس أخيهـا ، وإنمـا كانت أخـلاق العـرب الـكريمة هى التى أحدثت ثورة داخليـة فى قلب فتـاة بريئـة . . تلك الأخلاق الـكـريمـة هى التى أكـدت لهـذه الـفتـاة الأبيـة من شعب راجبوت (الطبقـة العليا فى المجتمع الهندوكى) أنها ليست فتاة غريبـة

بائسة فى أيدى فئة من شعب أجنبى . . كان الملاحون المسلمون إذا رأوها غضوا من أبصارهم عنها ، لقد بدأت تشعر منذ اليوم الأول أن نظرات هؤلاء الملاحين الأجانب لا تختلف عن نظرات شقيقها .

كما أن تمريض و علاج ناهيد لها اثناء مرضها كان قد غير أحاسيسها كثيرا ، إلا أن أكثر ما أثر على قلبها هو معاملة خالد معها ، حتى أنها كانت تنتظر أن تسمع صوته أو تنظر إليه ، وكانت لا تعرف سببا لقلقها الدائم ، وإنما كانت كل ما تعرفه أنها على جمر من القلق كلما غاب عنها ، وعند ما يعود إليها لا تستطيع أن ترفع إليه نظراتها أما خالد فلم يكن يحفل بأمرها بادى الأمر ، وإنما كان يمربها مر الكرام ، بينما كانت هى تعد خفقات قلبها كلما مربها و توبخ نفسها فى بعض الأحيان على الأفكار الغريبة التى يغمرها فى غدواتها وروحاتها .

وكانت كلما غمرها الليل عزمت على أن لا تحفل بأمر شاب فى مثل عمرها وألا تنظر إليه إلا نظرة المحتقرة ، بدل أن تندهش بشخصه أو تتأثر به ، ولكن كلما أصبح الصباح وأذن المؤذن لصلاة الفجر واجتمع العرب للصلاة قامت على الرغم من عزيمتها التى قررتها ليلا وصعدت إلى ظهر المركب لتتلهى بأمواج البحر الأزرق ثم تسأم فتشيح بوجهها وتنظر نحو المصلين ثم تتركز نظراتها على خالد ، فتحب ركوع المصلين الآخرين وسجودهم من أجل خالد وحده ، وعند ماتراه يرفع يديه للدعاء تعجب بطريقة الدعاء هذه .

وكانت ترغب فى الإسلام لأنه دين خالد قبل أى شئ وكانت تحاول أن تتعلم اللغة العربية لأنها أيضا لغة خالد .

جنجو الملاح وقصته

وأما رئيس القراصنة المقبوض عليه والمكبل بالأغلال ، فقد كان (دليب سنك) أصدر أمره بعدم الثقة به على أية حال ، وكان على المكلف بتوصيل الطعام إليه يظن فى أكثر الأحيان بأن الرجل العجوز لا يأكل ملء بطنه ، فكان يلح عليه بعد كل أكلة أن يزيد لقمة أو لقمتين أو أكثر من الطعام ليملاء به بطنه .

وأما سلوك الزبير معه فقد كان بعكس ما كان يتوقعه منه هذا اللص بل كان مثيرا لدهشته ، فقد كان الزبير يزوره مرة أو أكثر كل يوم ، وذات يوم ولأول مرة حاول أن يتحدث إلى الزبير بلغته السندية فاذا به يكتشف فى نفسه تطورا جديدا وهو أنه يستطيع أن يتحدث باللغة العربية بدون صعوبة .

قال للزبير يوما : صعب على جدا أن أقضى حياتى هذه فى انتظار الموت ، فان كنت لا تريد أن ترحمنى فأرجوك أن تعاقبنى عقوبة عاجلة كما تشاء .

فقال له الزبير : إننى أرحم شيخوختك ، ولكنى لا أستطيع أن أطلق سراحك حتى أتأكد من أنك لن تعود إلى مهنتك هذه .

فرد رئيس القراصنة : إن السفن التى كانت رأسمالى فى حياتى ومورد رزقى قد غرقت ولا أملك الآن شيأ غير أن أقضى بقية عمرى

فى غابة من الغابات مختفيا عن أعين الناس وأيدى السلطات .

ـــ ان قاطع الطريق خطر كبير دائما حيثما كان ، أنك كنت تغير على السفن فى البحر ، أما إذا كنت فى البر فستنهب البيوت والدور . وان أخذتك معى إلى البصرة فسوف يقطعون إحدى يديك وإحدى رجليك وان فوضت أمرك إلى (جى رام) فانك ستقضى بقية الأيام من حياتك فى زنزانة مظلمة بأحد السجون . .

فأجاب زعيم اللصوص : إننى لا أعرف شيئا عن حكومة بلادك ولكنى أقول لك بكل صراحة بأن حكومة ديبل لا حق لها فى أن تعاقبنى .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لأن ما فعلته فى البحر راكبا فى السفينة هو ما يفعله ملك السند جالسا على عرشه ، فلا فرق بينى و بينه ، أما رجاله فانهم ينهبون أموال الضعفاء والمساكين وأما أصحابى . فانهم لا يغيرون على القوارب الصيغرة ، وإنما يسلبون السفن الكبيرة فنحن سواء فى المهنة إلا أن الأسماء تختلف ، فهو ملك وأنا لص ! وكان أبوه ملكا مثله . أما أبى فلم يكن لصا مثلى ! وأنا لم أنشأ لصا ! وإنما هو الظلم الذى قادنى إلى اللصوصية ، ولكن ما الفائدة فى سرد قصص كهذه ؟ فأنت غالب وأنا مغلوب ! وأقول لك بصراحة أنك تستحق أن تعاقبنى كما تشاء ، ولكن لا تسلمنى إلى حكومة السند لتفعل بى ما تريد .

فقال الزبير : إني أريد أن أسمع منك قصتك .

فأطرق زعيم اللصوص برأسه هنيهة ثم قص عليه قصته بايجاز واقتضاب فقال :

(٢)

اسمى (جنجو) ، ولدت فى قرية صغيرة على ضفة نهر السند ، كانت مهنتى صيد السمك ورثتها من والدى وتوفى أبواى وأنا ابن عشرين سنة . . وكانت تعيش فى قريتنا فتاة تسمى (لاجونتى) (أى الحسناء الخجول) وكانت كاسمها لاجونتى حقا ، كانت لها عينين أكثر خلابة وفتنة من عينى الغزال ، أما صوتها فقد كان أحلى وألذ من الوقواق والقمرى ! وكان الناس يسمونها ملكة الجمال البحرية ، ولم يكن فى المدينة بين الشبان من لا يحب التهالك عليها ، ولكنها لم تكن يحب أحدا غيرى ، وكان أبوها رجلا ساذجا بسيطا ، وفى مرة وكنا فى موسم الأمطار وكان نهر السند متلاطماً بأمواجه ، فقال أبوها : أى واحد استطاع ان يعبر هذا النهر المتلاطم سابحا يستطيع أن يأخذ يد ابنتى ، وكان فى قريتنا عدد من السباحين الماهرين ولكن لم يكن بينهم من يجرؤ على اقتحام النهر الخضم فى موسم الأمطار ! أما أنا فقد كنت مستعدا لأن أضحى بنفسى من أجل (لاجونتى) فنجحت فى تحقيق الشرط ولم يمض بضعة أيام حتى تم إلى عقد قرانها فأصبحنا زوجين سعيدين .

كنا سعيدين بزواجنا وكنا نقضي معظم وقتنا فى الزورق وكنت

أصطاد السمك وكانت هى تجهز الطعام . وكنا نقضى أمسياتنا ضاحكين باسمين مسرورين مرة بالأغانى البسيطة وأخرى بالقصص الشعبية الساذجة حتى يغمرنا الليل فنستريح فى ظلال النجوم ما أجمل تلك الأيام وما أحلاها !

قال هذا ودمعت عينا جنجو ولم يزل يبكى وينتحب لبضع لحظات ثم استأنف القصة قائلا : ولكن جاء يوم فارقت فيه (لا جونتى) ، ولم أكن على علم كالعادة بأنه من الإثم والجريمة أن تكون سيدة جميلة زوجة لرجل فقير منبوذ ضعيف مثلى . . كان رئيس منطقتنا يعيش فى المدينة على مسافة فرسخ من قريتنا . و جاء يوما مع أصحابه على ضفاف النهر وطلب منى أن أوصله وأصحابه إلى الضفة الأخرى للنهر ، فركب زورقنا وبدأ يحدق فى وجه (لا جونتى) بنظرات آثمة ويسألنى عنها ، فقلت له : إنها زوجتى ، فقال لى : إنها لا تبدو ابنة صياد للسمك ، من أين جئت بها ؟ ولكنى لم أقل له شيئا وعندما وصلنا إلى الضفة الأخرى قال بأنه سوف يعود مع أصحابه مساء ، وأنه لا بد لى من أن أنتظرهم إلا أنه عاد قبل المساء ، فأوصلته إلى الضفة الأخرى فسألنى عن اسمى وذهب ، وبعد هذا الحادث كان يكثر التردد إلى قريتنا كمن يريد أن يستمتع بمشاهد صيد السمك وكان أهل القرية يسعدون بمجيئه لأنه كان يعاملهم معاملة الأنس والمساواة ولكن (لا جونتى) قالت لى يوما بأنه يأتى إلى هنا بنية خبيثة آثمة ، فقد رأيته يحدق فى وجهى بنظرات آثمة .

وفى مساء يوم وبينما كانت (لا جونتى) تجهز الطعام فى الزورق

إذا به يأتينا راكبا فرسه ويقول : إذا كان عندك شئ طرى من الصيد فهاته وكنت قد أصطدت سمكتين كبيرتين قبل لحضات فقدمتهما له ، فأمرنى أن آخذهما وأتبعه ، ولم تكن المدينة بعيدة فقلت لها : سأعود إليك قبل أن تجهزى الطعام .

وكنت أمشى وراء فرسه وإذا برجاله يظهرون من وراء الأشجار فجأة ويهاجموننى من كل جانب ، وحاولت التخلص منهم إلا أن واحدا منهم ضربنى بعصاه فوق رأسى أطارت بصوابى ، وعندما افقت وجدتنى فى زنزانة مظلمة .

(٣)

قضيت هناك يومين كنت أموت فيهما جوعا وعطشا ، وفى اليوم الثالث فتح باب الزنزانة فاذا بلا جونتى تدخل على ومعها ثلاثة من رجال لأقطاغى المنطقة يحمل أحدهم طعاما وشرابا . أما الاثنان الأخران فيحملان سيفين مجردين ، فتبينت ورأيت (لا جونتى) قد اصفر لونها ، وغاض ماء وجهها ، وبدا لى أن عينيها قد سكبتا كل ما تملكان من الدموع ، فنسيت العطش والجوع وكنت أود لو استطعت أن أسرع إليها وأضمها إلى صدرى ولكنى كنت مكبلا بالأغلال ، فنظرت (لاجونتى) إلى الجنديين فقطعوا وثاقى بالسيوف ثم خرجوا مسرعين ، فسألتها : يالا جونتى ! كيف وصلت إلى ؟ فضغطت على شفتيها لتكبت صرختها وأسرعت إلى فتما سكت بى وفجأة تركتنى ، ووثبت كالخائفة وبدأت تنظر إلى الباب ثم قالت إن بعض الناس هاجموا الزورق

بعد مغادرتى إياها ، فأخذوها وجاءوا بها إلى الأقطاعى ، أنها لم تكن تعرف مصيرى ، وكانت تريد أن تفضل الموت على حياة الذل والسقوط ، فأخبرها الأقطاعى عن حبسى وهددها بأنها إذا لم تسلم نفسها لحياة السقوط والفحشاء ، فان زوجها سوف يموت فى الزنزانة عطشا وجوعا ، وكانت قد جأت إلى لتوها لتطلق سراحى ، وقالت لى ، أنت حريا جنجو ، اعتبر و كأن رفيقة حياتك (لا جونتى) قد ماتت ، أنها كانت تريد أن تساوم مع الأقطاعى فتطلقنى من أسره بأى ثمن كان ، ولكنى اخطأت ولم أفهم غرضها وكنت أظن أنها تريد أن تترك زورق ملاح فقير معدم لتعيش حياة البذخ فى القصور فلطمتها وسببتها وضربتها إلا أنها بقيت صامتة جامدة كصنم حجرى متحملة كل هذا ، أنها لم تفعل شيئا غير كلمة قالتها بصوت حزين كئيب .

صدقنى يا جنجو ! أننى سوف أفضل الموت على السقوط والفحشاء ولكننى جئت هنا لأنك أعز على من نفسى ، أرجوك أن لا تضيع فرصتك فى الفرار ! فلعلك تحاول تخليصى بعد ذلك من هذا الوحش الظالم الماكر . .

ان صرخاتها ودموعها كانت قد أصلحت أخطائى وسوء فهمى ، فعانقتها وضممتها إلى صدرى ، ووعدتها بأننى سوف أعود إليها عاجلا ، وسأدمر قصر الظالم تدميرا !

وفتح باب الزنزانة مرة أخرى فدخلها ذلك الذئب اللئيم فلولا أنه كان يحمل سيفا مجردا فى يده لهاجمته فقال للاجونتي وهو يدخل :

ــ أخبريني الآن ماذا قررت فى نفسك ، فان حياته فى يديك ،
فردت عليه لاجونتى قائلة : لو وافقت على شروطك فهل
تنجز وعدك ؟ ومن لى أنك تسمح له بالخروج حيا سالما
من المدينة .

فقال لها : إننى لن أغدربك فصدقينى .

خرجت لاجونتى معه وهى تبكى وتنتحب ، وأخذنى أربعة جنود مسلحين فذهبوا إلى خارج المدينة ولم أكن أثق بوعد الأقطاعى وعندما خرجنا من المدينة ووصلنا عند الغابة الممتدة على ضفة النهر ، فجأنى أحد الجنود بضربة من سيفه إلا أنه أخطأ ، لأننى كنت أتوقع مثل هذا الهجوم المفاجئ فتنحيت ثم حمل على الجنود الأربعة دفعة واحدة إلا أننى كنت أسرع منهم فى الجرى ، فاختفيت تحت شجرة كثيفة الأوراق ، فبدأوا يبحثون عنى حتى تعبوا ويئسوا وعادوا خاسرين .

وكان المساء قد أظلنى فمشيت مختفيا وراء الأشجار حتى وصلت إلى ضفة النهر فرأيت زورقى يحترق والجنود الأربعة واقفون هناك إن هذه الحوادث قد غيرت حياتى فجعلتنى أثور وأستحيل ذئبا ضاريا . . . هربت نحو القرية فناديت أهلها بصوت أثر فى نفوسهم وبعد لحظات خرج عدد من شباب القرية يحملون العصى والفؤوس وعندما رآنا الجنود فروا هاربين خائفين ، إلا أننا لم نترك لهم مجال الفرار ولم ينج أحد منهم وقتلوا عن آخرهم ، ورمينا بجثثهم فى النهر ثم أننى جمعت حوالى مئتى شاب من قرى الصيادين المجاورة ،

التى يبلغ عددها عشرين قرية أو أكثر فخرجنا ، وقبل أن يمضى من الليل نصفه الأول كنا قد هاجمنا قصر الأقطاعى . ولم يخرج أحد من أهل المدينة لمساعدته إذا كانوا جميعا قد ذاقوا من مرارة ظلمه وضاقوا به وحاول بعض جنوده أن يقف فى سبيلنا بينما كان أكثرهم قد لاذوا بالفرار إلى بيوت الناس وقبضنا على الأقطاعى وسألناه عن (لاجونتى) ولم يكن جوابه سوى أن يقول عند كل سؤال : إننى برئ اتركونى أرجوكم باسم الآلهة فتقدمت إليه بالمشعل وهددته بأننى سأحرقه حيا إذا لم يخبرنا عنها فذهب بنا إلى غرفة من طابق القصر الأسفل فرأيت جثة (لاجونتى) فصرخت صرخة شديدة وبدأ يقول لى : إننى لم أقتلها وإنما هى التى قذفت بنفسها من القصر . . . اسأل الجنود وسيشهدون بذلك أرجوك أن تعفو عنى باسم الالهة ! فطعنته بالمشعل فى عينيه وقطعته اربا بضربات متتالية من الفأس .

ثم أصبحت لصا ! لم يبق فى قلبى حبة خردل من الرحمة على الناس وقمت بعدد من الغارات شننتها على بعض الأقطاعيين . . . نهبت أموالهم ، وهتكت أعراضهم وقتلت الكثير منهم ، ولما ضاقت بنا الأرض بما رحبت بعد المطاردات العسكرية التى قام بها جيش الملك توجهت إلى البحر من طريق النهر فسرقنا سفينتين فى ظلام الليل من ميناء ديبل ثم بدأت أمارس القرصنة وقد سلبت عددا من السفن حتى الآن ، وأننى أعتبر نفسى عدوا لكل من يتعاون مع الأمراء والملوك وأرى فى كل انسان ثرى روحا خبيثة مثل روح ذلك الأقطاعى الظالم اللئيم وأسمع أصواتا للأرواح التى أزهقت فى قصور

هؤلاء الجبابرة الفجار وهى التى تدعونى ، كما تدعونى روح (لاجونتى) أننى أتصور كل قصر شامخ قصر ذلك الظالم وأسمع أصوات الآلاف من الفتيات البريئات التى أزهقت أرواحهن تدعوننى للانتقام .

فقال له الزبير : أننى ليحزننى موت تلك الفتاة البريئة ، وقد أراك على الحق فى قتالك ضد ذلك الأقطاعى ، ولكن كيف يمكن لك أن تنتقم من إنسان لا يظلم انسانا آخر ! انه ظلمك ولكننا لم نظلمك أبدا أنك هاجمت سفينتنا ولم يكن عليها أى أقطاعى ولم يكن عليها إلا اليتامى والأيامى .

فأجابه جنجو قائلا : اننى متأسف جدا ، ولكن السفينة الأخرى كان تخفق عليها راية ملك سرنديب ، وأنت كنت تنصره ، ومع ذلك فلو عرفت أن سفينتك تحمل الأطفال والنساء لما هاجمتها وكنت قد رأيت سفينة أخرى لبلادك قبل بضعة أشهر فخليت سبيلها ، لأنها كانت تحمل النساء إلى جانب الركاب والملاحين .

فسمعه خالد فصرخ قائلا : هل كان عليها بعض الملاحين من سرنديب أيضا ؟ !

ــ نعم .

ــ هى سفينة والدى ولا نعرف لها خبرا إلى الآن . . . انك تكذب ، أظنك قد أغرقت سفينتهم ؟

فقال (جنجو) : لو كنت أغرقتها لم أكن فى حاجة إلى أن أذكرها أمامكم الآن .

ــ وهل كانت على تلك السفينة أفيال أيضا ؟

ــ نعم .

ــ ألا تعرف المكان الذى غرقت فيه ؟

ــ لا ، أننى أعرف فقط أنها كانت قد وصلت إلى ميناء ديبل بسلامة .

فسأله الزبير قائلا : وهل هناك فئة أخرى من القراصنة غير عصابتك ؟

ــ نعم .

ــ وهل يمكن أن يكون حاكم (ديبل) هو الذى نهب تلك السفينة ؟

ــ نعم ! لقد قلت لك أن لصوص البر أقسى قلوبا وأشد من قراصنة البحر !

﴿٤﴾

وبعد هذا الحديث الذى جرى بين (جنجو) والزبير بدأ الأخير يعتنى بالأول أكثر ، وفى نفس الوقت كان (جى رام) يصر بارتباك وحيرة شديدة غريبة ، فقد تأثر بقصة (جنجو) كما تأثر بها الزبير ولكنه كجندى وفى كان يرى أن الملك فوق أى نقد أو جرح ، أنه لم يكن على استعداد لأن يعترف بحق أى فرد من المواطنين فى أن يعلن الحرب ضد الملك بسبب شخصي ، فقد كان يؤمن بعصمة

الملك وحقارة الرعايا ، ومع ذلك فانه لم يعترض على الزبير عندما أمر بفتح قيود (جنجو) وأغلاله بعد أن أخذ منه العهد على أن يلزم جانب الأمن والسلام .

وبعد أن عاش مع الزبير بضعة أيام ، اكتشف (جنجو) تبدلا غريبا فى داخله . . . وكان الزبير قد حكى له عن بعض الوقائع الحربية بين الرومان والفرس والمسلمين ، وأكد له بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذى جاء بنظم سياسية واجتماعية يمكن القضاء بها على الحكومات الاستبدادية الجائرة . . . كان (جنجو) قد ترك العقائد الدينية والاجتماعية بعد أن أصبح لصا ، وعاش يقطع الطريق ويقوم بعمليات القرصنة فى البحر وكان يرى أن الدنيا بحيرة يأكل فيها كبار الأسماك صغارها ، وكان يعتبر نفسه سمكا صغيرا ، وكان مستعدا لكى يحارب ضد الأسماك الكبيرة .

قال له الزبير يوما انك تريد أن تقاتل ضد الظلم والطغيان ولكن سلاحك لا يختلف عن سلاح أعدائك أنهم أحرقوا زورقك وأنت أيضا تحرق سفنهم فكلا كما على مبدأ ظالم فكما يفسد هؤلاء الطغاة فى الأرض ، ويظلمون الأبرياء فكذلك أنت تفسد فى الأرض وتظلم الضعفاء والمساكين الأبرياء ، وقد اعترفت بأنه لا فرق بينك وبين هؤلاء الطغاة المفسدين وليس لدى أى منكما شريعة العدل وقانون الإنصاف وما دمتما لا تملكان شريعة أوقانونا فلابد أن تستمرا على حرب وعداء وأن تتقارع سيوفكما فأيكما تكل سيوفه تأخذه سيوف خصمه وهكذا .

وإذا انكسر قوس ستصنعون قوسا آخر ، ولكن الذين يجاهدون على الحق والعدل ضد الظلم والطغيان لا يكسرون سيوف العدو الظالم وحدها ، وإنما يخطفونها خطفا بل يسلبونهم كل سلاح ! ان الانتصارات العربية على الرومان والفرس إنما كانت انتصارات الحق على الباطل ، ان الشعوب من أهل فارس ومصر وسورية الذين كانوا قد حملوا السلاح للقضاء على أهل الحق المسلمين قد شاركونا وأصبحوا إخواننا ، ويجاهدون الآن بجانبنا ضد القوى الظالمة فى افريقيا وبلاد الترك .

فقال جنجو وقد تأثر بكلام الزبير : هل يمكن أن نساعدكم فى هذه المعارك ؟

فأجابه الزبير وهو يبتسم : ولكن لا كلص ! إنه ليست رسالتنا سلب القوافل وإنما رسالتنا أن نهديها سواء الصراط ! إن الإنسان الذى يعيش على مبادئ خاطئة لا يمكن له أن يكون رائدا لمبادئ صحيحة سليمة .

فقال جنجو وقد بدت عليه آثار الندم : إذا أكدت لك أننى قدتبت عن اللصوصية والقرصنة فهل لك أن تصدقنى .

ـــ سوف أصدقك بكل سرور .

ـــ وهل تطلق سراحى أيضا ؟

إذا كان هذا هو الشرط لتوبتك فمعنى هذا أنك لم تتب ، ولم تندم على ما فعلت ولا تريد إصلاح ذاتك وإنما معناه أنك تريد أن

تتوب لتتحرر من القيود .

— ولكن أرجو ألا تظنني جبانا بسبب هذه التوبة ؟

— لا ! إنما التوبة عمل يقدم عليه الشجعان المتحمسون .

— إذن أعاهدك على ترك اللصوصية .

— إنني أثق بك ، وإذا كنت مستعدا لتحمل مسئولية أصحابك ، فانني على استعداد لأن أفرج عنكم ، وأطلق سراحكم جميعا ، وأنزلكم في أي مكان تحبونه .

فقال جنجو : إن أصحابي قد اختاروا هذه المهنة من أجلي وفيهم كثيرون لا يمكن لهم أن يجرؤوا عليها بدون مساعدتي وقيادتي أنك لو أطلقت سراحهم في منطقة غير عامرة من سواحل السند فانهم سيختارون مهنة صيد السمك ، إنهم معي منذ مدة طويلة ، ولا يمكن لأحد أن يعرفهم الآن ، إلا أربعة رجال منهم فانهم مجانين وطغاة ، ولا أستطيع أن أؤكد لك بشأنهم شيئا ، كما أنني لا أثق بنفسي ، فانك لو حررتني ورأيت أقطاعيا ظالما لا أستطيع أن أملك نفسي ، وقد يقودني ذلك إلى اقتراف المظالم مرة أخرى ، ولو أخذتني معك إلى بلادك قد يمكن أن أصبح انسانا مثلك في ذلك المجتمع الصالح. إن الرجال الأربعة الذين ذكرتهم الآن لو كانوا معنا في هذه السفينة وسمعوا كلامك فانني على يقين بأنهم سيتأثرون كما تأثرت به وإذا سمحت فأذنت لي قابلت رفاقي .

وفي اليوم التالي رست السفينتان على شاطىء جزيرة ، وانحدر

الزبير من سفينته مع (جنجو) فصعدا إلى سفينة (دليب سنك) وتكلم (جنجو) مع أصحابه بلغته السندية فتلأ لأوجوه المسجونين ، ببشرى إطلاقهم من القيود ، إلا أنه عندما أخبرهم بأنه قد تاب من اللصوصية والقرصنة توبة نصوحا ، وأنه لن يعود إلى حياة الإغارة وقطع الطريق استحال سرور البعض منهم إلى حزن واستحلف (جنجو) جميع أصحابه واحدا بعد الآخر ولم يبق منهم إلا ثلاثة رجال بما فيهم ذلك الرجل العجوز الذى حلق زملاء (دليب سنك) نصف رأسه ولحيته وشاربه الوحيد ! فان هؤلاء الثلاثة كانوا يترددون فى اليمين .

فقال لهم (جنجو) وهو يخاطبهم بأسمائهم ! أما انتم الثلاثة ياكالو ويادِاسو ويامونى ! فستمكثون معى لبضعة أيام .

ثم التفت إلى الزبير قائلا : إننى أضمن لك أنهم سيمكثون معنا مسالمين هادئين .

وتحدث الزبير إلى (دليب سنك) لبضع لحظات ثم أمر بحارته بفك قيود الأسرى .

عاد الزبير إلى سفينته ومعه جنجو وكالو وداسو ومونى ، أما داسو فقد كان غريب الهيئة والشكل مما لفت أنظار العرب، فاجتمعوا حوله وارتفع صوت على بقهقهة عالية ، ثم انحدر إلى السيدات ليخبرهن عنه وعندما عاد كان يرافقه هاشم وأطفال العرب الآخرون ، فبدأ الجميع ينظرون إليه بدهشة واستغراب ثم تقدم هاشم إلى "داسو" وسأله بكل بساطة وبراءة :

— ياعم ألا ينبت الشعر على خدك الأيسر ؟

فاندفع الحاضرون فى الضحك إلا أن قهقهة على فاقت الآخرين فأخذ جنجو هاشما فى حضنه وأخذ يستمتع ببراءته ويضحك على ما أثارته هيئة (داسو) فيه .

وعند المساء قال خالد للزبير : إن ناهيد تعتقد أن (جنجو) يعلم خبر سفينة أبينا وأنها تلح وتصر على أن توجه بعض الأسئلة إليه شخصيا .

فقال الزبير : إنى أرى أنه يجب أن نثق بما يقوله (جنجو) .

قال خالد : ولكن ناهيد تقول بأنه إذا لم يكن يعلم عن والدنا فقد يساعدنا فى البحث عنه . . . أنها رأت رؤيا بالأمس وتؤكد أن أبانا لا يزال حيا يرزق !

— لا بأس فى السؤال ولكن قل لها أنلا تبدى مايسوءه فقد يتصور أننا نشك فى صدقه ، اذهب وهات أختك ، وأنا أطلب (جنجو) هاهنا . طلب (دليب سنك) جنجو وأما ناهيد فصعدت إليه ومعها الفتاة السندية (مايا ديوى) وكانت ناهيد قد سترت وجهها بحجاب أسود فهمست فى أذن (مايا ديوى) ببعض الكلمات فأومات برأسها اثباتا فخلعت ناهيد عقدها وأعطته (مايا ديوى) فتقدمت به نحو (جنجو) لتهديه قائلة له : إنك يا سيدى قد ذكرت قبل أيام أنك رأيت سفينة أبيها فلو بحثت عنه وعن سفينته ، فانها ستقدم لك هذا العقد كهدية لك على صنيعك هذا إليها وإلى أخيها .

فدمعت عينا (جنجو) مع شيء من الندم والحزن ، ونظر إلى خالد ثم إلى الزبير ثم قال لناهيد : يا ابنتي أنني لست حقيرا إلى هذا الحد .

— فقالت ناهيد وقد تأثرت بدموعه : ربما لم تفهم قصدى ، أننى لا أشك فيك وإنما أريد أن تساعدنا فقط .

— ولكنى لم أكن فى حاجة إلى هذا العقد لهذا الغرض ، أننى لا أستطيع أن أجزى الزبير على إحسانه إلى ولو أن لصا سلب تلك السفينة لعرفت ذلك ، ولكنى أظن أن حاكم (ديبل) قد نهبها عند الميناء .

فقالت ناهيد : إن قلبى يقول لى أن والدى لا يزال حيا . فآجابها (جنجو) : وإذا كان أبوك لا يزال حيا فلن يكون إلا فى سجن من السجون التى لا يتحرر المسجونون منها وإنما الموت هو الذى يحررهم من ذلك القيد . ولكنى أتحمل مسئولية البحث عنه ، وإذا عرفت عنه أى أثر فسأخبر حاكم مكران بذلك .

قال لها ذلك ثم التفت إلى الزبير قائلا : أرجوك أن تنزلنى عند مدينة (ديبل) فان (جى رام) إذا ساعدنى فى ذلك فقد يمكن لى أن أعثر على أثره فى أسرع وقت ممكن .

فقالت له (مايا ديوى) : إنى أعطيك الوعد بالنيابة عن أخى ، إن حاكم ديبل هو صديقه وأنه لن يخفى عنه شيئا .

وقال جنجوا : إن الحكام لا يمكن أن يكونوا أصدقاء وأما

حاكم ديبل فأنا أعرفه جيدا . . . ثم التفت إلى الزبير وقال له : هل تريد أن تقف عند ميناء (ديبل .) ؟

فأجابه الزبير : إننى لم أكن أريد أن أمكث هناك إلا أن (جى رام) قد ألح على وقد وافقته فى الإقامة بديبل لمدة يومين أو أكثر .

وسبح (جنجو) مع فكره ثم رفع رأسه قائلا : إننى لا أعرف مدى العلاقات بين (جى رام) وبين حاكم (ديبل) وملك السند ولو لا ذلك لما اقترحت عليك الإقامة أو النزول على سواحل السند .

فأجابه الزبير : إن العلاقات بين بلادنا وأهل السند ليست ضعيفة إلى هذا الحد . فقد ذهب حاكم مكران هناك يسأل عن أبى الحسن ، وأن الملك وإن كان قد عامله معاملة الكبر والغرور إلا أنه لم يتعرض له .

فأجابه (جنجو) قائلا : قد تكون سفينته فارغة لا تحمل شيئا ، أما سفينتاك فانها تحمل الأفيال وهو يريدها لأنه يعتزم تقوية جيوشه ويزيد فى قوته الحربية ، بالإضافة إلى أن سفينتك تحمل النساء ولا قيمة لديه لأعراضهن .

❁ ❁ ❁ ❁

(ديبل)

عندما وصلت السفينتان على بعد بضعة فراسخ من مدينة ديبل على سواحل السند ترجلت جماعة الأسرى بمن فيهم (جنجو) و (كالو) و (داسو) و (موتى) ، وكان (جنجو) قد وعدهم بالبحث عن أبي الحسن فقرر فى نفسه أن يتنكر فى زى التجار من منطقة "كجرات" وأن يذهب مع أصحابه الآخرين إلى ميناء (ديبل) ، كما أن (جى رام) كان قد اتفق مع (جنجو) على أن يساعده فى مهمته ، ولكن لم يزل يؤكد للزبير بأن حكومة السند لا تسمح بمثل هذه الفظائع فى بلادها وأنه لو أغير على سفينة أبي الحسن فى (ديبل) وما حولها فلابد ان يكون هذا بدون علم حاكم (ديبل) وملك السند .

فقال له الزبير : أنا أيضا لا أشك فى هذا ، ولكن كل ما أريده هو إزالة شكوك ناهيد التى تريد أن تتأكد من ذلك .

ورست السفينتان فى ميناء (ديبل) قبيل المساء ، والحت (مايا ديوى) أن ترافقها السيدات العربيات إلى منزل أخيها كما دعا (جى رام) جميع الملاحين ليرافقوه إلى منزله ، ولكن (جنجو) همس فى أذن (دليب سنك) الذى اقترح على (جى رام) أن يتأكد قبل كل شيىء من بقاء منزله كما تركه ، لأنه لا يبعد ــ بعد عدة أشهر من غيابه عن ديبل ــ أن يكون أحد غيره قد حل فى منزله وقد يعتذر إليه حاكم (ديبل) فى الإذن له بدخول المدينة .

فقال (جى رام) : لماذا يعتذر الحاكم أنى أعتقد أنه سوف

يصر أن تنزلوا ضيوفا عليه ، فلولا مساعدتك لما وصلت الهدايا الملكية من (كاثيا وار) إلى الملك . . . وحق عليه أن يضيفكم شخصيا .

فقال الزبير : يجب أن تزور حاكم المدينة أولا و بعد ذلك لن نعترض عايك فى الذهاب معك .

قالت (مايا ديوى): اذهب يا أخى لأنه مما يسوؤنا إذا كان منزلك قد احتله أحد فى غيابك ، فعليك أن تقوم أولا بترتيبات السكن للضيوف ، وسأبقى عند الأخت ناهيد إلى أن تعود إلينا .

فطلب (جى رام) شخصا من الميناء ليأخذ صندوق الهدايا الملكية ثم ذهب مباشرة إلى مقر حاكم (ديبل) وكان يسمى (برتاب راى) ولم يصغ (برتاب راى) إلى قصة (جى رام) سوى ما يتعلق بالهدايا الملكية أما باقى القصة فلم يحفل بها ، إلا أنه لما قال له أن السفن التى أنقذته من قيد القراصنة هى سفن (سرنديب) التفت إليه وفاجأه بالسؤال :

— أهى نفس السفن التى تحمل الأفيال التى أهداها ملك (سرنديب) إلى العرب .

قال (جى رام) : نعم ، هى نفس السفن ولكن من الذى أخبرك عنها .

— سأخبرك فيما بعد . . . المهم الآن هو أن تجيب على أسئلتى . وهل فيها أطفال ونساء أيضا .

— نعم

وهى السفن التى أغرقت سفينتى القراصنة ، ومعنى ذلك أنها تحمل سلاحا وافيا ، وأظنها لم تغادر الميناء إلى الآن .

— لا ، أننى أريد أن يبقى المسافرون عندى ضيوفا لبضعة أيام ، فقد أحسنوا إلى إحسانا عظيما ، وقد جئت إليك لأستأذنك إذا كنت لا تعترض على دخولهم المدينة .

— اعتراض . . . أبدا إنهم سيبقون ضيوفا عندنا بقية العمر ! فقد حصلت على الإذن من جلالته بالإغارة على سفنهم والقبض عليهم .

ولو أن صاعقة هزت القصر الملكى فى ذلك الوقت لما دهش (جى رام) مثل ما أدهشه حديث الحاكم فقد ظل واقفا لبضع لحظات ذاهلا جامدا كأنه هيكل حجرى ، إلا أنه حاول أن يستفيق فقال للحاكم : أراك تمازح ؟ !

فأجابه (برتاب راى) فى لهجة حادة : أننى لم أتعود المزاح مع الصبيان لقد علمنا عن هذه السفن من التجار السنديين . . . المرسوم الملكى يقضى بأن نساب هذه السفن ، وأن جلالته سوف يسره جدا مجيئك بسفينتين تحملان أغلى الأموال والأمتعة أكثر مما يفرحه هذه الهدايا الملكية من ملك (كاتيا وار) .

فقال (جى رام) صارخا : لا ، لا ، لا يمكن هذا أبدا أنهم ضيوفى وأصدقائى وقد أحسنوا إلى .

فقال له (برتاب راى) وهو يوبخه : أفق من غيك ألا تعرف أين أنت الآن ؟

فقال (جى رام) بهدوء : إن فعلتنا هذه غير إنسانية ولاتنس أنك تفتح بها بابا من العداوة بينك وبين قوم قد داسوا تحت أقدامهم عديدا من الممالك من أمثال السند ، أن الذى اقترح على جلالته

بمثل هـذه الخطـوات ليس حكيمـا ومخلصا ، إنى ذاهب لأن الدفـاع عن الضيف من أقدس العقائد الدينية عند قوم (راجبوت) .

ـــ إنك لن تستطيع أن تـذهب الآن ، وقـد أعلـنت العصيـان ضد صاحب الجلالة ، قـال هـذا ، ثم نـادى الحجبـة وفى خلال لحظات دخـل أربعـة مـن الجنـود شاهرين سيـوفهم وأحاطوابه .

أما (جى رام) فلم يتح له أن يجرد سيفه فقال له (برتاب راى): إنك ستبقى أسيرا هنا لبضع ساعات ، ريثما أعود من الميناء ، وحينئذ سأطلق سراحك وسنرسلك غـدا إلى جلالته فلو استطعت إقناعه لإنقاذ ضيوفك فلا مانـع لـدى من إطلاق سراحهم ، ولـكنى لا أستطيـع أن أخالف أو امر جلالته من أجل إرضائك .

ساق الجنود (جى رام) وسجنـوه فى غرفـة من غرف القصر ، وأغلقوا الباب دونه ، فدفع البائس (جى رام) الأبواب واضطرب وصاح وأخيرا سكت ، وبدأ يفكر فى أخته ثم نهض وأخذ يضرب برأسه الأبواب والجدران وجرد سيفه وأخذ يضرب على الرتاج حتى انكسر بعد عدة ضربات .

فـأخـذ نصل السيف المكسور وأراد أن يطعـن بـه نفسه إلا أن شيئا ما منعـه عن ذلك ، وبـدأ يـذهب ويجيء قلقا داخل الغرفـة ، ثم بدت له فكرة ، فدعا الحاجب وأخـذ يعده ويمنيه ، إلا أنه لم يحفـل به فهدده بـأنـه سوف يشكـوه عند الملك ، ولكن الحاجب لم يجبـه إلا بضحكات هستيرية ثم تركه وذهب .

(٢)

بعد ذهاب (جى رام) إلى المدينة استأذن (جنجو) وأصحابه الثلاثة من الزبير فى أن يدخلوا المدينة فأذن لهم بذلك فدخلوا المدينة وفوجئوا بوحدة عسكرية من خمسة عشر فارسا ومائة وخمسين راجلا يتوجهون إلى الميناء فأحس (جنجو) بخطر قادم وتنحى بأصحابه وقفوا يراقبون وعندما مرت الوحدة العسكرية من عندهم ، قال (جنجو) لأصحابه : إن حاكم المدينة ذاهب إلى الميناء بجنوده المسلحة ، وتدل سرعتهم على أنهم يريدون السوء ، ولا بدلنا أن أن نرجع .

فقال (كالو) : وما داموا يريدون السوء فما الفائدة من رجوعنا إليهم ، فقد لا تتاح لهم فرصة لأن يقلعوا بالسفن فعلينا الآن أن نفكر فى مصيرنا .

وقال جنجو : إذا كنتم ترون إن تخذلونى فلا اعتراض لى عليكم أما أنا فلا بد أن أرجع إليهم ، وأنت يا (داسو) و (موتى) أنتما حران كذلك فى أمركما .

فقالا فى صوت واحد : نحن معك يا جنجو ولن نخذلك . فندم (كالو) على موقفه وقال : وأنا أيضا معك ولكن قل لنا ماذا نستطيع أن نفعله ؟

فقال (جنجو) هذا ما سوف نراه عند ما نرجع إليهم

فقال موتى : يبدو أن (جى رام) قد غدر بمن أحسن إليه فرد

(جنجو) : يمكن ذلك ، ولكن مادام أنه أراد السوء بهم ، فلماذا ترك عندهم أخته .

فقال (داسو) ليس صعبا علينا أن نفهم ذلك ، أنه ترك أخته عندهم حتى لا يغيروا رأيهم فى الإرساء على الميناء ، وأعتقد أن تلك الفتاة أيضا شريكته فى هذه المؤامرة ، أنها بسيطة وادعة فيما يبدو وقد كانت تعتبر الفتاة العربية ناهيد أختا لها .

وقال (جنجو) نعم ، كما كان (جى رام) يعتبر خالدا أخا له ، وحين مرض الزبير لم يزل يسهر طول الليل عنده . هذا الكذاب المكير الغادر . . آه لو وقع فى يدى ! أما تلك الفتاة يا (كالو) فيجب أن نقبض عليها لأنها لو وقعت فى أيدينا فقد تفيدنا فى كثير من الشئون ، هيا بنا بسرعة فليس هذا أوان النقاش . . فانطلق (جنجو) وأصحابه يسرعون نحو الميناء .

(٣)

بينما كان البحارة العرب منشغلون بالدعاء بعد صلاة المغرب على سفينتهم ، انحدر (دليب سنك) من سفينته وأخبرهم بما يحدث فى الميناء ، فاضطرب الزبير وأصحابه حين رأوا الجنود المسلحين على الساحل ، وبعد قليل من الوقت وصل أربعة من الجنود فى زورق صغير إلى السفينة العربية ، فقال أحدهم باللغة السندية :

— إن حاكم ديبل السردار (برتاب راى) يرحب بكم ويريد أن يتحدث إلى ضباط السفن .

ــ قال (دليب سنك) لرسول (برتاب راى) قائلا : ولكن أين جى رام ؟

فقال الرسول : إنه ذهب إلى منزل ليعد لكم المأدبة بعد أن قابل معالى الحاكم وتلقى منه كل ترحيب وإكرام ، وقد حضر معاليه شخصيا ليستقبلكم ويرحب بكم .

فقال (دليب سناك) للزبير باللغة العربية : لا بد أنها خدعة إلا أنه ليس لدينا من بد فى الذهاب إليه .

فأجاب الزبير : وأنا شخصيا أدهشنى مجئ الحاكم بنفسه بهذا العدد المسلح من الجنود إلا أننى لم أكن أتوقع الغدر من (جى رام) لأن أخته لا تزال عندنا على ظهر المركب .

وسأل الرسول مرة أخرى : ماذا أقول لمعاليه

فقال الزبير : إننا نرافقك .

فانحدر الزبير : و (دليب سنك) إلى الزورق حتى وصلا إلى الساحل عند الحاكم (برتاب راى) فسلم عليه (دليب سنك) سلام الراكع المتخشع أما الزبير فلم يقلده ولم يعظم الحاكم فقال له (برتاب راى) : أنت من بلاد العرب ، وليس فيكم من يعرف تعظيم الكبار ؟

فقال له دليب سنك : إن التعظيم لغير الله إثم ومعصية فى دينهم .

فقال (برتاب راى) : إنه سوف يتعلم عندنا كيف يعظم غير الله .

فقال (دليب سنك) : ماذا تعنى ؟

فأجابه (برتاب راى) : لا لاشيئ ماذا تحمل سفنكم .

قال (دليب سنك) : لعل (جى رام) فصل لك القول فى ذلك فماذا تريد منا الآن .

إذا كان ما قال (جى رام) صحيحا فان هذه السفن لا يمكن لها أن تتحرك من الميناء .

ــ لا يمكن لها أن تتحرك من الميناء ، لماذا ؟

ــ هذه أوامر ملكية .

نظر (دليب سنك) إلى ما حوله فرأى الجنود المسلحين قد أحاطوا بالزبير فى حلقة ضيقة ، فنبهه عن الموقف باللغة العربية فرد عليه الزبير فقال (دليب سنك) وهو يخاطب (برتاب راى) أنها ليست سفن بحارة السند المساكين ، أن هذه السفن التى ألقيت القبض عليها سفن عربية إنها تحمل بنات ذلك الشعب الذى يخرج ضد الطغاة والعصاة كعاصفة فيحيط بهم مثل السحب وأن أولئك الذين لا يخافون الصواعق السماوية المحرقة الساقطة عليهم يخافون ويتعوذون من سيوف هذا الشعب الباسل .

فغضب (برتاب راى) وجرد سيفه فحاول الزبير و (دليب سنك) أن يجردا سيفيهما إلا أن عددا من الجنود الذين كانوا قد جردوا سيوفهم ورماحهم حالوا دون ذلك .

قال (برتاب راى) وهو يشير إلى (دليب سنك) : يبدو أنك سندى ولكن الدم الذى يجرى فى عروقك إنما هو دم إنسان غادر لئيم . فأجابه (دليب سنك) : إن أكبر الغدر واللؤم فى الدنيا هو مخادعة الضيوف ولست أتردد فى أن أقول لك . . . .

وقبل أن يكمل (دليب سنك) جملته أعجله (برتاب راى) بنصل سيفه فطعنه فى صدره فتخاذل وتساقط على الأرض فأسنده الزبير بيديه ولكنه . ارتعد رعدة ثم قال : الوداع يا زبير ! فقد انتهى السفر الذى كان قد قدر لى معك ، أننى أموت وعلى ضميرى عبء ثقيل ، لقد نشأت وترعرت فى مهد الجهل ولكن أبا الحسن قد علمنى معنى الإنسانية وثقفنى وأنت الذى أثرت الوجد و العاطفة فى قلبى نحو الإسلام ، ولست أعلم السبب الذى جعلنى أكبت صوت ضميرى فقد صليت الصلوات بمعزل عن أعين الناس وصمت رمضان ولكنى كنت أتردد فى أن أعلن إسلامى وكنت اعتزم أن يكون ذلك عند ما أصل إلى البصرة ولكن المقادير قد حالت دون ذلك أننى آسف على ناهيد ، الله يرحمها ويحميها من أيدى الأعداء . . . لا تنسنى يا صديقى العزيز فى دعواتك دائما .

ثم أخذته رعدة ثانية وأغمض عينيه ، وكرر الكلمة الطيبة عدة مرات ، وبدأ صوته ينخفض ويتضاءل ثم ارتعدت شفتاه ثم تقلصتا وانفصلتا ، فكأن عينى المسافر إلى البصرة قد علقتا بمنزل لايعود من سافر إليه وهكذا كان (دليب سنك) قد انتقل إلى مهد النوم الدائم

فاسترجع الزبير ثم وضع رأس (دليب سنك) على الأرض وأخذ ينظر إلى (برتاب راى) فى غيظ وحنق .

أما جنود الحاكم فكانوا قد ركبوا الزوارق وتوجهوا نحو السفينتين وهم يرمون بالسهام ، فترتد السهام عليهم من المركبين ولم يكن طريق الفرار أو الخلاص أمام الزبير سهلا فقد فاجأه ثمانية أو عشرة من رجال (برتاب راى) وشدوه بالحبال ثم ألقوه على الأرض فبدأ الزبير ينظر إلى سفينته وفى قلبه لحسرات !

﴿ ٤ ﴾

وكانت السيدات العربيات يقاتلن بجانب ناهيد على ظهر المركب ولم يستطع هاشم أن يبقى مختفيا مع الأطفال العرب فى زاوية ، فخرج منها وصعد نحو خالد فوقف بجانبه قائلا : كم مرة سوف نقاتل ضد القراصنة يا خالد ؟

فالتفت إليه خالد وهو يثبت السهم فى القوس فرأى (مايا ديوى) واقفة حزينة مندهشة فقال لها يا (مايا ديوى) : عليك به ! خذيه معك إلى الطابق الأسفل .

وبينما كانت (مايا ديوى) تحاول أن تحتضن هاشما لتقنعه بالذهاب معها إذا بسهم رائش يصيبه فى صدره ، فأسرعت به (مايا ديوى) إلى زاوية فوضعته هناك وبدأت تحاول إقلاع السهم من صدره ، وبعد آهة ورعدة خفيفة سكنت أطراف هاشم ، فنهضت (مايا ديوى) وهى تبكى وتنتحب ففاجأتها يد مجهولة أخذتها بقوة وعنف فلم

تستطع غير أن تستسلم لها .

ــ من أنت؟ (جنجو) !؟ سألت (مايا ديوى) وهى تنظر إليه بنظرات شاخصة فى ضؤ القمر الخافت . .

ــ نعم أنا ! خذها يا (كالو) ولو حاولت الصياح أو الصياخ أو الصراخ فاخنقها ، وحمل (كالو) الفتاة (مايا ديوى) فنزل بها من سلم على الجانب الخلفى إلى زورق صغير فركبه مع الفتاة . ثم تقدم (جنجو) إلى خالد ووضع يده على عاتقه وقال له : إن المواجهة الآن لا تفيد فى شيئ ، فهم أكثر منا عددا وعدة وهناك سفينتان تريدان الهجم علينا من ورائنا ومعى زورق قد أوقفته وراء السفينة وأننى أستطيع أن أنقذك أنت وأختك ناهيد .

فقال خالد دون أن يحفل بما يقوله (جنجو): لا يمكن لنا أن نترك أصحابنا فى هذا المأزق فى هذه الساعة العسيرة .

ــ ولكنك لا تعرف ما هم فاعلون بأختك .

ــ ولكن جميع النسوة فى السفينة أخواتى ، ولن أثق بعد الآن بأحد ، بعد أن فعل بنا (جى رام) ما فعل من الخداع والغدر .

وما أن أكمل كلمته حتى كان سهما آخر قد أصاب ناهيد فى ضلوعها فجلست على الأرض فتقدم خالد نحوها ليحملها . ولكنها قالت له . لا بأس يا خالد ! لا يهمك أمرى .

ورغم إصرارها وإلحاحها حملها خالد وجاء بها عند هاشم فجلست بجانبه ونسيت جروحها حين رأت جثة هاشم فهزتها ونادته بصوت كئيب حزين :

لماذا كنت صعدت إلى الفوق يا هاشم ؟

وأخرج (جنجو) السهم من ضلع ناهيد بينما كانت هي منشغلة عنه بحديثها إلى جثة هاشم وعندما انتهى (جنجو) من عملية إخراج السهم قال لصاحبه (داسو) : تعال نحملها .

فمال (داسو) ليحمل ناهيد فدفعه خالد وهو يقول أنت و(جي رام) وهؤلاء الجنود جاءوا إلينا من نفس الطريق فهدفكم جميعا مشترك ! اذهبوا فقد عفونا عنكم مرة أخرى !

قال (جنجو) : يا بني ! لوكان لدينا وقت لحاولت أن أقنعك ، وازيح الشكوك عن قلبك ، ولكن العدو قد بدأ يحيط بنا ـ ، ويضيق حلقته من حولنا فلو ضيعنا بضع دقائق أخرى فسنجد الطرق كلها قد سدت في وجهنا ، أنني آسف ولا أستطيع أن أمهلك للتفكير ، عفوا يا ابنتي ناهيد ، قال هذا وضرب على رأس خالد بعصاء ضربة أطارت بصوابه ، فأخذه (جنجو) وحمله على عاتقه أما ناهيد فحملها (داسو) وقال (جنجو) لصاحبه (موتي) : خذ هذه الأقواس فانها ستفيدنا .

كان العدو المهاجم قد بدأ جنوده يصعدون بالسلالم على السفينتين وكانت حرب السهام قد استحالت إلى حرب بالسيوف ، ولم يعرف أحد عن خطف ناهيد وخالد و(مايا ديوى) في هذا

المعترك والضجيج ، وكانت زوارق العدوقد وصلت عند زورق (جنجو) وأصحابه وكادوا أن يدركوهم لولا ذكاء (جنجو) الذى بدأ بصيح ويثير ضجيجا عاليا باغته السندية كأنه أحد جنود حاكم (ديبل) فأنقذ بذلك أصحابه وبأمر من (جنجو) قطعت (مايا ديوى) خمارها وشدت منه عصابة على جرح ناهيد وكانت (مايا ديوى) مسرورة برؤية خالد معها ولم تسأل عن مصيرها ، أما (جنجو) فكان مشغولا بأمر خالد الذى أصابته ضربة العصا ليسكت عن الصياح والنقاش فبدا للفتاة (مايا ديوى) أن الرجل الذى كانت تعتقده مجرما آثما وعدوا غادرا ، قد ظهر فى ثياب الصديق المواسى الراحم .

وكان الزورق قد اجتاز منطقة الخطر ومع أن (مايا ديوى) لم تكن تريد أن تتحدث الى (جنجو) إلا أنها سألته أخيرا : هل أصابته ضربة شديدة وكيف أغمى عليه ؟

أما ناهيد فلم تتحدث إلى أحد لأنها كانت حزينة جدا ، وكانت تنظر نحو أخيها بحسرة وألم ، وكانت كلما سمعت جنجو يقول : لا تفكرى يا ابنتى فى أخيك فانه سيعود إلى صوابه ويستفيق قريبا . أننى لست عدوا لكم أننى أحلف باسم إله البحار . احترق قلبها ، ولم تستطع غير السكوت .

التفت (جنجو) إلى (مايا ديوى) وقال لها : أنت ابنة راجبوت وهم الذين لا يحلفون حلفا كاذبا ، أجيبينى : هل كنت تعتقدين أو عندك أدنى شك فى أن أخاك يريد الغدر بهؤلاء ؟

— لا ! لا ! إن أخى ليس كذلك أننى أقسم باسم الإله .

— ولو ثبت أنه كان . . . . .

— إذن أنا . . . أنى سأتردى فى بئر ! أو أحرق نفسى فى النار حية سأخنق نفسى ، أرجوك باسم إلهنا لا تقل مثل هذا الكلام مرة أخرى .

تأثرت ناهيد بما قالته مايا ديوى فقالت لها : لا يهمك هذا يا (مايا ديوى) اننى واثقة بأن أخاك لوكان قد غدربنا فلا ذنب لك فى ذلك .

— إنى أقول مرة أخرى أن أخى ليس كذلك ، إن عروقه يجرى فيها دم (راجبوتى) ولا يمكن أن ينسى الجميل إلى هذا الحد .

فقالت ناهيد : إن عدونا الآن هو الذى أخذنا من السفينة بعنف وقوة وهو ذاهب بنا إلى مكان مجهول .

فقال لها (جنجو) : يا ابنتى ! ليتنى استطعت أن أنقذ الأطفال والنساء جميعا وآتى بهن معى ، إلا أن هذا الزورق لم يكن يسع إلا لهذا العدد من الركاب . إنك فتاة وأريد أن أنقذك من أيدى الأعداء المجرمين القساة وأنت يا (مايا ديوى) يمكن أن تنقذى الجميع ، أنتى أريد تحرير الآخرين فى مقابلك .

فاستفاق خالد وفتح عينيه ونظر إلى الجميع فى دهشة وحيرة ، وعندما تذكر الحوادث الماضية استوى جالسا ووضع يده على رأسه المتألم وقال : أين سفينتنا ؟ وأين تذهب بنا الآن يا (جنجو) يا

(جنجو) أيها الظالم المكير ! لماذا صنعت بنا مثل هذا ؟ ما ذا سيقول الناس وأين تذهب بنا الآن ؟

فرد عليه جنجو بكل هدوء : هذه يا خالد أول مرة فى حياتى لم أغضب من سباب شخص ! قل ما تشاء ولكنى ما أسأت إليكم أبدا ، كنت قد جئت من أجل (مايا ديوى) وحدها لآخذها معى ولكن عندما رأيت أختك الجريحة لم أستطع أن أتركها فى أيدى العدو الغادر .

نظر خالد إلى (مايا ديوى) باحتقار وقال : حسنا ! لقد فهمت الآن كل شيئ ! لقد بعث (جى رام) جنودا للهجوم علينا من ناحية ومن ناحية أخرى بعثك أنت لتأخذ (مايا ديوى) معك ، ويعنى هذا أنك لم تكن رئيس القراصنة وإنما كان رئيسهم هو (جى رام) .

ــ قد أصبت ! ولكننى قد تبت ، أما (جى رام) فانه لم يتب ، وسيتوب بعد أن يعرف خبر أخته .

ــ إذن لا تريد أن تذهب بنا عنده ؟

ــ تستطيع أن ترى أين الميناء وإلى أى جهة نتوجه ؟

ــ إلى أين أنت ذاهب بنا الآن ؟

ــ أريد أن أذهب بكم إلى مكان لا يصل إليه جنود السند .

فقال له خالد : ما دمت لا تريد بعنا السوء فعليك أن تذهب بنا إلى أصحابنا .

وقال جنجو : إن أصحابك سيصلون إلى سجن ديبل بعد

قليل ، وتستطيعون أن تساعدوهم وأنتم أحرار بدل أن تكونوا معهم فى السجن .

فسأل خالد فى شئ من الأمل قائلا : أحقا تريد أن تساعدهم ؟

وأجابه (جنجو) يا بنى ! لم أكن فى حاجة إلى أن أكذب ! ولو كنت عدوا لكم لما سمعت سبابك هذا بكل هدوء .

وفى اليوم التالى كان الزورق قد وصل إلى ساحل نهر السند ووجد (جنجو) بعض أصحابه يصيدون الأسماك هناك .

❀❀❀❀

الأسرى

وفى اليوم التالى فتح باب الزنزانة فقال الحارس للفتى (جى رام) وهو يسلم عليه على الطريقة الهندوكية وقد طوى يديه إكبارا وتعظيما له : ان السردار (برتاب راى) يطلبك فى حضرته .

فدهش (جى رام) من هذا التغير المفاجىء فى سلوك الحارس إلا أنه نهض وسار معه إلى حيث ذهب به ، فرأى (برتاب راى) جالسا على كرسى من الأبنوس فى مكتبه الخاص ، وأمامه هدايا ملك (سرنديب) موضوعة فى طبق من الفضة ، وهى الهدايا التى سلبها جنود الحاكم من السفن العربية فى الليلة الماضية .

أشار (برتاب راى) إلى أكوام الجواهر واللالى بعد ما مثل بين يديه (جى رام) وقال له : اسمع يا (جى رام) ! إن صاحب الجلالة سوف تسره هدايا ملك سرنديب أكثر مما تسره هدايا ملك (كاتياوار) التى جئت بها لأن جوهرة واحدة منها أغلى من كل ما يحويه صندوقك أنت .

فنظر إليه (جى رام) نظرة غضب وحقد ، وبدأت أسنانه تصطك البعض ببعضها اصطكاكا .

فقال له (برتاب راى) : إنى أرى وجهك شاحبا وعينيك حمراوين

وأظنك لم تستطع أن تنام الليل كله ولعل الزنزانة كانت حارة ، وقد نسيتك عند عودتى من الميناء وإلا فلم تكن هناك حاجة لأن تبقى فى الزنزانة حتى الآن . وقد بعثت رسولا إلى صاحب الجلالة ، وأرجو أن أتسلم أوامر جلالته بخصوص هؤلاء الأسرى .

فقال (جى رام) : كأنك جعلتهم أسرى عندك ؟

ـــ نعم ! وقد قلت لك بالأمس بأن هذه أوامر جلالته .

ـــ وكيف قبضت عليهم ؟ كمقاتل أو مضيف لهم ؟

فأجابه (برتاب راى) : أنت لا زلت طفلا حتى الآن ! كل شيء يجوز فى الحرب .

ـــ وأين أختى إذن ؟

ـــ من !

ـــ أختى !

ـــ وأين كانت ؟

ـــ لا تحاول خداعى ، أنك لا تعرف عواقب الاعتداء على كرامة (راجبوت) إنه ليس سهلا كما تظن ، وقد كنت موظفا لدى ملككم ولكنى الآن جئت كسفير لملك (كاثياوار) ولا تنس أن أختى لو حدث بها سوء فسوف ترانى أقيم لكم سورا من النيران يمتد من (كاثياوار) إلى (راجبوتانه) وأن صاحب الجلالة سوف يفضل أن يسلم إلينا حاكم (ديبل) المتكبر بدل أن يضحي بالآف من جنوده .

لقد أسيء كثيرا إلى هؤلاء العرب الذين كانوا ضيوفنا ، والذى يؤسفنى هو أنهم تعرضوا لهذه المصيبة بسببى ، ويمكن ألا يسمع صراخى من أجلهم فى أى ركن من الهند، إلا أن أيديهم سوف تطول إلى أبعد مكان وأنهم أقدر على أن يؤاخذوك إذا أرادوا .

وكان (برتاب راى) يقدر بأن تنفيذ الأوامر الملكية الخاطئة قد يجلب دمارا ووبالا على من يقوم بتنفيذها ، وأن الملوك يحملون المسئولية كلها على عواتق ولاتهم وقوادهم فى ساعات الخطر المحرجة ، وكان الحاكم مثل صاحبه ملك السند مطمئنا من ناحية الخطر العربى ، ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتحمل مسئولية أخت سفير لمملكة (كاثياوار) فقال له فى صوت هادئ :

— تأكد يا (جى رام) أننى لا أعرف شيئا عن أختك .

— أنت كذاب ، فقد تركتها على ظهر المركب مع نساء العرب .

— إن النساء اللاتى كن على ظهر المركب قد صرن الآن بين الأسرى عندنا ، وإذا كانت أختك بينهن فانى مستعد لأن أرافقك إلى السجن لأعتذر إليها ، هيابنا الآن .

كانت أمنية البحث عن أخته قد سيطرت على عزائم (جى رام) فذهب مع (برتاب راب) إلى السجن فسأله (جى رام) فى الطريق :

— ماذا فعلت بالبحارة العرب ؟

فأجابه (برتاب راى) قائلا : إنهم ظلوا يقاتلون حتى اللحظة الأخيرة فقتلوا جميعا ولم نظفر إلا بأربعة منهم إلى جانب الأطفال

والنساء أما السفينة الأخرى التى كان عليها الملاحون من (سرنديب) فانهم قاوموا فى البداية ثم استسلموا عن آخرهم .

ـــ يعنى ذلك أنك أعلنت الحرب ضد (سرنديب) والعرب معا ؟

ـــ أننى لم أفعل ذلك إلا تحقيقا للأوامر الملكية وما دمت فى هذه الوظيفة فلا بدلى من أن أحقق ما يأمرنى به جلالته ، فلو أنه رد على خطابى وطلبك فى حضرته فتستطيع أن تستأذن جلالته فى الإفراج عن هؤلاء الأسرى وسوف أكون مسرورا بذلك . بل سأتخلص من تحمل مسئوليتهم على عاتقى .

خرج (برتاب راى) و(جى رام) من القصر الحكومى وبعد بضع خطوات دخلوا سياج السجن فأشار (برتاب راى) إلى الحراس ففتحوا أبواب غرفة الأسرى العرب ، فسترت النساء العربيات وجوههن بالحجب ، أما الملاحون العرب فانهم أشاحوا بوجوهم عندما رأوا (جى رام)، وكان الزبير جالسا عند جدار فى زاوية فنظر إلى (جى رام) باحتقار وحقد مريرين ثم أشاح بوجهه شطر أصحابه :

فنظر (جى رام) إلى (برتاب راى) وسأله : أن أختى ليست هنا، أين ذهبت هى ؟

فنادى (برتاب راى) أحد الحراس وسأله : هل النساء كلهن فى هذه الغرفة أم توجد بعضهن فى غرفة بحارة سرنديب ؟

ـــ لا ، يا صاحب المعالى ، جميع النساء فى هذه الغرفة وحدها !

فنظر (جي رام) بارتباك إلى الزبير وقال له بلغته العربية الركيكة :

يا أخي ! لا تنظر إلى هكذا ، أنني برئ ، ولست آثما فهل تعرف أين أختي الآن ؟

وإذا بالزبير يصيح صيحة هائجة تشبه زئير الأسد الطاوى الضارى ويقول له : لقد اتضح أنك أذل وأحقر مما كنت أظن ، أنك لا تستطيع أن تلبس الباطل لباس الصدق أو تخفى خبثك ، ولكن عليك أن لا تنسى بأن ناهيد لو أصابها أى سوء فانك لن تجد بقعة فى أرض الله تحميك من انتقامنا ! إنك قد تركت أختك على السفينة لتخطف ناهيد ! وقد نجحت فى خطتك . فقد بعثت حليفك هذا عندنا ليضيفنا فطلبنى من السفينة ثم انتهزت أنت الفرصة فجئت من الخلف فأخذت ناهيد وذهبت بها إلى مكان مجهول . . . لأسباب لا تعرف دعنى أقول لك بصراحة أنكم ما دمتم تسيرون على هذا الأساوب فى الحرب والهدنة فتأكدوا أن أيام الحكم المقدرة لملككم قد أصبحت معدودة وقد حانت نهايتها .

وفجأة خطف (برتاب راى) سوطا من يد الحارس فضرب به وجه الزبير ، وكان يستعد لضربة ثانية حين أخذ (جى رام) بيده فحاول أن يفلت يده منه وهو يقول : إنك تستطيع أن تتحمل إهانة الملك أما أنا فلا أستطيع ذلك .

فقال له (جى رام) إننى أسألك ولآخر مرة أين أختى ؟ وأين تلك الفتاة العربية ؟ أين اخفيتهما ؟

وبهذا السؤال هدأت ثورة الغضب فى دماغ (برتاب راى) وبدأ يفكر لبضع لحظات ثم قال : أفلا يمكن أن بعضهم قد ألقاها فى

البحر تحت عاطفة الانتقام خلال هجومنا على السفينة ؟

فأجابه (جى رام) : أن هؤلاء الناس لا ينسون الكرامة عند العداوة إن غياب أختى مع فتاة عربية إنما هى مؤا مرة مخططة دبرها إنسان حقير من أمثالك .

ومرة أخرى خاطب الزبير (جى رام) قائلا : إنك لا تستطيع أن تخدعنى مرة أخرى بما تقول ! إن ناهيد وخالدا وأختك قد اختفوا من السفينة فى وقت واحد مما يدل على أنهم فى حوزتك ! أننى لا أتوقع أى خير منك ، ولكننا نريد على الأقل أن تقدمونا إلى ملك السند وأن تكون ناهيد وخالد معنا حتى يقضى المالك فى قضيتنا .

فانتبه (برتاب راى) وقال . . . فهمت الآن يا (جى رام) . . . لقد اختفت الفتاتان من السفينة مع رجل ثالث . . . إذن كل شىء واضح . . . لقد أبلغت أن زورقا من زوارق الميناء اختفى مساء أمس ، ولكنهم لا يستطيعون أن يبتعدوا عنا كثيرا أو يفلتوا من أيدينا ، تعال معى نذهب .

فخرج (برتاب راى) و(جى رام) من السجن وركبا فرسين وأسرعا إلى الميناء ، وأكد حراس المينا ما قاله (برتاب راى) بأن زورقا من الزوارق قد اختفى مساء أمس مما أقلق (جى رام) وبدأ يضطرب من أجل أخته ومصيرها ، وبعث (برتاب راى) بعض الزوارق والسفن للبحث والتحرى على السواحل الشمالية والغربية وأكد للفتى (جى رام) أن ركاب هذا الزورق لا يمكن أن يفلتوا بأى حال ثم عادا إلى المدينة .

ولما لم يعرف (جى رام) شيئا عن أخته حتى المساء، اعتزم على أن يذهب مرة أخرى إلى الميناء ولكن حضر إليه بعض جنود (برتاب راى) وذهبوابه معهم إلى قصر الحاكم .

(٢)

كان الزبير وعلى قد شد وثاقهما إلى شجرتين من أشجار جوز الهند فى فناء متهدم لقصر (برتاب راى) ، وكان (برتاب راى) وبعض جنوده وجلادان يحملان سوطين قد اجتمعا عند على والزبير ، وكانت علامات الضرب على صدر كل من الزبير وعلى بادية وقد تدلى رأساهما مما يدل على أنهما عذبا تعذيبا شديدا . . . وأعلن جندى أن (جى رام) قد وصل فأشار (برتاب راى) إلى الجلاد الذى بدأ يضرب الزبير وعليا بالسياط ، أما الزبير فكان يواجه الضربات كصخرة عاتية ولكن عليا كان قد نفد صبره وفقد قوته ، فكان يصيح مع كل ضربة سوط .

وعندما وصل (جى رام) عند الباب الخارجى اخترق أذنه صياح على وصرخاته فأسرع إلى الجلادين ودفعهما بقوة ثم التفت إلى (برتاب راى) وهو يقول : هذا ظلم وإثم ! لقد وعدتنى بأنك قد فوضت قضيتهم إلى الملك .

فأجاب (برتاب راى) وهو يشير إلى على ! هذا الولد قد عثر عليه الجنود فى المدينة (ديبل) وانه كان قد اختفى مع أختك من السفينة ولابد أن بقية أصحابه أيضا قد اختفوا فى المدينة وماحولها .

فتقدم (جي رام) نحو علي ، وقال له : أين كنت ؟ وأين أختي ؟

فنظر إليه علي بنظرة الآمل الراجي ثم أطرق برأسه ، فقال له (جي رام) : إذا كنت تعرف شيئا عن (مايا ديوى) فأخبرنى بذلك ، فأنا أستطيع أن أخلصك .

فرفع علي رأسه وأخذ يصيح ويقول : لا أعرف شيئا ، أقول لك الحق ، أنا لا أعرف عنها شيئا ، وقد بحثت عنها قبل أن أقفز من السفينة ولكنى لم أعرف كيف اختفت وأين ذهبت ؟

فسأله (جي رام) وكيف وصلت إلى المدينة ؟

فأجابه علي : لقد قفزت من السفينة إلى البحر ، وعند شاطئ البحر اختفيت داخل أحد القوارب ، وحينما وصلت اليوم إلى المدينة قبض علي الجنود ، وأحضرونى إلى هنا ، إنكم ظالمون جميعا أننى ما اقترفت ذنبا نحوكم . . .

نظر (جي رام) إلى ناحية الزبير إلا أنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة التي يخاطبه بها في هذا الجو الهائج من مشاعر الألم والندم والغضب والدهشة فارتفعت عيناه نحوه ثم انخفضت وارتعدت شفتاه ثم انضمت ، فالتفت إلى (برتاب راى) قائلا : أرجوك أن تتركهم ! أننى لا أشك فيهما .

فقال (برتاب رأى) كيف أفرج عنهما ؟ أن أختك إن كانت على السفينة فلا بد أنهما يعرفان مكانها . . . وأنت تعتقدنى مجرما

وأريد أن أؤكد لك خطأ اعتقادك ، وأرى من واجبي أن أجبرهم على الاعتراف بأنهم قد أخفوا أختك ، وإن لم يكونوا قد أخفوها فهذا يعنى أنهم قد ألقوا بها فى البحر قبل هجومنا على السفينة . . .

وليس أمامى الآن إلا أن يعترف هؤلاء بجريمتهم ، أو تعترف أنت بأن أختك لم تكن على السفينة ، وقد اختلقت حيلة لترهبنى بها.

ثم أشار (برتاب راى) إلى الجلادين فبدآ يضربان الزبير وعليا بالسياط ، فصاح (جى رام) : لا ! لا ! انهما بريئان هذا ظلم خلوا سبيلهما ، ولما رأى أن صياحه لم يؤثر فى شىء ، تقدم نحو أحد الجلادين فلطمه لطمة ، ولكن بعض جنود (برتاب راى) باشارة منه ــ دفعوه إلى الوراء وكان (جى رام) يحاول التخلص من الجنود الذين أحاطوا به بينما كان على يئن تحت وطأة الضرب ! وأما الزبير فكان ينظر الى (جى رام) مع كل ضربة ثم يغمض عينيه ، وأخيرا بدأصوت أنين على يخفت ، وفقد الزبير طاقته واحتماله ، ولم بعد يستطيع أن يرفع رأسه أو يفتح عينيه .

وفى أثناء ذلك أمر (برتاب راى) جنديا أن يأتى بقضيب حديدى محمى فصاح (جى رام) مرة أخرى قائلا : أنت ظالم يا (برتاب راى) انك لئيم حقير ! تستطيع أن تعاقبنى بما تشاء ، ولكن اطلق سراح هوءلاء وارحمهم .

فقال له (برتاب راى) فى صوت رهيب مرعد : أننى لا أحفل بهذيانك وسأترك قضيتك لجلالته يقضى فيها كما يشاء ، وأما هوءلاء فأنا الآن مالك أعناقهم ، سأفقأ عيونهم وأنهش بالأسواط جسومهم أنه

لا يمكن أن يبقى هؤلاء أحياء لتذهب أنت إلى جلالته فتحملنى مسؤلية خطف أختك ، إن أختك ما دامت قد خطفت من السفينة فانه لا بدلى أن أبحث عنها ولا يمنعنى مانع من أن أفعل بالأطفال والنساء مثل ما أفعل بهذين ثم أعطاه الجندى القضيب الحديدى فتقدم هو نحو الزبير فصاح (جى رام) بصوت عال ! لا ! لا! على مهلك أن أختى لم تكن على السفينة ، كنت وحيدا ، إنما كنت أريد أن أنقذ نفوس هوءلاء العرب فقط .

فأجابه (برتاب راى) : لكن كيف لى أن أثق بأنك لن تهيج الملك ضدى بمثل قصصك الكاذبة هذه ؟

— إنى أعدك يا (برتاب راى) وعد (راجبوت) صدقنى وثق بكلامى

— وعليك أن تشهد عند جلالته بأنه لم تخطف أية فتاة من السفينة

— إنك لو خليت سبيل هوءلاء فانى أعدك هذا الوعد أيضا .

— إن إطلاق سراح هوءلاء أو أسرهم منوط برغبة جلالته ، وكل ما أستطيع أن افعله اننى لن اعذبهم بعد هذا ، وعليك أن تعترف أمام الملك أيضا بأنك قد الححت على بالافراج عن هوءلاء العرب ، وقد اتخذت حيلة من أجل ذلك وقلت إن أختك قد خطفت .

فأجابه (جى رام) فى يأس : مستعد لأن أقول ذلك أيضا .

فقال (برتاب راى) وهو يرمى بالقضيب الحديدى على الأرض إنك قد أقلقتنى بدون سبب !

فتح الزبير عينيه وهو يفيق مما أصابه من الألم فوجد نفسه مع على فى السجن ، و (جى رام) يكمد جروحه بالمنديل المبلل فى ماء الدلو وامرأة بجانبه تحاول إفاقة على ، فاستوى الزبير جالسا فملأ (جى رام) كوبا من الماء وقربه من شفتيه ، لكن الزبير استعاد عواطف الغضب والاحتقار نحوه مرة أخرى ، إلا أنه أكره نفسه فشرب جرعات من الماء وهو يرى الدموع تترقرق فى عينيى (جى رام) الذى قال له : يا أخى الزبير ! إنى آسف . . . ثم صمت وانهمرت الدموع من عينيه الجميلتين .

فقال له الزبير وهو يبتسم ابتسامة الحزين الكئيب : إنك يا (جى رام) قد اصبحت لغزا بالنسبة لى ، أنت الذى تسبب فى حالنا هذه بمشاركته فى مؤامرة مع حاكم (ديبل) ضدنا ! ثم قاتلت الجلادين من أجلى ، والآن أراك تبكى ، قل لى ماذا يعنى كل هذا . . ! ؟

فارتفع صوت كئيب من أعماق قلب (جى رام) يقول : صدقنى يا أخى الزبير ! أننى صديقك ! لقد أنقذتنى من موت محقق ، وان ابن (راجبوت) لا يمكن أن ينسى الجميل أبدا ، لقد خدعنى حاكم ديبل وألقانى فى زنزانة قبل هجومه على سفينتكم . إنك قد أسأت بى الظن واعتبرتنى مخادعا غادرا ولكنى برئ . ولو قدرلى فسوف ترانى كيف أؤكد لك هذا كله .

فقال الزبير : إذا لم تكن مشاركا فى هذه المؤامرة فاننى أسألك عن ناهيد وخالد اين هما ؟ ؟

فأجابه (جى رام) : ما دمت لا أعرف شيئا عن (مايا ديوى)

فكيف استطيع أن أخبرك عن ناهيد وخالد ، وقد قلت لك أننى قضيت الليلة كلها فى الزنزانة وكنت أنت فى السفينة وقد اختفى زورق من الميناء فى تلك الليلة ، فاذا كنت قد بعثت بهم قبل الصدام فأرجوك أن لا تخفى عنى شيئا ، وأننى لعلى ثقة بأنك قد بعثتهم ليأمنوا من أيدى (برتاب راى) الظالمة وأننى أعدك بأنه لن يمسك سوء فى هذا الشأن ، وقد أكدت للحاكم (برتاب راى) بأن أختى لم تكن على السفينة ، ولولا ذلك لما نجوتما اليوم من هذا الخبيث الظالم .

فأجابه الزبير ياليتنى أستطيع أن أثق فيك ! إنك انت وهذا الحاكم قد اخفيتما ناهيد لتحملا مسئولية خطف (مايا ديوى) على عواتقنا ، حتى لانسأل الملك عن ناهيد وخالد !

فقال (جى رام) : صدقنى يا زبير ! ما الفائدة فى أن أؤكد لك

وما دمت أنت وأصحابك لا تعرفون شيئا عن (مايا ديوى) وناهيد فان (برتاب راى) إذن هو الذى ارتكب هذه الجريمة الماكرة ، إنه كان يعذبكما أمامى ليمنعنى عن ذكر (مايا ديوى) وناهيد فى المستقبل وكذلك أعدك مثله ، وأنت تعرف أن أى أخ من عشيرة (راجبوت) لا يكذب وأنه من الصعب له أن يعد وعدا كاذبا فى قضية تختص بأخته .

فأجابه الزبير : أشكرك على كرمك ووفائك ! أننا الآن تحت رحمة سيوفكم ولا فرق إن كنتم تكذبون علينا أو تصدقون ، إننى لا استطيع الآن أن أعاقبك على كذبك كما أنه لا يمكن لى أن أجازيك على صدقك ، وكل ما أعرفه هوأنك كنت السبب فى هذا العذاب

الذى ذقنا مرارته وأننى ان أثق فيك ولا فى صاحبك حاكم (ديبل) حتى أرى ناهيد ولو أن الحوادث المقبلة أكدت براءتك ، فاننى سوف أعتذر إليك عن سلوكى نحوك ، وإذا كان حاكم (ديبل) هو المسئول عن هذا كله فيجب أن تحاول الاتصال بالملك حتى يعرف خبرنا ، وأنا أقول لك بكل تأكيد وصراحة بأننا لا نعرف شيئا عن خالد وناهيد وأختك ، إن بحارة سرنديب كانوا قد رأوا بعض الناس ينزلون من السفينة ويركبون زورقا وإن الزورق هذا قد اختفى فى ناحية الجنوب . وإن كانوا قد اختفوا فى هذا الزورق فالقضية واضحة ! فان الزورق لم يختف من سفينتنا وإنما اختفى من الميناء ويجب أن يعرف أصحاب الميناء من أخذ الزورق وأتى به إلى السفينة؟

فقال (جى رام) وهو يضرب بيده على جبينه : (برتاب) هذا لعين لئيم مكير ظالم جبان وأرجوك أن تعفولى زلتى يا زبير فقد شككت فيك وأنا نادم على ذلك .

ولم يتأثر الزبير كثيرا من كلماته هذه ، وإنما أثرت فى نفسه دموعه المنهمرة الغزيرة فقال وهو يمسح بيده على عاتق (جى رام) : اذهب يا (جى رام) وابحث عنهم !

إن (برتاب راى) هذا ظالم وماكر فى نفس الوقت ، ولا تخبره عن سريرة قلبك ، وإلا فلن تتمكن من البحث عن أختك كما أن الملك لن يتمكن من معرفة أمرنا .

فقام (جى رام) وخرج من الزنزانة ثم أغلق الحراس الباب ،

وبعد بضع خطوات سمعه الزبير وهو يأمر حارسا أن يقوده إلى الزنزانة التى حبس فيها بحارة سرنديب ، وأن يفتح بابها .

وبعد أن سأل بعض الأسئلة من هوءلاء البحارة خرج من الزنزانة وقلبه ينوء تحت عبء ثقيل ، فقد أيد بحارة سرنديب ما قاله الزبير فكان حزينا آسفا على أنه شك فيما قاله الزبير ولم يثق به .

●●●●

اضطراب مايا ديوى

وبعد ثلاثة أسابيع كانت ناهيد تستريح فى غرفة من غرف حصن مهجور . . هذا الحصن الذى يقع على مسافة عشرين ميلا من مدينة "برهمن آباد" كان مخبأ لجنجو وأصحابه اللصوص المغامرين فيما مضى من الزمان حيث عادوا إليه مرة أخرى فعمروه من جديد .

كان جنجو قلقا بسبب الجروح التى أصابت ناهيد والحمى التى لم تكن تفارقها وكان هذا هو السبب الذى جعله يلجأ إلى مثل هذا المكان حتى تبرأ ناهيد وتشفى من مرضها وجروحها . . لقد كان هذا الحصن مخبأ آمنا له ولأصحابه القدامى والجدد .

كان جنجو قد عاهد نفسه وحلف أن لا يعود إلى الإغارة واللصوصية والقرصنة مرة أخرى . ولكنه كان فى حاجة إلى الخيل والسلاح المطلوب لغرض خاص يهدف إليه هو وأصحابه ، وبعد غرق سفينته لم يكن لديه إلا أربع جواهر ثمينة كان يحتفظ بها عنده ، فأراد أن يبيعها فى سوق (برهمن آباد) ، فتنكر فى زى تاجر من تجار منطقة كجرات بالهند فذهب هناك وباع جوهرتين ، وحصل على مبلغ كبير يكفيه وأصحابه لإعداد الخيل والسيوف والمواد الغذائية .

لو أن جنجو حصل على ملجأ كهذا حوالى مدينة ديبل لجعله

بلا شك مركزا لأعماله إلا أنه لم يجد هناك مكانا مناسبا ، وإلى جانب ذلك فانه كان يعتقد أن الأسرى سوف يعرضون على الملك إما فى (برهمن آباد) أو فى (الرور) ومنذ عدة أيام كان زملاء (جنجو) قد قاموا بتمشيط كامل للطريق الواقع بين (دبيل) و (برهمن آباد) .

وكان خالد قد بدأ يثق بجنجو وزالت شكوكه فيه ، كما أن (مايا ديوى) كانت تقوم بعيادة ناهيد ليلا و نهارا ، مما أكد لجنجو أنها بريئة وكذلك ناهيد فكانت قد تأكدت من براءتها إلا أن خالدا لم يتأثر بهذا كله ، فكأنها لم تكن شيئا مذكورا بالنسبة إليه ، حتى أنه عندما كان يجلس عند أخته ناهيد ويرى (مايا ديوى) وهى مشغولة بعيادة ناهيد وتضميد جروحها وتدليك جسدها ويلاحظ محاولاتها لأن تلفته إلى نفسها ويسمعها تقول رغم إرادتها :

— إن أختك الآن طيبة وسوف تبرأ جروحها . . الأخت قد برأت الآن فلا تفكر فيها : . . إلا أنه لم يكن يحفل بها فتنجرح مشاعرها وتظن أن خالدا قد أوصد أبواب عينيه وأذنيه أمام مشاعرها وعواطفها .

لقد كانت هذه هى نفس الحال، حتى خلال السفر الطويل فى الزورق بين هذا المكان ومصب نهر السند ، فماء النهر هو نفس الماء الذى كانت تراه فى البحر . والشمس التى كانت تشرق هنا هى نفس الشمس التى كانت تراها قبل ذلك . وكانت النجوم هى هى والقمر هو هو . . ولكن هذا الوضع فى سلوك خالد نحوها كان قد قضى على جمال كل شىء فى نظرها ، فلو أن خالدا استطاع أن يتجاوب

مع حبها ، ويبادلها ابتسامة ، ولو أنه سألها عن حالها أو أبدى شيئا مما يدل على حبه لها أو على الأقل على التعاطف معها لنسيت فراق أخيها وسرها بأن الأقدار لم تفرق على الأقل بينها وبين خالد . . فقد كانت كثيرا ما تقول فى نفسها : حبذا لو استمر هذا السفر مع خالد إلى مالا نهاية له ، وحبذا لو هبت عاصفة شديدة لتغيير طريق السفينة حتى تصل إلى جزيرة نائية تجرى فيها جداول المياه العذبة الشفافة وتغنى فيها الشلالات أغانى الحب والغرام . و تكسوها أشجار جميلة دائمة الاخضرار وبحيرات المياه الصافية التى يزدهر فيها زهور النيلوفر . .

إن دنيا الخيال التى أبدعتها (مايا ديوى) كانت قد انقلبت رأسا على عقب بعد أن رأت ما حدث فى ميناء (ديبل) إلا أنها كانت قد بدأت تفكر فى دنيا الخيال الجديدة منذ أن أتاحت الأقدار لها أن تنزل من السفينة وتسافر فى زورق برفقة خالد . . ولكن المأساة التى واجهها المسلمون العرب فى ميناء (ديبل) كانت قد غيرت خالدا . فاستحال من شاب حى لطيف إلى صنم جامد متبلد . . إنه لم يكن يقدر على أن يتجاوب مع نظرات الفتاة البريئة المحبة الوفية إلا بعين البغضاء والاحتقار .

ولم يكن بين تلك الجماعة من يعتقد بأن (مايا ديوى) بريئة وليست لها يدا أو أية صلة بما حدث فى ميناء ديبل إلا ناهيد التى تبينت بفضل ذكائها النسوى ما كان يدور فى قلب الفتاة الوادعة البريئة ، فكانت كلما أتيحت لها فرصة الحديث إلى خالد تتناول فى حديثها

بـراءة (مـايا ديوى) وحياءها وعفافها وطهارة قلبها أمامه وكلما حاول خالد أن ينتقل من هذا الموضوع إلى موضوع آخر قالت له : إنك يا خالد لقاسي القلب . . أما ترى وجهها الأبيض الأحمر الجميل قد ذبل وذهبت نضارته ورونقه . . . قد يكون أخوها آثما ولكن قلبي ليشهد على أنها بريئة لا ذنب لها .

وأنها ترى فيك آخر ملاذ لها فيجب أن تلاطفها وتعزيها فانها قد صرحت لى بأن أخاها إذا اتضح بأنه مجرم آثم وأنه شارك فى هذه المؤامرة فانها لن تعود إليه ولن تقابله أبدا .

فكان يرد عليها قائلا : إننى لا أحتاج إلى مصباح فى ضوء النهار ، وقد رأيت ما فيه الكفاية ، ولا يمكننى الآن أن أغير رأيى حول هذه الفتاة .

﴿ ٢ ﴾

وبعد بضعة أيام من البقاء فى ذلك الحصن ، أبلت ناهيد واستطاعت أن تتحرك وتذهب وتجيئ ولكن جرح السهم الذى أصابها على السفينة لم يلتئم تماما . أما خالد فقد كان يخرج مع جماعة من الفرسان فيتجولون ثم يعودون ، وفى إحدى الأمسيات عادت المجموعات كلها إلا المجموعة المكونة من خالد وأربعة آخرين من رفقته ، وكانت ناهيد تدعو لأخيها رافعة يديها بعد صلاة المغرب و(جنجو) كان ينتظر خالدا فى الطريق متسلقا شجرة عالية بعد أن بعث ببعض أعوانه للبحث عن الجماعة المفقودة .

أما (مايا ديوى) فقد خرجت هى الأخرى من الحصن تختلس النظر من خلال الأشجار لعلها ترى شيئا وفجأة سمعت صوت وطء أقدام للخيل فبدأ قلبها يخفق فتقدمت نحو الصوت بخطوات مسرعة فاشتبك طرف خمارها بالأشواك ، وبينما كانت تحاول أن تخلص ذيلها من الأشواك بدا لها خالد والفرسان الآخرون فأمسك خالد عنان فرسه ليوقفه ثم سألها : كيف أختى الآن ؟

فنفذت الكلمات إلى قلبها كالسهم فأخذت تنظر إلى خالد كالذاهلة وعادت فروع الشجرة ذات الأشواك التى كانت قد فكتها عن ذيلها فالتفت بها مرة ثانية وبعد لحظة سألها خالد : كيف حال أختى الآن أهى بخير . .

فانتبهت مايا وقالت له :

— هى بخير ولكنك تأخرت ؟

وما ذا تصنعين هنا ؟

أنا . . . لا أصنع شيئا . . قالت هذه الكلمات ثم انشغلت بذيلها تفكه من الأشواك ، أما نظراتها فظلت عالقة بخالد الذى نزل من فرسه ، بينما انفلت أصحابه ياسمين ينظر بعضهم إلى البعض ، فأخذ خالد يفك الفروع والأشواك من طرفها فاشتدت سرعة أنفاسها وتنهداتها ، وانهمرت عبرات الفرح والشكر من عينيها ، فوضعت إحدى يديها المرتعشتين على يده .

فقال لها خالد وهو يفرز فرعا من ذيلها : أمسكيه بيدك !

فأسرعت لتأخذ الفرع إلا أن شوكة وخزت أصبعها فاندفع الفرع من يدها والتف بذيلها مرة أخرى ، ورغم أن الشوكة كانت قد آلمتها كثيرا ، إلا أنها لم تفعل شيئا غير ابتسامة . . تلك الابتسامة مع العيون الدامعة التى أضافت إلى روعة جمالها ! ومع الشكر والفرح أصبح وجهها أجمل من زهرة وزادت من نضارتها وجمالها قطرات الندى فنظر إليها خالد ثم غض بصره وقال : خلينى ! أقلع الشوكة .

مدت (مايا ديوى) يدها إليه دون أن تنطق بكلمة فعالجها حتى قلع الشوكة ثم التفت إلى ذيلها الملتف بفروع الشجرة وأشواكها وسألها : ما الذى جاء بك هاهنا ؟

فقالت مايا ديوى : كان الحر شديدا داخل الحصن ، فخرجت لأتمتع بالهواء الطلق . . أما قلبها فكأنه كان يقول لخالد : أحقيقة أنك لم تفهم لما ذا جئت هنا . . يا ليتنى أشتبك بالأشواك وتنشغل أنت بأمرها دائما !

فأجابها خالد : ولكن الحر تحت الأشجار الآن أشد .

فاضطربت (مايا ديوى) وأخذت تنظر إلى خالد ، ثم قالت له بعد أن فكرت لحظة : كنت أريد أن أذهب إلى ضفة النهر .

— ولكن النهر فى الناحية الأخرى .

— وأنا أيضا كنت ذاهبة إلى نفس الناحية ولكن . . .

— ولكن ما ذا ؟

— سمعت صوت وقع أقدام الخيل فعدت إلى هذه الناحية ، إنك تأخرت اليوم كثيرا . . . وقد كنت على جمر من القلق .

— لم أفهم سبب اضطرابك ! ولو كنت أسيرا مثل الزبير وأصحابنا الآخرين لكنت مطمئنة ، ولكنى أؤكد لك أننى أسير أيضا ، إنى لا أستطيع أن أفارق أختى كما فارق أخوك أخته .

أحست (مايا ديوى) حينما سمعت هذه الكلمات من خالد كأنه طعنها بسهم رائش فى قلبها ، فظلت واقفة ذاهلة جامدة ثم أخذت تحدق فى وجه خالد على خلاف عادتها ثم دمعت عيناها مرة أخرى فكأن حجبا شاحبة قد غطت بؤبوء العينين ثم استحالت هذه الحجب الشاحبة إلى دموع لم تستطع أهداب عينيها أن تمسكها فسقطت دمعتان كبيرتان على خديها فتركتا خطين صغيرين حتى وصلتا إلى شفتيها حيث تعلقتا بهما فسترت (مايا ذيوى) وجهها بخمارها .

— هيأ بنا . . . لنعد . . . فقد تأخرنا . .

فانتبهت على صوته ففتحت عينيها وكان ذيلها قد انفك من الأشواك ورأت خالدا وقد أمسك بلجام الفرس استعدادا للذهاب .

فقالت له : تفضل أنت . . وسآتى لوحدى ، ولكنى أريد أن أقول لك كلمة ولآخر مرة بأننى بريئة ، ولو أن أخى اشترك فى هذه المؤامرة فلا يجوز أن أعذب أنا مكانه .

فأجابها خالد : إنى لا أريد أن أعاقبك سوف تصلين عند أخيك عاجلا وهو ليس بعيدا عنك ، إذ هو نازل على طلل عند ضفة النهر

على بعد أربعة فراسخ من هنا . . إنه ذاهب بالأسرى إلى الملك ليحصل على جائزته منه ومعه حاكم ديبل أيضا ، وأنهم سيصلون غدا إلى (برهمن آباد) وربما تصل رسالتنا إلى أخيك هذه الليلة ، وإذا وافق على الإفراج عن الأسرى فسوف نبلغك عنده ، ولم أوافق على أن تبقى عندنا لأن المبادئ الخلقية التي نؤمن بها لا تسمح لنا أن نعتدى على امرأة مسكينة ، فلا تفكرى فى شيىء ولا تراعى .

— ومن الذى قال لك أن أخي ذاهب بالأسرى إلى (برهمن آباد) أفلا يمكن أنه ذاهب مع (برتاب راى) كأسير !

لقد رأيته اليوم بعيني راكبا فرسا أشهب ، أما الأسرى فكانوا على عربات الثور فى القيود والأغلال ، هيابنا ! لقد تأخرنا كثيرا — وأرى أن العم (جنجو) فى انتظارى .

— اذهب أنت فانى على أثرك .

(٣)

وصل خالد إلى باب الحصن مترجلا وهو يمسك بلجام الفرس وكان (جنجو) ينتظره فى الخارج فقال له وهو يبتسم : أين تركت (مايا ديوى) يا خالد ؟

فقال خالد وكأنه لا يحفل بأمرها : ستأتى الآن .

— تركتها وراءك فى هذا الظلام . . ؟ لماذا لم تأت بها معك ؟

— اذهب أنت ، وهات بها فقد قالت لى ، اذهب وسأجى على أثرك .

فقال (جنجو) وهو يبتسم : إن المرأة مخلوق غريب ! إنها تستطيع أن تنتظرك فى الطريق وحيدة مختفية ، وتستطيع أن تشتبك بالأشواك من أجلك ، ولكنها إذا رأتك تميل إليها قليلا ، فرت منك كما تفر الغزالة الوحشية من الانسان .

فأجابه خالد : إن قلبى لا يسع للشعر ! قل لى ماذا تعمل الآن؟ ولعلك قد سمعت بخبر القافلة القادمة من دبلى .

ـــ نعم لقد سمعت وعرفت أنه يرافقهم مئتان من الجنود المسلحين ولا نستطيع أن نهاجمهم بهذا العدد الضئيل من رفاقنا ، وقد فكرت فى حيلة يمكن أن تساعدنا فى إحضار (جى رام) هنا .

ـــ أرأيت كيف أن ناهيد سمعت ما قالته تلك الفتاة فتأثرت به حتى أنها غيرت رأيها فى (جى رام) وأظنك قد تأثرت بها أيضا ؟ فأجابه (جنجو) وهو يبتسم .

ـــ يا بنى ! أنت الذى تأثرت بها أكثر منى على أى حال فلست أشك الآن فى أن (مايا ديوى) بريئة .

ـــ ومع ذلك تريد أن تهدد (جى رام) بقتل أخته ؟

ـــ لأنه ليس لدينا حيلة لتحرير زملائك غير هذه .

ـــ ولكن إذا ضحى (جى رام) بأخته من أجل إرضاء الملك ، فما العمل ؟

ـــ لا أظن هذا . . . ولكن إذا اتضح لنا أن (جى رام) حقير ولئيم إلى هذا الحد فلا بد أن نحميها من أخ ظالم مثله ، وأرى

أنها سوف تفضل البقاء معكم بدل الذهب مع أخيها . . . إن أختك يمكن لهـا أن تتحمل صعوبـات السفر بعـد بضعة أيـام وسوف نوصلـكم داخل حدود مكران .

— ولـكن كيف لنا أن نترك إخواننا فى هذه المصيبة ؟

— إنك تستطيع أن تفيدهم أكثر عـنـد ما تعود إلى أرض العرب ، وأظن أن القبض على بحارة (سرنديب) لم يكن إلا لإخفـاء خبر هـذا الحدث لـكيلا يعرفـه العـرب ، لأنهم إذا عرفوا فانهم لن يصبروا على هذا الضيم والعـدوان ، ولا تستطيع أن تسافر حتى تبرأ ناهيد لترافقك وأعتقد أننا إذا قبضنا على (جى رام) فيمكننـا أن ننجح على الأقل فى إطلاق سراح الزبير .

لو نجحت خطتنا هذه فاننا نستطيع الانتقام إننى لا أعرف أحدا فى بلاد العرب ، ولا يمكن أن يستمع إلى أحد فى دمشق أو البصرة ، أما الزبير فانـه يعرف الالآف من النـاس ، نعم ! إنك لم تخبرنى عن عملى فى هذه الليلة ؟

— عليك أن تستريح الليلة ، ولـكن (مايا ديوى) لم تعد حتى الآن لعلها قد وصلت إلى الحصن من الباب الثانى .

— سأعرف الآن ! ثم دخل الحصن مسرعا ثم عاد وهو يقول للعم (جنجو) : أنها لم تعد إلى الآن .

— قال جنجو : أين تركتها ؟ أهى بعيدة من هنا ؟

— تركتها وراء هذه الأشجار على مسافة مئة قدم .

— هل أسأت إليها فى الكلام ؟

— لا . . . ولكنها قد تعودت أن تسكب الدموع على كل ما أقول لها ، وأظن أننى قد أخطأت خطأ واحدا .

— وما ذلك ؟

— قلت لها إن أخاها على مسافة أربعة فراسخ من ها هنا .

— لا يمكن أن تجتاز امرأة وحيدة هذه الغابة ليلا ! ،

ثم نادى جنجو رجاله، وأمرهم بالبحث عن (مايا ديوى) وقال لخالد : لعلها لا تزال تناجى تلك الشجرة ذات الأشواك إلى الآن . . اذهب أنت إلى تلك الناحية ، أما أنا فذاهب إلى ضفة النهر أننى لا أشك فيها ولكن المرأة فى حالة يأسها قد تأتى بأشياء لا تتوقعها منها عادة إنى ذاهب حتى لا يصبح زورقنا سببا لهلاكها .

(٤)

كانت (مايا ديوى) لا تزال واقفة عند الشجرة بعد ذهاب خالد. تلك الشجرة التى قربت أشواكها يد خالد منها ، إن هذه الأشواك التى قربت بينها وبين حبيبها لم تكن تقل جمالا عن الأزهار فى نظرها ظلت تفكر فى تلك اللحظات الحلوة المرة السريعة التى قضاها خالد عندها ، كانت كلماته لا تزال ترن وتدوى فى أذنيها وأحست كأنها تتجرع — وهى تسترجع تلك اللحظات جرعات مزجت بالعسل . . لقد تحول قلبها إلى ميدان لأفكار وآراء متضاربة حول خالد . . . فكانت تتصوره هيكلا مجسما للجفاء والقسوة والغضب حينا ، وتعتبره

مثالا للحب والتضحية والإيثار حينا آخر ، وبعد لحظات من وقوفها هناك شعرت بعبء ثقيل على قلبها فسارت فى ضوء القمر وهى تتقى الأشجار والآجام متجهة نحو النهر .

وعند ما وصلت إلى الضفة وجدت عندها نفس الزورق الذى جاء بهم إلى ذلك المكان بعد الحادثة التى وقعت لهم قرب ديبل . . ذلك الزورق الذى ركبته (مايا ديوى) فيمن ركبه وظلت تناجى النجوم وهى فى سفرها الطويل مع خالد . . . جلست فى مؤخرة الزورق ومدت رجليها فى الماء وأخذت تلهو بأمواجه ، بينما كانت أصوات بنات آوى وعواء الذئاب فى الغابة القريبة تخترق سمعها فقالت فى نفسها : وما ذا لو أن ذئبا جاء إليها . . . ؟ ثم أجابت نفسها : إن جاء ذئب فلن أحاول الفرار وإنما سأنزل من الزورق ، وأقف أمامه ليزدردنى أو يقتلنى وإذا رأى هو جثتى مطروحة فى الصباح فماذا سوف يكون حاله ياترى ؟ !

سيقول لى : مايا ! لماذا جئت هنا ؟ وإنما كنت أمازحك . . وقد كنت أعرف أنك بريئة ! عفوك يا مايا . . . لقد أخطأت فى معرفتك . . . لا ! لا ! لعله لن يقول هذا ، وإنما سيقول إنها كانت مجنونة ضعيفة العقل ، نعم أنا ضعيفة العقل ، لا مكان لى فى قلبه ، إنه كان يخلص ذيلى من الأشواك فكنت أظن أننى قد فزت بملك الدنيا كنت أبنى بيوتا وهمية خيالية من الرمل على ضفة النهر . . إن قلبه قاس متحجر . . . إنه ظالم . . . إنه لا يثق بأحد وكيف يمكن أن يثق بنا وقد أساء أخى إليهم ، ليته لم يكن أخى ، . . ليته أخبرنى على السفينة

بأنـه فاعل بهم ما فعـل من الغـدر والخـداع إذن لم أكن لأنظر نحو خالـد بعين الحب والحنـان ! ، إنهم سيرسلوننى إلى أخى ! إذا كانت هذه نهاية قصتى ، فلماذا قدر لى أن أقابله على السفينـة ! ثم إذا كان فراقنا قد حان عند ديبل فلماذا جاءت بنا الأقـدار إلى هذا المكان ؟ ولماذا لا زلت أنظر إليه نظرة الحب بالرغم من أنه يبغضنى ؟ ولماذا لا أزال آمل فيه رغم كل عواطف اليأس والقنوط ! ؟ نعم لقـد كنت مكرهة ، لم أكن أقدر غير ذلك ولا زلت حتى الآن لا اقدر على شئ ليس لى من ينصرنى . . . ليس لى من يأخذ بيدى . . . فقـد دعوت إلهى الذى يعبده خالـد خمس مرات فى يوم واحد ولـكن لا حظ لى غير العبرات والآهات ليتنى لم أولد . . وليت الأمواج لم ترحمنى .

استمرت (مـايا ديوى) تبكى وتنتحب وتناجى وقد وضعت رأسها على ركبتيها ! وبينمـا هى كـذلك إذا بشخص يضع يـده على عـاتقهـا ويهتف باسمها ، فصرخت بصوت واهن ثم التفتت فاذا بالعم (جنجو) واقف بين يـديهـا يقول لها : لقد فزعت يـا ابـنتى . . . ماذا تفعلين هنا فى هذا الوقت ؟

— لا شيئ . . . ثم أخذت تمسح دموعها .

— أراك تبكين ؟ ماذا حصل ؟

سكتت (مايا ديوى) ولم تقل شيئا . . فسألها جنجو مرة أخرى أمـا تخـافين فى مكان موحش كهـذا فى مثل هـذا الوقت ؟ أتسمعين أصوات الذئاب من كل ناحية وهى تعوى ؟ تعالى معى .

فقالت مايا : إنى أريد أن أسألك .

ــ ماذا ؟

ــ أحقا أنك قررت أن تبعثنى إلى أخى ؟

ــ إنى أريد أن أعرف رأيك قبل أن أقضى فى أمرك !

ــ إذن فأرجوك أن لا ترسلنى إليه !

ــ ولكن لماذا ؟

ــ إننى لا أريد أن أذهب عند أخى الذى لم يحافظ على كرامة امى التى أرضعته .

ــ أتقولين هذا من أعماق قلبك ، أم تحاولين أن تمكرى بى ؟

ــ ليتك استطعت أن تشق قلبى لتعرف ما فيه !

ــ ولكن ما هو السبب الذى جعلك تبغضين أخاك ؟

ــ لقد أخبرنى خالد عن غدره ولا أشك الآن فى أنه كان غادرا .

ــ ولكن ليس من الممكن أن نسلمك إلى أخيك حتى نستطيع أن نطلق سراح الزبير وأصحابه ؟

ــ مادام (جى رام) قد خدعنا مرة فقد يخدعنا مرة أخرى كذلك فيجب أن لا يعرف فى أية حالة بأننى عندكم وإلا فانه سيبحث عنا فى كل ناحية من هذه الغابة ، إن الأخت ناهيد لم تبرأ كاملا حتى الآن وسوف يصعب عليكم حمايتها والذود عنها .

ــ يا ابنتى ! لا تحزنى فان (جى رام) إذا عرف أنك عندى فى حمايتى سوف ينسى كل أنواع المكر والخداع ، وإذا ظهرأى

خطر من ناحيته ، فقد اكتشفت مكانا آخر سوف نحتفظ فيه بناهيد ولن يمسها أى سوء .

— معنى ذلك أنه إذا سلم للك الأسرى فسوف تسلمنى إليه أيضا .

— يا ابنتى ! إنما هو أخوك فلماذا تخافينه ؟

— لا قريب لى فى الدنيا ، أما الأخ فقد حاول أن يضحى بى من أجل غرض دنىء فوقعت فى أيديكم . . . والآن أنت تريد ان تبعثنى إليه وقد قلت إننى ابنتك ، إن حكمك أيضاً سوف يكون حكم القدر مثل حكم أخى ، يا ليتنى كنت أملك مصيرى ونصيبى ويا ليتنى كنت أهلا لأن اختار الطريق كما أريد . . ويبدوانه لا معنى لاختيارى أوعدم اختيارى وكأننى تبنة لا عبرة لها فى مجرى عواصف الحياة فهى التى تطيرنى إلى حيث تشاء وكيف تشاء وكان وجودى وعدمى سواء .

فكر (جنجو) قليلا ثم قال لها : ولو فوضنا إليك الأمر فماذا تفعلين بنفسك ؟

فقالت : وكان الآمال قد غمرتها مرة أخرى : أما أنا فسوف أفضل الأسر عندك على الحرية .

— ولماذا ؟

— إنى لا أحب أن أترك ناهيد فى مثل هذه الظروف .

— اسمعى يا (مايا) ! أريد أن أسألك عن شئ وعليك أن تكونى صريحة فى الإجابة . . أتحبين خالدا ؟

فأطرقت برأسها ولم تتكلم .

فقال لها مرة أخرى : أريدك أن تردى على سؤالى بصراحة يا (مايا) فقالت : ولماذا تسألنى هذا السؤال ؟

— أريد أن أعرف جوابك ، حتى أستطيع أن أقرر الأنسب والأفضل فى قضيتك.

— لا أعرف شيئا . . إلا أننى أرانى لا أستطيع أن أعيش بدونه !

— وأنت تعرفين جيدا بأنه لا يزال يشك فيك حتى الآن ، وأن قلبه أشد وأقسى من صخور البحار ، وقد جعلتك ابنة لى . . . ومنذ اليوم أصبحنا قريبين ، يسرنى ما يسرك ويحزننى ما يحزنك ، إننى لا أحب أن تضحى بكل ما تملكين من محاولة ورجاء لتحتلى مكانة فى قلبه، فقد يمكن أن لا يثق بصدق نيتك وإخلاصك طول العمر . . . فيجب أن تستعدى للتضحية الكبيرة حتى يغير رأيه فيك .

— إننى مستعدة لكل تضحية أما فراقه فلا يمكن أن أتحمل ثقله !

— أفلا يقلقك ذكرى أخيك .

— لم يعد لى أخ بعد أن أكل بقايا مائدة الملك وحاكمه . . إننى لا أعطف عليه أبدا .

فقال (جنجو) : إنى أريد أن أطلبه هنا بحيلة من الحيل أفلا يحن قلبك إليه إذا رأيته أو رآك ؟ إنه قد غدر بالذين أحسنوا إليه فلو فوضنا القضاء فى أمره إليك فبماذا سوف تقضين فيه ؟

ـــ سوف أقضى فى أمره بما يقضى به فى أمر الغادرين الماكرين الجبناء .

فقال جنجو : يا (مايا) ! فكرى فى الأمر قبل أن تردى على ، إنه امتحان صعب فقد يمكن أن يقدم أخوك إليك ثم أعطيك السيف سيف القضاء العدل فى أمره .

ـــ لقد فكرت كثيرا فى ذلك أننى لا أراه يستحق أى عطف أو رحمة و حنان .

وأراد (جنجو) أن يقول لها شيئا إلا انه سمع خالدا ينادى من وراء الأشجار قائلا : (مايا) (مايا) أين أنت ؟ !

فقال لها جنجو : يا (مايا) ! اختفى داخل الزورق ولا تخرجى حتى أناديك ؟ (مايا) أطاعت أمره دون أن تفكر فيما قال ، أما (جنجو) فنزل من الزورق ووقف على ضفة النهر ، ثم ناداها خالد مرة ثانية فرد (جنجو) قائلا : إنى هنا يا خالد .

﴿٥﴾

ظهر خالد من وراء الشجيرات وسأل (جنجو) : أما وجدت (مايا) ؟ وماذا تعمل هنا ؟

فقال له (جنجو) وهو يحاول أن يبدو حزينا : لقد ذهبت (مايا) . . آه تلك المسكينة . . . !

فسأل خالد وكأنه فقد صوابه : وأين ذهبت ؟ ولماذا ؟

ـــ انك قد أسأت إليها يا خالد . . ليتك لم تجرح مشاعر قلبها .

ـــ وأخيرا ماذا حدث قل لى أرجوك يا (جنجو) !

ـــ لا ينفع النـدم الآن . . فقد حدث ما كان ليحدث . . يا ليتها لم تحب إنسانا قاسى القلب مثلك .

فاضطرب خالد وأخذ يعاتب (جنجو) وهزه هزا عنيفا ثم قال له: بالله أرجوك لا تقلقنى أكثر من هذا ! قل لى بصراحة ؟

ـــ لقد ارتحلت (مايا) . . فانى عندما وصلت هنا وجدتها واقفة على ضفة النهر فناديتها فوثبت فى النهر بدل أن تجيبنى فخلعت ثيابى مسرعا ، إلا أن الأمواج المتلاطمة الهائجـة ذهبت بها بعيـدا عن الضفة وحين أردت اقتحـام الماء كانت قد غابت فى الأمواج .

فصاح خالـد قائلا : كانت (مايا) تغـرق فى المـاء وكنت تخلع الثياب بكل اطمئنان واقفا على الضفة ، يا قاسى القلب . . أيها اللص الظالم ! لقد كنت أظنك أنك قد اصبحت إنسانا !

فقال له جنجو : لو وثبت بالثياب لغرقت أنا أيضا .

ـــ وهل ترى أنك لو غرقت خسر العالم كثيرا بموتك ؟ !

ـــ وما ذاخسر العالم بموتها . . . أما أخوها فقد كان مزق قلبهـا قبل ذلك بكثير ، أما أنت فقد يئست من إساءتك إليها . . وخير لهـا أن تموت غريقة فى النهر من أن تموت معـذبة . . نعم ، أذكر أنها قالت لى وهى تصيح والأمواج تدفعها :

يا (جنجو) لا تحاول إنقاذى فلا فائدة فى ذلك وبلغ سلامى إلى

خالد ، أننى لا أريد أن أعيش بعد أن يئست من حبه .

ظل خالد ذاهلا ساكتا لبضع لحظات ، فمسح جنجو بيده على عاتقه وقال له : لنعد الآن يا خالد ، فلا فائدة فى التأسف والندم لقد حدث ما كان مقدرا أن يحدث . .

فدفعه خالد وأبعد يده قائلا : اذهب أنت . . .

فقال (جنجو) : وراءنا عمل كثير فى هذه الليلة يا خالد ، تعال نعود إلى الحصن فلا جدوى من البقاء هنا .

فقال خالد بلهجة قاسية : بالله أرجوك يا (جنجو) اذهب أنت وأتركنى وحيدا هنا لبضع ساعات .

فقال جنجو : لم أكن أعرف يا خالد أن موتها سوف يحزنك إلى هذا الحد . . إننى لو عرفت ذلك لأنقذتها ولم أتردد فى المخاطرة بنفسى من أجلها .

فقال خالد وقد أخذته البحة : يحزننى موتها . . إنك يا جنجو لا تملك قلبا بين جنبيك إن هذا الحادث هو أفظع وأكبر حادث فى حياتى ، أنا السبب فى موتها . . أننى لن أعفى نفسى مدى الحياة .

— ولكنك كنت تلح على بأن أبعث بها إلى أخيها ، فما دام لا يحزنك فراقها فلما ذا يحزنك موتها .

— لا تنكأ جراحاتى يا (جنجو) . . لقد أخطأت فى فهمها ، إن هذا التعذيب أكبر من أن أتحمله .

— دع هذه الأحاديث يا خالد ، إننى على ثقة ويقين بأنها لو بعثت

ثانية فان الكبر والغرور فى نفسك لن يتجاوبا مع حبها ، إنك سوف تعاملها نفس المعاملة ، دعها . . . سوف تنساها بعد بضعة أيام .

لم يرد خالد على (جنجو) وإنما جلس على ساق شجرة ساقطة على الضفة ثم أخذ ينظر إلى الأمواج وينادى بصوت حزين مؤلم وهو يقول : (مايا) . . يا (مايا) . . ما ذا فعلت يا (مايا) .

فقال له (جنجو) مرة أخرى : يا خالد الآن يجب أن تتجلد تجلد الرجال الشجعان فى مثل هذه المناسبات .

— جنجو ! اذهب أنت وأنا سألحق بك .

— حسنا . . كما تشاء ثم أخذ جنجو يمشى ولكن لم يتوجه إلى الحصن وإنما مشى متخفيا وراء الشجيرات حتى وصل عند الزورق فوقف بجانب شجرة ونادى بصوت خافت : يا (مايا) اطلعى الآن . .

كان قلب (مايا) يخفق بعد ما سمعت كل ما دار بين خالد و(جنجو) . . كانت مستعدة لأن تفضل الموت الذى يقربها من خالد على آلاف من الحياة . . ففيما كانت تنصت إلى آهاته فانها كانت فى الوقت نفسه تخشى أن يغضب عليها إلى الأبد إذا طال ذلك المزاح . . فقالت فى نفسها : يا ليتنى كنت قد وثبت فى البحر حقا . . ولكن فى خلال لحظات قصيرة استحالت هذه الفكرة إلى عزيمة هائلة ثم ناداها (جنجو) مرة أخرى مما لم يترك لها مجالا للتفكير والرأى فأسرعت

فجأة واقتحمت أمواج النهر .

فأخـذ جنجو يجرى وهو يقول : يا (مايا) يا (مايا) . . فنهض خالد من مكانـه وقفز هو وجنجو معا فى النهـر ، كان جنجو يصيح : يا خالد انقذها هذه هى (مايا) ، على مهلك يا (مايا) إن الأمواج خطيرة هائلة . . إلا أنها كانت تحاول الوصول إلى ورطة الأمواج السريعة .

وصل إليها خالد مخترقا الأمواج بسرعة غريبة ، فغاصت مايا فى الماء . . لقد كانت تعرف السباحة جيدا ولـكنهـا لم تـرد أن تخاطـر بنفسها فأخرجت رأسها من الماء وأخذت تحاول الوصول إلى الورطة فى وسط النهر ، إلا أن خالدا أخذهـا بيدهـا ثم وصل إليهـا (جنجـو) فسحباها إلى الضفة يسبحان بها معا .

فقال (جنجو) وكانوا قد وصلوا إلى الضفة : يـا خالـد إننى لم أعد أثق بهذه الفتاة الآن . . إن عدم اهتمامك بها جعلها مجنونـة ثم سألها : لما ذا قفزت فى النهر ؟

فأجابته بكل طمأنينة : لما ذا كنت تمازحه بمثل هذا .

فقال (جنجو) لخالد : عفـوا يـا سيـدى . . فقـد كنت أخفيت (مايـا) فى الزورق لأننى كنت أريـد أن أضايقك وأمازحك ، ولـكنى لم أكن متأكدا بأنها فعلا سوف تقتحم الماء إن كل واحـد منكما يحب الآخر ، وإننى مسرور جدا .

فلم برد عليه خالد وإنما ظل ساكتا ، وقد انهمرت دموع الشكر

والفرحة من عينيه .

فسأله (جنجو) : ما رأيك الآن فى (مابا) .

فأجابه قائلا : إنه لا حق لأحد على مايا وإنما هى صاحبة أمرها ، وهى التى تستطيع أن تقضى فى نفسها كما تشاء وكما يحاولها .

❀ ❀ ❀

الأخت وأخوها

وفى صباح اليوم التالى ، وعلى بعد أربعة فراسخ من حصن (جنجو) كان جنود الحاكم (برتاب راى) يستعدون للسفر ، أما (جى رام) فقد كان يغتسل فى النهر وقد خلع ثيابه وتركها على الضفة ، وفجأة جاء سهم رنان من وراء الشجيرات ووقع عند قدميه على الأرض ، فرأى (جى رام) منديلا قد شد بذلك السهم ، فراعه ذلك ، والتفت يمنة ويسرة ثم أخرج السهم المغروز فى الأرض وفتح المنديل المشدود به فوجد العبارة التالية مكتوبة بالفحم الأسود :

لست أعرف يا (جى رام) كيف أخاطبك فانى أخجل أن أخاطبك كأخ على كل حال ، فانك إذا أردت أن تنقذنى مما أنا فيه فعليك أن ترافق (جنجو) الآن وإلا فلا تأمل فى نجاتى .

أختك البائسة

مايا ديوى

وبعد قراءة هذه الكلمات نسى (جى رام) كل شىء وأخذ يعدو نحو الشجيرات حتى اقترب منها فصاح قائلا : (جنجو) أين أنت يا(جنجو) . . فسمع (جنجو) يقول له بصوت خافت : أنا هنا يا (جى رام) فى هذه الناحية .

فذهب (جى رام) إلى تلك الجهة مارا من بين الشجيرات الملتفة

حتى وجد (جنجو) راكبا على فرس فأخذ (جى رام) لجـامه ، ثم قال له فى شىء من القلق : قل لى يـا (جنجو) ، أين (مايا) ؟ وكيف هـى الآن وهل هى عندك ؟

فرد عليه جنجو : هى بخير ، وأستطيع الآن أن أذهب بك إليها بشرط أن تكون مستعدا لذلك .

ـــ أنا . . أنا مستعد أن أجتـاز سبعة أبحـر من أجل أختى مـايـا ! أرجوك باسم (بجوان) (اله الهنادكة) قل لى أين هى الآن ؟

ـــ إنها ليست بعيدة من هنا ، اركب خلفى على هذا الفرس .

ـــ وإذا كانت بعيدة من هنا فيمكن لى أن آتى بفرسى .

ـــ لا بأس ولكن لا تحاول شرا ولا مكرا وإلا فانك لن تستطيع أن تراها أبدا ، هات بفرسك ، وأنا فى انتظارك .

ـــ حسنا سآتيك بعد لحظـة ، فأسرع (جى رام) نحـو ظل قـريب ، أمـا (جنجو) فتنحـى فى حـذر حتى اختفى وراء شجيرات كثيرة الأوراق وبعـد لحظـة قصيرة عـاد (جى رام) إلى تلك الشجرة التى كان عندها (جنجو) فناداه ، بصوت خافت ، فـرد (جنجو) بكل طمأنينة ودعاه إليه وقبل أن يتحركا وجه (جى رام) بعض الأسئلة إلى جنجو وكان جوابها جملة واحدة قالها جنجو ستعرف كل شىء عندما تقابل (مايا ديوى) ، وفجأة وبعـد مسافة قصيرة من سيرهما فى المنطقة ظهر بعض أصحاب (جنجو) وكانوا قـد كمنوا وراء الشجيرات فصاروا معهما مما جعل (جى رام) يشك

فى نية (جنجو) وإرادته فأوقف فرسه قائلا : ما هذا يا (جنجو) ولكن قبل أن يتكلم (جنجو) كان أصحابه قد أحاطوا بفرس (جى رام) فتقدم أحدهم فأخذ بلجام الفرس وعلى خلاف ما كان يتوقعه (جنجو) استسلم أمامهم ولم يحاول الدفاع عن نفسه ، ثم لما حاول أصحاب (جنجو) أن ينتزعوا السلاح منه لم يبد أية مقاومة وإنما سلم لهم السيف والقوس والكنانة بكل هدؤ . وكان (جى رام) يحمل خنجرا صغيرا مشدودا بحزامه فحاول أحدهم أن ينتزعه فمنعه جنجو عن ذلك ، وقال لهم (جى رام) : إنكم لتعرفون بأننى لا أستطيع الفرار بعد أن تسلمت منكم رسالة من أختى (مايا) .

فقال له (جنجو) : إنك لو حاولت الفرار لما أمكن لك ذلك لأنك ستجد الرماة قد اختفوا فى كل مكان من هذه الغابة .

— ولكنى يا سيد (جنجو) ! لم أخالف أمرك إنى مستعد لأن أذهب معك إلى اى مكان تريد ، وكذلك فانك تعرف بأننى لم أغدر ولم انقض عهدا فى حياتى قط .

— إننى لا أستطيع أن أثق بشخص غدر بالزبير الذى أحسن إليه وأحسن إلى أخته كثيرا ، فأرى من المصلحة أن ترافقنا بدون كلام أو نقاش .

لم تكن المسافة بينهم وبين ذلك الحصن إلا أربعة فراسخ ولكن (جنجو) اختار طريقا أطول وأصعب .

وعندما وصلوا إلى الحصن نزل الفرسان من الخيل فاذا بخالد يخرج من الباب فرآه (جى رام) وتقدم نحوه يمد يديه وهو يقول : خالد يا خالد أنت أيضا هنا يا سلام ! . . وأين أختك الكريمة .

فنظر إليه خالد نظرة كلها حقد واحتقار وازدراء ، وتنحى عنه فوقف بجانب (جنجو) فشعر (جى رام) كأن سهما راشا قد وخز فى صدره فجمد فى مكانه ولم يتحرك ، أما يداه اللتان كانتا قد ارتفعتا تستقبلان خالدا وترحبان به فرجعتا وانخفضتا حتى مستا خاصرته فنظر إلى كل جهة نظرة البائس المغلوب على أمره ثم عادت نظراته وتركزت على وجه خالد الذى أشاح بوجهه .

فقال (جى رام) بصوت متهدج كئيب : لست أفهم يا خالد كيف أصبحت حقيرا فى نظركم إلى هذا الحد و لماذا ؟ ولكنى برئ لا ذنب لى ، فلا تقابلونى بمثل هذه المقابلة وأين هى (مايا) ؟

(٢)

وإذا بصوت يرتفع من الخلف : أنا هنا . . التفت (جى رام) وراءه ، فرآها واقفة على بعد بضع خطوات فصاح بها : (مايا) (مايا) يا أختى يا أختى الصغيرة ، ثم استبق إليها ، ولكنها تراجعت صائحة تقول : أيها الظالم . . اللئيم . . الغادر . . لا تمسنى . . إنك لم تراع عزة أب (راجبوت) وكرامة أم (راجبوتة) . . لا صلة لى بك .

إنى أرى على وجهك اللعين آثار الدماء البريئة لهؤلاء الناس الذين أحسنوا إليك وإلى أختك فغدرت بهم وتآمرت ضدهم .

شعر (جى رام) بطعنة ممضة فى قلبه حتى لو أن أحدا عمد إلى خنجر فطعن به قلبه طعنات كثيرة ، لما وجد ألما أمر وأمض من ذلك فهاج فى قلبه لهيب الغضب ولكن أطفأته دموع الحزن المؤلم فنظر مرة أخرى فيما حوله فرأى ابتسامة حاقدة على وجه (جنجو) فتقدم نحوه غاضبا ملتهبا يشد قبضته ويقطع شفتيه بأسنانه ويقول له : أيها اللص الحقير أنت مسئول عن هذا كله . . . أنت الذى أثرتهم ضدى .

وقبل أن يرفع (جنجو) يديه للدفاع عن نفسه لطمه (جى رام) فى وجهه لطمتين فتراجع الشيخ (جنجو) وهو يمسح خديه ، وتقدم خالد نحو (جى رام) فلطمه لطمة فى وجهه إلا أن لطمة خالد أثرت فى قلبه أكثر منه فى جسمه فقال له فى صوت متهدج : و أنت يا خالد . . !

أما أصحاب (جنجو) فكانوا قد جردوا سيوفهم واستعدوا لمواجهة الموقف إلا أن (جنجو) أشار إليهم يمنعهم ثم التفت إلى (جى رام) فقال له : قل لى هل أنت مستعد الآن لأن تنقذ أختك وتطلق سراح الزبير وأصحابه ؟

فقال (جى رام) بلهجة الجريح الحزين : أنت أيضا تشارك الزبير فى أننى تآمرت أو اشتركت فى تدبير المؤامرة ضدهم .

فأجابه (جنجو) : لا وإنما نرى أن (برتاب راى) قد اشترك معك فى هذه المؤامرة ، أنت الذى أغريته أن يطمع فى أفيال سرنديب ولآليها .

ـ إن إلهى ليعرف أننى برئ !

فقال له جنجو : إن آلهتك لتعرف أكثر من هذا لسنا نريد الآن أن نتناقش عن براءتك وإنما نريد أن نعرف إرادتك ، هل تريد أن نطلق سراح أختك فتفرج عن هؤلاء الأسرى الأبرياء ؟

فقال له (جى رام) : يا ليتنى كنت أقدر على الإفراج عنهم ، إنهم ذاهبون الآن إلى (برهمن آباد) ويحيط بهم مئتان من الجنود وأننى وحيد لا أستطيع أن أعمل شيئا من أجلهم .

ــ فكأنك تريد أن تقول إن جنودك لا يطيعون أمرك .

ــ يا ليتهم كانوا جنودى ويطيعون أمرى . . . (برتاب راى) قد اتخذ خطوات مشددة لحراستهم حتى أننى لا أستطيع أن أتحدث إليهم ، إنه قد تأكد بأننى من أنصارهم .

فقال جنجو وهو يبتسم بهزء وسخرية : نشكرك على نصرتك ، ولكن أريدك أن ترد على سؤالى : هل أنت مستعد للإفراج عنهم أم لا .

ــ أرجوك باسم (بجوان) (اله الهنادكة) أن تصدقنى، أننى لاأستطيع أن أقوم بشىء نحوهم حتى يعرض أمرهم على الملك ، وأننى على ثقة ويقين بأنه لن يقدم على الحرب والعدواة بينه وبين العرب بسبب هؤلاء الأسرى .

فقال جنجو : إن (برتاب راى) صديقك فلو أنك كتبت إليه رسالة من هنا تقول له فيه أنك لدينا أسيرأفلا يمكن أن يفرج

عنهم ! اكتب هـذه الرسالـة ، ونحن نوصلهـا إليـه قبـل وصولـه إلى (برهمن آباد) .

فرد عليه (جى رام) : إنه أمـكر من الثعلب وأظلم من الـذئب أرجوكم أن تعطونى فـرصة أحكى لـكم قصتى ، وستعرفونه جيـدا من خلالها . إننى أرجوكم باسم (بجوان) ! لا يهم (برتاب راى) أن ينقذنى وإنما يهمه أن يبحث عن خـالد وناهيد إذا كانا معـكم فـكما أننى لم أعـرف إلى الأن كيف وصلتم هنـا فـكذلك لا تعـرفون أنتم حقيـقـة ما حدث فى ديبل .

وعنـدمـا رأى (جـى رام) أن جنجو وأصحابـه قـد استعـدوا للاستماع إليه بـدأ يحكى قصته منـذ أن فارقهم فى الميناء إلى أن التقى بالزبير فى السجن ، وفى النهاية أخذ ينظر إلى (جنجو) وخـالد نظرات الرجاء والأمل فقال لهما : وإذا كنتم لا تصدقوننى فاننى مستعد لأية عقوبة تختارونها لى .

وقـال جنجو : فـكأنك الآن ذاهب إلى الملك لتشفـع فى هـؤلاء الأسرى .

ـــ لا زلت لا تصدقنى فى ذلك ؟ !

ـــ اسأل أختك ، إذا صدقت ما قلتـه فاننا أيضا مستعدون لنصدقك

ثم التفت (جنجو) إلى (مايا) فقال : نفوض إليك أمر أخيك .

فـالتفت (جى رام) إلى "مـايـا" وكانت هـذه لحظـات عصيبـة محرجـة بالنسبة لهـا ، وكان قـد بـدأ رد فعـل فى نفسها عنـدما سمعت

قصة أخيهـا إلا أنها لم تستطع أن تغير موقفهـا نحوه تغييرا فوريا فبينما كانت تقول فى نفسهـا : صدق أخـاك يـا (مـايـا) ، فى نفس الـوقت كانت تقول لهـا نفسهـا : لعلـه يخترع حيلـة ليأخـذك معـه . . . وفى خلال هذا الصراع الداخلى النفسى تذكرت ما قال لها (جنجو مرة : أما تأخذك رأفة عندما تقابلينه فقـد يمكن أن أفوض إليك أمره ، وأعطيك سيف العـدل لتقضى فيـه ، فنظـرت إلى (جنجو) وكأن نظراتـه كانت تقول لهـا : قـد أعطيتك سيف العـدل فعليك بالوفـاء بمـا وعـدتنيـه فى أمره .

فقال (جى رام) وقـد رابـه ترددها : (مايا) حتى أنت مـا عدت تصدقينني أيضا ؟

فقالت لـه : ومـاذا يـدل على براءتك ، وأنك لم تخترع هـذه القصة إلا لتتقى بها غضب هؤلاء القوم وانتقامهم ؟

فقال (جى رام) فى صوت كئيب محزن : كأنك تريدين أن تقولى بأننى جبان ، وأننى أكذب خوفـا من الموت ، أرجوك باسم (بجوان) أن لا تخزينى بين أعين النـاس يا (مايا) إننى أخوك . . . ولـكنك إذا لم تصدقينى فخذى هذا الخنجر وأطعنينى به فى قلبى وشقيه حتى تعرفى أن دمى لا يـزال أحمر اللون خـالصـا وليس بـأبيض دنسا . . . ثم أعطاها خنجره وكشف عن صدره فوقف بين يديها يقول: (مايا) أقسم عليك بشعـر أبيك الأبيض وكرامـة مـا رضعت من حليب أمك . . . إذا كنت تعتقـدين بـأننى مجرم فعليك أن لا تعفـوى عنـى على أساس أننى أخوك إننى لا أريد أن أبقى بعد ما عرفت بـأن أختى تعتـقد بأننى

مجرم جبان أرجوك أن تريحنى من هذه الحياة وإذا كان دم (راجبوت) يجرى فى عروقك فأرجوك أن لا تمنحى أى امتياز لأخيك وعليك أن تقضى بالعدل والحق .

فرفعت (مايا) يدها التى كانت تحمل الخنجر بحركة لا شعورية فى تيار من المشاعر والعواطف ، فغمرت ابتسامة خلابة غريبة وجه (جى رام) وأخذ خالد يرتعد ارتعادا ، فنظرت (مايا) إلى عزيمة أخيها وثباته فأخذت تحدق فى وجهه ، وبدأت يدها ترتعش فصاح بها خالد يقول : امسكى يا (مايا) فان أخاك لبرئ . . . فسقط الخنجر من يدها المرتعشة ودمعت عيناها وانجذبت نحو أخيها انجذابا فتعلقت به واستعبرت باكية تقول :

ـــ أخى أرجوك أن تعفو عنى .

وكان (جى رام) تمسح شعرها الأسود الناعم ويقول لها : يا أختى يا أختى الصغيرة .

تم أن الأخ تنحى عن الأخت ووقف كل منهما يواجه الآخر فمد خالد يده نحو (جى رام) وقال له : عفوك يا (جى رام) لم يكن لى أن أرتاب فيك !

فقال له (جى رام) وهو يصافحه : إننى لست غاضبا عليك ، ولو كنت فى مكانك فربما كان رد فعلى هو نفس رد فعلك أنت .

فقال له خالد باسما وقد لطمتك لطمة فى ظروف هائجة حرجة

والآن يمكن لك أن تقتص مني .

فقال له (جي رام) : لا، خل هذه القصة الآن لأنني إذا استلمت منك لطمة فلابدلي أن أسدد دين اللطمتين للعم (جنجو) !

﴿٣﴾

لم يكن جنجو قلقا مضطربا في حياته قط مثل ما كان في ذلك اليوم ، كان واقفا مطرقا برأسه فتقدم (جي رام) نحوه فوضع يده على عاتقه وقال له : اسمع يا (جنجو) إذا كنت مخلصا في جهودك لإنقاذ الزبير وأصحابه ففوض أمرهم إلى لبضعة أيام ، وآمل أن الملك إذا عرف حقيقة الحال وتبين الخطر فانه لن يقدم على إلقائهم في السجن، وإذا لم يتفق مع رأيي فانني سوف أعود إليك وسوف نفكر في حيلة وتدبير آخر ، ولكن أين أختك يا خالد ؟

قال له (جنجو) : هي معنا وقد أصابها جرح على السفينة .

ـــ وكيف هي الآن ؟

فرد على سؤاله خالد وقال : إنها أحسن من ذي قبل إلا أن جروحها لم تندمل حتى الآن ، إنني أشكر الآنسة (مايا ديوي) فقد أفنت جهودها في رعايتها وكلفت نفسها ما لايطاق .

وقال جنجو : يا (جي رام) مادام (برتاب راي) قد أغار على السفن بأمر الملك فأراه لن يفرج عن الأسرى وسوف يحاول أن لا ينتشر هذا الخبر خارج السند . وفي (برهمن آباد) سجون لا يخرج

منها الأسير إلا بعد الموت ، ويجب أن يصل هذا الخبر إلى مكران والبصرة وإذا تدخلت هذه الحكومات فمن الممكن أن يفرج عنهم.

قال (جى رام) : إذا أراد خالد أن يذهب برسالة فاننى على استعداد لأن أجتازبه حدود السند .

فرد عليه (جنجو) يقول : إننى أستطيع أيضا أن أوصل خالدا عبر الحدود ولكن ما دامت أخته مريضة فلا يمكن له السفر الآن ، ومع ذلك فان الجيوش العربية الآن تقاتل فى أفريقيا وبلاد الترك ويمكن ألا يود العرب إفساد العلاقات مع السند لقلة الجيش المقاتل لديهم ، ويرى خالد أن الزبير هو الوحيد الذى يصلح لهذه المهمة إذا أفرج عنه لأنه يعرف جميع ذوى السلطة والنفوذ فى دمشق والبصرة .

فقال (جى رام) : إذا كنت تريد هذا فاننى أعطيك الوعد بأننى سأخاطر بنفسى من أجل تحرير الزبير .

فقالت (مايا) : أخى ! انك تستطيع كل ذلك ، يجب عليك أن تحاول للإفراج عن الزبير .

ـ (مايا) : إننى أراه من واجبى ولا حاجة إلى توصياتك ! ثم التفت (جى رام) إلى (جنجو) يقول له :

ـ إذا سمحت لى أوجه بعض الأسئلة إلى (مايا) .

وعلى إشارة من (جنجو) انسل جميع أصحابه ثم تنحى بخالد فقال له اذهب إلى ناهيد واسألها إذا كانت تريد أن تبعث برسالة إلى الأسرى .

فدخل خالد فوجد ناهيد واقفة عند الباب فقال لهـا : يا ناهيد ! إنك إذا أفقت قليلا . . . بدأت تمشين ! يجب أن تستريحى على السرير . ولم تحفل ناهيد بما قاله خالد ، وإنما قالت لـه : إنك قـد أسأت الى (جـى رام) المسكين : ومـا رأيك فى (مـايـا) الآن ؟ ومـاذا قـررتم فى أمرها ؟

فقال لها خالد ، لم يتم شيء فى أمرها إلى الآن ، إنهـا تتحدث إلى أخيهـا وربما تسافـر معـه وقـد وعـد (جى رام) أنـه سوف يحاول للإفراج عن الزبير ، وهو بعد ذلك سوف يسافر إلى البصرة عن طريق مـكران سيقص هنـاك مـا حـدث بنـا فى هـذا السفـر ، إنـه لا سبيل إلى الإفراج عن الأطفـال والنساء إلا بالتـدخل المباشر من الخلافـة الإسلامية .

قالت ناهيد : قد سمعت هـذا كله ، ولـكنى أخشى أنهم سوف يراوغون الحكومة كما راوغوا حاكم مـكران فى قضية والدنا . ولـكنى سمعت أن حاكم البصرة حـاكم قوى السطوة والهيبـة إلا أنـه يملك عـذرا معقـولا بـأن الجيـوش العـربيـة لا تـزال تخوض معـارك فى آسيا وافريقيا .

فقال لها خالـد قلقـا : لا أفهم شيئا ! إلا أننى لست يائسا من رحمة الله ، إنه سوف ينصرنا .

قالت ناهيد : عندى اقتراح بأن أكتب رسالة إلى حاكم البصرة، فاذا نجح (جى رام) فى الافـراج عن الـزبير . . . حمل رسالتى هـذه

إلى البصرة ، فان هذه الرسالة إذا لم تستطع أن تؤثر فى نفس الحاكم فان مسلمى البصرة لابد أن يتأثروا بها ، وقد رأيت فيما يرى النائم المسلمين وهم يكسرون أبواب السجن وإننى واثقة بصحة رؤياى وصدقها .

— إذن تفضلى اكتبى الرسالة فى الغرفة ولكن على ماذا تكتبين ؟ نعم هذا منديلى خذيه واكتبى فيه ، ثم أخرج المنديل من جيبه وناوله إياها ثم قال لها : اكتبى أنت الرسالة وأنا أشغل الفتى (جى رام) لينتظر الرسالة .

أما (مايا ديوى) فقد كانت تحكى قصتها لأخيها ، وفى نهاية الحديث قال لها (جى رام) يا (مايا) ! هل من صعوبة تواجهينها هنا معهم ؟

— لا . . . والعم جنجو يعتبرنى ابنة له ، أما ناهيد فهى تعتبرنى أختها الصغرى . قال (جى رام) : مايا ! أريد أن أخبرك بخبر موسف .

فقالت (مايا) وهى مضطربة : وما هو ؟

— إننى لا أستطيع الآن أن آخذك معى ! إننى قد حملت مسئولية حظفك على (برتاب راى) ولكن عندما رأيته يعذب الزبير وعليا من أجلك قلت له إنك لم تكونى معى وذلك لإنقاذهما من التعذيب والأذى فلو ذهبت بك الآن فانهم سيسألوننى عن ناهيد وخالد . إننى أخاف الملك شخصيا، ولكن (برتاب راى) إذا ارتاب فسوف يأخذ البحث عن ناهيد وخالد ، إننى لا أريد

أن يشكوا فى أمر ناهيد وخالد إذا رأوك معى ! فلو تحملت البقاء لبضعة أيام سأعود إليك ثانية وسآخذك معى لأن (برتاب راى) عائد إلى ديبل خلال أربعة أو خمسة أيام .

فأجابته (مايا) وقد بدا الاطمئنان عليها : أخى ! لا تفكر فى أمرى . . . إننى سعيدة بين هؤلاء الأصدقاء ، وما دامت ناهيد مريضة فاننى لا أستطيع أن أفارقها وأسافر معك .

كان (جنجو) وخالد يتحدثان فيما بينهما على بعد بضع خطوات فناداهما (جى رام) فالتفتا إليه فدعاهما عنده ، وقال لهما : أخشى أن ترتابوا فى أمرى بأننى أدبر مؤا مرة أخرى ! تقول (مايا) إنها تريد أن تبقى عند ناهيد حتى تبرأ . . . وأننى شخصيا أريد أن أتركها عندكم لبعض المصالح ، وسوف أعود إليكم بعد بضعة أيام ، وسآخذها معى ، ويمكن أن أشارك الزبير فى الإفلات معه من السجن والالتحاق بكم إلى الأبد ، وأستأذنكم الآن لأننى متأخر ، وقد يطلبنا الملك بعد أن يدخل (برتاب راى) المدينة ، إن غيابى ليس مما ينبغى .

فقال خالد : انتظر قليلا . . . إن ناهيد تكتب رسالة لتسلمها إلى الزبير بعد أن يفرج عنه .

— اذهب وأسرع بالرسالة ، فقد تأخرت وأظنهم قد وصلوا إلى قرب مدينة (برهمن آباد) .

فقال له (جنجو) : لا تفكر فى هذا ! فاننا سوف نوصلك إلى المدينة قبلهم من طريق سهل قصير .

فقال (جى رام) : إننى أريد أن يرافقنى أحد زملائك ، ولابد أن يكون غير معروف فى مدينة (برهمن آباد) وسوف يكون رسولى إليكم فى ساعة الخطر المحرجة .

فقال جنجو : سوف يرافقك (داسو) .

وفى الظهيرة كان (جى رام) يجتاز الغابة ويرافقه (داسو) .

بين الأصدقاء والأعداء

أدرك (جي رام) قافلته على مسافة فرسخ واحد من مدينة (برهمن آباد) فلم يرمن المناسب أن يلتحق بالقافلة مع (داسو) ورأى من المصلحة أن يغير طريقه فيدخل المدينة من الباب الثانى ، وكان له صديق قديم يعيش فى (برهمن آباد) يسمى (نرائن داس) فأنزل زميله (داسو) عند صديقه وتوجه إلى دارالضيافة الملكية ، وبعد مدة قصيرة دخل (برتاب راى) مع جنوده والأسرى المدينة ، فرأى (جى رام) قد سبقه إلى المدينة فقال له :

ماذا ؟ لماذا اختلقت عذر الصيد لماذا لم تقل صراحة بأنك كنت تريد أن تقابل صاحب الجلالة قبل وصولى ؟ قل لى ماذا قال جلالته عندما سمع قصة أختك ؟

— إننى لم أقابل صاحب الجلالة حتى الآن ولم أكن أنوى ذلك .

فقال له (برتاب راى) وقد اطمأن بعض الشيء أظنك لم تكذب فى قصة اختطاف أختك فقد سألت بحارة (سرنديب) والأسرى العرب وكلهم يؤيدون ما ذكرته أولا ، وأرى أن العرب إذا شكوا إلى جلالته بأن فتاة عربية مسلمة إلى جانب أختك قد اختطفت من السفينة، فان الملك سوف يحملنى مسئولية الاختطاف .

ــ إننى مستعد لأن أقول للملك أن أختى لم تكن موجودة على السفينة وأن حادث اختطاف الفتاة المسلمة أيضا ليس صحيحا .

ــ ولكن إذا اشتكى إليه الأسرى حادث الاختطاف فإن انكارك لا يمكن أن يرضى به الملك أو يطمئن إليه .

فقال (جى رام) وقد ظهر عليه شىء من القلق : حسنا . . . وماذا تريد إذن ؟ . . . لقد أخبرتنى فيما سبق أن أعترف أمامك بأن أختى لم تخطف وذلك بسبب التعذيب الذى أصاب عليا والزبير . . . والآن تلح على الاعتراف بأن الفتاة العربية وأختى قد اختطفتا من السفينة .

فقال (برتاب راى) إنى أريد أن أعرف السبب الذى أكرهك على أن تكتم سر اختطاف أختك .

ــ أنت تعرف أن الزبير كان ضيفى . . . وقد أنقذنى من أسر القراصنة لذا لم أكن أريد أن تعذبه من أجل أختى .

ــ معنى ذلك أنك قد تنازلت عن موقفك الصحيح من أجل الزبير وحده ؟ وأنك مستعد لأن تضحى بأختك من أجله ؟ ولكن قلبك يقول إننى أنا الذى اخطفت اختك وليست أختك وحدها بل أنك تريد أن تحملنى مسئولية أختطاف الفتاة العربية والفتى العربى .

فأجابه (جى رام) : إن سوء الفهم الذى كان فى قلبى نحوك قد زال الآن تماما .

ــ ومتى كان ذلك ؟

وفجأة أدرك (جى رام) بأن (برتاب راى) بعد الشبكة له مرة أخرى فقال له :

ـــ وأخيرا ماذا تقصد من هذا كله ؟ وقد وعدتك بأننى لن أذكر أختى عندالملك فماذا تريد بعد هذا ؟

فقال له (برتاب راى) غير مبال به : إن الذى لا تستطيع أن تقوله ربما يجعل العرب يقولونه بالنيابة عنك ، ولكن لا بأس ، فان السر الذى أردت أن تكشفه كنت أود أن يبقى مكتوما ، أما الآن فان هذا السر الذى وددت أن يبقى مكتوما لابدلى من أن أكشفه ، إن سوء التفاهم بينى وبينك قد أرتفع الآن لسبب مجهول وأريد أن يكون هذا السبب معلوما . . . اننى لا أصدق بأنك تريد أن تضحى بأختك من أجل عربى . ولا يمكن أن يقتنع أى رجل عاقل بهذا المنطق .

ـــ فكأنك تعنى أننى أنا الذى أخفيت ؟

ـــ لا يهمنى مشكلة أختك أما البحث عن الفتاة العربية فاننى المسئول عنها وذلك فى ذمتى ! ولا يبعد أن يكون العرب أيضا قد اختلقوا حيلة لإفساد العلاقات بينى وبين الملك ليسىء بى الظن فكما اختلقت أنت موضوع اختطاف أختك ، اختلق هؤلاء أيضا اختطاف فتاتهم ولكن تأكد بأنه إذا أثيرت هذه المشكلة فى بلاط الملك ، فان المسئولية سوف تلقى على أحدنا إما أنا وإما أنت .

فقال (جى رام) بعد لحظة تفكير . . . انهم قد اختلقوا قصة الخطف لينتقموا منا لأنهم يعتقدون بأننى مشارك لك فيما وقع لهم ، كما كنت اختلقت قصة اختطاف أختى لأنتقم منك ، ولكن أستطيع أن أقنع الزبير بأن لا يثير هذه المسألة فى البلاط ، وأملى فيه أنه لن يشكو عندالملك وسوف يتفق معى فى هذه المسألة .

فقال له (برتاب راى) وكأنه لا يحفل بقوله : إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى أى أسير وقد أمرت جنودى بأن لا يسمحوا أن يفتح صندوقك قبل أن يعرض على جلالته وأراد (جى رام) أن يقول له شيئا ، إلا أن ضابط الجيش الملكى فاجأ المشهد وأعلم الحاكم (برتاب راى) بأن الملك يطلبه .

طلب (جى رام) أن يرافق (برتاب راى) إلا أنه رفض قائلا : إن جلالته يطلبنى أنا ولا يطلبك أنت اجلس هنا واسترح ، فاذا طلبك جلالته فلن أعترض .

فذهب (برتاب راى) إلى البلاط الملكى ومعه الهدايا المسلوبة من السفينة العربية وبقى(جى رام) يذرع الأرض جيئة وذهابا مضطربا قلقا ، أما الزبير فكان جالسا فى غرفة مع الأسرى الآخرين فحاول (جى رام) أن يختلس النظر من خلال النافذة إلا أن البواب حال دونه ودفعه دفعا ثم أغلق النافذة وعندما رأى الزبير ورفاقه البواب العادى يعامل (جى رام) هذه المعاملة السيئة بدأ يستيقن بأنه منهم وفى المركب نفسه ! وقبيل غروب الشمس جاء الضابط المرافق للملك إلى (جى رام) وأخبره بأن الملك يطلبه ، فدخل (جى رام)

قصر الملك وهو يحمل صندوق الهدايا التى بعث بها ملك كاثياوار فذهب به الحراس إلى غرفة من غرف القصر الملكى ، فرأى الملك (داهر) جالسا على كرسى ذهبى فوق مصطبة من المرمر ورأى (برتاب راى) واقفا بين يديه إلى جانب الحاكم الأعلى وقائد القوات المسلحة (اودهى سينج) وابنه الشاب (بيم سينج) اللذين كانا قد رافقا الملك وهو عائد من مدينة الرور[1] . فانحنى (جى رام) ثلاث مرات إجلالا للملك ثم وقف بين يديه ، أما الصندوق الأبنوسى فحمله جنديان حتى وضعا بين يدى الملك ، فأمر الملك (جى رام) بأن يفتح الصندوق ففتحه فألقى الملك نظرة عابرة على اللالى والجواهر ثم نظر إلى (برتاب راى) وهو يقول للفتى (جى رام) قد سمعنا أنك تريد الدفاع عن الأسرى العرب وحمايتهم، وأنك قد قلت بأننا لا نستطيع أن نقاوم العرب وقد أخفيت أختك وفتاة عربية لتتهم حاكمنا المخلص (برتاب راى) باختطافهما .

فقال (جى رام) : يا ولى النعمة ! أننى لم أكن على ثقة بأن جلالتك قد أمرت (برتاب راى) ليغير على سفينة العرب ، إنهم لم يكونوا يريدون الوقوف والنزول فى (ديبل) وكانوا قد أنقذونى من القراصنة فى الطريق ، وقد جئت بهم إلى (ديبل) لينزلوا عندى كضيوف ، وأن الدفاع عن الضيوف هو إيمان كل (راجبوت) ولا

---

(١) كانت عاصمة السند آنذاك ، وتوجد آثار مدينة قديمة عند بيرانى فى محافظة "نواب شاه" بالسند الآن ، ويرى بعض المؤرخين أن "دلور" هى صورة مشوهة من "أرور" كما أن البعض منهم يميل الى أن مدينة "الرور" كانت عند "روهري" وأن نهر السند قد أتى عليها .

أعرف عن أختي والفتاة العربية أكثر من أنني كنت موثقا في غرفة مغلقة حين أغير على السفن العربية في البحر .

ــ وقد قلت للحاكم (برتاب راى) بأنك قد اختلقت هذه الحيلة لتنقذ العرب وتطلق سراحهم .

ــ أنا لا أرفض يا ولى النعمة ولكن . . .

فقال الملك في لهجة غليظة : إننا لا نريد أن نسمع منك أكثر، ولكن إذا اشتكى العرب عن اختطاف الفتاة العربية فلابد لك من إحضارها أينما كانت .

ــ صاحب الجلالة ! إذا اشتكى العرب بأنني المسئول عن اختطافها فسأقدم نفسي لأية عقوبة يقضي بها مولاى .

ــ إننا نفهم حيلتك أيها المكير ! إن العرب إذا لم يتهموك فمعنى ذلك أنك قد أخفيت الفتاة بعلمهم ورأيهم ، وإنك تعرف الطرق المتنوعة التي في أيدينا لاخضاعهم على قول الصدق والاعتراف به .

ــ يا ولى النعمة ! إن كنت تراني مجرما فأنا تحت أمرك ، عاقبني كما تشاء أما هؤلاء العرب فقد واجهوا كثيرا من الظلم والاضطهاد قبل هذا .

ــ إذن فأنت معترف بصداقتك لأعدائنا ؟

ــ إنهم ليسوا بأعدائك يا مولاى ! إنهم كانوا يعتبرون السند جارة آمنة ولولا ذلك لما كانوا اقتربوا من (ديبل) وهم في طريقهم

إلى بلادهم ، ولو كانوا مفسدين خونة لما أمكن لى أن أقدم إلى جلالتك هذا الصندوق الملئ . بالهدايا الملكية من ملك (كاثياوار) فقال الملك : إن اللالى والجواهر التى بعث بها ملك (كاثياوار) إنما هى أحجار بالنسبة إلى جواهر (سرنديب) .

ــ مولاى ! أنا لست جوهريا ، إنما أنا جندى ، ولا معرفة لى بالأحجار ، ولكننى أعرف أن أفرق بين أصدقائك وأعدائك . اننى جئت إليك أحمل رسالة ملك (كاثياوار) إلى جانب هذه الأحجار . . . إنها لو لم تعادل حبة خردل فان اليد التى تقدم لك هذه الهدايا الحقيرة هو يد كريمة وثمينة جدا . . . إن ما اقترفه (برتاب راى) باغارته على السفن العربية وإغضابه الخلافة الإسلامية العربية المسالمة التى هى من أقوى جيرانك . . . إن إغضاب هذه الدولة الكبرى سوف يكلفك أغلى الأثمان .

يا ولى النعمة ! يجب أن تفكر كثيرا قبل أن تعادى المسلمين ، إنهم أقوى قوة فى العالم اليوم ، وأن حديدهم يفلح كل حديد ، إنهم يهبون كما تهب العواصف قبل موسم الأمطار ثم يحيطون بأعدائهم كما تحيط سحب موسم الأمطار بالبلاد ، إن الذين يخرجون لقتالهم لا يمكثون فى مواجهتهم إلا يسيرا ثم لا يجدون لأنفسهم ملاذا منهم لا فى شواهق الجبال ولا فى أعماق البحار ان خيولهم لتطير فى الهواء وتجرى على المياه ! إنك قد رأيت أمواج نهر السند فى موسم الأمطار، أما سيل فتوحاتهم الجارفة وانتصاراتهم القاهرة فهو أسرع وأقوى من تلك الأمواج المتلاطمة .

لم يستطع الملك داهر ان يتحمل أكثر من هذا فصاح قائلا :
أيها الجبان ابن آوى ! إن الدم الذى يجرى فى عروقك ليس دم (راجبوت) أبدا . . . لا أسمح للجبناء من أمثالك ان يعيشوا فى بلادى هذه . . .

— يا ولى النعمة ! إننى الآن عندكم كسفير لملك (كاثياوار) . . وأنا شخصيا لا أحب البقاء فى بلد لا يفرق بين الأعداء والأصدقاء ، ولا يعترف بالفرق بينهما .

ولو كان ملك (كاتياوار) نفسه الآن فى بلاطى وقال ما قلته أنت من الهراء لأمرت بقطع رأسه ! خذه يا (برتاب راى) واذهب به ! وسوف نقضى فى قضيته غدا ! أما كبير الأسرى العرب فيجب إحضاره غدا بين أيدينا لنرى فى قضيتهم .

فنادى (برتاب راى) بعض الجنود فدخل ثمانية منهم يحملون سيوفا شاهرة فأشار إلى (جى رام) فمشى أمام (برتاب رإى) فى ظلال السيوف المجردة الشاهرة .

وكان (أودى سنج) يشعر فى خلال كلمة (جى رام) كأن ذلك المجنون المتحمس يعبر عن أفكاره فقال للملك ، رب النعمة : أريد أن أقول كلمة إذا سمحت .

فقال الملك : لا حاجة إلى كلمتك ، إننا سوف نعاقبه معاقبة لن ينساها سكان (برهمن آباد) إلى مدة طويلة .

وقال (اودى سينج) أما أنا فأقول لمولاى أن ما قاله هذا الشاب إنما هو النصح والصدق وحسن النية ، ولا أرى من المناسب أن

نشترى عداوة العرب مقابل بضعة أفيال وجواهر . . . إننا نثق بقوتنا ونعتمد على صلاحيتنا الحربية ، ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الأعداء العرب لأقوياء جدا .

فقال الملك : يبدو أنك سمعت صياح ابن آوى فأصبحت مثله يا (اودى سينج) ! ان هوءلاء العرب الذين يشربون لبن الناقة ويأكاون خبز الشعير اليابس لن يقدروا على أن يقاتلونا !

— يجب أن لا ينسى مولاى . . انهم يشربون حليب النوق ولكنهم يقاتلون قتال الأسود ، إنهم يأكلون خبز السويق ، ولكنهم يقدرون على أن يفتتوا الجبال .

— أفتظن أنهم يخرجون ليقاتلونا على ظهور النوق . ونحن أصحاب الأفيال الفخمة الهائلة .

— رب النعمة ! لا يسوؤك أن ركاب النوق قد هزموا الايرانيين أصحاب الأفيال والقلاع .

فقال الملك غاضبا : (أودى سنك) لم أكن أتوقع منك الجبن إلى هذا الحد . . لقد راعك ما سمعت من أفواه الناس حول انتصارات العرب ! اننا نستطيع أن نجمع جيشا أكثر من مجموع سكان العرب ! إن أمراء إقليم (راجبوتانة) مستعدون لأن يقاتلوا من أجلنا وعلى أدنى إشارة منا .

فرد (أودى سنك) : مولاى ! أنا لا أخافهم أبدا ! ولكن لا أتردد فى أن أقول لجلالتكم بأنه لا فائدة فى إثارة الفتن الخامدة ،

إنه ليس من الحكمة أن نشترى عداوة الأقوياء على أساس الأمل فى مساعدة الأجانب .

ــ ما هذا الكلام الذى تكرره مرة بعد أخرى يا (أودى سنك) ! إن بدو العرب ليسوا قوة قاهرة أو أعداء أقوياء بالنسبة إلى شجعان السند ! ما هى الميزة التى توجد فى العرب وجنودهم ولا توجد فى جيشنا الباسل ؟

مولاى ! لا يمكن مواجهة العدو الذى لا يخاف الموت ، وإذا كنت لا تصدقنى فيمكن أن تدعو عربيا من بين هوءلاء الأسرى وتختبر فروسيته ، إن السيوف هى لعب أولادهم الصغار .

فنظر الملك إلى (أودى سنك) ثم قال : ما رأيك يا (بيم سنك) أفتعتقد أنت أيضا بأن جنودنا أضعف وأوهن من العرب ؟

فقال (بيم سنك) : مولاى ! إن والدى يرى خير بلادنا فى مصالحة العرب وإلا فقد تربينا تحت ظلال السيوف كذلك . . فمادام العرب لا يخافون الموت فعلينا نحن أيضا أن لا نتراجع عن قتالهم ومواجهتهم . . .

فقال الملك " مرحى ! أرأيت يا (أودى سنك) ! إن ولدك أشجع منك .

فأجابه (اودى سنك) قائلا : مولاى ! يسرنى كلامك هذا فى ابنى إلا أن واجبى كقائد للقوات المسلحة يفرض على أن لا أقلل من شأن الأخطار القادمة أمام جلالتكم . . إن (بيم سنك) لا يزال طفلا أنه لم ير العرب فى ميدان القتال . . أما أنا فقد رأيتهم فى حرب

(مكران) حيث تأكد لى بأن الجندى العربى العادى يستطيع أن يقابل أقوى أبطالنا . . إن عددا لا يزيد من ستمائة مق الجنود العرب الذين حملوا على مكران تمكنوا من حصد ستة آلاف من جيش الملك . . . لقد كانوا كالسيل الجارف للأعشاب . . . إنك تعرف (جى رام) منذ أمد بعيد وليس لدينا فارس يعرف السيافة أكثر منه ومادام يخاف العرب أو تروعه هيبتهم فليس معنى ذلك أنه جبان ، أو أنه غدر بجلالتك ، وإنما السبب الوحيد هو أنه قد تبين وعرف خطر العداوة بين السند والعرب معرفة جيدة .

فقال الملك فى لهجة مريرة : إنك قائد عسكرى ولست وزيرا ، ولم أكن لأستشيرك فى مثل هذه المشاكل فلما كانت قوتك وصلاحيتك قد خذلتك بسبب الضعف والشيخوخة فانك تستطيع أن تتقاعد ! ولا يجوز لك أن تشفع فى عاص جبان قليل الأدب من أمثال (جى رام). إن ما قاله فى حضرتنا لمما يكفى أن يعاقب عليه أخزى العقوبة وأكبرها .

ارتبك (اودى سنك) عند ما رأى الغضب فى وجه الملك فقال له : مولاى ! أستميحك العفو فأنا لم أوفق فى بيان رأى ، وأقصد مما قلته أن جلالتك لم تعلن الحرب ضد العرب ، ولكن عند ما تعلن الحرب عليهم فسوف ترانى كيف أودى الواجب ، إن من واجبى بل من واجب كل جندى من جنودنا أن يضحى بنفسه ويريق آخر قطرة من دمه من أجل انتصارك على الأعداء . . إننى آسف على إساءة الأدب التى اقترفها (جى رام) بين يدى جلالتكم . . ولكنى أؤكد لك بأنك سوف تراه بين من يفدونك بأرواحهم ويدافعون عن بلادك إذا

حان الوقت لذلك . . وما دمت قررت الحرب ضد العرب فعلينا أن نبدأ استعدادنا منذ اليوم ، فانى أريد أن نوجه للعرب ضربة قاضية لا يمكن لهم النهوض بعد الهزيمة النكراء ، ولا بد لنا أن نستعين بأمراء الهند الشمالية والجنوبية كبارهم وصغارهم ، إلى جانب تنظيم الجيش الملكى لهذا الغرض ! إن هوءلاء الأمراء كلهم يعترفون بتفوقك ، وأنهم سوف يرون القتال تحت قيادتك فخرا واعتزازا . . . ويجب أن لا نغضب ملك (كاثياوار) أيضا ! أنه لم يبعث لك الهدايا وإنما بعث بالخراج لجلالتك ! إنك لو عفوت عن (جى رام) يمكن لنا أن نستغله فى تحقيق التعاون مع ملك (كاثياوار) .

فقال الملك وقد عاد إليه الهدؤ والرضا ! إنك تتحدث الآن بلهجة "راجبوت" أما (جى رام) فقد صار مع العرب ، وحتى لوعفونا عنه فلن نستطيع أن نتأكد بأنه لن يخدعنا أو يخذلنا ، وقد سمعت أنه يعلن صداقته مع شاب عربى فاذا وافق أن يبارز ذلك الشاب وغلبه فانى مستعد لأن أعفوعنه .

ـــ مولاى ! إنه سوف يكون مستعدا ليصارع جبلا باشارة من جلالتك .

ـــ حسنا . . لا مانع من أن نهيئ له هذه الفرصة مادمت تشفع له ، وسوف نرى خبرة شاب عربى فى المسايفة إلى جانب إخلاص (جى رام) ووفائه لنا فى نفس الوقت .

فنهض الملك من مجلسه وذهب إلى غرفة أخرى من القصر .

﴿٣﴾

وفى اليوم التالى عقد الملك (داهر) مجلسا فى قاعة واسعة من قصره فى (برهمن آباد) وكان أحد وزرائه قد وصل إلى (برهمن آباد) من عاصمة السند فى مدينة (الرور) فجلس الوزير والقائد الأعلى وأمراء (برهمن آباد) ووجهاؤها حسب درجاتهم على الكراسى المختصة لكل واحد منهم ، والكرسى الثالث بعد الوزير والقائد الأعلى والذى كان يشغله حاكم (برهمن آباد) من قبل هذا كان هذا الكرسى يشغله الآن حاكم ديبل أما حاكم (برهمن آباد) فقد كان جالسا على مسافة أذرع من الملك . مما كان يشعر لهذا البعد بأن القدر قد أقام حاجزا خطيرا بينه وبين الملك ، أما الشاب (ببم سنك) بن (أودى سنك) فكان جالسا على الكرسى الخامس على يسار الملك فيما جلست الحاشية على يسار الملك فى صف من الكراسى . . وكان الموظفون وأصحاب المناصب قد وقفوا فى صفين وراء الكراسى على الجانبين . أما الملكتان فكانتا جالستين على كرسيين إحداهما عن يمين الملك والثانية عن يساره بينما وقفت فتاة جميلة وراء الملك تحمل فى إحدى يديها زجاجة خمر و فى الأخرى كأسا ، وأثناء ذلك قام شاعر البلاط الملكى فمدح الملك بأبيات من الشعر بصوت مترنم ثم قامت حفلة الرقص والموسيقى واستمرت لبعض الوقت وتناول الملك كأسا أو كأسين من الخمر ثم أمر باحضار الأسرى العرب .

دخل الجنود بالزبير وهو مكبل بالأغلال ثم تبعه (جى رام) الذى لم يكن مكبلا مغلولا مثل الزبير ولكن الجنود كانوا قد أحاطوا

به من كل جانب بسيوف مسلولة مما أكد للزبير بأن حاله لا تختلف كثيرا عن حاله .

فقال الملك الحاكم (برتاب راى) : هل يعرف الأسير لغتنا المحلية .

فأجابه وهو ينهض : نعم ! يا مولاى إن هذا الفتى الأجنبى يبدو ذكيا فى تعلم اللغات الأجنبية .

فنظر الملك إلى الزبير قائلا : ما اسمك .

ــ الزبير !

فقال له الملك : سمعنا أنك كنت ترغب فى الحديث إلينا ! فماذا تريد أن تقول .

ــ إنى أريد أن أسألك : لماذا أغير على سفننا فى ميناء (ديبل) ولماذا قبض علينا وعوملنا هذه المعاملة البربرية .

ــ فأجابه الملك مضطربا : أيها الشاب ! لقد سمعنا من قبل أن العرب لا يعرفون آداب التخاطب والكلام مع السادة والملوك ولكنى أنصح لك أن تكون على وعى فى حديثك إلينا من أجل إنقاذك وإنقاذ زملائك .

فقال الزبير : إن المعاملة التى عوملنا بها فى بلادك وعلى يد حاكمك فى (ديبل) إذا لم يكن بعلمك فهذا شيىء آخر ــ ولكن الحقيقة أن حاكم (ديبل) قد اعتدى علينا بدون أى مبرر أو سبب ، فاذا كان هناك أى سوء تفاهم بيننا وبينك فنحن مستعدون للمفاوضة

وإزالة سوء التفاهم ، أما إذا كانت هذه الخطوة من قبل حكومة السند لاختبارنا وامتحان قوتنا فاننا نؤكد لحاكم السند بأننا لسنا بمنبوذى الهند الذين لا يقدرون على الاستغاثة والاحتجاج ضد الفوارق الطبقية والمعاملة السيئة من طرف مواطنيهم ، إنه لم يجروء أحد الاعتداء علينا ولست أظن أن حكومة السند تستطيع أن تتحمل ضربة ذلك الشعب الباسل الذى يرى من واجبه إغاثة المظلوم فى أى مكان من العالم إن هذا الشعب الكريم الأبى لن يستريح دون أن ينتقم لأعراض نسائه .

فقال الملك وهو يلتفت إلى وزيره : أتسمع ما يقول : أسير يعلن الحرب علينا !

فأجاب الوزير : مولاى ! إن العرب قوم ثرثارون ! وقد غرتهم الفتوح والانتصارات ضد فارس والرومان ولكنهم لم يلتقوا بأسود السند .

فقال له الزبير : لم نشاهد شجاعة الأسود فى (ديبل) وإنما شاهدنا مكر الثعالب !

أثارت كلمات الزبير هذه ضجة فى البلاط الملكى وبدأ الحاشية ينظر بعضهم إلى بعض .

فأدرك "أودى سنك" خطورة الموقف فنهض من مكانه فقال للملك وقد عقد يديه على صدره إكباراً له :

مولاى ! إن هذا الشاب قد بقى بضعة أيام فى السجن مما قضى على عقله ودماغه . . وفوق ذلك فان مولاى يعرف جيداً بأن الجندى

إذا كل سيفه طال لسانه .

ولم يفهم الزبير معنى تدخل (اودى سنك) إن كان يريد إنقاذه من الموقف الحرج حينما رآه يثور غضبا وغيظا فقال له : لقد هوجمت من الخلف وإلا فان سيفى لم يكن كليلا !

فنهض (برتاب راى) وقال للملك : إنه كذاب يا مولاى لقد قبضنا عليه بعد قتال معه .

فقال الزبير فى صوت يرتعد غضبا واحتقارا : أيها الجبان الماكر ! إنك أحقر نموذج للإنسانية . إنك ترانى مكبلا بالأغلال ومع ذلك فانك ترتعد خوفا وهلعا ، لقد فقد الثعلب صوابه وإن كان الأسد فى القفص حلوا وثاق إحدى يدى وأعطونى سيفى فسيعرف الجميع الفرق بين ما تدعيه وبين ما أقول . .

ظل (برتاب راى) ينظر إلى رجال الحاشية والبلاط بعينيه الشاخصتين أما حاكم (برهمن آباد) فاغتنم وجود الزبير فنهض من مكانه يقول . . مولاى ! إنه من إهانة مذهب الكشاترة (الفئة العسكرية من طبقات الهنادكة الأربعة) أن يطعن عربى عادى حقير فى بسالة السردار (برتاب راى) وشجاعته ! أرجوك أن تسمح للسردار (برتاب راى) أن يبارز الزبير ليكذب ادعاءه .

وكان (أودى سنك) أيضا يحقد على السردار (برتاب راى) ولكنه كان يرى أن أهم شىء هو إنقاذ الزبير من عتاب الملك والطريق الوحيد لإنقاذه فيما رأى لم يكن إلا أن يبارز (جى رام) الزبير ! حتى يرى الملك مدى صداقة (جى رام) للعرب .

فنهض وقال للملك : يا مولاى ! إن ما قاله حاكم (برهمن آباد) ليس صحيحا ! إن مكانة (برتاب راى) أرفع من أن يقابل شابا حقيرا من العرب إنه من الإهانة أن يكون لدينا آلاف مؤلفة من الشباب يمكن لهم أن يقوموا بارضاء غرور هذا الشاب العربى ، فاذا أحب مولاى أن يأذن للفتى (جى رام) أن يثبت بأنه ليس صديقا لعربى نجس حقير .

فقال الملك : إنك قد شفعت أكثر من مرة فى (جى رام) ولكن آراءه وأقواله تدل على أنه يرتعب من العرب كثيرا ، ما رأيك يا (جى رام) هل أنت مستعد لتبرز إخلاصك ووفاءك لنا .

فقال (جى رام) بكل خضوع : يا مولاى ، إننى مستعد لأن اقتحم النار باشارة منك ! أما الزبير فانه ضيفى ولا أستطيع أن أحمل السيف ضده .

عم البلاط صمت رهيب مرة أخرى ونظر (أودى سنك) إلى (جى رام) فى يأس فصاح الملك : قائلا : خذوا هذا الحمار وابعدوه عنى ! سودوا وجهه وألقوه فى القفص ثم تجولوا به فى الشوارع ، وسوف يأتى مصيره غدا أمام فيل ضار . يا (أودى سنك) إنك قد أخجلتنا أمام هذا العربى ! وأنت يا (برتاب راى) لماذا ساكت هكذا ! فقد هزمته فى ديبل فلماذا لا تسل سيفك الآن ؟ ما لكم خائفون وجلون هكذا ؟

فنهض الشاب (بيم سنك) وجرد سيفه وقال : مولاى ! أستأذنك !

فتبعه الحاشية كلهم فجردوا سيوفهم وكان آخر من جرد سيفه هو الحاكم (برتاب واى) أما نظراته فكأنما كانت تقول للملك : يا رب الرزق ! ارحمنى ! فرأى الزبير أن الحاشية ينتظرون إشارة الملك فقال وهو يبتسم ابتسامة الهزء والسخرية : خلهم الآن أيها الملك ، فقد عرفت أن جميع حاشيتك ذووا جرأة وشجاعة ولا يحبون الجبن إذا وجدوا عدوهم مكبلا بالأغلال . . ولكن تأكد أن الأقدار ليس من سنتها أن تقدم الأسود أمام الثعالب بالقيود والأغلال دائما !

فقال (بيم سنك) مولاى ! أرجوك أن تأمر بفك قيوده وسيعرف حالا من هو الأسد ومن هو الثعلب !

(٤)

فأشار الملك إلى الجنود فحلوا عن الزبير قيوده وأغلاله وقدموا له سيفا فقال الوزير : مولاى ! إن هذه المبارزة لا يجوز أن تكون فى بلاطك . .

فقال الملك : ولما ذا لا يجوز ! فقد طعن فى شجاعة جنودنا فى بلاطنا هذا ونحب أن ننتقم لهذا الطعن فى بلاطنا أيضا .

مولاى ! أما الانتقام فيمكن أن يحل بالطاعن دون أن تسمح له بالمبارزة أيضا !

فقال الملك ! لا ! إننا نريد أن نرى خبرة العرب فى المسايفة !

فتقدم (بيم سنك) حتى وقف فى المكان الخالى بين الكراسى فدعا الزبير أن يتقدم للمبارزة فنظر الزبير إلى الملك فقال له : إنه

لا عداوة بيني وبين هذا الشاب ، إن الحاكم (برتاب راى) هو المجرم الآثم فى نظرى لما ذا تريد أن تلقى بهذا المسكين فى المهلكة ؟

فقال له (بيم سنك) : أيها الجبان ! أنك لا تعرف إلا الثرثرة ! تقدم لمواجهتى ومبارزتى إذا كنت من أهل الشجاعة والبطولة !

— ما دمت تصر على أن تتحمل عبء الآخرين على كواهلك فالامر إليك . قاله الزبير ثم تقدم فوقف أمام (بيم سنك) فأمر الملك الجنود فاصطفوا فى شكل نصف دائرة أمام العرش الملكى والكراسى فنهض (أودى سنك) وقال : يا بنى ! إنك أمام عدو خطير فيجب أن لا تخطىء ضربتك أو تكون ضربتك تافهة ومتقلبة !

— لايهمك يا أبت ! قاله (بيم سنك) ثم أخذ يضرب ضربات متتالية فتراجع الزبير بضع خطوات لأن الحملة كانت مفاجئة مما جعل رجال الحاشية يهتفون فرحا وسرورا ، وظل الزبير يدافع عن نفسه ويواجه ضد ضربات (بيم سنك) لبعض الوقت ، ولم يمض وقت طويل حتى أدرك الناس بأن اليد المدافعة أقوى بكثير من اليد المهاجمة . ثم صاح (أودى سنك) يقول : يا بنى ! لا تكن مستعجلا ثائرا فان السياف المتأنى هو الأخطر دائما .

إلا أن ابتسامة الزبير أثارت حفيظة (بيم سنك) فبدأ يضربه ضربات بدون روية أو تنظيم وعندما رآه الزبير قد ثار ثورة شديدة وجه إليه بعض الضربات التي جعلت (بيم سنك) يتحول من الهجوم

إلى الدفاع وقد حدث غير مرة أن سيف (بيم سنك) لم يرتفع فى لحظة الدفاع الحاسمة إلا إن سيف الزبير لم يجرحه وإنما مس جسده ثم عاد دون أن يصيبه أى ضرر . وكان رجال الحاشية قد أدركوا أن الزبير يتعمد سلامة (بيم سنك) كما أدرك هو بأن خصمه أقوى منه ويفوقه فى الفن كثيرا . . إلا أنه عزم على أن يفضل الموت على الاعتراف بالهزيمة : ومع أن (برتاب راى) كان يعادى والد (بيم سنك) منذ زمن قديم إلا أنه كان يدعو لانتصاره على الزبير . . وأخيرا بدأ ساعدا بيم سنك تتراخيان وتفتران وبدأت سحب اليأس والخجل تغطى وجوه الملك وحاشيته .

فقال (أودى سناك) للملك : مولاى ! إن (بيم سنك) سوف يضحى بنفسه ولكنه لن ينهزم ولن يتراجع وأنت تستطيع أن تنقذ نفسه . . وزوجة الملك الكبرى أيضا شفعت فى ولد (أودى سنك) ولكن الملكة الصغرى قالت للملك : مولاى ! إنه ليس من العدل أن تأمروا الجنود لينقذوا (بيم سناك) ! إن قلب (أودى سنك) قد بدأ يذوب رحمة على ابنه بينما لم يرحم الأجنبى عندما تراجع بضع خطوات . . ما دمت جلالتك تريد أن تنقذ أحدا فعليك أن تنقذ الاثنين .

وكان الملك مترددا فلم يستطع أن يقضى بشىء ، وفجأة انهمرت ضربات الزبير على (بيم سنك) حتى دفعه إلى الوراء وجاء به إلى الكرسى الذى كان جالسا عليه أما الجنود الذين كانوا واقفين أمام الكراسي فقد تقلصوا فى ناحية أخرى . . وسقط (بيم سنك) على بطنه

فوق كرسيه مترنحا يتهادى ! فحاول النهوض إلا أن الزبير وضع نصل سيفه على صدر (بيم سنك) وقال لـه : إنك لـو عشت لبضع سنـوات أخرى فلعلك تصبح مبـارزا جيـدا . . أما الآن فخير مكان تستحقه أنت هو هذا الكرسى .

فسقط السيف من يد (بيم سنك) وأخذ يقطع شفتيه ندما وغضبا . وأشار الملك إلى الجنـود ولـكن قبل أن يرفعـوا سيوفهـم وثب الزبير وثبة سريعة من فوق الكرسى الذى كان يشغله (بيم سنك) حتى وصل إلى (برتاب راى) وقبل أن يعود إلى نفسه وضع الزبير نصل سيفه على متنه وقال للملك : عليك أن تأمر الجنود أن يبقوا فى أماكنهم وإلا فان سيفى سوف يخترق صدره .

أشار الملك إلى الجنود فتنحـوا وتـراجعوا ثم نظـر الـزبير إلى الملك فقال له : يا ملك الحمقى ! أننى لا أرجو منك أى خير ولكن لابد لى أن أصرح لك بأن الذين نصحوك بأن تشترى عـداوة العـرب ليسوا بمستشاريك الناصحين لك وإنما هم أعـداؤك . . . وأن الـذين تثق بهم ليس لهم من العقل إلامثل عقل حاكم (ديبل) ورأيه . أنظـر إلى بطلك هـذا الذى لا يـزال يرتعـد ارتعـاد شجـرة الصفصاف وهو جالس على كرسيـه ، أنى أوجـه إليـه بعض الأسئلـة بين أيديـكم حتى تعرفوا الحقيقـة : قل لى يـا (برتاب راى) أقبضت على بعـد قتـال أم بالمخادعـة باسم الصداقـة والضيافـة أجب لماذا أنت صامت ! إنك إن كـذبت فتـأكد أن هؤلاء الجنـود لا يقدرون على إنقـاذك من طعنتى ! ثم أن الـزبير حرك سيفه حركـة خفيفة كأنه يريد أن يطعنه

فقال (برتاب راى) فى صوت مرتعد ! كنت قد دعوتك من السفينة ولكن ماذا أفعل أنا لقد كان أمر مولاى أن أقبض عليكم على كل حال .

فقال الملك : أمسك يدك ، إن برتاب راى) لم يفعل إلا كما أمرناه ، إنك إن اعتديت عليه أو أصابه منك أى ضرر فتأكد أن أصحابك فى سجننا وسوف نعاملهم معاملة فوق ماتتصور . إننا لم نقض فيك بشىء إلى الآن ، أننا لا نريد إفساد العلاقات مع العرب بدون مبرر ! إن شعبك لشعب باسل لا شك فيه ، ولكن لما عالجت القضية بالحكمة والروية وحسن المعاملة فقد يمكن أن نفرج عنك وجميع أصحابك ، وأنك ترى عشرين جنديا قد أحاطوا بك منتظرين أوامرنا ! إنك تستطيع أن تقتل واحدا ولكن سوف نصلب جميع أصحابك ونعلقهم على المشانق بدل هذا الرجل الوحيد ! فاذا أردت النجاة لأصحابك فعليك أن تلقى بسيفك .

فقال الزبير : إننى لا أثق بأى واحد منكم ولكن أريد أن أعطى الفرصة لجميعكم لكى تفكروا فيما يضركم وينفعكم ، وأنكم إذا أردتم أى سوء بأصحابى فيجب أن لا تنسوا ذلك اليوم الذى يكون فيه رؤسكم تحت سيوف المجاهدين من أمثالى والذين تسمونهم المجانين . . . سوف يكون كل رأس خائن تحت سيف مضىء من سيوف المجاهدين . وما دمتم تطمعون فى الأفيال واللآلى فانى أطلب منكم أن تطلقوا سراحى وسراح زملائى وأن تسلموا إلى خالدا و أخته .

قال الملك : ما دمت لا تلقى السلاح فاننا لن ننظر فى طلبك هذا .

لم يكن الزبير يتوقع أى خير من الملك وحاشيته ولولا اهتمامه بأمر أصحابه لفضل موت الشجعان الكرام على أن يسلم نفسه إلى الملك وحاشيته يفعلون به ما يشاؤن إلا أنه اعتبر مصير اليتامى والأيامى أمانة فى عنقه فهدأت نفسه وتملكها السكون ، ثم فكر فى ناهيد وأخيها فبدأ جسمه يرتعد ارتعادا . . . وفى هذا الخضم من الأفكار الهائجة والظروف السيئة أصبحت كلمات الملك موضع الأمل والرجاء وإن كان واهنا كاذبا ، فألقى الزبير سيفه أمام العرش الملكى ! فتنفس الملك الصعداء ! أما (برتاب راى) فكانت حاله حال من يستيقظ من حلم مخيف هائل ! وقالت الملكة الكبرى فى أذن الملك : مولاى ! إن عداوة مثل هؤلاء ليس أمرا مستحسنا .

فأومأ الملك إلى وزيره يطلبه فهمس فى أذنه قائلا : ما رأيك فيه ؟ فقال الوزير : إن رأى مولاى فوق رأيى .

قال الملك : فلو أطلقت سراحه ، فهل تظن أن كبار رجالى ورعيتى لا يسموننى جبانا ؟

ـــ مولاى ! من يبصق على وجه القمر إنما تعود الرشحات إلى وجهه . إنك إله فى نظر رعيتك ولكن الإفراج عن هؤلاء الأسرى ليس من المصلحة . . . إن العرب لا يقدرون الهجوم على السند ، ولكننا لو بعثنا بهؤلاء فانهم سوف يثيرون ضجة

ضدنا فى العالم العربى كله ، إذا كان مولاى قد غير موقفه من استعادة مكران من العرب فمن المصلحة أن يأمر باعدام هؤلاء الأسرى بدل الإفراج عنهم ، حتى لا يكونوا مبررا فى أيدى العرب وشهودا على أننا قد أغرنا على السفن العربية ، وقد راوغنا حاكم مكران فى قضية أبى الحسن ! فاذا جاء أحد يبحث عنهم فسوف نراوغه ونتملص .

فقال الملك : من قال لك بأننا قد غيرنا موقفنا نحو مكران ؟

فأجاب الوزير : مولاى ! إذا كنت لم تغير موقفك فلا داعى إلى التفكير فى أمرهم ! إذن فأقل عقوبة لهم أن يصلبوا فى ميدان شعبى من المدينة حتى يعرف الناس أن العرب ليسوا مخلوقات ممتازة وإنما هم أناس عاديون .

فقال الملك : هذا هو رأيى ! إلا أن فتاة وفتى قد اختفوا من السفينة فلو اجتازا حدود السند إلى مكران وأخبرا العرب عن ذلك فقد يقتضى ذلك أن نستعد للحرب بسرعة كبيرة .

فرد الوزير : مولاى ! لا تخفى الظروف الراهنة الآن فى البلاد العربية ، إن الحرب الأهلية قد هدأت أخيرا وأن جيوشهم تقاتل الآن فى البلاد الشمالية والغربية إن لدينا مئة الف جندى ونقدر أن نجمع مثلهم إذا مست الحاجة ، وفوق ذلك فان أمراء (راجبوتانه) كلهم أتباعك ويؤدون لك الخراج ، وأرى أنهم سوف يعتبرون من الفخر والاعتزاز أن يقاتلوا ضد العرب تحت رايتك ! وأننى على ثقة بأن أى عربى يأتى إلى السند لن يعود إلى بلاده حيا سالما .

مرحى ! يا وزيرى البارع ! هذا ما كنت آمله فيك وعليك أن تبدأ بالاستعداد منذ اليوم !

وبعد الهمس والتشاور مع الملك عاد الوزير إلى مقعده ثم التفت الملك إلى الجنود وقال لهم : اذهبوا به ! وسوف نقضى فى أمره مساء اليوم .

❀ ❀ ❀ ❀

الأمل الأخير

وقبل أن يـأوى إلى مضجعه ليلا كان (داسو) قـد سأل "نـرائن داس" أكثر من مرة ليعـرف السبب الـذى جعل (جـى رام) لا يعود إليه حسب الموعد ، ولـكن كلما كررالسؤال لم يختلف الجواب وهو أن (جى رام) له أصدقاء كثيرون فى المدينة وربما ألح عليه أحدهم ليبيت الليلـة عنده فوافقـه وسيعود صباحا ، أما التعليمات التى تركها (جى رام) من أجل (داسو) فهى ألا يخرج من منـزل (نـرائن داس) حتى يعود إليه ، وفى اليوم التـالى لم يخرج (داسو) من المنـزل عاملا بما أمره (جى رام) وعنـد المساء من نفس اليوم جـاء (نرائن) وأخبر (داسو) بأنـه قـد رأى (جى رام) فى قفص مع شاب عربى يتجول بـه الجنود فى الشوارع وأنه قد تقرر بأن يشنق كل واحد منهما فى الميدان قبيل الفجر والسبب فى ذلك أن (جى رام) قد أساء الأدب فى البلاط وأهان الملك وأغضبه .

وعنـد ما سمع (داسو) هـذا الخبر اتجه صوب المدينـة فرأى الناس قد اجتمعوا فى ميدان مزدحم حول قفص مصنوع من الخيزران فتقـدم (داسو) وهو ينحى النـاس بساعديـه القويتين حتى اقـترب من القفص فنظر إلى الزبير و (جى رام) داخل القفص بسرعة ثم تراجع، وبعد لحظات كان (داسو) قد توجه إلى الغابة راكبا فرسه .

وكان الناس قد عادوا إلى منازلهم عند نصف الليل ولم يبق عند الأسيرين إلا بعض الحرس وكان (جى رام) قد قص للزبير قصة لقائه بخالد وناهيد ومايا فى الغابة . أما الحراس فقد نام البغض منهم والبعض جلسوا عند القفص يتحدثون فيما بينهم وعند ما وجد الزبير فرصة الكلام سأل (جى رام) : أين ذلك المنديل ؟

فأجابه (جى رام) قائلا : إنه قد شد بساعدى إلا أن كلانا مكتوف اليدين ! ياليت (داسو) عرف خبرنا . . . يا زبير أريد أن أسألك عن شىء واحد !

ـ اسأل .

ـ إننا سوف نعلق على المشانق قبل طلوع شمس اليوم ! ففى أى شىء تفكر الآن أكثر ؟

ـ إننى أفكر الآن فى شيىء واحد ، وهو أننى لم أستطع إلى الآن أن أقوم بعمل يرضى به ربى جل وعلا ورسوله ﷺ .

ـ لا بد أنك تخاف الموت ؟

ـ إن الشرط الأول للإيمان الذى يؤمن به الإنسان المسلم هو أن لا يخاف الموت ! وما الفائدة فى الخوف ! فمهما يفعل الإنسان فان الساعة التى قدرها الله أن يقضيها فى قبره لا بد أن يقضيها فيه ، وما دامت أيام حياتى قد أحصيت فلا يمكن أن يزيد فيها البكاء أو الخوف . . ولكن الذى يسوؤنى ويؤلمنى هو أن موتا كهذا لا يليق بمكانة مجاهد !

فقال (جى رام) : لا زلت أخال أننا سوف ننجو من هذه العقوبة فمرة يخيل إلى أن الأرض سوف تتزلزل فتصاب المدينة بهزات عنيفة تأتى على المدينة وتجعلها أنقاضا وترابا ! وفى بعض الأحيان يتراءى لى بأن الله سوف ينزل من السماء إلاها أو إلاهة فتقول لهذا الملك : أطلق سراحهما . انهما بريئان لا ذنب لهما وإلا فسوف تنزل عليك نازلة تقضى عليك ، ثم أتخيل أحيانا كأن نهر السند قد غير مجراه وتوجه إلى برهمن آباد فخرج الناس متخبطين مضطربين فأفرجوا عنا وعادوا . . فهل يمربك أفكار كهذه . . . ؟

— لا ! إن أفكارا من هذا النوع لا تزعجنى أبدا . . . وكل ما أعرف هو أنه إذا أراد الله بقائى وحياتى فانه سوف يهبنى آلاف الأسباب لنجاتى وإنقاذى ، وأنه إذا كانت حياتى قد انقضت فلا تنفعنى حيلة ولا تنقذنى وسيلة ولا سبب من براثن الموت ومخالبه .

وقال له جى رام : يا ليتنى أستطيع أن أفكر كما تفكر أنت يا زبير . . . ولكننى شاب وأحب أن أبقى ! وأنت أيضا شاب ولكن أفكارك تختلف عن أفكارى أن أسلوبك غير أسلوبى فى التفكير .

فقال له الزبير : إنك لو حاولت أن تفكر على النهج الذى أفكر فيه فانك سوف تشعر بالسكينة والطمأنينة .

وأجابه (جى رام) قائلا : هذا مالا أقدر عليه أنا .

فقال له الزبير : يا (جى رام) أيمكنك أن توافقنى فى شيئ ؟

— وما هو ؟

— إن الصبح ليس ببعيد . . . . ولعل أنفاسا عديدة من حياتنا قد بقيت أننى أشعر بعبء ثقيل فى قلبى فاذا أحببت فانا أريد أن أخفف هذا العبء عن قلبى قبل الموت .

فقال (جى رام : إن كل ما أستطيع أن أقوم به وأنا فى هذا القفص فانى مستعد له بكل رضا و سرور .

اسمع يا (جى رام) لقد عشنا حقبة من الدهر معا وتدرجنا فى سلم الحياة ومنازلها سوية ! إنى لا أود أن يختلف مصيرنا بعد الموت إنى أحب أن تسلم وتدخل فى دين الله القويم . ولو أنك نطقت بكلمة التوحيد فى هذه الآونة الأخيرة لسرنى جدا واعتبرت ذلك تعويضا لما فات ولما قصرت فى تبليغ كلمة الله ودينه الحق . . وليس فى الوقت متسع لأن أشرح لك جميع خصائص هذا الدين ومحاسنه وليتنى كنت أدركت مسئوليتى نحو دينى ونحن على السفينة ، فلو أنك استمعت إلى فاننى على ثقة بأن الإنسان الصالح الصادق من أمثالك لا يحتاج إلى وقت طويل أو شرح مفصل ليهتدى إلى الحق ويعتنق دين الله الخالد .

فقال (جى رام) : إذا كان حديثك ينجينى من خوف الموت فانى على استعداد لأن أستمع إليك بكل رغبة واطمئنان .

فقال الزبير : إن الاسلام لا يعترف بالخوف من غير الله ، وإنما يعلم التوحيد والمخافة من الله وحده . . . إن هذا التوحيد وهذا الإيمان بالله الذى لا شريك له إنما يقضى على كل خوف غير خشية الله رب العالمين ، استمع إلى ، ثم أن الزبير شرح له تعاليم

الإسلام وعقائده ومبادئه ثم سرد له وقائع السيرة النبوية وسير الصحابة رضى الله عنهم أجمعين وخاصة الوقائع والحوادث منذ صدر الاسلام إلى حروب يرموك وأجنادين والقادسية كان الزبير يسرد له هذه الحوادث والوقائع أما (جى رام) فكان يشعر كأنه بعد أن ضل وهام فى متاهات مظلمة طوال حياته وصل بوثبة واحدة على أرفع قمة من قمم الجبال فى الدنيا ! وكانت أنوار الأمل والرجاء قد بدأت تتلألأ على جبينه .

وفى الهزيع الثالث من الليل كان (جى رام) قد ترك العقيدة القديمة واعتنق الإسلام .

فقال له الزبير : قل لى هل استرحت من العبء الثقيل الذى كان يمزق قلبك ؟

فقال (جى رام) : إننى الآن أشعر بقلق آخر . . . وهو أننى اعتنقت الإسلام وأنا على عتبة الموت . . . ياليتنى عشت أياما أصلى فيها وأصوم كما رأيتك تصلى وتصوم .

فأجابه الزبير : إنه لا ييأس المؤمن من روح الله فهو على كل شىء قدير .

(٢)

صاح الحارس وهو ينادى رجلا كان يقترب من القفص .

من أنت ؟ !

وقف الرجل عند القفص دون أن يرد على الحارس ، فنهض

بعض الجنود فقال الجندى الأول مرة ثانية : لماذا لا تجيب ؟ من أنت ؟ وفى أثناء ذلك كان بعض الجنود قد عرفوه ، فقال أحدهم وهو يهز ساعد جندى آخر من زملائه القدامى : لماذا تصيح هكذا كما يصيح القرويون الجهلاء . . . أما تعرفه ؟ إنه (السردار بيم سنك) أنت هنا فى مثل هذه الساعة يا صاحب المعالى !

لقد جئت لأرى حال الأسيرين .

فقال الجندى الآخر : لا تفكر فى أمرهما يا سيدى ، إن بعض هؤلاء الجنود قد ناموا الآن .

فسأله (بيم سنك) : ما اسمك ؟

فقال له الجندى : سيدى ! اسمى (سروب سنك) .

يبدو أنك جندى ذكى شاطر وسوف أوصى لك عند حاكم (برهمن آباد) بترقيتك وعلاوتك !

ــ إلهنا يبارك فيك ! لى أربعة أولاد صغار ! إنك تحرك شفتيك فقط ولكنه سوف يجعلنى فى مكانة مرموقة .

ــ لا تحزن ! لا تفكر فى شىء . . . حسنا ! أظن أنه قد نام الأسيران .

ــ لا يا سيدى ! فقد كانا يتحدثان قبل بضع دقائق ، ثم تقدم الجندى نحو القفص ونظر إلى داخله ثم قال : يا سيدى ! كلاهما يقظان .

ــ إنى أريد أن أتحدث إلى (جى رام) .

فقال لـه الجنـدى : لا يحتـاج سيـدى إلى الإذن ، ثم أشار إلى زملائه فتنحوا عن القفص ووقفوا فى ناحية أخرى .

فقال بيم وهو يختلس النظر من خلال ثقب داخل القفص بصوت مرتفع . إنك أكبر الحمقاء يا (جى رام) و أدخل يده فى القفص وهو يتحسس عضد الزبير فقال له فى صوت خافت : هات يديك يا زبير ! فأدار الزبير وجهه وجعل يديه المكتوفتين نحوه ، ثم قال له (بيم سنك) بصوت مرتفع رنان : يا خائن ! يا حرامى ! يا وقح ! أما استحييت من إعلان الصداقة لهذا النجس العربى أمام جلالته ؟ ثم قال بصوت خافت : قـل شيئا يـا (جى رام) فـانى مشغول بقطع حبـال صديقك ! فحدث والإ فان هؤلاء الجنود سوف يشكون ويرتابون .

فقـال (جى رام) وهو يصيح : أمـا تستحى يـا (بيم سنك) إنـه لا يليق بمجد (راجبوت) أن يسب شخصا وهو أسير مغلوب .

ــ إنى أعتبر إهانة لنفسى الأبيـة أن أسب جبانـا مثلك ! إنما جئت هنا لأسألك : أين أخفيت تلك الفتاة وذلك الفتى ؟

ــ لا أعرف عنهما شيئا ، اذهب ولا تضايقنى .

وفى أثنا ذلك كان (بيم سنك) قـد فك القيود من يـدى الزبير ، وأعطاه خنجرا وهو يقول لـه : إنى آسف إذ لا أستطيع أن أعمل لك أكثر من هـذا وأظنك لا تستطيع أن تـكسر القفص للفـرار ، ولـكن عليك أن تحـاول وتختبر نصيبك فان لم تستطع التحـرر فـانك سوف تموت موت الشجعان الأحرار .

فقال (بيم سنك) وهو يغير لهجته ليغالط الجنود : إننى متأكد بأنك قد أخفيت تلك الفتاة العربية فى مكان ما ، حسنا . . . كما تريد أنت ! أراك لا تقول الصدق ولكن تأكد أن أهل (برهمن آباد) سوف يرونك على المشانق قبل طلوع الشمس .

تراجع (بيم سنك) بضع خطوات ثم قال للجنود : لماذا تنحيتم أننى ما كنت أريد التحدث إليهم ، ألا ترون (جى رام) هذا الذى لم ينهزم كبره ولم تنكسر نفسه حتى الآن .

فقال الجندى : إنه لشقى سيىء الحظ ، وإلا فقد سمعنا أن جلالته كان يقدره ويكرمه كثيرا ، يا سيدى . . . إن أهالى المدينة يقولون أن هذا الشاب العربى ساحر سحر (جى رام) فعصى صاحب الجلالة .

وقال (بيم سنك) لعله صحيح . . . أرى أننى قد أخطأت فى الاقتراب من قفص هذا الساحر .

ـــ لا يا سيدى ، إنه لا يستطيع أن يسحر معاليك ، ولكن مع ذلك تستطيع أن تدعو عند إله من آلهتنا .

إنك ذكى حقا . . . إنى ذاهب . إن رأسى أخذه الدوار ، لعله من أثر السحر .

ـــ لو أمر سيدنا أحدا منا ليصاحبه إلى منزله .

ـــ لا ! لا حاجة بى لذلك .

ـــ وعندما تحرك (بيم سنك) عائدا إلى منزله ناداه ذلك الجندى قائلا : لا تنسانا يا سيدى .

ـــ لا تفكر فى ذلك .

وبعد ذهاب (بيم سنك) قال الجندى لزملائه : أرأيتم ؟ أما قلت لكم إنه ساحر ولكنكم لم تصدقونى وأنت يا (سروب سناك) لابد أن يمسك سوء فقد لمست القفص غير مرة ، أما أخذ رأسك يدور الآن ؟

ـــ رأسى أنا : أظنه قد ثقل شيئا قليلا .

ـــ إذن انتظر قليلا وسيأخذه الدوار .

فقال (سروب سنك) وقد بدأ عليه شيء من الاضطراب : ولكننى سمعت أن موت الساحر يزيل أثر سحره .

ـــ إن السحرة من أمثاله يبعثون أحياء بعد الموت .

فقال جندى آخر : آه ـــ وأنا وأنا أيضا قد لمست القفص وأشعر الآن كأن رأسي يدور فقال (سروب سنك) : قاتل آلهتنا السحرة من أمثاله ، إن رأسى أيضا أخذ يدور .

لقد كانت نتيجة هذا السحر الوهمى محتوما ، فقد ابتعد عنهما الجنود ووقفوا يحرسونهما من بعيد . . . أما الزبير فكان قد فك القيود والأغلال وبدأ يقطع حبال (جى رام) وقيوده ثم أخذ الاثنان يعالجان قضبان القفص .

وفجأة صاح جندى يقول : أوه ! أنظروا إليهما ماذا يفعلان داخل القفص ؟

فربض (جى رام) والزبير وأغمضا أعينهما وأخـذا يغطان وجـاء چنديان فدارا حول القفص ثم عادا إلى زملائهما مطمئنين .

قال (جى رام) بصوت خافت : يا زبير .

ــ ماذا ؟

ــ إن هذه القضبان متينـة قويـة جـدا ، وأرى أن القـدر لا يزال يهزأ بنا !

ــ أما زلت ترجو النجاة حتى الآن ؟

ــ إن قلبى يقول لى وبـكل ثقة أن الله سبحانه وتعالى سوف ينصرنا ويفرج عنا .

ــ إن (بيم سنـك) لـه تـأثير بـالغ فى نفـوس الجنـود فى مـدينـة (برهمن آباد) وربما يحاول مساعدتنا فى آخر لحظة .

ــ إننى لا أستعين إلا بـالله عـزوجل ، وعليك أن تستعين به وحده فـانـه لو أراد حياتنـا وبقاءنـا سوف ننجو بـدون أن يساعـدنا (بيم سنك) .

ــ إننى أشيـد بقوة إيمانك يـا زبير ، ولـكن لا تؤاخـذنى إذا قلت لك بصراحـة أن هـذه القضبـان متينـة جـدا ، ولا يمـكن أن تنـكسر بنفسها .

فقال الزبير : إن قوة الإيمان هى التى تمد الإنسان عندما ييأس العقل وتنقطع الأسباب . . . إنك قد آمنت بالله الذى جعل النـار بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام .

وقبل أن يرد (جى رام) على الزبير : سمع جنديا يصيح قائلا : من هذا ؟

فأجابه رجل على بعد بضع خطوات : يا سيدى ! أنا صائد الأسماك .

— وما الذى جاء بك هاهنا ؟

— سيدى ! جئت بالسماك .

— السمك فى مثل هذا الوقت ؟

— إن الشمس على وشك أن تشرق فأردت أن أنتهى من البيع قبل طلوع الشمس لأعود إلى عملى من جديد . فهل تريد شيئا من السمك ؟

فقال جندى : أنت يا (سروب سنك) ألا تشترى شيئا لأولادك الأربعة .

فقال الصياد : نعم ، خذ يا سيدى ! إنه لحم طرى .

فرد (سروب سنك) : لم نجلس هنا ومعنا النقود فى مثل هذه الساعة فلو أردت أن تعطينا مجانا فلا مانع لدينا .

— نعم يا سيدى . . . لقد تعودنا ! فان عامة السكان ينتزعون الأسماك منا مجانا . . . أما أنتم فجنود الدولة فكيف لنا أن نطلب الثمن منكم . . . قال ذلك ثم وضع سلة الأسماك أمام الجنود .

فقال له أحد الجنود : ما هـذا . . . عنـدك سمك كثير ، أفلا يمكن أن تعطيني بعضها ؟

فقال (سروب سنك) : لا ! لا ! لا تظلموا المسكين . . . أننى من زبائنه أشترى منه كل يوم ، إننى لا آخـذ منه مجانا ، وسوف أدفع له الثمن صباح غـد ، ثم أخـذ (سروب سنك) سمكـة من السلة وبـدأ ينظر إلى زملائه بابتسامة خبيثة مما جعل زملاءه الجنود يتقدمون ويأخذون الأسمـاك حتى أفـرغوا السلـة فقـال (سروب سنك) للصيـاد : تفضل يا سيدى ، فقد خف ثقلك وفرغت سلتك وسوف تحضر غدا إلى هـذا المكان ، فى مثل هذا الوقت وتأخذ نقودك .

ــ حسنا يا سادتى !

لاحظ الزبير وهو فى القفص شخصية الصياد فقال : (جى رام) هذا (جنجو) ! ولكن لما ذا هو وحده ؟

قال الصياد للجنود : إننى أجيد عزف الغوزة (آلة موسيقية) فهل تحبون أن أعزف لكم ؟

فرد الجنود بصوت واحد : نعم نعم تفضل !

فأخذ جنجو يعزف بالغوزة ألحانا حلوة خلابة . . لحظتها بـدأ أصحاب (جنجو) يخرجون من الأزقـة المحيطة ويجتمعـون حـول الجنود وقد لبسوا ملابس أهالى (برهمن آباد) الشعبية .

وقال أحد الجنود لزملائه : مـا أجمل نغمـاته ، ولكن لمـا ذا يشتغل فى مهنـة حقيرة كمهنـة صيـد السماك . . ؟ لمـا ذا لا يعـزف

بالغوزة ، ويجنى أموالا طائلة . . ؟

أما أصحاب (جنجو) فكان يقول بعضهم لبعض على مسمع من الجنود إن صوته الحلو أيقظنى من نوم عميق فما استطعت أن أنام ، وقال الثانى : إن زوجتى أم (وسنتى) قالت لى : اذهب إليه يبدو أنه ولى ، وقال الثالث : إن أهالى الحى الذى أنا منه قد دهشوا ويتساءلون من هذا الموسيقار . .

فنهض (جنجو) وهو يعزف الغوزة فجرد أصحابه سيوفهم ، وحملوا على الجنود وقضوا عليهم فى آن واحد . . ثم كسر (داسو) باب القفص بضربات الفأس فوثب الزبير و(جى رام) خارج القفص . .

أما سكان المدينة حول ذلك الميدان فانهم سمعوا فجأة صيحات الجنود والمهاجمين بعد صوت الموسيقى الحلوة الخلابة ولكن لم يجرؤ أى منهم أن يتعدى عتبة منزله ، اما الزبير و(جى رام) و(جنجو) وأصحابه فقد انطلقوا إلى خارج المدينة حتى وصلوا إلى حديقة حيث كانت مجموعة أخرى من رفاق (جنجو) تنتظرهم بالخيول الجاهزة .

وعندما بدأ رد فعل هذه العملية يظهر فى المدينة كان هؤلاء قد توجهوا إلى الغابة وقد ركبوا خيولهم .

(٣)

كانت ناهيد مضطجعة تستريح على سرير ، وبجانبها (مايا ديوى) تدلك رأسها وخالد يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا فى قلق باد ، ثم

وقف عند سرير ناهيد وقال : لقـد مضى وقت طويل منـذ خرجوا من هنا يا ناهيد كان يجب أن يعـودوا الآن إلينـا ، ليتنى لم اضطـر للبقاء هنا فنظرت (مايا ديوى) إلى خالد ثم غضت طرفها وهى تقول مهدئة له : إننى لا أصدق أن الملك (داهـر) يمكن أن يكون ظالمـا إلى هذا الحد . وقد يمكن أن يكون داسو . . .

فقطع خالد كلامها بقوله : إن تمنياتك الطيبة الصالحة لا يمكن أن تجعل الذئب إنسانا !

فقالت مايا مترددة : لا تنشغل إنهم سيأتون . .

وكيف لا انشغل والـزبير يشنق . . يـا ليتنى كنت مع (جنجـو) قاله خالد وهـو يضغط على قبضتيه ويكاد يقطع شفتيه ، ثم خـرج من الغرفـة وأخذت (مايا ديوى) تنظر إلى ناهيد بعينيها الدامعتين ، فمسحت ناهيد بيدها على رأسها وقـالت : إنـه لم يقل لك شيئا يـا (مايا) إنك تبكين على أمور تافهة جدا .

فقالت (مايا) : إننى خـائفة اليوم من أساريـر وجهه ولـو أنهم عادوا خائبين فما ذا سيحدث ؟

قالت ناهيد : إنهم خرجوا فى مهمـة خطيرة جـدا . . ولا دخل لنا فى نجاحهم أو فشلهم ! وإن قتل (جنجو) وأصحابه فى المعركة فانكم سترجعون إلى بلادكم أما أنا . . .

فأجابتها ناهيد : يا أختى الصغيرة ! تأكـدى أن أرض العـرب لن تضيق بك أبدا .

ـــ ولكن خالدا يغضب لأمور تافهة وقد يتركنى هنا ! ويذهب ؟

يا (مايا) إن خالدا لم يذكرلى ما يدل على ذلك . . صحيح . . أنه يبدو مضطربا بعد هذا الخبر الذى سمعه عن الزبير وأخيك ، فاذا قدر الله أن يعودا بخير وسلامة فانك ستجدين خالدا طول عمره طلق الوجه باسم المحيا ومع ذكر ابتسامات خالد كانت الفتاة (مايا) قد سبحت فى دنيا الخيال الجميلة الباسمة واستحالت دنياها المحطمة أمام عينيها إلى زهرية صفت بأجمل الأزهار تستمتع (مايا) بنسماتها التى تعج بأطيب الروائح ، وبنغمات العصافير العذبة التى حطت من حولها . . لقد كانت (مايا) فتاة علمها الحب كيف تبنى بيوتا من الرمل على ضفاف نهر جارف . . إلا أن خيالا فى مثل سرعة رياح السموم قضى على دنياها الحالمة . فذبلت الأزهار وتلاشت الأمانى العذاب التى كانت تستمتع بها . . فاذا بنظراتها الحيرى تقذف بها من صحارى العرب وواحاتها الغناء إلى ميدان مدينة (برهمن آباد) حيث أخوها الذى علق على أعواد المشانق . . لقد كانت أختا على أى حال ! والأخوات من أمثالها لا يستسغن الطعام أو الشراب ولا يعجبهن الرباع الضاحكة المرحة المتلألئة إذا أحسسن ببؤس إخوتهن وأشقائهم .

فتضرعت مايا فى نفسها يا أختاه ليحفظك الله ويعيدك إلى بلادك سالما ! إنه بدونك يا أختى ان تسعدنى ضحكة ضاحك ولا بسمة باسم . . وكانت ناهيد فى هذه الأثناء تحدق فى وجهها وأخيرا قالت لها : أحقا أنك يا (مايا) تحبين خالدا إلى هذا الحد ؟

تنبهت (مايا) على قولها فزعة مذعورة ثم سترت وجهها بخمارها وأخذت تبكى وتنتحب .

سألتها ناهيد مرة أخرى : يبدولى يا (مايا) أنك لا تثقين بى أننى أعرف خالدا جيدا . ، . إنه . . . !

فقاطعتهـا (مايا) وهى تقـول : لا ! لا ! أنـا لا أفكـر الآن إلا فى أخى ؟

رأت ناهيد أحـد حراس الحصن يـأتى مسرعـا فسترت وجههـا بخمارها واستوت جالسة .

فقال الحارس : إن خالدا يسرج الفرس . . إنه لا يسمع كلامى وهو لا يعرف طريق (برهمن آباد) وإن حدث شىء فان (جنجو) لن يعفو عنى ، أرجوك أن تمنعيه من الذهاب .

فوجئت (مايا) بـالـخبر وتوقفت دقـات قلبهـا للحظات ثم بـدا يخفق بسرعة . . وإذا بهـا تنهض وتجـرى نحو بـاب الحصن وضراعـة قلبها يكاد يسمع، وهو يقول : يا خالد ! لا تذهب إننى أستطيع أن أتحمل ما يواجهنى من الهم والحزن من أجل أخى أما بعدك يا خالد فالحياة على حرام ! ارحمنى يا خالد خالد لا تفعل يا خالد !

وفى أثناء ذلك كان خالد قـد خـرج من الحصن وأخـذ بلجـام الفرس وقـد هم أن يركبـه ولكن وصلت (مايا) ونادته قائلة : انتظر ! بالله عليك ! أرجوك . . انتظر قليلا . . لا تذهب وحيدا . . أنا ذاهبة

معك ! ثم سحبت اللجام من يده !

فتراجع خالد وأخذ ينظر إليها قلقا مضطربا ، وفى تلك اللحظة كانت ناهيد قد خرجت هى الأخرى من الحصن . فقالت (مايا) وهى تلتفت إلى ناهيد : أنت يا أختاه تستطيعين أن تمنعيه من الذهاب ، إنه يريد أن يلقى بنفسه فى المهالك ! أرجوك . . . أتضرع إليك أن تمنعيه من الذهاب .

فقالت ناهيد وهى تقترب منهما : إن كان فى ذهابك مصلحة يا خالد لما حاولت منعك ولما وقفت فى سبيلك فى مثل هذه الظروف، إنك لن تستطيع أن تواجه جيش الملك وحيدا ، وعليك أن تنتظر العم (جنجو) فانه سيعود عما قليل وإن لم يعد فلابد أن يعود أحد أصحابه على الأقل ولا شك أنك شجاع ولكن الصبر والانتظار شجاعة هى الأخرى فى مثل هذه الظروف .

فقال خالد : يا أختاه ! إنك مريضة عودى إلى غرفتك واستريحى إننى خارج لأنتظرهم فى الطريق فقط ، وإنى أعدك بأننى لن أذهب بعيدا !

وقالت مايا : لا ! لا ! لا تسمحى له يا أختاه بالابتعاد ، إنه إذا ذهب فلن يعود إلينا .

فقال خالد : ليس بعيدا أن يكون جنود الملك يطاردونهم وإنه من واجبى أن ألحق بهم وأساعدهم ألا تفكرين فى أخيك ؟

فقالت (مايا) : إن كان أخى فى خطر فانك لا تستطيع أن تساعده فى شىء .

وأراد خالد أن يقول شيئا إلا أن رجلا صاح من بعيد وهو يقول وكان قد تسلق شجرة . . . إنهم عائدون ! وفى نفس الوقت ارتفعت أصوات وقع حوافر الخيل وهى تعدو فى الغابة ثم جاء حارس آخر وهو يعدو ويقول : ربما يكون العدو فى أثرهم وعليكم أن تنحدروا إلى الدور الأسفل من الحصن. فأجابه خالد فى اطمئنان . . . لا حاجة إلى ذلك فلو كان الجنود وراءهم لما جاؤا إلينا ، إنما توجهوا إلى ناحية أخرى ؛ ولكن يبدو أن الخيل قليلة رحمتك يا رب !

وكانت أصوات السنابك قد اقتربت فنظر نحوها خالد وقال : يبدو أن أربعة من الفرسان فقط عائدون .

أما ناهيد فكان قلبها يخفق بسرعة عندما سمعت أن الخيل عائدة ، ولكنها عندما سمعت أن عددها أربعة فقط بدأت آمالها تخبو رويدا رويدا . وبدأت الهموم والأحزان تثقل قلبها المكلوم . . . كانت تشبه حال الملاح الذى يجدف فى زورق محطم فى بحر متلاطم ليس له ساحل فتترائى له الأمواج فيحسبها ساحلا ، وكانت تشعر كأن القدر أخذ ينتزع منها آخر آمالها ، وبعد لأى ظهر فارس من وراء الأشجار ، وعندما اقترب منهم جر لجام فرسه ثم نزل فتقدم نحو (مايا) مسرعا فأسرعت (مايا) إليه وهى تقول : يا أخى ! يا شقيقى ! ثم تعلقت به ، أما خالد وناهيد فكانت نظراتهما لا تزال عالقة وراء الأشجار ، وقد بدأت آمال ناهيد تنتعش من جديد عندما رأت (جى رام) قد عاد ، وبعد دقائق ظهر (داسو) وتبعه (جنجو)

ثم الزبير ، وعندما رأت ناهيد الزبير تقدمت نحوه فى خطوات مترددة . فتوقف الزبير عندها ونزل من فرسه فأسرع إليه خالد وتلقاه بالعناق وكانت ناهيد تحاول أن تقتلع قدميها لتعود إلى غرفتها ، ولكنها شعرت كأن رجليها قد التصقتا بالأرض ، وكانت ترتعد ورأسها يدور، وقد قصرت بها همتها ، مثل مسافر يعود بعد غيبة بعيدة طويلة مضنية حتى إذا رأى منزله بين يديه خارت قواه .

وبعد أن عانق الزبير خالدا تقدم نحو ناهيد وهو يقول : كيف أنت الآن يا ناهيد ؟

وبدل أن ترد عليه أخذت تصلح حجابها ، فقال لها الزبير مرة ثانية : كيف جرحك الآن يا ناهيد ؟

فارتعدت شفتاها فقالت فى صوت متهدج مرتعش : الحمد لله الذى جاءبك سالما ، وأنا بخير ! ومع كلماتها الأخيرة غرقت فى أنفاسها العميقة ثم ترنحت وتمايلت ثم وقعت على الأرض !

(٤)

وعندما أفاقت ناهيد وجدت نفسها مضطجعة على السرير فى غرفتها وأدارت طرفها فى أنحاء الغرفة فرأت من حولها خالدا و(مايا) وقد علتهما سحائب الحزن ثم تركزت نظراتها فى وجه الزبير فاحمر وجهها الذابل حياء فسترت وجهها بالخمار ثم رفعت رأسها لتجلس .

أما جنجو و(جى رام) فكانا واقفين عند باب الغرفة فقال خالد وقد التفت نحوهما : لقد استفاقت ناهيد ، ولا داعى للحزن

والاضطراب الآن .

فقال الزبير وهو يخفف عنها : لقد انتهت متاعبنا يا ناهيد واننى ذاهب اليوم .

وكانت (مايا) الفتاة اللماحة الذكية قد عرفت مشاعر ناهيد نحو الزبير ، فقالت مستعجلة : لا ! لا ! لن تذهب الآن قد خرجوا وراءك يبحثون عنك فى كل ناحية من نواحى السند .

فقال لها الزبير : اليوم هو الفرصة الوحيدة والأخيرة لأن أخرج من حدود السند وإلا فان المراكز كلها سوف تعرف خبر فرارنا إلى الغد ، ولا يبقى أى مجال للخروج بعد ذلك . . . إن رفاقنا الآخرين قد توجهوا نحو الصحراء الشرقية للتمويه على جنود الملك ، إنى أريد أن أستغل الفرصة ولا أريد أن أضيعها على أية حال ، وأنت يا خالد سوف تبقى هنا ، واذا بدالك خطر فى هذا المكان فان (جنجو سوف ينقلكم إلى مكان آخر آمن ، وإذا أبلت ناهيد قبل وصول جيوشنا من بلاد العرب وأمكن لها أن تركب الخيل فان (جنجو) سوف يبلغكم إلى مكران .

وقالت ناهيد ! ما دامت أخواتى أسيرات فى السجن فانى أفضل أن أبقى هنا فى هذا المكان . . . الله بنصرك وتعود إلينا بالسلامة ، وسوف ننتظرك هنا ولعلك قد تسلمت رسالتى وعليك أن تسافر الآن ، لكيلا تتأخر فى العودة إلينا ، آه . . ، تذكرت أريد أن أعرف حال على كيف هو ؟ !

ــ إن عليا يذكرك دائما وقد عرضه حاكم (ديبل) لعذاب شديد ، إلا أنه كان فتى شجاعا ومهما كانت ظروفه فانه لابد أن يؤذن قبل صلاته ، إن هؤلاء الناس يرعبهم الأذان ، وقد عذبوه بالسياط أكثر من مرة إلا أنه لم يتزلزل وما وهن بل ثبت وصبر ، هذا هو حاله فى سجن (برهمن آباد) وقد هدده جنود المالك بقطع لسانه : إلا أنه لم يحفل بهم، ولم يبال بتهديدهم.

فقالت ناهيد : هذه هى نتيجة صحبته لك وإلا فانه لم يكن قوى القلب متحمسا إلى هذا الحد ، فقد كان وهو فى (سرنديب) يبدو طفلا ضعيفا واهن العزيمة .

فرد الزبير قائلا : إن مساوئ الإنسان ومحاسنه لا تظهر إلا فى ساعات الخطر الحاسمة .

فناداه (جنجو) من عند الباب وهو يقول : كاد النهار أن ينتصف ، وينبغى ألا نتأخر أكثر .

فقالت له ناهيد : عليك أن تذهب الآن ، والله يحفظك ولكن هل تعرفت على الطريق البرى إلى مكران ؟

فقال الزبير : إن (داسو) ذاهب معى وهو خبير بهذه الطريق وسوف يعود بعد ما نبلغ حدود مكران .

فقالت مايا : ولكنهم سيعرفونك فى هذه الملابس .

فأجاب الزبير باسما : إن أختى الصغيرة تهتم بى كثيرا . . . ولكن يجب أن لا تحزنى فانى سأغير ملابسى بملابس سندية ! وقد

تعلمت لغتهم ولا يمكن أن يشك بى أحد .

فقالت مايا : إنك قد جعلتنى أختالك ! وبهذا تحملت مسئوليات كبيرة أنت تعرفها ! فان القرابة الدينية لا تقل قوة ومتانة عن القرابة الدموية ! وما دمت قد جعلتنى أختالك فيجب أن تقطع المسافة التى تحتاج إلى أسابيع فى خلال أيام ، فان مصائبنا لا تقل عن مصائب رفاقك . . . انهم سوف يفتشون عن أخى فى كل ناحية من نواحى السند وأخشى إن يئس أخى من وصول الجيوش العربية أن يعتزم على الفرار إلى (كاثياوار) .

فقال (جى رام) بصوت مرتفع وهو خارج الغرفة : ماذا تقول مايا ؟ إننى راجبوت لا بل مسلم كذلك ، وأنى لى أن أخذل الذين أحسنوا إلى وأذهب :

— مسلم ! أخى مسلم ؟ قالت مايا وهى تثب من سرير ناهيد ، وتبتدر للخارج لتأخذ أخاها بالأحضان ، ومع خفقات قلبها السريعة وحبات الدموع التى ترقرقت من عينيها سألت (جى رام) أحقا أنك أسلمت يا أخى ؟

فقال لها : يا (مايا) هل يمكن أن يختلط الحديد بحجر الفلاسفة ويبقى كما هو أراك لم تغضبى على . . ، ؟

— أنا . . . قالت مايا ذلك ثم تنحت عنه ، ومسحت دموعها : كيف يمكن أن أغضب ، وقد سمع الله تضرعى واستجاب لدعواتى ! هنيئالك الإسلام يا أخى ! ولكن ماذا أسميت نفسك بعد الاسلام .

قال الزبير وهو يخرج : هذا ما قصرت فيه ، ولكن إذا أعجبك (ناصر الدين) فنسمى به أخاك .

قالت : وماذا تحبون لى من الأسماء ؟

فأخذ خالد والزبير و(جنجو) و(جى رام) ينظرون إلى (مايا ديوى) فى دهشة وحيرة وعندما لم تجد (مايا) جوابا لسؤالها قالت لهم : أراكم قد دهشتم ! اسالوا ناهيد ثم وقفت عند عتبة الباب وقالت وهى تخاطب ناهيد : أخبريهم يا اختاه ! أما رددت كلمة التوحيد بين يديك ؟ أما أديت الصلاة معك متخفية عن الأعين ؟ أما حفظت الكثير من الآيات القرآنية ؟

ثم تقدمت (مايا) نحو أخيها ووقفت بجانبه وقالت وهى تخاطب الزبير : فيم تفكر ؟ إن ناهيد قد سمتنى (الزهراء) وقد أعجبنى هذا الإسم جدا .

فدخل خالد عند ناهيد وهمس فى أذنها قائلا : لماذا أخفيت كل هذا عنى ؟ فأجابته ناهيد وهى تبتسم : كانت (مايا) تخاف منك وتخشى أنها لو أعلنت إسلامها ربما تظن أنها أسلمت لترضيك أنت ! كما أنها كانت تخشى أخاها وكانت قد أخذت على أن لا أذكر عن إسلامها وان أكتم سرها ، ثم عاد خالد إلى (جى رام) فوقف أمامه وقلبه يتدفق فرحا وسرورا !

فقال الزبير : يا أخى ناصر الدين ويا أختى الزهراء ! أهنئكما باسلامكما وسدد الله خطاكما وثبتكما على هذا الدين القيم !

وقال (جنجو) : يا زبير إنك لولمست قلوبنا لوجدتنا قد أسلمنا جميعا ، أما اختيار الأسماء لكل منا فانه يؤخرك ويعطل عايلك ، فدع هذا لخالد الآن ، لقد انتصف النهار ولابد أن تقطع مسافة الثلاثين فرسخا قبل مساء اليوم .

فقال الزبير مبتسما : إننى مستعد الآن .

فنادى (جنجو) زميله (داسو) وطلب منه أن يأتى بالملابس ! أما الزهراء فجاءت إلى ناهيد وجلست عندها على سريرها ، ولبس الزبير ملابس جندى سندى بينما كان (جنجو) قد جهز الفرسين .

ـــ آتى حالا . . . قال الزبير ذلك ثم دخل غرفة ناهيد ثانية ليودعها وكانت قد سمعت صوت قدميه فاستوت جالسة وسترت وجهها بالحجاب .

فقال لها الزبير : فى أمان الله يا ناهيد ! ولا تنسيننى فى دعواتك يا أختى الزهراء ! فقالتا كلتاهما بصوت واحد : الله يحفظك ! ثم خرج الزبير من الغرفة وهو يخطو خطوات واسعة ، فودع خالدا وناصر الدين و(جنجو) عند جدار الحصن .

وكان (داسو) ينتظر بالفرسين الجاهزين عند الباب فجاء الزبير وامتطى فرسا وتبعه (داسو) فقال لهما (جنجو) وهو يودعهما : الحر شديد والشمس محرقة ، ولكن الفرسين نشيطان غير متعبين ! وليس صعبا عليكما أن تقطعا مسافة الثلاثين فرسخا فى الوهلة الأولى . . . إن نجاحك فى مهمتك هذه يا (داسو) قد يغير مجرى تاريخ السند خلال الأشهر الستة القادمة . . . ولا تعد حتى يجتاز الزبير حدود مكران .

ولا تعد حتى يجتاز الزبير حدود مكران .

— لا تفكر فى هذا يا سيدى ! قاله (داسو) ثم ركض بفرسه وتبعه الزبير . . . سمعت الزهراء صوت سنابك الخيل داخل الحصن فنظرت إلى ناهيد ورأت عينيها الدامعتين وهى تدعو بصوت منخفض : الله ينصرك ! ويحفظك من الأعداء وشرهم. فدمعت عينا الزهراء أيضا وقالت لها : يا أختاه لا زلت تكتمين شيئا عنى ، إنك تحبينه !

فلم ترد عليها ناهيد وإنما أخذت يدها فى يدها بينما كان صوت سنابك الخيل يبتعد عن أذنى ناهيد ودموعها تنهمر على خديها كعقد انفرط وتناثرت لآليه .

فمسحت الزهراء دموع صديقتها ناهيد بخمارها وقالت لها : إنه سيأتى عاجلا يا أختاه . ولابد أن يأتى عاجلا .

❁ ❁ ❁ ❁

القسم الثانى

القائد الشاب اليافع

رسول قتيبة

كان مقر والى البصرة الذى يشبه الحصن يقع فى واحة على ضفة النهر فى ناحية من نواحى المدينة ، وفى غرفة واسعة من غرف المقر يبدو رجل كهل قوى البنية يذهب ويجئ ، ويقف فجأة فينظر نحو الخرائط المعلقة على الجدران فيطيل النظر فيها ، وتظهر على وجهه دلائل عزيمة وصرامة غير عادية كما أن عيناه تنبئان عن ذكاء وجلال غير عاديين أيضا .

كان هذا الرجل هو الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق ذلك الرجل الذى كان يخافه العدو والصديق على السواء وكانوا يتعوذون من بطشه ويده الحديدية . ذلك الجبار الطاغية الذى لم يسلم من سيفه المسلول أحد من العرب والعجم ، فكأن سيفه كان رعدا قاصفا أو صاعقة يصعق الناس ويتعدى الحدود أحيانا فيأتى على أعلام الإسلام والصالحين الأبدال الأبرياء أيضا .

لقد كان الدور الأول من حياة الحجاج الهائجة المضطربة هو الذى أنفقه فى إخضاع العصاة الثائرين ضد عبد الملك بن مروان فتغلب عليهم جميعا سواء فى بلاد العرب أو العراق بسرعة العواصف إلا أن سيفه فى هذا العهد كان أشبه ما يكون بعصا الأعمى التى لا تفرق بين الحق والباطل وبين الطائع والعاصى ، أما الطور الثانى من أطوار حياته والذى يهمنا الآن وله صلة بقصتنا هذه ، فهو العهد الذى

تبوأ فيه عرش الخلافة الوليد بن عبد الملك بعد أبيه ، وكانت الحروب الأهلية فى بلاد العرب والعراق قد انتهت ، وكان المسلمون يتقدمون فى جبهات افريقيا وبلاد الترك والصين بروح جديدة بعد أن دعموا الشئون الداخلية ورتبوا أمورهم ونظموها . . . وكان الوليد مثل أبيه قد سلم مقاليد الحكم إلى الحجاج فى الداخل والخارج وفى رأى المؤرخين أن الخدمات التى قام بها الحجاج فى عهد الوليد كانت تختلف تماما عن الخدمات التى قام بها فى عهد أبيه عبد الملك بن مروان .

أما المجهودات التى بذلها الحجاج فى عهد عبد الملك فقد كانت مقصورة على بلاد العرب والعراق وقد لعب سيفه المسلول دورا هاما فى دعم حكومة عبد الملك ، وفى نفس الوقت جر عليه إثم الدماء البريئة الزكية التى لا حصر لها .

وأما عهد الوليد فقد كان عهد أمن ورخاء للمسلمين ، انصرف فيه الحجاج إلى تمهيد الطرق وإعداد الوسائل للفتوح والانتصارات الإسلامية فى الشرق والغرب .

وإذا تيسر لنا أن نلقى نظرة فى الصفحات الأخيرة من حياة الحجاج نرى كل ما يثير الدهشة والإعجاب . . إن الرجل الطاغية الجبار الذى قام بحصار مكة المكرمة قبل بضع سنوات ، قد اختاره الله ليرفع رايات المسلمين المنتصرة فى السند وبلاد الترك والأندلس وإنه لمما يدهشنا أكثر أن العين التى لم ترحم ابن الزبير رضى الله عنه وهو يصلب أمامه قد تأثرت فاستعبرت لاستغاثة فتاة مسلمة وجهت

نداء ها إليه من أقاصى بلاد السند .

وهنـاك سؤال مهم يوجهـه إلينـا مؤرخو ذلك العصر وهو أن مسلمى بلاد العـرب والعـراق كانوا بـلا شك يبغضون الحجاج حتى فى عهده الأخير ، كما أنهم لم يكونوا يوادون الوليد ، ولـكن ما هو السبب الـذى جعل المسلمين فى هـذه المناطق يتفوقون عددا وتحمسا على مسلمى الشام فى كل جبهة سواء فى بلاد السند أو الترك ! ؟

والجواب الوحيد لهذا السوءال هو أن جماهير المسلمين كانوا على قـدم راسخـة من الخلق والسيرة الحسنـة بالرغم من أن القيـادة العليـا كانت تعانى من بعض مظاهر الضعف فى هذه السيرة والأخلاق أن بغضهم للحجاج لم تستطع أن تؤثر فى الروح والحمية الدينية التى بلغت غايتها . . فانهم عند ما سمعوا بأن إخوانهم قد خرجوا مجاهدين فى سبيل الله ضد القوى الكافرة فى إفريقيـا وبلاد الترك ، وقفوا جنبـا إلى جنب ونسوا كل ما حدث فى الماضى من العداء والمرارة .

لهذا فاننـا نستطيع أن نؤكد أن الفتوح والانتصارات الاسلاميـة التى تحققت فى عهـد الوليـد لا تـرجع إليـه ولا إلى نـائبـه فى العراق الحجاج بن يوسف وإنمـا ترجع إلى الجماهير المؤمنـة من الأمـة . . وأن إخلاص الجماهير وتضحيتهم من أجل تحقيق الآمال العظيمـة هو سر التقدم والنهضة فى كل عصر من العصور .

(٢)

استمر الحجاج ينظر إلى الخرائط المعلقة على الجدران اوقت

طويل وفى النهاية نزع خريطة من بين تلك الخرائط فوضعها بين يديه ثم جلس على سجادة فارسية فاخرة وبدأ يفكر طويلا ، ثم علم بضع علامات على الخريطة ثم طواها فوضعها فى ناحية .

دخل عليه جندى مضطربا مترددا وقال له : رسول قادم من تركستان .

فقال له الحجاج بن يوسف : أننى فى انتظاره منذ الصباح : عجل به إلى .

ذهب الجندى وتناول الحجاج الخريطة مرة أخرى وأخذ يعيد النظر فيها وبعد لحظات دخل جندى مدرع تدل قامته على أنه شاب وأما أسارير وجهه فكانت تبدو كطفل لم يتجاوز عمره الستة عشرة سنة على رأسه خوذة لامعة من النحاس ، وأما قسمات وجهه فقد كانت جادة حادة . . عينان لامعتان ذكيتان وشفتان مغلقتان تنبئ عن استقامة وعزيمة غير عادية . . كان التناسب بين قامته وقسمات وجهه خلايا إلى حد كبير مما أدهش الحجاج ، فلم يزل ينظر إليه مذهولا ساكتا للحظات وأخيرا تحدث إليه بلهجته قائلا : من أنت ؟

فقال : أنا الذى أخبرتك عن قدومى وأستاذنتك للدخول عليك ، وقد جئت من تركستان بلاد الترك .

ـــ حسنا . . أنت الذى جئت من تركستان . . وقد أعجبتنى مداعبة قتيبة بن مسلم لأننى كنت قد كتبت إليه أن يحضر شخصيا أو يرسل قائدا خبيرا من بين قواده ولكنه أرسل إلى صبيا فى الثامنة من عمره !

فرد عليه الولد بكل طمأنينة وثقة بنفسه : أنا ابن ستة عشرة سنة وثمانية أشهر .

فقال الحجاج فى صوت غليظ مخيف : ولكن ما الذى جاء بك هنا ؟ ماذا حدث لقتيبة ! ؟

فتقدم الولد دون أن ينبس ببنت شفة وناوله رسالة ففتحها الحجاج فقرأها ثم سأله فى شئ من الرضا والطمأنينة : أين هو ولم لم يأت شخصيا ؟ ولم بعث بك مع هذه الرسالة وأين هو ؟

فقال الولد : عمن تسأل يا سيدى ؟

نفد صبر الحجاج وصاح به قائلا : أسأل عن ذلك الأحمق الذى قال عنه قتيبة بأنه من خيرة قواده ! وبعثه إلى بهذه الرسالة !

رد عليه الولد بكل ثقة مرة أخرى قائلا : إن الذى ذكره قتيبة فى رسالته هذه هو أنا ، وإذا كنت تحب لقاء أحمق من الحمقاء فاسمح لى فى أن أستأذنك !

ـــ أنت ؟ أنت من خيرة قواد قتيبة بن مسلم الباهلى ؟ الله يحفظ المسلمين البائسين المقاتلين فى تركستان تحت قيادة القواد من أمثالك ! وما قرابتك بقتيبة ؟

ـــ كلانا مسلمان !

ـــ وما وظيفتك فى الجيش ؟

ـــ قائد الطليعة !

— قائد الطليعة ! أنت ؟ حسنا ! أظن أنه عمل برأى قائد من أمثالك وتجنب جبهة (بلخ) وصار إلى ناحية (بخارى) و (سمرقند) ! ؟

— نعم أنا الذى اقترحت عليه ذلك وقد جئت هنا لنفس السبب . حبذا لو صبرت قليلا لأ شرح لك الأوضاع كلها فى تلك الجبهة .

وكان الحجاج قد أستحال غضبه إلى شئ من القلق فقال له :

— انك لو استطعت أن تشرح لى اليوم شيئا عن هذا الموضوع فان ذلك سوف يؤكد لى بأن أثر رضاع الأمهات العربيات لا يزال باقيا ! وأنهن لا زلن ينجبن القواد ! اجلس هنا اننى لم أزل أنظر فى هذه الخريطة منذ الصباح ! كيف يمكن لجيش لم يستطع أن يتغلب على مدينة عادية مثل مدينة هرات أن يفتح الحصون المنيعة من أمثال بخارى وسمرقند بسهولة ! ولكن قل لى قبل كل شىء هل تستطيع أن تقرأ الخرائط ! ؟

فلم يجب الولد وإنما جلس بين يدى الحجاج فنشر الخريطة وأخذ يضع يده على الأماكن المختلفة فى الخريطة ويقول له : هذه مدينة بلخ وهذه مدينة بخارى ولعلك قد سمعت كثيرا عن قلعة (بخارى) المنيعة ، ولكن قلعة (بلخ) وإن لم تكن أمنع منها إلا انها أمنع بكثير من قلعة بخارى بحكم موقعها الجغرافى . . إن مدينة بخارى تحيط بها السهول الواسعة ، ومن السهل علينا أن نحاصرها ونقطع صلتها ببقية المدن التركستانية ونحول بينها وبين المساعدة الممكنة من جيوش

المدن البعيدة . . أما القلعة ومنعتها فانى أقول لك بكل ثقة وتاكيد بأن الجدران الحجرية لا يمكن لها أن تتحمل المنجنيق ، وكذلك فان الجيوش المحصورة لا تتحمل المحاصرة إلا إذا كانت تتوقع مساعدة خارجية وإلا فانها سوف تفتح الأبواب فى يأس واستسلام ، وبالعكس من ذلك فاننا سوف نواجه صعوبات فى حصارنا لمدينة بلخ. فلا بد لنا من جنود يفوق عدد الجنود المحاصرة للقلعة ليحافظوا على طريق التموين من المناطق الجبلية وإلى جانب ذلك فلا بد لنا أن نحتل الجبال المحيطة بالمدينة للسيطرة عليها وكذلك فان أحجار القبائل الجبلية سوف تكون أخطر من سهام الرماة . . إن الجبال الواقعة فى جنوب (بلخ) وشرقها مرتفعة جدا ، فاذا أرادت الإمارات المتعددة فى جنوب تركستان وشرقها أن تقدم المساعدة لمدينة (بلخ) فذلك يعنى أن نواجه جيشا عرمرما من عقب الجبال المرتفعة فيصبح الخطر محققا من النواحى الشرقية والجنوبية والغربية لمدينة (بلخ) وإذا وصل جيش بخارى وسمرقند من ناحية الشمال فقد تنقطع صلتنا بمدينة (مرو) فينقطع بذلك طرق التموين وعندئذ سوف نقع فى حصار من كل جانب ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نواجههم خلال الصيف إلا إذا طال الحصار الذى يعرضنا لخطر القبائل الجبلية وإذا أردنا التراجع إلى (مرو) فلن ينجوا إلا القليل من جيوشنا !

كان الحجاج أثناء ذلك لا ينظر إلى الخريطة ، وإنما كان ينظر إلى وجه ذلك القائد الشاب فقال له : أن التراجع لم يصبح بعد من مصطلحاتنا العسكرية !

فقال الشاب : إننى لست أشك فى عزيمة العرب واستقامتهم وإنما أرى أن هذا الهجوم ليس إلا انتحارا من وجهة النظر العسكرية.

فقال الحجاج : فاذن أنت ترى بأنه لا فائدة من التقدم من الناحية الشرقية فهل نتخلى عن هذه المهمة فى هذه الناحية ؟

— لا ! إن مدينة بلخ لن تكون معسكرا نهائيا فى الشرق بعد احتلالنا لبلاد الترك وإنما لا بد لنا من احتلال المناطق الجبلية بين (كاشغر) و (جترال) إلا أننى أرى من اللازم أن نفتح بلاد بخارى وسمرقند أولا وذلك لسببين أحدهما أن بخارى هى من أهم مدن بلاد الترك والتغلب عليها سوف ينتج ما أنتجه التغلب على المدائن بالنسبة إلى بلاد الفرس ومدينة دمشق بالنسبة إلى الرومان ! وأما السبب الثانى فهى أننا لن نواجه الأخطار والصعوبات عند احتلالنا لمدينة بخارى ، بقدر ما نواجه عند احتلالنا لمدينة (بلخ) كما ذكرت ، إننا نستطيع أن نجعل (بخارى) قاعدتنا العسكرية بعد التغلب عليها بدل معسكر (مرو) ومن هناك نستطيع الزحف على (سمرقند) ثم (قوقند) وبلاد (فرغانة) ولست أظن أن الأتراك سيبقى لهم قوة مدافعة بعد هذه الهزيمة وانتصارنا عليهم ، ثم بعد ذلك أقترح أن تتقدم جيوشنا من بخارى وسمرقند إلى جنوبى تركستان والجيوش الموجودة هناك يجب أن تتقدم نحو (كاشغر) وأننى لعلى ثقة بأن جيوش (قوقند) إذا وصلت إلى (كاشغر) بعد أن تجتاز الطرق الجبلية الصعبة فان (بلخ) والمدن المجاورة لها تكون قد وقعت فى أيدى جنود الإسلام .

كان الحجاج ينظر إلى الجندى الشاب بعين الدهشة والإعجاب فطوى الخريطة ووضعها فى ناحية وأخذ يفكر قليلا ثم سأله : من أية قبيلة أنت ؟

فقال الولد : أنا ثقفى .

— ثقفى ! وما اسمك ؟

— محمد بن القاسم .

— فتعجب الحجاج ونظر إليه ثم قال : هذا ما كنت أتوقعه من ابن القاسم ! وهل تعرفنى من أنا ؟

فقال محمد بن القاسم : أنت حاكم البصرة .

فقال الحجاج فى لهجة فاترة يائسة : هذا هو كل ما تعرفه عنى؟

— أعرف أكثر من هذا عنك ، فقد كنت اليد اليمنى للخليفة عبد الملك كما أنك الآن اليد اليمنى لابنه الوليد . . .

— أو لم تخبرك أمك بأن قاسما أخى و أنك ابن أخى ؟

— لقد أخبرتنى بذلك .

— متى ؟

عند ما عدت إلى المدينة ، وقد قتلت عبدالله ابن الزبير رضى الله عنهما . . .

فانتفخت عروق جبين الحجاج عندما سمع هذه الكلمات من لسان ابن أخيه الشاب وأخذ ينظر إلى محمد بنظرات الغضب والحقد ، ولكنه رأى فى عينيه السكينة والطمأنينة مكان الخوف والارتباك فبدأ

غضبه يهدأ قليلا قليلا ، ويستحيل إلى الندم فكأن نظرات محمد بن القاسم الجريئة كانت تسائله : أخطأ يا ترى ما قلته لك ؟ ألست قاتل عبد الله بن الزبير ؟

فنهض الحجاج من مكانه وقد شعر بثقل شديد على قلبه فوقف أمام النافذة المطلة على النهر وأخذ يشرف منها وهو يردد فى قلبه . . قاتل عبد الله بن الزبير . . قاتل عبد الله بن الزبير . . ثم أخذ يقلب صفحات الماضى فتراءى له ذلك المجاهد فى مكة وهو يقتل وعلى وجهه ابتسامة المنتصر ، فبدأ يرن فى أذن الحجاج صياح اليتامى والأيامى فى أزقة مكة ، ثم التفت إلى محمد مرتعدا مرتعشا ، فأدهشه موقفه إذ لم يكن ينظر إليه وإنما كان ينظر إلى الخريطة ، فاذا بالحجاج تتراءى له صور أخرى من الماضى فرأى أخاه الشاب فى مرض الموت فى منزل صغير من منازل المدينة المنورة . . ذلك الأخ الذى كان قد بلغه ما فعله الحجاج فى مكة المكرمة فعند ما رآه يدخل عليه أشاح بوجهه غاضبا مرتعدا . وهو يقول إليك عنى يا حجاج ! انى لا أريد أن أرى صورة قاتل ابن الزبير وأنا أموت ، إنه ذنب لا تستطيع دموعى أن يغسلها . . ثم رأى صبيا صغيرا فى جنازة أخيه وهو ابن أخيه الذى حاول أن يحمله فيعانقه إلا أنه أخذ يضطرب ويصيح : لا ! لا ! لا تقترب منى ! إن أبى كان يبغضك . .

نظر الحجاج نحو محمد بن قاسم ومشاعر الأسى والألم تعتصره ، وقال : تعال هنا يا محمد .

نهض محمد وهويطوى الخريطة فوضعها فى ناحية ثم ذهب إلى

الحجاج حتى وقف عنده . . لقد أقلقته لمجة السكينة والطمأنينة التى رآها على وجه محمد ، إلا أنه حاول أن يتحمل ويكظم الغيظ وقال له : فكأننى لست فى نظرك إلا قاتل ابن الزبير ؟

فأجابه محمد بن القاسم : هذا ما يقوله خلق الله فيك ولست أريد أن أخدعك فأبحث لك كلمة أو مصطلحا يعبر عن عملك غير كلمة القاتل !

فقال الحجاج : إن دم أخى القاسم يجرى فى عروقك ، اننى مستعد لأن أتحمل منك كل شىء مع أننى لست من الذين يتحملون أشياء كهذه . .

ــ لم أحضرهنا لأغير من عاداتك ، وأن الواجب الذى بعثنى من أجله قتيبة بن مسلم الباهلى قد أوفيت حقه وأستأذنك الآن ، وإذا كنت تريد أن تبعث رسالة إلى قتيبة فانى مستعد لأن أحضر عندك غدا .

وبعد لحظة من التردد قال الحجاج : وإلى أين تريد أن تذهب ؟
فأجابه محمد : إلى أمى فقد جئت إليك مباشرة ولم أزرها .

ــ أ أمك فى البصرة ؟ لم أكن أعرف ذلك ، ومتى جاءت إلى هذه المدينة ؟

ــ لقد مضت حوالى أربعة أشهر منذ أن جاءت إلى هنا من المدينة المنورة وقد استلمت رسالة منها وأنا فى (مرو) ؟

ــ وعند من تسكن ؟ ولما ذا لم تأت عندنا ؟

— إنها نازلة عند خالى ، وأما الذى منعها من الحضور عندك ، فأنت أعرف بذلك منى .

— وأين كنت قبل ذهابك إلى تركستان ؟

— لم أزل فى المدينة عند أمى إلى عشر سنوات من عمرى ثم جئت إلى البصرة عند خالى هنا .

— وكنت تبغضنى إلى هذا الحد ! حتى أنك لم تقابلنى قط .

فقال محمد : الواقع أننى كنت مشغولا بالدراسة ثم بالتدريب العسكرى ولم أستطع أن أحب أو أبغض أحدا .

فكر الحجاج قليلا ثم قال : لعلى قد رأيتك فى المدرسة ولم أستطع أن أعرفك ، إنك قد أصبحت شابا بسرعة غريبة ولكن ألا تريد أن تقابل زوجة عمك ؟

— أخذ محمد ينظر نحو الحجاج فى شىء من التردد فأخذ الحجاج بيده ومشى به مسرعا إلى خارج الغرفة حتى وصل باب منزله فى ناحية أخرى من الحديقة فقال له محمد وهو يبتسم : خاننى يا عمى ! فأنا معك . .

(٣)

كانت زوجة الحجاج قد سمعت صوته فخرجت من إحدى الغرف فرأت محمد بن القاسم فصاحت تقول : أنت يا محمد ! ومتى جئت ؟

فسألها الحجاج مندهشا : وكيف عرفت أنه محمد ؟

فقالت وهى تمسح دموعها من الفرح : وكيف أستطيع أن أنساه !
وأعاد الحجاج سؤاله : ومتى رأيته أنت ؟

ـــ حين سافرت أنا وزبيدة مع خالها للحج كنا قد نزلنا فى بيته فى المدينة المنورة وكان محمد أيضا قد عاد من تركستان فى تلك الأثناء فى إجازة من الجيش .

ـــ ولم لم تخبرينى بذلك ؟

ـــ لأن أمه كانت قد ألحت على أن لا أخبرك . . كما كنت أخشى أن لا يعجبك ذلك .

فقال الحجاج : معنى ذلك أنها لم تغفر لى خطيئتى حتى الآن ! واطرق متفكرا ثم قال لمحمد وهو ينظر إليه : تعال يا محمد ! نذهب إلى أمك .

ـــ فقالت زوجة الحجاج : لا ، لا ، لا تذهب إليها الآن .

ـــ ولكن لماذا ؟

ـــ هى مريضة .

ـــ إذن يجب أن أزورها . .

فقال محمد فى قلق : أ والدتى مريضة ؟ إذن أستأذنكم الآن ! وخرج من المنزل مسرعا والتفت الحجاج ليرافقه فوقفت زوجته فى طريقه تقول : لا ، لا تذهب إليها أنت .

ـــ لابد أن أذهب إليها ! إنك تخشين أن أسىء السلوك معها وأغضب منها إن أساءت إلى . . ؟

— لا ! أنها ليست قليلة المرؤة إلى هذا الحد .

— إذن فلماذا تمنعينني من عيادتها ومن الذى أخبرك بأنها مريضة الآن ؟

— إننى أخشى أن تغضب على ! فقد كنت أكتم عنك شيئا !

— وما ذلك ؟

منذ أن جاءت إلى هذه المدينة وأنا قد تعودت أن أزورها فى بيتها بعد كل ثلاثة أو أربعة أيام ، وقد بعثت إليها الخادم فقالت له أنها مريضة وقد جئت الآن من عندها ولولا أننى كنت أخشاك لبقيت عندها أكثر ، وقد كانت معى زبيدة أيضا فراعنى حالها وهذا ما جعلنى . . !

— قال لها الحجاج وهو يلاطفها : ومم تخشين . . قولى بصراحة فلو أنك تركت زبيدة عندها فلا حرج عليك .

— هى ستأتى الآن لأننى كنت قد بعثت الخادم مكانها . .

— ولكن لماذا أخفيت عنى هذا كله ؟ أفتعتقدين أنه لم يبق لدى خلق من الأخلاق الإنسانية ؟

— أرجوك العفو !

— حسنا . . لا بأس ، تفضلى معى الآن نذهب إلى بيتها .

﴿ ٤ ﴾

كانت زبيدة بنت الحجاج جالسة عند رأس أم محمد بن القاسم تمسحه وتدلكه ، وكانت عندهما أمة شامية تقوم بخدمتها . .

أخذت أم محمد يد زبيدة فى يدها المرتعشة الواهنة ، وهى تئن من الوجع وتتأوه ثم وضعتها على عينيها وقالت : إنى لأجد فى يديك يا ابنتى قرة عينى ! إلا أننى أخشى أباك فانه إذا علم بذلك سوف يغضب ولعلى لن أراك بعد ذلك هنا ! تفضلى يا ابنتى وعودى إلى منزلك .

فقالت زبيدة وقد ترقرقت الدموع فى عينيها : إننى لا أحب أن أتركك فى مثل هذه الظروف وأعود . .

فى هذه الأثناء سمعت زبيدة صوت أقدام فنهضت ونظرت إلى الخارج فرأت محمد بن القاسم قد نزل عن فرسه وأعطى لجامه لعبد حبشى وهرول إلى الغرفة فوجدها على الباب فعرفها وقال : أنت هنا ؟ كيف حال الوالدة الآن ؟

أخذت زبيدة ترتعد من هيبته العسكرية فتنحت دون أن ترد على سؤاله ، فدخل محمد الغرفة .

فرأت الأم ابنها وعاد ماء وجهها فتلألأ بشرا وسرورا فقامت واستوت جالسة على سريرها وسألته : متى عدت يا بنى ؟

فجلس محمد بجانب أمه وخلع خوذته ثم قال لها : منذ كم أنت مريضة يا أماه ؟ !

ــ منذ أن وصلت إلى البصرة يا بنى .

ــ ولماذا لم تكتبى إلى ؟

ــ لقد كنت يا بنى على مسافة شاسعة فلم أرد أن أزعجك ! إن هذه الخوذة كانت تبدو جميلة على رأسك ، البسها مرة أخرى إننى أريد أن أرى ابنى المجاهد فى زيه العسكرى !

— فوضع محمد خوذته على رأسه وهو يبتسم ، ولم تزل أمه تحدق إليه وقتا طويلا ثم هتفت له بالدعاء : يا الهى اجعل هذا الرأس عاليا عزيزا دائما يارب . . . ثم نظرت إلى زبيدة وقالت لها ! أنت واقفة يا ابنتى ؟ تفضلى اجلسى . .

كانت زبيدة واقفة عند الباب فتقدمت مترددة وفى استحياء وجلست على كرسى عند سرير أم محمد .

فنظرت الأم إلى محمد فقالت له : أما عرفتها يا محمد ؟

فقال محمد بن القاسم : لقد عرفتها عند ما رأيتها ! ولكن كيف جئت هنا يا زبيدة ؟

— لأن عمك لا يعرف أن أمك هنا ؟

فقالت له أمه وهى قلقة : هل قابلت عمك ؟

— نعم ! فقد كنت أحمل إليه رسالة من قتيبة ، فذهبت إلى منزله مباشرة فأخذنى إلى بيته وكان يريد أن يأتى هنا لزيارتك إلا أننى عجلت إليك عندما سمعت بأنك مريضة .

فقالت الأم وفى صوتها رنة حزن : رحمتك يارب ! ولتكن نيته صالحة فى قدومه إلينا !

واصفر وجه زبيدة الأبيض المتورد فنهضت من كرسيها وقالت لأم محمد : يا عمتى ! أستاذنك الآن . . . . فنهضت الأمة الشامية بنهوضها .

إلا أن صوتاً لوقع أقدام فى الخاج أثار انتباههم فأسرعت الأمة الشامية نحو الفناء فنظرت إلى الخارج وصرخت . . فقاق محمد

بن القاسم فنهض من مكانه ثم أسرع نحو الباب ، فدخلت أم زبيدة ، أما الحجاج فوقف على الباب وقال لمحمد : اسأل أمك يا محمد هل تسمح لى بالدخول ؟

فالتفت محمد وراءه وقال لأمه: ما رأيك يا أمى ؟ العم يستأذنك فى الدخول !

فسترت الأم وجهها وغطت رأسها ثم قالت : لا يمكن أن يغلق الباب على الضيف الطارق ، قل له يتفضل بالدخول .

فدخل الحجاج بن يوسف الغرفة . . أما زبيدة فكأن الدماء قد جمدت فى عروقها ! فوضعت أمها يدها على رأسها وقالت لها : لا تخافى يا ابنتى فان أباك قد حضر لعيادة زوجة عمك . .

ولم تمض لحظات على وصول الحجاج حتى سمع محمد ضجيجا فى الزقاق فخرج ثم عاد بعد لحظة وهو يبتسم قائلا : إن أهل الحى قد رأوك تدخل هنا فاجتمعوا على بابنا وهم يظنون أنك قد جئت لتقتلنا .

فلاحت ابتسامة مؤلمة على وجه الحجاج ثم أطرق برأسه .

(٥)

وفى اليوم الثالث حضر محمد بن القاسم عند الحجاج مرة ثانية فأخبره عن إرادته فى السفر إلى تركستان ، فسأله الحجاج قائلا : وكيف حال أمك الآن ؟

فقال محمد بن القاسم : إنها أحسن من ذى قبل وقد أذنت لى بالسفر وأريد أن أسافر اليوم .

فقال الحجاج : لقد بعثت اليوم رسولا إلى قتيبة وقد كتبت إليه بأننى أوافق على ما اقترحه محمد بن القاسم ، أما أنت يا محمد فسوف تبقى عندنا لبضعة أيام أخرى .

— ولكن أرى أن سفرى إلى قتيبة ضرورى فقد أكد على بضرورة العودة فورا .

فقال الحجاج : ولكننا هنا فى حاجة إليك أكثر منه إننى أواجه الآن موقفا صعبا وأرى أن تساعدنى فى ذلك ، أننى لا أستطيع أن أشرف لوحدى على كل الجبهات من هنا ، لذلك فقد كتبت عنك إلى الخليفة وربما يسندون إليك عملا . . . عسكريا مهما فى العاصمة .

— ولكن كثيرا من خبراء الجيش الموجودين فى دمشق يعرفون أكثر مما أعرفه ، إنى لا أريد أن أستغل مكانتك عند الخليفة ، ولا بد أن أتعلم أكثر فأرجوك أن تأذن لى بالرجوع إلى تركستان .

— أنت مخطئ فى رأيك يا محمد ! فلو كنت ابنى وليس ابن أخى فانه لا يمكن لى أن أساعدك مساعدة غير شرعية ، إننى على ثقة بأنك تستطيع أن تتحمل المسئولية صدفة إنك ابن أخى ، إن ما رأيته منك أول أمس قد أعجبنى ، ولو كان أحد سواك فى مكانك لساعدته كما ساعدتك أنت ، إن قتيبة رجل عبقرى

يصلح لأعمال مهمة وتستطيع أن تساعده وأنت فى البصرة أو دمشق بأكثر مما يمكن أن تساعده وأنت معه فى ميدان الحرب ، إنك شاب والشباب الذين لا يتأثرون بالكبار يمكن أن يلبوا دعوتك فورا أن خير مساعدة لقتيبة هو أن تكون هنا أو فى دمشق وتمده بالجنود الجدد ، أما جيوشنا فى الجبهة الأخرى فقد وصلت إلى غربى أفريقيا ، ولعل موسى بن نصير يستعد الآن لعبور البحر لغزو الأندلس ، وعندئذ سوف تصبح الجبهة الغربية أهم من جبهة تركستان لذا أريدك أن تبقى هنا إلى أن يأتى الرد من الخليفة ؛ وهل عاد خالك من الكوفة أم لا ؟

فرد محمد بن القاسم : لعله يعود اليوم .

— عند ما يصل ، أرسله إلى ، وقل له إنه ليس أمرا من والى البصرة وإنما هو رجاء من الحجاج بن يوسف .

وعند ما خرج محمد بن القاسم من عند الحجاج رأى أمة على الباب فقالت له إن زوجة عمك يا سيدى تدعوك ! فدخل محمد فرأى زبيدة جالسة عند أمها وقد احمر وجهها حين رأته فنهضت من مكانها وذهبت إلى غرفة أخرى ،

جلس محمد على كرسى أمام زوجة عمه ، فسألته قائلة يا بنى هل عاد خالك ؟

— سيعود اليوم ، ولكن ما الحاجة إليه ، فقد سألنى عنه العم ، وأنت أيضا تسألين الآن ؟

— لا شىء يا بنى ، إلا أننا كنا نريده لحاجة .

استأذن محمد زوجة عمه ثم ذهب إلى منزله فرأى خادم الحجاج العجوز يخرج من البيت ، وعند ما دخل الغرفة وجد أمه جالسة معتمدة على وسادة ، فتلا لأ وجهها عندما رأت ابنها فقالت له وهى تبتسم : إنك يا بنى سوف تبقى هنا لبضعة أيام أخرى .

ــ نعم ، فقد كتب العم إلى الخليفة يشفع فى تعيينى مستشارا عسكريا هناك ولا بد لى أن أنتظر حتى يأتى الجواب .

ــ إن الحجاج يا ابنى لم يكن كريما شفيقا على أحد فى يوم من الأيام ولكنك محظوظ سعيد .

ــ اننى أريد أن أنهض بنفسى يا أمى ! فلواتضح أننى لا أستحق تلك الوظيفة فى دمشق فسوف أستقيل وأعود إلى ما كنت عليه وإننى أخشى أن يظن كبار الرجال أننى نلت المنصب محاباة لعمى ويثير ذلك ضحكهم على . . .

ــ يا بنى ! إن الحجاج لا شك فيه عيوب لا تحصى ، ولكن فيه حسنة لا تنكر وهى أنه لا يخطئ فى اختيار الأكفاء للعمل أننى لا أوده أن يعامل ابنى معاملة محاباة ورعاية . . ولنفترض أنه من عليك بمحاباة . . فأحب منك أن تبرر بأنك تستحق منصبا أكبر من ذلك المنصب بجدارة . . وعندى لك بشارة أخرى .

ــ وما هى يا أمى ؟

ــ ولكن أعطنى الوعد قبل كل شئ بأنك توافقنى وتعمل برأيى

ــ وهل عصيت أمرك يوما ما ؟

ـــ يحفظك الله يا بنى إننى أدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلد اسمك ما دامت الشمس تضئ النهار وينور القمر والنجوم الليل !

وأن أكون رافعة الرأس بين صفوف أمهات المجاهدين يوم القيامة . .

ـــ آمين . . يا أماه ! ما هى اليشارة ؟

أخرجت الأم رسالة من تحت وسادتها وهى تبتسم وتقول : هذه رسالة من زوجة عمك اقرأها .

فتح محمد الرسالة وقبل أن يكمل الأسطر الأولى أحمر وجهه حياء فوضع الرسالة دون أن يتمها بين يدى أمه وأطرق برأسه صامتا لمدة طويلة .

ـــ فيم تفكر يا بنى ؟

ـــ لا شىء يا أمى !

ـــ يا بنى ! هذا هو الأمل الأكبر والأخير فى حياتى ! ومع بغضى للحجاج كنت أدعو الله دائما أن تكون زبيدة هى زوجة ابنى فقد كانت تعودنى سرا فى الأيام الماضية ، فلو كانت لى ابنة لما عادتنى كما عادتنى زبيدة ، أننى كنت أخشى أن لا يوافق الحجاج ، وكنت أدعو لرفعتك وسمعتك الطيبة ، وكلما رأيت زبيدة كنت أقول : يارب ! اجعل ولدى فى مكانة من العز والجاه يقبله الحجاج زوجا لابنته ويعتز بهذه القرابة وقد تحققت اليوم آمالى وأمانى ، ولكن لا تظن أبدا بأننى فخورة

على أنك سوف تصبح زوجا لا بنة والى البصرة وإنما أنا فخورة لأننى لم أر فتاة مثل زبيدة فى المدينة المنورة ودمشق والبصرة أبدا ! أننى أحب أن تتزوج قبل السفر إلى دمشق أو إلى أى مكان آخر ما رأيك فى ذلك ؟

— إن أكبر سعادة لى فى الدنيا هو رضاك يا أمى ! ولكنك تعرفين أن خالى يبغض الحجاج كأشد ما يكون البغض .

— ولكنه مع ذلك ينظر إلى زبيدة بنفس العين التى أنظر بها إليها ! فلا يهمنك هذا الأمر أبدا .

(٦)

بعد ثلاثة أسابيع سمع الناس فى البصرة والكوفة والعراق كلها خبرا أدهشهم وأثار إعجابهم . . . أن الحجاج الذى لم يكن يهتم بأية شخصية فى العالم الإسلامى كله قد زوج ابنته الوحيدة من ابن أخيه اليتيم المعدم . . . وقد حضر حفل الزواج وجهاء المدينة إلى جانب عدد كبير من أصدقاء محمد بن القاسم وزملائه فى المدرسة .

وفى اليوم التالى جاء إلى البصرة خبر من العاصمة يبشر بأن خليفة المسلمين فى دمشق قد بعث رسوله إلى الحجاج يطلب إليه أن يرسل محمد بن القاسم فورا إلى دمشق ليحتل عنده منصبا هاما .

قال محمد للحجاج : إننى مستعد للذهاب إلى العاصمة إلا أننى أخشى أن يظن بى المسئولون فى عاصمة الخلافة بأننى نلت هذه المكانة لقرابتى منك .

فقال الحجاج : إن الأحجار الكريمة لا تعرف قدرها بحجمها وإنما بالتلألؤ واللمعان الموجودين فى جوهرها وذاتها ، إننى لم أفعل شيئا سوى أننى هيأت الجو المناسب لمواهبك وصلاحيتك وستعمل فى عاصمة الخلافة كعضو فى المجلس الاستشارى للشئون الحربية وأنك إذا استطعت أن تؤثر فى نفوس زملائك الأعضاء وأمير المؤمنين كما أثرت فى نفسى وأعجبتنى مواهبك فاننى على ثقة بأنه لن يعترض أحد على سنك الصغير .

فقال محمد بن القاسم : وقد يدهشنى وجود هذا المجلس الحربى الاستشارى فى العاصمة ، وماذا يفعل أعضاؤه هناك فى دمشق؟ ! مع أن الخليفة قد سلم إليك مسئولية الشئون الحربية كلها ورسل القواد لا يأتون إلا إليك وأنت الذى يصدر الأحكام لتعبئة الجنود فى كل مكان !

ـــ السبب فى ذلك أن المجلس الاستشارى الحربى ينقصه وجود الأعضاء الأكفاء من أمثالك . . . لهذا السبب حمَّلونى كثيرا من المسئوليات الحربية ، وأن وجودك فى دمشق سوف يخفف من مسئولياتى العسكرية فى الجبهة الأفريقية على الأقل . . . إن أمير المؤمنين يطالبنى بعد كل ثلاثة أو أربعة أيام عقب أى تغيير يحدث فى أفريقيا . . . ولعل الخليفة إذا عرف كفاءتك ومقدرتك سوف يوفر لى الفرصة لأركز نفسى أكثر على جبهة بلاد الترك وحدها .

فسأله محمد قائلا : ومتى سأسافر ؟

ـــ أرى أن تسافر غدا ، وسوف أقوم بتوفير التسهيلات لنقل أملك وزبيدة إلى دمشق خلال أيام .

وكان محمد بن القاسم على وشك الرحيل حين دخل عبد حبشي على الحجاج فقال له إن شابا على الباب يطلب الإذن للدخول عليك ويقول بأنه قد جاء بنبأ هام من (سرنديب) .

فقال الحجاج : ائذن له بالدخول وأنت يا محمد ستبقى هنا حتى نعرف خبره فان قلبي يحدثني بأن هذا الرسول قد جاء بخبر قد لا يسرنا .

عاد الغلام فدخل وراءه الزبير بثياب مغبرة وعلى وجهه الجميل الوضاء أمارات الحزن والتعب ورآه الحجاج فعرفه ثم قال له : أنت يا زبير ، متى عدت وأين سفينتك ؟

فقال الزبير : إني آسف يا سيدي فما جئت إليك بخبر يسرك فقد أغار حاكم ديبل على سفينتنا عند ساحل السند ونهب سفينة أخرى كانت تحمل الهدايا من ملك (سرنديب) إليك وإلى أمير المؤمنين . . . أما الأيامى واليتامى الذين ذهبت لآتي بهم إلى وطنهم فقد أسرهم الحاكم .

فقال الحجاج : وكيف وصلت إلى هنا ؟ احك لي ما حدث بك فقص الزبير عليه القصة من مبتدإها إلى منتهاها فثار الحجاج غيظا وغضبا والتهبت عيناه ، وعادت إلى وجهه الصرامة القديمة فبدأ يذرع الأرض جيئة وذهابا ثم وقف عند الجدار فجعل ينظر إلى خريطة الهند المعلقة على الجدار فصاح بما يشبه زئير الأسد المجروح قائلا :

كيف اقترف ملك السند كل هذا ؟ ! أبدأت الشياه تخوف الأسود بقرونها ؟ ! لعله ظن أن جيوشنا منشغلة فى الجبهات الشرقية والغربية !

ثم التفت الحجاج إلى الزبير ، وقال له : أولم تخبر بهذا أحدا بعد وصولك إلى البصرة ؟

فقال الزبير : لا ! فقد جئت إليك مباشرة .

فقال الحجاج : إن هذا هو إعلان الحرب علينا من قبل حكومة السند ، ولكنك تعرف ظروفنا ، إننا لا نستطيع أن نفتح جبهة أخرى فى مثل هذه الظروف . ولكنى أريد أن لا يصل هذا النبأ إلى العامة فلا أدرى مدى استعدادهم للجهاد إلا أنهم سوف يوبخوننى ويلوموننى لو تباطأت وتأخرت .

فقال الزبير : معنى ذلك أنك تريد أن تتحمل ما حدث دون أى رد فعل ؟

فقال الحجاج : فى هذه الظروف لا أملك غير هذا ولكنى سأكتب إلى حاكم مكران أن يتصل بملك السند ويطلب منه التعويض عن ذلك ، ويفرج عن الأسرى المسلمين من الأيامى واليتامى .

قال الزبير : إنى أؤكد لك أنه لن يعترف بذنبه وقد بعث حاكم مكران إلى ملك السند ليعرف خبر سفينة أبى الحسن المفقودة ولكنه صرح عن عدم معرفته بذلك مع أننى متأكد بأن سفينة أبى الحسن قد نهبت وأغير عليها ! وأن أبا الحسن وبعض أصحابه لا يزالون فى سجن الملك وقد قابلت شخصيا حاكم مكران . وكان

يقول بأن ملك السند ورجاله عاملوه معاملة سوء وإذلال عند زيارته الماضية ، وقال إنه لا يرغب فى السفر إليهم مرة ثانية ، ولكنه بعث بقائد مكران الأعلى الشيخ عبيد الله على رأس وفد إلى حاكم ديبل وذلك بدون إذن منك وأن الذى رأيته أنا يؤكد لى بأن حاكم ديبل ظالم وعنيد جدا كما أن القائد عبيد الله غيور ومتحمس جدا ، ولا يبعد أن يواجه نفس الوضع الذى واجهناه نحن ، وأن يتعرض للخطر قبل أن يقابل الملك .

فقال الحجاج : على كل حال سوف أنتظر عودة عبيد الله .

— وإذا لم يأت هو أيضا بخبر طيب ؟ !

— لا أستطيع أن أقول شيئا . . . إن السند بلاد واسعة ولابد لنا من الاستعداد الطويل قبل التدخل العسكرى وقد لا يسمح لنا أمير المؤمنين بالهجوم على السند قبل فتح تركستان وأفريقيا ولعل الأندلس بعدها أيضا .

وكان محمد بن القاسم لا يزال يسمع ما يدور بينهما فى هدؤ وصمت ثم قال وقد تأثر بنظرات الزبير اليائسة : إننى آخذ على عاتقى مسئولية إقناع الخليفة بهذا الهجوم ، ما رأيكم لو أذنتم لى بالذهاب اليوم بدل الغد إلى دمشق ؟ !

فقال الحجاج : يا بنى ! إن اقتراحا مثل هذا عند وصولك إليه لن يدل على كفاءتك العسكرية ولا جدال فى غيرتك وحماستك ولكن حصون الأعادى لا تفتح بالتدابير والمخططات وحدها وإنما يحتاج ذلك إلى جيش عظيم ، ولا نجد الآن جيوشا احتياطية فى أية

قاعدة من قواعد العراق أو الشام .

فقال محمد بن القاسم : إننى لم أيئس من حماسة المسلمين وغيرتهم ، إن خبرا كهذا يمكن أن يثير هؤلاء الذين حرمتهم حياة الرخاء عن فريضة الجهاد ولعلك يائس من الرجال الذين هم فى مثل سنك . أما الشباب فلسنا يائسين منهم ! إنهم لا يحبون القتال فى أفريقيا وتركستان لأنهم لا يحبونك ولا يحبون الخليفة فى دمشق ، ولكن هؤلاء الشباب سوف تؤثر فى نفوسهم قصة الصبيان اليتامى المظلومين الأسرى فى أيدى ملك السند ، إنك ستجد آلافا من الشباب يشعلهم التحمس والحمية الدينية من أجل هؤلاء . . . إن الذين يئست منهم ليسوا أمواتا وإنما هم نائمون إن استغاثة الأطفال اليتامى سوف تكون كصور إسرافيل بالنسبة إليهم .

أخذ الحجاج يفكر عميقا ، ووجد الزبير الفرصة مواتية فأخرج من جيبه المنديل الأبيض الذى كتبت عليه ناهيد تستحث الحجاج وتحرضه وتستغيث به وتستنجده وقدمه للحجاج وقال له : هذه رسالة من ابنة أبى الحسن إليك وقد كتبته بدمها وقالت لى : إذا رأيت دم الحجاج قد جمد فى عروقه فقدم له هذه الرسالة وإلا فلا حاجة إليها .

فقرأ الحجاج الأسطر المكتوبة بدمها فى ذلك المنديل فأخذ يرتعد ارتعادا وأخذ الشرر يتطاير من عينيه ويستحيل إلى دموع فدفع المنديل إلى محمد بن القاسم والتفت إلى الجدار ينظر فى خريطة الهند . فقرأ محمد بن القاسم تلك الرسالة التى جاء فيها :

"إننى واثقة بأن والى البصرة قد أصدر أمره إلى جنوده الأباة

الكماة ليركبوا خيلهم بمجرد سماع قصة الأيامى واليتامى المسلمين الأسرى على لسان الرسول ، ولن يكون فى حاجة إلى أن يقرأ رسالتى هذه وإذا كان دم الحجاج بن يوسف قد انجمد فى عروقه فلا يمكن أن تنفعه هذه الأسطر التى كتبتها ، أننى أنا ابنة أبى الحسن وأخى لا زلنا فى مأمن من اعتداء العدو حتى الآن ، ولكن زملاءنا قد وقعوا أسرى فى أيدى الظالمين الذين لا يعرفون رحمة ولا شفقة" .

تصور يا حجاج ! هؤلاء الأسرى المظلومين فى زنزانة وقد أرهفوا سمعهم لأصوات سنابك الخيل العربية الحاملة المجاهدين المسلمين الذين جاءوا لنجدتهم . . . إنه لمعجزة أن نجوت أنا وأخى من أيدى هؤلاء الأعداء . . . ولكنهم لا يزالون يبحثون عنا وقد يلقوننا أيضا فى زنزانة . . . أو لعلى أموت قبل ذلك بسبب الجروح التى أصابتنى فأنجو بذلك من تلك العاقبة السيئة ، إلا أننى سأموت وفى قلبى لحسرات على عدم وصول الخيول العربية السريعة التى قرع فرسانها أبواب أفريقيا وتركستان ، ولكنهم لم يصلوا لإغاثة هؤلاء اليتامى البائسين والأطفال الأبرياء من شعبهم . . . وهل يمكن لذلك السيف الصارم الذى قضى على جبابرة الروم والفرس مثل الصاعقة أن يكل أمام ملك السند المتكبر العنيد . اننى لا أخاف الموت . . . ولكنك إذا كنت حيا يا حجاج ، فعليك أن تغيث الأيامى واليتامى من شعبك الغيور الأبى !"

ناهيد

الابنة البائسة لشعب أبى !

طوى محمد بن القاسم المنديل وأعطاه للزبير وأخذ ينظر إلى الحجاج بن يوسف الذى كان قد شغل بتلك الخريطة فقال له محمد بن القاسم : فما رأيك فى هذه القضية ؟ !

فجرد الحجاج خنجره فوخزه فى قلب خريطة السند ثم قال : "إننى أعلن الجهاد ضد ملك السند ، أنت يا محمد ! ستسافر اليوم إلى دمشق ، ويصحبك الزبير ليقدم هذه الرسالة إلى أمير المؤمنين ، وتعود إلى بما يمكن جمعه من المجاهدين من دمشق وسأكتب لك رسالة إلى أمير المؤمنين ولا تتأخر فى العودة إلى . . . وإذا رأيت أن أمير المؤمنين لم يتأثر بهذه الأشياء كلها فعليك أن تثير الرأى العام فى دمشق لتأيدك وأننى لعلى ثقة بأن أمير المؤمنين إذا لاحظ تحمس عامة المسلمين فلابد له من أن يعلن الجهاد ضد السند ، أننى أفوض إليك مسئولية كبيرة ولعلنى أفوض إليك مسئولية أكبر من هذه عندما تعود من دمشق . . . قدم رسالتى إلى كل مركز تمر عليه من المراكز العسكرية فى الطريق وسيقدمون لك المساعدة والخيل الجديدة المستعدة اذهب واستعد للسفر وأنا أكتب لك الرسالة خلال ذلك ، وأنت يا زبير . . . عليك أن تستعد أيضا للسفر .

صفق الحجاج فدخل عليه عبد حبشى مسرعا ، فقال له الحجاج : اذهب بهما إلى دار الضيافة وقدم لهما الثياب وبعد تناول الطعام هئ لهما جوادين سريعين لسفرهما إلى دمشق .

من البصرة الى دمشق

وبعد بضعة أيام من خروجهما كان محمد بن القاسم و الزبير قد وصلا إلى قرية على مسافة بضعة أميال من دمشق ونزلا فى المركز العسكرى، فقدم محمد بن القاسم رسالة الحجاج بن يوسف لضابط المركز وفيها أمر بأن يزودهما بفرسين جديدين وإعداد الطعام لهما.

فقال الضابط : أما الطعام فجاهز وأما الفرسان فقد لا يمكن الحصول عليهما اليوم وليس لدينا الآن إلا خمسة من الخيول.

فقال محمد بن القاسم : ولكن نحن فى حاجة إلى فرسين فقط !

ولكن هذه الخيول جاهزة لسليمان بن عبد الملك وأصحابه الذين يريدون السفر إلى دمشق، وكما تعلم أن عرضا عسكريا سيقام غدا فى دمشق، وهم يريدون أن يصلوا اليوم قبل المساء، إننى لا أستطيع أن أخالف أوامر والى العراق كما أنه لا يمكن لى أن أغضب أخا أمير المؤمنين لأنه كما تعرفه رجل سريع الغضب غليظ الخلق..

— وأين ذهبوا ؟

— إنهم يستريحون فى الداخل ولعلهم يريدون السفر بعد ظهر اليوم، وما دامت حاجتكما ملحة فعليكما أن تستأذناهم، فان خيلهم يمكن أن تنتعش إلى الظهر لأنها ليست متعبة إلى حد كبير ويمكن أن تتصلا بهم بعد تناول الطعام، وأنا شخصيا لا أعترض عليكما، خذا الفرسين إن شئتما ولكن ربما تجران وبالا على !

أكل محمد والزبير طعامهما تحت ظل شجرة ثم نهض محمد يريد أن يدخل عليهم فقال له الزبير : أمن الضرورى أن نستأذن سليمان ؟ إن هذه الخيل لم تحبس إلا للأغراض العسكرية ، أما سليمان فهو ذاهب إلى دمشق متنزها ولا يجوز له أن يقف فى سبيل الأغراض العسكرية ! الخيل جاهزة فى الأسطبل أما الأمير سليمان فسيستريح إلى الظهيرة ثم يقف أمام المرآة ليستمع إلى عبيده وخدمه يمدحون جماله ثم ينشد لهم شعره ، ويطالب منهم أن يمدحوه ، أيضا ، ويمدحوا فروسيته وطعانه ويمكن أن يأمر الجند عند المساء أن يحطوا أسرجة الخيل ليذهب إلى دمشق صباح غد !

فقال له محمد بن القاسم متضاحكا : يبدو أنك تعرف عن سليمان بن عبد الملك كثيرا ؟

— نعم أنا أعرفه جيدا ، ولعله لا يوجد شخص فى العالم الإسلامى اليوم أكثر غرورا وتكبرا منه وأكاد أقول : إنه لا يرجى منه خير !

فقال له محمد بن القاسم : أخشى أن يعاقب جنود المركز بعدنا ولذلك أرى أنه لا مانع من أن نستأذنه .

كما تريد . . اذهب أنت واستأذنه ، أما أنا فأدخل الأسطبل وأحضر الجوادين .

فتح محمد بن القاسم الباب واختلس النظر إلى سليمان فوجده جالسا مسندا ظهره إلى جدار بين جلسائه وخادمين يدلكان رجليه ! فسلم عليهم محمد بن القاسم وهو يدخل من الباب فرد عليه سليمان

سلامه بلا مبالاة وسأله قائلا : من أنت ؟ وماذا تريد ؟

فلم يحفل محمد بلهجته القاسية الجافة وقال له : عفوا يا سيدى فقد أزعجتكم ولكنى أردت أن أقول لك بأننى ورفيقى ذاهبان الى دمشق برسالة هامة .

ــ اذهب ، ومن الذى يمنعك . ! فاندفع جلساء سليمان فى ضحك إلا أن محمدا استمر جادا فى كلامه وقال : إن فرسينا متعبان ونريد فرسين من المركز ولم أكن فى حاجة إلى أن أستأذنك ولكنى رأيت من الأفضل أن أخبرك عن هذا ، حتى لا توبخ جنود المركز بعدى .

فاستوى سليمان جالسا فى شىء من الكبرياء وقال : ومادام الفرسان متعبان فيمكن لكما أن تذهبا ماشيين .

فقال له محمد بن القاسم : إن المشى على الأقدام ليس عارا على الجندى إلا أننى أريد أن أسرع إلى دمشق .

ــ آه أنت جندى ! وهل فى غمدك سيف من الخشب أو الحديد . ! مرة أخرى اندفع جلساء سليمان فى الضحك . .

فقال له محمد بن القاسم بكل هدوء : إذا كانت السواعد قوية فسوف يفيد سيف الخشب كما يفيد سيف من الحديد . . ولكنى أؤكد لك بأن سيفى من حديد وأن ساعدى قويتان ، وأثق بهما .

فقال سليمان وهو ينظر إلى أحد جلسائه : انظر إلى هذا الصبى يا صالح فانه يبدو شاطرا فى حديثه ، قم ! فانى أريد أن أرى كفاءته فى الفروسية .

فقام رجل أسمر اللون قوى البنية وجرد سيفه من غمده .

فقال محمد بن القاسم : إننى لست من الذين يحققون فروسيتهم مع أبناء السبيل ، كما أننى لا أجد الفرصة لأتداعب مع الذين يضحكون بأجر ! فان ذلك عار على الجندى .

وأراد محمد بن القاسم أن يخرج إلا أن صالحا وقف فى سبيله مادا إليه سيفه وقال له : أيها الغبى ! لو كان عمرك أكثرسنة أو سنتين من عمرك الآن لعرفت من الذى يضحك بأجر .

وكان الزبير أمامهم راكبا فرسه وفى يده لجام فرس آخر فخرج سليمان وقال لصالح : دعه يذهب هذا المسكين ! وما أدراه من أين جاء بسيفه هذا ، ولكن من هذا ؟ . . وأشار إلى الزبير صائحا : أمسكوه . .

فالتفت الزبير إلى صالح إلا أن محمد بن القاسم كان قد جرد سيفه من غمده فى طرفة عين فقال له : يبدو أن عرب الجاهلية موجودون هنا . . إلا أنك لا تستطيع أن تقف فى سبيلنا .

فمد صالح نصل سيفه إلى صدر محمد وصاح به قائلا : إنك لو قلت كلمة أخرى فسوف ترى سيفى لا يعود إلى غمده قبل أن يغتسل . .

فلم يستطع صالح أن يكمل كلامه حتى كان سيف محمد بن القاسم قد اهتز فى الهواء ثم تقارع السيفان وسقط سيف صالح من يده فدهش لهذه المفاجأة فأخذ ينظر إلى زملائه الذين كانوا ينظرون إلى محمد ذاهلين مندهشين . .

فاندفع سليمان فى الضحك على فشل جليسه إلا أن ضحكه لم يمنع محمدا أن يركب الفرس بسرعة البرق فصاح به سليمان دون أن يكمل قهقهته انتظر يا هذا . . !

فثنى محمد لجام فرسه وانتفت إليه قائلا : أن جليسك شجاع ولكنه لا يعرف كيف يمسك السيف ، وأنصحك أن تسلمه لجندى ليقوم بتدريبه قبل أن تذهب به إلى استعراض دمشق العسكرى ، ثم ركض محمد بن القاسم فرسه واختفى الفرسان بسرعة البرق خلف الأشجار . .

فأسرع صالح إلى الاسطبل غاضبا فقال له سليمان : هون عليك الآن يا صالح ! لا تستطيع أن تمسهما بأى ضرر ! لقد انسل الصبى وقد كشر بوجهه أمامنا جميعا .

فقال الزبير لمحمد فى الطريق : أرايت الأمير سليمان ؟ ومع هذا فهو يتطلع إلى الخلافة أيضا . !

فقال محمد بن القاسم : وقى الله المسلمين من شره .

فقال الزبير لقد رأيت الهيبة والجلال على وجهك يا محمد ولأول مرة ! لقد كنت تبدو أكبر من سنك عندما رأيتك تجرد السيف من غمده ، وهل تعرف الرجل الذى تغلبت عليه ؟ إنه صالح وقد رأيته قبل سنة ونصف . . إنه يفتخر ببراعته فى السياقة إلا أن كبره قد نزل به إلى الحضيض . .

(٢)

بعد أداء صلاة العصر فى الجامع الأموى بدمشق توجه محمد

بن القاسم والزبير إلى مقر الخليفة وأخبر الحاجب برغبتهما فى لقاء أمير المؤمنين فطلبهما الخليفة الوليد بن عبد الملك عنده بعد أن أخبره الحاجب فنظر إليهما الخليفة ثم قال : أيكما محمد بن القاسم ؟

فقال محمد بن القاسم : أنا يا أمير المؤمنين !

فدهش رجال الحاشية الذين كانو قد ركزوا أنظارهم على الزبير والتفتوا إلى محمد ، وكان الوليد قد عرف من رسالة الحجاج الأخيرة بأن محمد بن القاسم فتى يافع ، ولكنه مع ذلك كان قد أخطأ كرجال حاشيته فظن الزبير هو ابن أخى الحجاج الذى ينتظر له مستقبل مرموق ، ولم يكن يعتقد بأن الفتى اليافع الذى لم يجاوز السادسة أو السابعة عشرة من عمره يمكن أن يكون قائدا لطلائع جيش قتيبة بن مسلم الباهلى .

وعندما لاحظ الوليد أن الألسنة . بعد الغمز وتبادل الإشارات بالعيون — قد بدأت تتحرك وتقول شيئا فى شخص الحجاج الذى كان أكبر إحسانا وأعظم إفادة للبيت الأموى ، نهض من مكانه فصافح محمدا والزبير وأجلسهما بجانبه ثم قال لهما : إن المجاهد الذى يشفع فيه سياسى محنك مثل الحجاج بن يوسف وقائد فذ مثل قتيبة بن مسلم الباهلى رأيهما السديد لابد لى من إكرامه والإعجاب به . . ثم خاطب محمدا وقال له : وهل هذا شقيقك الأكبر ؟

— لا يا أمير المؤمنين ! إنما هذا هو الزبير .

فيتبين الوليد الزبير ثم قال له : لعلنى قد رأيتك قبل هذا ؟ لعلك أنت الذى ذهب مع رسول (سرنديب) متى جئت وأين أولئك

الأولاد والنساء الذين ذهبت من أجلهم ؟

فاشترك رجال الحاشية مع الخليفة فى الاهتمام بالزبير والالتفات إليه كما أن البعض منهم كان قد عرفه ، وحين رأى محمد بن القاسم الزبير مترددا ، أخرج رسالة الحجاج إلى الخليفة من جيبه وقدمها إليه قائلا : لقد جئنا برسالة هامة ونرجوك أن تقرأها بنفسك ففتح الوليد الرسالة فقرأها ثم فكر قليلا ثم التفت إلى حاشيته فقال لهم : إن ملك السند قد أغار على سفننا وقبض على النساء والأطفال القادمين من (سرنديب) وقص علينا قصتك يا زبير . . !

فحكى لهم الزبير كل ما حدث ! إلا أنه لاحظ عدم تحمس رجال الحاشية ، فبدأ لديه شعور باليأس والإهمال فأخذته البحة وتهدج صوته فأخرج منديلا من جيبه وقدمه للخليفة قائلا : هذه رسالة كتبتها ابنة أبى الحسن إلى والى العراق .

قرأ الوليد الرسالة فتتأثر بها تأثر الحجاج بها فحاول أن يعيد قراءة الرسالة ليسمعها رجال حاشيته إلا أن صوته تقطع بعد بضع فقرات فأعطى الرسالة لمحمد بن القاسم قائلا : اقرأها أنت . .

فقرأ محمد الرسالة من أولها إلى آخرها . فتغير وضع البلاط وكان قد ظهر من وجوه الكثيرين من الحاشية كأن العواطف قد غلبت على عقولهم ! إلا أنهم ظللوا صامتين حين رأوا الوليد صامتا لا يتكلم فلم يتحمل قاضى المدينة العجوز ذلك الصمت والسكوت ، فقال : ما الذى تنتظره الآن يا أمير المؤمنين ؟ فليس هذا أوان التفكير والنقاش فقد جاوز الحزام الطبيين !

فقال له الوليد : ما رأيك أنت ؟

فرد القاضى ، يا أمير المؤمنين ! لا داعى للرأى ! إنما الواجب هو الواجب ! إن الرأى يفيد حين يكون أمام الانسان طريقان . ولكن الطريق الآن أمامنا هو طريق واحد .

فقال الوليد للحاشية : إنى أريد أن يبدى كل منكم رأيه .

فقال أحد رجال الحاشية : أنه ليس فينا أحد يعرف التراجع .

— فقال الوليد : ولكن ليس لدينا جنود . . وقد وصلتنا رسالة من موسى بن نصير يقول إنه يعتزم غزو الأندلس ، كما أن قتيبة فى تركستان لا يكفيه جميع جنود العراق ! وإذا أردنا أن نفتح جبهة جديدة فلما أن نتنازل عن إحدى الجبهتين أو ننتظر مدة أخرى من الوقت . .

فقال القاضى ، ليس فينا من يقترح الانتظار يا أمير المؤمنين . . إنك لو عرضت هذه المشكلة على الأمة فانك لن تكون فى حاجة إلى سحب الجيش من أفريقيا أو تركستان

فقال الوليد : إذا كنت مستعدا لتتحمل مسؤلية الأمة وإيقاظها فاننى أعلن الجهاد الآن .

فاخذ القاضى ينظر إلى الحاشية مترددا مرتبكا .

فقال الوليد: إنى لست يائسا من هذه الأمة ! انما يسوئنى أهل الحل والعقد الذين تمادوا فى الترف والكبرياء وعدم الإخلاص . . إنك تذكر بأن موسى بن نصير عند ما تقدم بجيشه فى أفريقيا اعترض

عليه بعض المترفين كما أن أخى سليمان كان قد عارضنى حين هاجم قتيبة على مدينة (مرو) ومن سوء الحظ أن بعض المترفين قد تكاسلوا وأحبوا حياة الراحة والأمن وهم يعتقدون بأن دعواتهم بانتصار الإسلام تكفيهم وتغنيهم عن الخروج مجاهدين فى سبيل الله . . إنكم إذا حاولتم الاتصال المباشر بالشعب فانكم سوف تتمكنون من إعداد جيش عظيم يكفيكم لا لفتح السند وحدها وإنما يكفيكم لانتصار الدين الإسلامى الحق على الأرض كلها ، ولا تواخذونى لصراحتى معكم فان هذا الأثر الذى أراه فى نفوسكم إنما هو أثر مؤقت وأعتقد أن هذه العواطف الثائرة سوف تهدأ بعد يوم أو يومين ، أنكم سوف تجدون لذة ومتعة فى حكاية هذه الحوادث إلى البطالين والكسالى من طبقة المترفين وسوف تلومون ملك السند الظالم الآثم ثم تفوضون الأمور إلى الله وتهدأون مستريحين آمنين كما فعلت بنو إسرائيل . . . ولكنكم إذا اعتزمتم على الجهاد فانى أؤكد لكم بأن عامة الشعب المسلم لا يزالون أحياء مؤمنين . وإنكم إذا أعرضتم عن مجالس اللهو واللعب وتوجهتم إلى كل بيت فى دمشق من بيوت المسلمين وأثرتم فيهم مشاعر الجهاد فى سبيل الله ونجدة إخوانهم وأخواتهم ، فانى على ثقة بأن أسرى السند الذين ينتظروننا فى السجون ، سوف تهزهم سماع أصوات سنابك خيل المجاهدين وستعرف تلك الفتاة شفاها الله ، أن سيوفنا لم تكل بعد .

فقال محمد بن القاسم : لو أذن لى أمير المؤمنين فانى مستعد لأن أتحمل هذه المسئولية على عاتقى .

فقال الوليد : لست فى حاجة إلى الإذن منى .

وأخذ رجال البلاط ينهضون واحدا تلو الآخر ويؤكدون للخليفة ويلحون عليه باعداد جيش لغزو السند ثم نهض المجلس وانتهى الاجتماع .

كان محمد والزبير يتحدثان فيما بينهما بعد صلاة العشاء عندما جاء الرسول إليهما وأخبرهما بأن الخليفة يطلب محمد بن قاسم فذهب محمد مع الرسول إلى أمير المؤمنين . . أما الزبير فاستلقى على السرير وانتظر صديقه ثم غشيه النعاس فأخذ يسبح فى دنيا الأحلام فرأى فيما يرى النائم كأنه يهيم على وجه فى مدن السند وراء ناهيد ويكسر أسوار القلاع وأبواب السجون ويقطع قيود الأسرى الحديدية ويمسح دموع عينى ناهيد السوداوين اللامعتين ويقول لها : ها أنتذا يا ناهيد . . لقد تحررت أخيرا . . وكيف جرحك الآن ؟ انظرى إلى رايتنا وهى ترفرف على قلعة (برهمن آباد) !

فترد هى عليه قائلة : أنا طيبة وبخير يا زبير ! إنك قد تأخرت وكنت قد يئست منك .

ثم انقطعت سلسلة الأحلام الحلوة الممتعة فجأة فرأى نفسه مقيدا بالأغلال فى شقاء وبؤس لا يطاق . رأى بعض جنود ملك السند وقد أحاطوا به شاهرين سيوفهم وقبض البعض منهم على ناهيد وأخذوا يجرونها نحوالزنزانة ، وهى تنظر إليه مستكينة يائسة . . . وعندما هى تدخل الزنزانة ويغلق الباب دونها فهو يندفع نحو الجنود محاولا كسر القيود ثم يسرع نحوها ليفتح الباب قائلا : ناهيد يا ناهيد ! ثم يفيق ويفتح عينيه فيرى محمد بن القاسم أمامه فيغمض عينيه

مرة ثانية .

لقد رآه محمد وهو يضطرب ويهتف باسم ناهيد . . إلا أنه لم ير من المناسب أن يتناول هذا الموضوع معه ، وجلس على سريره صامتا وبعد لأى فتح الزبير عينيه مرة ثانية وخاطب محمدا قائلا : لقد عدت يا محمد !

فقال محمد : نعم عدت ! وبعد لحظات من التفكير قال . . . كيف أنت فى فنون الحرب والفروسية وبخاصة الطعان والمثاقفة ؟

فقال الزبير أما اللعبة التى أحببتها فى الطفولة فهو القوس كما أننى كنت أجيد ركوب الخيل وليس من سلاح أحب إلى من الرماح وأما السيف فانك إذا سألت عربيا أيعرف اصطناعه فكأنك تشك فى عروبته . . تأكد يا محمد أننى قد نشأت وترعرعت فى نفس البيئة التى نشأت وتربيت فيها أنت .

فقال محمد بن القاسم : إذن هذا يوم امتحاننا ، أنا وأنت . . وقد طلبنى أمير المؤمنين الآن لهذا الغرض ، وانه يريد أن نشترك فى معرض الفنون الحربية وإذا تفوقنا على الفرسان الآخرين فسوف يكون لنجاحنا أثرا قويا فى نفوس أهل دمشق وسوف تتاح لنا الفرصة لتحريض الناس على الجهاد ! إن أمير المؤمنين يحب أن يعقد السباق بيننا وبين سليمان ورجاله . . .

فقال الزبير : أصاب أمير المؤمنين فى رأيه . . . وأن الله سبحانه قد أتاح لنا فرصة طيبة ، ولكنى أرى من واجبى أن أقول لك بصراحة أن سليمان وصالحا من أجود الفرسان فلا تقلل من شأنه

وأنه لمن الصدفة أنك هزمته فى الطريق ففشل أمامك . وأنه لا نظير لسليمان وصالح فى الطعان والفروسية .

فرد عليه محمد بن القاسم قائلا : ليس غرضنا التفوق وإنما سندخل المعرض لهدف أسمى ، وأن الله سوف ينصرنا ! وقد قال أمير المؤمنين بأنه سوف يعطينا من أجود خيوله فى الاسطبل .

(٣)

لبس سليمان الدرع ووضع الخوذة على رأسه ونظر فى مرآة طويلة ثم التفت إلى أصحابه يقول : ما رأيك يا صالح ؟ أى زى يليق بى أكثر ؟ الزى العادى أو الزى العسكرى ؟

فرد صالح : إن الله أعطاك صورة تحلو وتجلو فى كل زى من الأزياء !

فالتفت سليمان إلى المرآة وابتسم ثم فكر قليلا وقال : ولكنى قد اغتبطت لصورة ذلك الصبى ، وأظنه سيأتى فى الاستعراض فاذا رآه أحد منكم فليأت به إلى . إنه جندى يرجى له مستقبل باهر وأريد أن يكون بين أصحابى .

شعر صالح كأن سليمان وخزه بمبضع على جرحه الأليم ، فقال له : لا تخزنى كثيرا ، فان السيف فى ذلك الوقت لم يكن فى قبضتى ولم أكن أتوقع بأنه سوف يأخذنى على غرة .

فقال سليمان : إن الفارس الذى يعتبر عدوه حقيرا يفشل دائما وعلى كل حال فقد كانت الحادثة عبرة جيدة لك ، لكن قل لى هل

هناك من يتحداانا اليوم ؟

فرد صالح : إننى لا أتوقع أحدا يمكن أن يتحداك اليوم فقد اعترف جميع الفرسان ببراعتك فى الطعان والمسابقة فى السنة الماضية.

ولكن أمير المؤمنين لم يكن راضيا عنى .

السبب الوحيد فى ذلك هو أنك أخاه وهو يراك عقبة فى ولاية العهد لابنه ، وخاصة إذا كنت فارسا شهيرا معترفا به ، أما المكانة التى تحتلها فى نفوس الشعب فلا يمكن لأحد أن يحظى بها سواك .

فقال سليمان : ولكن العقبة الكبرى فى سبيلى إنما هو الحجاج بن يوسف إنه يود أن يتولى الخلافة ابن أخى مكانى حتى يستمر هو على ولاية العراق .

فقال صالح : قاتل الله قاتل أخى ، إننى متأكد بأن حلمه هذا لن يتحقق أبدا . . إن المزايا التى تؤثر فى نفوس الشعب إنما تملكها أنت ولا توجد فى أخيك ولا فى ابنه . . . إنك قد مهدت السبيل لنفسك حيث تفوقت فى استعراض السنة الماضية . إن الشعب لن يقبل حرمانك من الخلافة بأى حال .

وفى هذه الأثناء دخل عبد فقال : الفرسان جاهزان فقال صالح : هيا بنا ! فقد حان الوقت لبداية الاستعراض العسكرى .

❀ ❀ ❀ ❀

بين الجندى والأمير

كان عرب الجاهلية يعتبرون الرماية والمسايفة والفروسية والخبرة العالية فى هذه الفنون من أهم أهداف الحياة وفرائضها ، وهى التى كانت تعتبر مستوى حقيقيا لتولية الرياسة والعز والشهرة والبطولة عندهم ، كما أنهم كانوا يعتبرون أشعر الشعراء من أجاد تصوير حفيف السهام وخشخشتها وجلجلة السيوف وصلصلتها ! كان الشاعر يحب صوت سنابك الخيل الأصيلة أكثر من ضحكات فتاة صحراوية جميلة وهو المولع بطلوع هودج حبيبة وظهور البطل الفارس الأشعث من خلال الغبار أو الضباب البعيد . . .

ولكن الإسلام غير شجاعة العرب إلى قوة للصالحين وهيبتهم وكلما توغل العرب فى حروبهم مع الروم والفرس تقدمت فنونهم الحربية بنفس المقدار ، فقد حدثت تغييرات عديدة فى نهج ترتيب الصفوف والتعبئة والكر والفر على عهد القائد الإسلامى الفذ خالد بن الوليد رضى الله عنه وقد كان العرب يعرفون لبس الدروع قبل ذلك ، ولكن الحروب التى قامت بين الرومان والمسلمين هى التى جعلت الدروع صفة لازمة للفرسان .

وقد مست الحاجة إلى سلاح يمكنهم من تدمير الحصون والجدران العاتية وذلك خلال محاصرتهم للمدن المنيعة وهذه الحاجة

هى التى أوجدت المجانيق وأبدعت الدبابات ، أما المنجنيق فقد كانت آلة خشبية لرمى الأحجار من بعيد ، وبهذا السلاح كانت الجيوش المهاجمة تتمكن من أن تقذف الأحجار على الأسوار بدون أن يضرهم الرماة حراس الأسوار . وقد كان القوس هو مصدر هذا الاختراع الحديث وأصبح سلاحا هاما فى بضع سنوات وذلك بجهود الخبراء العرب للأسلحة الحربية .

أما السلاح الثانى الذى طوره خبراء العرب بالأسلحة الحربية والذى كان يفيد فى تسخير القلاع المنيعة وتحطيمها فهى الدبابة . فقد كانت الدبابة عبارة عن قلعة خشبية ذات عجلات وكان بعض الجنود يكمن وراء ألواح خشبية كما أن البعض منهم كان يدفع الدبابة دفعا فيسندونها إلى الجدار فيتقدم الجنود المشاة تحت وقايتها فيصعدون السور حيث يتخذون الدبابة سلما .

أما فى الميادين السهلة البسيطة فقد كان الجنود العرب المشاة يفضلون السيف على الرمح فى البداية . ثم أدركوا أهمية الرماح عند مواجهة الجنود المصفحين حتى عم استخدام الرمح فى كل مكان من البلاد العربية مثل الرماية والمسايفة وقد تأثر مسلمو الشام بالرومان بحكم علاقاتهم معهم ومن ثم بدأوا يفضلون الطعان على المسايفة .

وقد اشتهرت الخيول العربية الأصيلة وفرسانها العرب الذين فاقوا فى الطعان والتثاقف فرسان الدول المجاورة لهم .

(٢)

وكان العرب فى عهد الأمويين يعقدون سباق الطعان والتثاقف

كل يوم فى ميدان واسع خارج مدينة دمشق ، وكانت التقاليد اليونانية فى التثاقف والطعان ذات شعبية عظيمة بين الفرسان .

وكان المغامرون من الشباب الفرسان يقف بعضهم أمام الآخر على مسافة قريبة ، وكانوا يلبسون الدروع والخوذة أو الصفائح للدفاع والوقاية ، وإلى جانب استخدام الرماح الأصيلة كانوا يستعملون رماحا بدون نصل حديدى أو ذا نصل كليل . وكان الحكم يقف فى وسط الفارسين وهو يحمل علما فى يده وعندما أشار الحكم تحرك الفارسان بسرعة وهاجم كل واحد منهما صاحبه فمن نجح فى الدفاع عن نفسه وضرب خصمه فاز بالجائزة . أما الفارس الفاشل فكان يسقط بضرب الرمح الكليل فيضحك منه الناس المشاهدون والمتفرجون .

فى تلك السنة حضر المشاركون فى استعراض الفنون الحربية من كل ناحية وصوب . . من قريب وبعيد . وكان المشاهدون والمتفرجون قد احتلوا المقاعد كلها فى جوانب الميدان . وكان الوليد بن عبد الملك جالسا على كرسيه ورجال حكومته أحاطوا به على يمينه و على يساره . وفى الجانب الآخر كان سليمان بن عبد الملك جالسا بين أتباعه وحاشيته أمام صفوف المتفرجين .

وبدأ العرض . . فعرض خبراء السلاح أحدث النماذج من المجانيق والدبابات ونالوا جوائزهم ، ثم عرض الرماة والسيافون براعتهم فى الفنون الحربية فنالوا تقدير المشاهدين وإعجابهم .

واشترك ثلاثة من رجال سليمان بن عبد الملك فى سباق الرماية ونال الكل منهم تقدير المشاهدين وتائيدهم . أما صاحبه الآخر الذى

كان يسمى صالحا فقد هزم خمسة من الفرسان فى المسايفة وكان ينتظر دعوة أمير المؤمنين للجلوس على كرسى الامتياز ولكن شابا تقدم إلى ميدان السباق فتحداه وبعد مسابقة طويلة شديدة خطف السيف من يد صالح .

كان هذا الشاب هو الزبير ، فأخذ المشاهدون يندفعون نحوه لرؤيته ومصافحته . بينما كان صالح واقفا فى شئ من الخجل والندم والغضب يقرع شفتيه .

فنهض الخليفة الوليد بن عبد الملك من مكانه وصافح الزبير وهنأه على نجاحه ثم التفت إلى صالح وقال له : لو لا أنك لم تغضب يا صالح لما فشلت وعلى أى حال فأنى أرى أنك تستحق الجائزة مثل هذا الشاب .

وفى النهاية بدأ التطاعن والتثاقف ، وكانوا قد اختاروا ثمانية من المتثاقفين بعد سباق شديد وفى النهاية بدأ السباق النهائى ، وكان كلما قل عدد المتسابقين اشتدت هتافات المتفرجين ، حتى لم يبق إلا الاثنين منهم وعند ما انتصر أحدهما على الآخر كشف المنتصر لثامه فعرفه الناس وهللوا وكبروا وصاحوا تقديرا له وتمجيدا لبراعته وهذا المنتصر كان شابا يونانيا أسلم حديثا وكان اسمه أيوب ! فأخذ أيوب يرفع رمحه ويتجول فى الميدان حتى عاد إلى مكانه فوقف فى الميدان .

فنادى الحاجب : هل هناك أحد يريد أن يتحدى هذا الشاب ؟

وكانت نظرات المشاهدين قد تركزت علي سليمان بن عبد الملك

فنهض سليمان من مكانه ولبس خوذته ثم أشار إلى عبد حبشي كان واقفا على مقربة منه وقد أمسك بلجام فرس أسود فركبه سليمان وكان درعه يتلألأ فى الشمس كما أن شرابة من الخيوط الحريرية الخضراء كانت تهتز فى الهواء الخفيف فوقف كل من سليمان وأيوب يواجه أحدهما الآخر ، أما المشاهدون فقد ظلوا ينتظرون إشارة الحكم فى صمت فهز الحكم علمه ثم تنحى إلى جانب فتقدم الفارسان بسرعة البرق يواجه كل واحد صاحبه واستمرا يمارسان الدفاع والوقاية والضرب ضد أحدهما الآخر ، وكان سليمان قد عرف جميع حيل خصمه قبل دخوله ميدان السباق وعرف كيف يدافع عن نفسه . فكانت النتيجة هى أن ضربة أيوب أخطأت بينما ضربة سليمان تركت أثرها على خوذة خصمه .

فأعلن الحاجب نجاح سليمان فنهض الوليد وهنأ أخاه كما أنه شجع أيوب فخلع سليمان خوذته فنظر إلى المتفرجين نظرة الظافر المنتصر ؛ وتجول فى الميدان كالمعتاد ثم عاد إلى مكانه فوقف فى الميدان ينتظر الإعلان النهائى .

(٣)

فنادى الحاجب ثلاث مرات : هل هناك أحد يتحدى سليمان بن عبد الملك ؟ ولكن المشاهدين كانوا قد تأكدوا بأن اللعبة قد انتهت فكانوا ينتظرون نهوض أمير المؤمنين ، ولكنهم دهشوا غاية الدهشة عند ما رأوا فارسا على فرس أبيض قد نزل الميدان يحمل رمحا فى يده ! أما دهشة المتفرجين فلم يكن سببها لأن فارسا كان يتحدى

سليمان بن عبد الملك وإنما كان سبب دهشتهم هو أن ذلك الفارس لم يكن فى درع وخوذة ! وإنما كان يلبس ملابس سوداء ! وعلى رأسه عمامة مكان الخوذة وعلى وجهه نقاب أسود .

والفرسان الذين يدخلون ميدان السباق بهذه الطريقة ولا يلبسون الدرع والخوذة فهم الذين يثقون بأن خصومهم أقل منهم براعة وخبرة ، ولما كان سليمان فارس الحلبة وبطل السباق فى ذلك اليوم ! لم يتأثر الناس بشجاعة الفارس الذى دخل الميدان بدون درع أو خوذة ليواجه خصمه فى السباق وإنما كانوا يشكون فى صحة عقله وسلامة ذهنه .

ولم يكن أحد يعرفه غير الزبير والوليد ولكن تهوره هذا كان قد أقلق الوليد أيضا ، فهمس فى أذن الزبير قائلا : أهو محمد بن القاسم أم أحد غيره ؟

فأجاب الزبير إنه هو يا أمير المؤمنين !

— ولكن ما ظنه بسليمان ؟ إنه إن لم تكن ضلوعه من الحديد فاننى متأكد بأن نصلا خشبيا للرمح قد يشكل خطرا عليه فعليك أن تذهب إليه وتنصحه بما فيه مصلحته !

فقال الزبير : لقد نصحته يا أمير المؤمنين ، وهو مدرك مدى الخطورة إلا أنه يرى بأنه إذا انتصر بهذا الشكل فان انتصاره هذا سوف يكون له تاثير بالغ الأهمية فى نفوس الشباب ، وسوف تتاح له فرصة ليحرضهم علي الجهاد في السند ضد الملك الظالم وحكمه

الفاسد ، كما أنـه يرى بـأن الفـارس يكون أكثر نشاطا إذا لم يكن لا بسا للدرع .

لم يكن رد الزبير ليقنع الخليفة فنهض من مكانه وتوجـه نحو محمد بن القاسم مما أقلق المشاهدين والمتفرجين .

وكان محمد بن القاسم ينظر إلى سليمـان فناداه الوليد وهو يقترب منه قائلا : أيها الشاب ! إننى واثق بشجاعتك ولكن مثل هذه الشجاعة حمق وجنون ، ألا تعلم أنك تواجه أكبر فارس عربى وخير شجعان العروبة بدون درع وبدون خوذة ؟ وأخشى أنه يعتبر تهورك هذا إهانة له فيعطيك درسا لن تنساه مدى الحياة وقـد لا تستطيع ركوب الخيل بعد ذلك !

فـرد عليه محمد بن القـاسم بكل هـدوء قـائلا : يعلم الله يـا أمير المؤمنين بأننى لا أريـد رثاء الناس ! إنما أريـد أن أخـاطر بنفسى من أجل هـدف أسمـى وأفضل ، ومـع هـذا فلست أراه خطرا كبيرا لأنى أعتقد بأن الفارس إذا لبس درعا لا يبدو نشيطا .

— وإذا لم يستطع نشاطك وقـاية ضلوعك والـدفـاع عنهـا فمـا ذا ستعمل . . ؟

— لن أتأسف على ما يصيبنى ، إننى أفكر أكثر فى تلك الفتاة التى استحال جرحها إلى قرحة و ناسور فى صدرهـا بسبب مـا أصابها من سهم الظالمين القساة ومـا عـدت أفكر فى نفسى ، وإذا أراد الله أن ينتصر لها فانى على ثقة وإيمان بأنه لن يخزيني أمام شعب

دمشق اليوم ، وقد يمكن لى أن أقرأ رسالتها بين أيديهم بعد الانتصار إن الجهود التى نبذلها لتبليغ رسالتها خلال شهور قد نستطيع أن نحققها فى لحظة هنا اليوم ! فأرجو إذنك ودعاءك لى ! فعسى الله أن ينصرنى .

فقال الوليد : ولكن ما المانع لو لبست خوذة ؟

فأجابه محمد بن القاسم : أرجوك أن لا تغضب ، فانى أرى أن الجندى الذى يصاب بضربة رمح على رأسه لا يعتبر جنديا صحيحا . أما أنا فتكفينى عمامتى هذه .

فرد الوليد : إنك يا بنى لو انتصرت اليوم على سليمان فان راية المجاهدين فى سبيل الله فى بلاد السند سوف تكون فى يديك باذن الله .

فتراجع الوليد وهمس فى أذن الحاجب وهو يعود ثم جلس على كرسيه !

أما سليمان فكان واقفا فى ناحية وقد أحاط به بعض المشاهدين فتقدم صالح نحو سليمان فلفت انتباهه ثم قال له : إن أمير المؤمنين يريد سقوطك اليوم . فكن حذرا !

فسأله سليمان : ولكن من يكون هذا المجنون ؟

— لا أعرفه ولا يهمنى هويته ، كلما أعرف هو أنه لن يركب الفرس بعد هذا اليوم !

فنادى الحاجب : أيها المشاهدون ! إنكم ستشاهدون الآن

سباق التثاقف بين سليمان بن عبد الملك ومحمد بن القاسم . هذا الفارس الشاب لا يتجاوز سنه السبعة عشر عاما .

فازداد المشاهدون دهشة وأخذوا ينظرون إلى الشباب صاحب الزى الأسود .

فهز الحكم العلم إيذانا ببداية السباق فتحرك الفارسان وركل واحد منهما من عند صاحبه وقد أخطآ هدفهما فارتفعت الهتافات من المتفرجين المشاهدين .

أما الشبان والمراهقون فظلوا يهتفون باسم محمد بن القاسم لبضع لحظات وأما الشيوخ والكبار فكانوا يقولون : إن الولد نشيط جدا إلا أنه ليس كفؤا لسليمان . إنما تسامح معه سليمان فى المرة الأولى نظرا لصغر سنه ، أما إذا نجا فى المرة الثانية فانه سوف يحقق المعجزة بذلك . لا مماثلة بين شاب فى السابعة عشر من عمره وبين سليمان الفارس الخبير الطعان المحنك .

أما الشبان والصغار فكانوا قد أثاروا ضجة وكان الشاب الغريب قد أصبح بطلهم ! ولم يكونوا ليسمعوا كلمة ضد بطلهم حتى أن البعض منهم أخذو ايتشاجرون ويتقاتلون .

وطبقا للتقاليد المتعارفة منحوا فرصة ثانية للفارسين فوقفا مرة أخرى يواجه أحدهما الآخر ، فأسرع الصغار والشبان نحو الجانب الذى كان بطلهم يقف فيه ، وكل عين فيهم جمر من القلق للنظر إلى وجه الشباب الملثم ، فأسرع الحكم نحو المشاهدين وأبعدهم ودفعهم إلى الوراء ثم عاد إلى مكانه وهز العلم ، وإذا بالغبار يرتفع ويسود

الصمت والسكون أرجاء الميدان .

وفى هذه المرة أيضا مال محمد بن القاسم إلى جانب فنجا من ضربة سليمان إلا أنه غير هدف رمحه فوقع على ضلع سليمان الأيمن ودفعه دفعا إلى الجانب الأيسر ! فترنح سليمان فسقط على الأرض فنهض على الفور ! فوضع يده على أضلاعه وأخذ ينظر إلى هنا وهناك فى حال من المسكنة الشديدة والعجز البالغ .

فارتفعت الهتافات من كل جانب فدار محمد بن القاسم بفرسه بعد بضع خطوات ثم عاد إلى سليمان فنزل ومد إليه يده يريد أن يصافحه ، إلا أن سليمان لم يصافحه وإنما أشاح بوجهه فأسرع ماشيا حتى ابتعد عنه .

وفى طرفة عين اجتمع المشاهدون وأحاطوا بمحمد بن القاسم فتقدم الفارس اليونانى أيوب وأخذ بلجام فرس محمد ثم قال له : أهنئك أيها الشاب البطل ! وإذا لم يكن لديك مانع فاكشف نقاب وجهك ! فان عيوننا لقلقة مشتاقة للنظر إليك .

﴿٤﴾

وكشف محمد بن القاسم النقاب عن وجهه فتبين لهم وجه الفارس اليافع الرزين الوقور فوق ما كانوا يتصورونه ، فكانت عيناه السوداوان الجميلتان تدلان على وداعته وبراءته لا أثر فيها لهزل أو دعابة . لقد كان هادئا متزنا وحتى تلك الهتافات الصارخة والعواطف الهائجة . بانتصاره ما كان لها أن تغير من اتزانه ورباطة

جأشه.. . أن الشبان الذين كانوا قد تقدموا نحوه ليحملوه على أكتافهم فى موكب ويتجولوا به فى شوارع دمشق ، كانوا ينظرون إليه شاخصين بأبصارهم فى إعجاب ودهشة ، فقال أيوب لصديق له عربى : والله ما رأيت فى اليونان تمثالا جميلا وادعا بريئا بسيطا رهيبا فى الوقت نفسه مثل هذا الفارس الشاب !

فسأله عربى : من أين جئت ؟

فأجابه محمد بن القاسم : من البصرة !

وعندما عرفوا أن الشاب الفارس غريب فى مدينتهم ، أخذ يلح عليه كل واحد منهم أن ينزل عنده إلا أن محمدا شكر الجميع قائلا : لقد جئت برسالة هامة إلى أهالى دمشق ولا بدلى أن أرجع بكل سرعة ممكنة ، فلو سمحتم بالانصات إلى فذلك كل ما أرجوه منكم وأتمناه .

وكان ازدحام الناس حول محمد بن القاسم قد ازداد فتقدم الوليد بن عبد الملك مع حاشيته فتنحى الناس ممهدين الطريق لأمير المؤمنين فقال الوليد وقد وصل عند محمد بن القاسم : أرى أن هذه فرصة ذهبية لك أن تركب فرسك حتى يراك الناس .

فركب محمد فرسه وكان النبأ قد انتشر بين المشاهدين بأن هذا الفارس الشاب الموشح بالملابس السوداء يريد أن يتحدث إلى الحاضرين فأخذ أصحاب الصفوف الأمامية يجلسون على الأرض .

فحكى محمد قصة الأيامى واليتامى العرب القادمين من (سرنديب) باختصار وإيجاز ، ثم أخذ المنديل من الزبير فقرأ رسالة ناهيد فكان

تأثير كلماتها فى نفوس الناس مثل تأثير المباضع على الجروح والقروح عند نكثها ، فأعاد محمد المنديل إلى الزبير بعد أن قرأ الرسالة ثم خاطب الناس قائلا :

يا جنود الإسلام ! إنى أرى الدموع فى أعين الكثيرين منكم ، ولكن عليكم أن تذكروا أن وصمات الظلم الحالكة لا تغسل بالدموع الحارة وإنما بقطرات الدم الساخنة . . . إن نيران الظلم والإكراه التى تضطرم الآن فى السند لا نستطيع أن نشعر بلهيبها . . . إن عددا من أخواتنا وأمهاتنا وإخواننا قد اصبحوا وقودا لتلك النيران المضطرمة . . . وإلى جانب هؤلاء فان هناك آلاف مؤلفة من البشر الذين يعانون من الظلم فى السند منذ أمد بعيد ، إن هذا السهم الذى وخزنى صادر فتاة مسلمة إنما هو سهم من بين مئات الألوف من السهام التى يرمى بها ملك السند المتكبر المستبد فى صدور المظلومين المغلوبين على أمرهم .

إن أخواتنا وإخواننا الأسرى فى سجون السند ينتظرون سماع أصوات سنابك خيلنا ، وينتظرون هتافات الله أكبر . . . الهتافات التى لا تزال قادرة على أن تزلزل أسوار قلعة (ديبل) ، وإننى لعلى ثقة بأن شعب السند المظلوم المغلوب على أمره ينتظركم ويرجو سحب الرحمة الإلهية على يديكم ، أن الإسلام الذى قضى على الظالمين فى فارس وأطفأ نيران المعابد المجوسية يناديكم فى السند ، وإن القلوب الدامية تستغيث بكم وتناديكم صارخة . إن هؤلاء المجاهدين الذين أقاموا سنة العدل والمساواة والأمن فى الدنيا لماذا لا يأتون

لإنقاذنا من أيدى الجبابرة الظالمين ؟ ! ولماذا لا ينقضون على قلاع الظلم والفسق ، ويدمرونها . . . هذه القلاع التى أصبحت مراتع للظلم وسروحا للفسق والفجور ! ؟

أيها الإخوة المسلمون ! إن هذا لنبأ يحمل رسالة الشر والخير فى نفس الوقت بالنسبة لنا ، إنه شر لأنه يحزننا مصاب إخواننا وأخواتنا . . . وإنه نبأ خير أيضا لأن رأسا من رؤس الظلم من أمثال القياصرة والأكاسرة قد ارتفع ليتحدى الحق . . . تعالوا ! لنؤكد له بأن سيوفنا لا تزال صارمة ماضية كتلك التى كانت لأسلافنا .

إن الخلافات الداخلية خلال السنوات الماضية فى بلادنا قد أضرتنا كثيرا ، وأن الدول التى كانت ترتعد خوفا من آبائنا قد أخذت تعلن الحرب علينا ، إن رسالة من فتاة مظلومة إذا لم تستطع أن تثير عواطف الحمية والتحمس فيكم إذن فتذكروا أن أيام حكمنا على الأرض قد أحصيت ، اننى لست يائسا ولا أرى يأسا على أى وجه من وجوهكم . . . وإذا كان هذا الشعب الباسل قد تكسل ونسى رسالته المقدسة فان صرخة بنت من بنات هذا الشعب الباسل الغيور الذى يناديه سوف يوقظه . . . اسمعوها وهى تقول لكم : يا أبناء الإسلام الأباة ! لقد خلقتم للدفاع عن كل الأعراض فما لكم الآن لا تغارون على ابنتكم وهى تساق مشدودة مغلولة فى أسواق برهمن آباد !

وما أن توقف محمد عند كلامه هذا حتى أخذ الناس ينظرون إلى الوليد بن عبد الملك وقد غلبتهم العواطف فاذا برجل طاعن فى

السن يتقدم نحو الخليفة قائلا : إذا كان أمير المؤمنين قد اطلع على هذا الخبر قبلنا فلا ندرى ما الذى منعه عن إعلان الجهاد ؟ وكان الجمع المحتشد يثور ثورة البركان فارتفعت هتافات الجهاد من كل جانب ، فرفع محمد بن القاسم يديه فى الهواء ، وأشار للناس بالسكوت والانصات ثم استأنف كلمته يقول :

إننى لا أتحدث إلى هؤلاء الناس الذين يهتفون ويهتاجون ثم ينسون كل شىء ، إن الشعوب الأبيه الكريمة تسل سيوفها قبل الهتافات ، إن هتافاتكم فى دمشق لا تجدى بشىء لاولئك الذين ينتظرون سيوفكم اللامعة ، إن أمير المؤمنين لمدرك واجبه ، وهو يسمع هتافاتكم !

الآن ! فياليتكم سللتم السيوف مع هذه الهتافات . . . تلك السيوف التى كتب بها آباؤكم تاريخ بلادكم ومجدكم . إنى أريد أن أرى إذا كان بقى شىء من الإيمان والحياة فى قلوب أولاد أولئك المجاهدين الذين استشهدوا فى القادسية وأجنادين !

لا شك أن جيوشنا تقاتل الآن فى تركستان وأفريقيا ولكن من الذى فيكم لا يعرف اصطناع السيف ؟ فاذا اعتزمنا على الجهاد فاننا نستطيع أن نكرر ونجدد أيام القادسية واليرموك . . . يجب عليكم اليوم أن تؤكدوا بأن كل مسلم يمكن أن يصبح جنديا عند الحاجة . . . وقد رأيت سيوفكم مساولة وأرجو أمير المؤمنين أن يعلن الجهاد .

ثم نزل محمد بن القاسم من الفرس ، بعد ما رأى الشيوخ والشباب قد جردوا سيوفهم وأخذوا يلوحون بها فى الهواء بعد أن

تأثروا بكلمة محمد بن القاسم ، وفجأة تقدم صبى فى العاشرة يقتحم الصفوف حتى اقترب من الوليد فقال : هل يأذن لى أمير المؤمنين بالجهاد ؟ إننى لم أكن أعرف والإ لكنت جئت بسيفى ولكن لا بأس أنا ذاهب الآن وآتى بسيفى فى لحظة فأرجوك أن تمنعهم من السفر لبضع لحظات !

فربت الوليد على رأسه بحنان بالغ وقال له : لابد أن تنتظر بضع سنوات أخرى .

فيئس الصبى ثم اقترب من محمد بن القاسم فوقف بجانبه فأومأ الوليد إلى شخص فجاء بكرسى فارتقى عليه الوليد وقال وهو يخاطب الشعب : لست فى حاجة إلى أن أقول شيئا بعد كلمة هذا الفارس الشاب ، وإنما نحمد الله على أن حميتكم لا تزال باقية وأنى أعلن الجهاد ضد ملك السند !

فارتفعت الهتافات مرة أخرى من الجمع المحتشد واستمر الوليد فى خطابه يقول : إنى أريد أن يتحرك الجيش الدمشقى خلال أسبوع ويتوجه نحو البصرة ، وإننى لعلى ثقة بأنه مادام شبابا من أمثال محمد بن القاسم موجودين فى أمتنا فان عددا ضخما من الجنود سوف ينضمون من الكوفة والبصرة ، أما الذين ليس لديهم فرس أو سلاح فان الدولة سوف تزودهم بالفرس والسلاح ولكن الخبر المهم بهذه المناسبة هو أن الجيش المجاهد فى السند سوف يقوده محمد بن القاسم وقد لقبت هذا الشاب المجاهد الموهوب بعماد الدين فندعو الله سبحانه أن يجعله عمادا للدين الإسلامى حقا .

(٥)

وفى الثلث الأخير من الليل صلى محمد بن القاسم صلاة التهجد فى الجامع الأموى بدمشق ثم رفع يديه بالدعاء، فأخذ يناجى ربه بتضرع وخشية قائلا : يا رب العالمين ، لقد حملونى مسئولية عظيمة وعبأ ثقيلا على عواتقى الضعيفة فوفقنى لأكمل هذا الواجب العظيم وأعطنى ولمن يرافقوننى فى هذا الجهاد عزيمة الاباء والأجداد ولا تخزنى يوم القيامة بين يدى أصحاب رسولك ﷺ ، رباه أعطنى عزيمة خالد بن الوليد وتضحية المثنى بن حارثة ! واجعل حياتى كلها فداء لدينك .

وعندما أنهى محمد دعاءه قال الزبير : آمين . ولكن شاركهما رجل ثالث غيرهما ، فأخذا ينظران إليه ، فقد كانت شخصيته جذابة خلابة مع بساطة ملابسه ، فتقدم نحو محمد حتى جلس بجانبه وقال له :

ـــ أنت محمد بن القاسم ؟

ـــ نعم ! وأنت ؟

ـــ أنا عمر بن عبدالعزيز !

وكان محمد قد سمع كثيرا عن عمر بن عبدالعزيز وحياته وتقواه فنظر إليه باكبار وإجلال وقال له : أرجوك أن تدعولى !

فقال عمر : ليحقق الله آمالك الطيبة وعزائمك السامية .

فقال محمد بن القاسم : كنت أريد منذ زمن أن أراك ، وإن لقاءنا اليوم إنما هو تأييد إلهى ، وأرجوك أن تنصحنى !

فقال له عمر بن عبدالعزيز : إن المهمة التى يقودها مجاهد مثالك سوف تنتهى بتجاح عاجل باهر ، بفضل إيمانه فى الجهاد فاذا ذهبت إلى السند فعليك بالسيرة الحسنة والأخلاق الكريمة ، وأكد للناس بأنك ما جئت لاستعبادهم وإنما جئت لتحررهم من أغلال النظام الباطل ، وأن تهديهم إلى سواء الصراط ، ويجب أن تعلمهم التوحيد وأن تقول لهم إن الموحد يتحرر من كل القيود والأغلال إنك ذاهب إلى بلد تعيش فيه الطبقة السفلى حياة أسوأ من الموت فهم يعترفون بحق الطبقة العليا لاستعبادهم وإكراههم ، وإنك بعد القضاء على النظام الفاسد لو دعوتهم إلى المساواة والأخوة الإسلامية فانى على ثقة ويقين بأنك سوف تنتصر على أرواحهم بعد انتصارك على بلادهم وأجسامهم وأن عداوتهم سوف تستحيل إلى حب ومودة .

وإنك تعرف أن بعض الشبان قد استعدوا ليرافقوك تحت غريزة الانتقام فقط ، لأنهم سمعوا منك قصص الظلم والإكراه من ملك السند ، ضد الأيامى واليتامى العرب ، ولكن لا تسمح لأى واحد منهم أن يعتدى على العدو المنهزم الضعيف ، فان الله لا يحب المعتدين . انتزعوا السيف من الظالم ولكن لا تظلموه . فاذا تاب فاغفروا له ذنبه . وإن رغب فى دين الله فعانقوه وضموه إلى صدوركم ، وإن استجاركم فأجيروه وعالجوا جراحه . إنهم ظلموا أيامانا ويتامانا ، ولكن لا تظلموا يتاماهم ولا أياماهم بل ارحموهم واشفقوا عليهم إن الله لا يريد انتصارا سياسيا على أى شعب من الشعوب وإنما يريد انتصار الحق على الباطل ، وإن هذا العمل لو تحقق على أيديكم فان الله سوف يعزهم فى الدنيا ويغفرلهم فى الآخرة .

وأنهى عمر كلامه عندما أذن المؤذن لصلاة الفجر فودعه محمد بعد الصلاة وقال له : سأقضى الأيام الخمسة القادمة هنا للاستعداد وأريد أن أستفيد من علمك وأتمتع بنصائحك وأن معظم الوقت من النهار سوف أنفقه فى تدريب الجنود الجدد . . . فاذا أذنت لى زرتك ليلا ؟

فرد عليه عمر بن عبد العزيز قائلا : تستطيع أن تزورنى فى أى وقت : وبخاصة فى مثل هذا الوقت وسوف تجدنى هاهنا كل يوم وسأسافر إلى المدينة المنورة بعد عشرة أيام .

ودع محمد بن القاسم عمر بن عبد العزيز وخرج من المسجد ورافقه جماعة من الشباب ، وعندما وصل عند درج الباب قال محمد وهو يخاطب الشبان : اذهبوا إلى الميدان وسوف آتى إليكم بعد لحظات .

﴿٦﴾

كان الجنديان واقفين عند باب دار محمد بن القاسم ومعهما فرسان ، فركب محمد والزبير الفرسين وأخذا رمحين من الجنديين وركضا خارجين من الباب الغربى للمدينة ، وفى طريقهما مرا بحدائق خضراء وعند ضفة نهر نزلا من الفرسين فوثبا فى الماء وبعد الغوص والسباحة عادا ولبسا ملابسهما ثم جلسا يتمتعان بمناظر الطبيعة الرائعة فرأى محمد زميله قد ألهته المناظر الخلابة فقال له : سوف نأتى هنا غدا مبكرين ، ويجب أن نتحرك الآن فلعل الرجال فى انتظارنا الآن فانتبه الزبير فنظر إلى محمد متسائلا : ماذا قلت ؟

ـــ لقد تأخرنا .

ـــ فلنذهب إذن .

فركبا فرسيهما فسأل محمد صاحبه : فيم كنت تفكر ؟

فرد الزبير فى لهجة حزينة : كنت أتمتع بمناظر (سرنديب) الخضراء .

ـــ ولكن هدفنا بلاد السند ورمالها ؟

ـــ إننى أرى دائما هذه الرمال ، ولكنى أتذكر أرض (سرنديب) الخضراء أيضا .

فقال محمد بن القاسم : لقد رأيتك بالأمس وأنت نائم تهتف باسم ناهيد ، فلم أرد أن أعيد ذكرها عليك ولكن الآن أحب أن أعرف ماذا رأيت فى رؤياك ؟

فابتسم الزبير إبتسامة شاحبة وقال : لقد رأيت فيما يرى النائم كأن عددا من جنود (ديبل) قد سلوا سيوفهم وأحاطوا بى من كل جانب والبعض الآخر منهم يجرون ناهيد نحو الزنزانة فأردت أن أخلصها منهم .

فقال محمد بن القاسم : أظن أن ذكرى ناهيد قد أخذت بمجامع قلبك !

ـــ لا أنكر ذلك ، إن الظروف التى التقينا فيها ثم افترقنا لا يمكن لأحد بعدها إلا أن يحب تلك الفتاة الجريئة الأبية وأثناء ذلك مرظبي من عند هما يعدو سريعا ، فأخذ محمد رمحه يقول :

إن رجله الخلفية قد جرحت ، ولعل راميا تافها رماه بسهم!
تعال نذهب وراءه !

فتبع الزبير و محمد الظبى الجريح الذى لم يستطع أن يعدو كثيرا فضربه محمد ضربة برمحه فسقط على الأرض فنزل الزبير من فرسه وذبح الظبى فأخرج السهم من رجله الخلفية وقال : لولا أننا ذبحناه وأرحناه لمات موتة سيئة تحت شجيرة .

فظهر بعض الفرسان من وراء الأشجار فتبين محمد بينهم سليمان فقال : آه ! إنهم أصدقاؤنا القدامى !

فاقترب سليمان فأوقف فرسه قائلا : إن هذا الصيد لنا !

فأجابه محمد بن القاسم : خذه فانما أنجيناه من موت أليم وكانت رجله الخلفية جريحة فخشينا أن يغيب وراء الأشجار ويموت هنالك .

فقال صالح : أنت مخطئ إنك قد ذبحته وقد سقط على الأرض!

فرد عليه محمد بن القاسم بحدة: صحيح أن الظبى قد سقط على الأرض ولكن بضربة من رمحي ومادمت رميت بالسهم فعليك أن ترى رجله الخلفية .

فغضب صالح وجرد سيفه ، ولكن منعه سليمان قائلا : قد جربتهما فى المسايفة والتثاقف وقد كنت فخورا برمايتك . . . قال ذلك وهو يلتفت نحو محمد بن القاسم ثم قال له : إن صديقى هذا عاطفى وبنفس القدر أحمق ، فاذا كنت فى حاجة إلى هذا الصيد فخذه !

فأجابه محمد بن القاسم : وشكرا لك لو كنت فى حاجة إلى الصيد لما منعنى شئ ! قال ذلك وهو يشير إلى الزبير ثم حولا فرسيهما إلى الجهة الأخرى فأخذا يعدوان عدوا سريعا .

❀ ❀ ❀ ❀

الانتصار الأول

وكان ذلك بعد صلاة الفجر حيث كان الناس قد صعدوا على سطوح المنازل ينظرون إلى موكب الجيش الإسلامى الذى كان يقوده محمد بن القاسم الثقفى . . . لقد كان أول حدث فى تاريخ البشرية حيث أن شابا فى السابعة عشرة من عمره يقود جيشا عظيما للهجوم على بلاد نائية بعيدة . . . لقد انضم الأطفال والشباب والشيوخ من كل قرية ومدينة بين دمشق والبصرة فى هذا الجيش الإسلامى المجاهد وكان خبر وصول محمد بن القاسم الثقفى قد بلغ الناس فى البصرة والكوفة فأخذت النسوة المسلمات يحرضن رجالهن على أن يشاركوا فى هذا الجهاد تحت قيادة محمد الثقفى ، بما فيهن الزوجات والفتيات والأمهات والأخوات ، لأن صرخة الاستنجاد والاستغاثة من بنت بائسة تنتمى لشعب أبى غيور كانت قد وصلت إلى كل بيت وأسرة وصارت كل واحدة منهن ترى أن مشكلة ناهيد إنما هى مشكلة كل فتاة مسلمة منهن ! فقد كانت الفتيات يأتين من كل حى وزقاق إلى منزل زبيدة فيعدن إلى منازلهن وقد تزودن بروح جديدة ، ومع أن أم محمد الثقفى كانت مريضة إلا أنها تجولت مع جماعة من السيدات العجائز فى كل ركن من المدينة يحرضن الرجال على الجهاد فى سبيل الله .

أما زبيدة فكانت قد باعت حليها لتجهز بها عددا من الغزاة المجاهدين فتبعتها فتيات المدينة من كل أسرة فملأن بيت المال فى البصرة ذهبا وفضة خلال بضعة أيام ، وكذلك المدن الإسلامية الأخرى فى العراق فان نساءها لم يتخلفن فى هذا الميدان عن زميلاتهن فى البصرة فجمعن مئات الألوف من الدنانير .

أقام محمد مع جيشه فى البصرة ثلاثة أيام ، وكان الحجاج قبل وصول محمد إلى البصرة ، قد استلم رسالة من حاكم مكران محمد بن هارون يقول فيها بأن جماعة من المجاهدين كانت قد توجهت إلى (ديبل) تحت إمرة القائد عبيد الله فلم ينج منها إلا شابان وقد كانوا عشرون رجلا أما الباقون فقد قتلهم حاكم (ديبل) فزاد الطين بلة بهذا الخبر المؤلم فثار الناس للانتقام من هؤلاء الجبابرة الوحوش.

كان عدد جيش محمد عند تحركه من دمشق خمسة الآف فقط ولكنه تجاوز الاثنى عشر ألفا حين تحرك من البصرة بينهم ستة آلاف من الفرسان وثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الجمال كانت تحمل التموين والمواد الغذائية .

﴿٢﴾

وصل محمد إلى مكران مارا بشيراز فواجه بعض الصعوبات وهو يعبر حدود مكران فى المناطق الجبلية لأن (بيم سنك) كان قد وصل لمساعدة الحاكم السندى بمدينة (لسبيلا) فاستقر بحصن منيع فى الجبل وعين الرماة فى المكامن على جميع الطرق ، وعلى الرغم من رأى أبيه كان قد أكد للملك بأن عشرين ألفا من جنوده لن يسمحوا

لاثنى عشر ألفا أن يتقدموا إلى (لسبيلا) .

وعندما دخل المسلمون تلك المناطق الجبلية أخذ رماة (بيم سنك) يهاجمونهم من هناك ، كانت طائفة من ثلاثين أو أربعين جنديا تظهربغتة على رأس جبل فتمطر على جيش محمد بن القاسم بسهام و حجارة ثم تختفى فجأة ، أما فرسان ابن القاسم فكانوا يدافعون عن أنفسهم حيث يسرعون إلى ناحية آمنة أما ركاب الجمال فقد كانت هذه الحملات المفاجئة شديدة عليهم لأن تنظيم الجمال النافرة الهاربة كان أمرا أصعب من تعاقب المهاجمين .

وبهذا السبب زاد محمد بن القاسم عدد المشاة من الطلائع إلا أن الطائفة المهاجمة كانت إذا تنحت هاربة هجمت طائفة أخرى من الخلف ! ثم تصعد طائفة ثالثة منهم على رأس جبل لتلفت أنظار الجيش الإسلامى إليها وتهاجم طائفة رابعة من ناحية أخرى وهكذا . . . وكلما تقدم الجيش الإسلامى زادت هذه الحملات عددا وشدة . . . وخوفا من الإغارة ليلا فقد كان الحراس يحرسون الجيش حتى أن ربع الجيش كان ينشغل بالحراسة الليلية .

وفى مساء يوم أخبر عين لمحمد بن القاسم بأن حصنا منيعا على مسافة عشرين ميلا هو ملاذ هذه القوة المهاجمة ومستقرها فجمع محمد خبراء الجيش للتشاور معهم فاقترح بعضهم بترك ذلك الطريق واختيار الطريق الساحلى ، وقالوا إننا كلما ابتعدنا من هذا الحصن سلمنا من هؤلاء المهاجمين ، إلا أن محمدا لم يوافقهم على رأيهم ، وقال : مادامت هذه المنطقة لا تخلو من العدو فان تقدمنا معرض

للخطر ، إننا لا نريد الوصول إلى (ديبل) وحدها وإنما هدفنا فتح السند ، وأن هذا الحصن هو مركز هام لدفاعهم وأننى على ثقة بأن العدو بعد سقوط هذا الحصن سوف يتخلى عن هذه المنطقة كلها ، كما أن الجنود المنهزمين فى هذه المعركة سوف يخوفون أهل (ديبل) عند وصولهم هناك ، ولكننا إذا تنحينا عنهم فان ذلك سوف يشجعهم ضدنا ، كما أن مؤخرتنا غير آمنة ، إن هدفنا الأول هو فتح هذا الحصن المنيع ، ثم إذا كان عدد جيش العدو كثيرا فى هذه المنطقة فانهم سيخططون لمعركة حاسمة نهائية فى هذا الجبل وذلك فى مصلحتنا ، وأعتقد أن أكبر عدد من حراس هذا الحصن موزعون على هذه المنطقة الجبلية إنى أريد أن أحمل على هذا الحصن قبل طلوع الشمس اليوم وسآخذ معى خمس مئة فارس فقط ، وعليكم أن تتقدموا طول الليل ، لأنهم سوف يهملون الجهات الأربعة ويركزون على الوقوف فى سبيلكم وإن الطريق الأمامية قد تكون خطيرة لكم فى ضوء القمر ليلا فاذا سمعتم بنبأ سقوط الحصن إلى الصباح فعليكم أن تتوقفوا فى انتظار أوامرى وإذا حاول العدو تنظيم صفوفه بعد سقوط الحصن فسأترك بعض الرجال هناك يحرسون الحصن وسوف أشترك معكم فى مواجهة العدو وإذا أرادوا استعادة الحصن فعليكم أن تسرعوا لمساعدتنا .

فقال له قائد عجوز : إننى متأكد بأن الله سبحانه وتعالى قد اختارك لفتح بلاد السند ، وأن أية خطة عسكرية من خططكم لن تكون خاطئة إلا أن وجود القائد فى قلب الجيش ضرورى جدا ، إذ هو آخر ملاذ لجيشه فما العمل لو حدث بك حادث فى

هذه المهة ؟

فقال محمد بن القاسم : إن هزيمة الفرس فى حرب القادسية مع قوتهم الهائلة إنما ترجع إلى آمالهم التى علقوها على شخصية (رستم) وأهملوا قوة بقية الجيش ، فعندما قتل رستم انهزم هذا الجيش الهائل أمام فئة قليلة من المسلمين ! وبالعكس من ذلك فقد كان القائد الإسلامي سعد بن أبى وقاص مريضا ولم يكن يستطيع أن يركب فرسه فبقي خارج المعركة إلا أن ثقة المسلمين بأنفسهم كانت قوية جدا حتى أنهم لم يحفلوا بوجود قائدهم أو عدم وجوده . ولن تجدوا مثالا فى تاريخنا أن المجاهدين انهزموا او استسلموا بعد شهادة القائد أو موته ، وإننا لا نقاتل من أجل الملوك والقواد، وإنما نقاتل فى سبيل الله ! إن المقاتلين من أجل الملوك والقواد ييئسون بعد موتهم أما معبودنا الله سبحانه وتعالى فهو حى قيوم اننى أدعو الله أن لا يجعلنى (رستم) وإنما يوفقنى لأن أكون مثنى بن زيد رضى الله عنه . ذلك المجاهد الذى استشهد فاصبح المسلمون يستوحون من شهادته معانى البطولة والفداء والشجاعة إنه لا قيمة فى نظرى لروح ذلك القائد الذى تحميه سيوف جنوده ويحرسونه أبطاله للنجاة بدل اقتحام المعركة ، ولولا أهمية فتح هذا الحصن لفوضت هذه المهمة لأحد غيرى ولكن خطورة هذه المهمة وأهميتها تلحان على أن أقود المعركة شخصيا .

فقال الزبير : إنى أريد أن أذهب معك .

فقال له محمد : لا ، لا حاجة بى إلى عقلين لفتح حصن واحد !

لابـد أن تسكون فى الجيش عنـد غيابى إننى أستخلف مكانى محمـد بن هارون وأنت نائبه .

(٣)

بعد صلاة العشاء اختار محمـد بن القاسم خمسمئة جندى ، وأما الخيـل التى كانت عـنـد هؤلاء الجنود فتركوهـا عـنـد بقيـة الجيش وخرجوا فى تلك المهمة الخطيرة ، وأمر محمد بن القاسم نائبه محمد بن هارون أن يتقـدم مع بقيـة الجيش أمـا هو وجنوده الخمسمئة فاختفوا وراء هضبة ينتظرون الفرصة المواتية .

وعندما انتصف الليل وغاب القمـر تقـدم محمـد مع جنوده إلى ذلك الحصن وكان حـراس العـدو على النقاط العسكريـة فى الطـريق الجبلية قد تحولوا إلى الناحية الشرقيـة ظنـا منهم بـأن الجيش المتقدم تحت قيادة محمـد بن هارون هو كل الجيش الإسلامى ! فأخبر الفرسان السنـديون قـائدهم (بيم سنك) بـأن الجيش الإسلامى قـد يتقـدم نحو الشرق تقـدما مفاجئـا فخـرج مع جيشه ليمنع الجيش الإسلامى تاركا ثلاثمئة من جنوده فى الحصن ! وكان محمـد بن القاسم قـد وصل إلى مكان على مسافة ميل واحد من الحصن فى الهـزيع الأخير من الليل ، فسمـع محمـد صوت أقـدام الفـرسان الهنود من بين الصخور فقـال لجنوده : انهم خارجون تاركين الحصن خاليـا فعلينـا أن نسرع إليـه ولـكن لا يبعـد أنهم تركوا بعض الحراس على الحصن فيجب علينـا أن نتقدم بدون جلبـة وضوضاء وإلا فـانهم إذا انتبهوا فسوف يطيلون الدفاع حتى ولوكانوا أربعين أو خمسين جنديا .

وبعد إصدار هذه التعليمات إلى جنوده الفدائيين قسمهم إلى كتائب صغيرة ثم تقدم نحو القلعة ، وعندما اقتربوا منها اختفوا وراء أطلال صغيرة ينتظرون الفرصة ، أما الحراس الذين كانوا على أسوار القلعة فان أصواتهم كانت تدل على أنهم متعبون ناعسون وأنهم لا يتكلمون وإنما يهمهمون ويتذمرون فتقدم محمد مع عشرة من الفدائيين إلى ناحية هادئة من سور الحصن فصعد السور بالوهق ثم ألقى سلم الأحبال فوجد حارسين فى ذلك المكان نائمين أعمق النوم وفى لحظة كان ستة جنود من أصحاب محمد قد صعدوا السور ولكن سابعهم لم يبلغ السور حتى انتبه جندى فرفع المشعل قائلا : من أنت ؟ !

وقال جندى آخر : لقد وصل العدو ، استعدوا !

فكبر محمد بن القاسم فهجم هجوما سريعا مثل الصاعقة على الحراس حتى أخلى منهم جانبا كبيرا من السور وعندما سمع جنوده المنتظرون تقدموا مسرعين فصعدوا بسلالم الحبال على السور وقبل أن يستعد الجنود داخل القلعة كان قد وصل خمسون من الفدائيين المسلمين فوق سور القلعة أما حراس سور الحصن فقد أسرعوا إلى الداخل ليوقظوا النائمين من زملائهم بدل أن يبقوا فى حراسة السور ولكن النائمين الذين استيقظوا فضلوا الفرار من طريق النفق على المواجهة ، وكان النفق ضيقا وأراد الجميع أن يقتحموه فى آن واحد ! كما أن البعض منهم فتح باب الحصن فى ساعة اليأس فخرجوا من القلعة مشاة وركبانا ، أما المسلمون فانهم لما رأوا أبواب الحصن

مفتوحة تركوا طريق السلالم وتوجهوا نحو الباب ولم يتركوا مجال الفرار لكثير من الحراس . . . وفى لحظة اليأس من الفرار جرد الجنود سيوفهم إلا أن القتال لم يدم طويلا واستلم العدو للمهاجمين المسلمين .

أما الذين كانوا يريدون الفرار من طريق النفق فكانوا قد ازدحموا وصار يقاتل بعضهم بعضا فسمع محمد بن القاسم لغطهم فأخذ مشعلا ملقى على الأرض وتوجه به إلى باب النفق ونادى باللغة الفارسية : من أراد منكم الفرار فان باب الحصن مفتوح ويستطيع التخلص بعد أن يسلم سلاحه إلينا ، ثم تنحى محمد عن الطريق وكان بعض الجنود يفهم الفارسية فترجم كلام محمد لزملائه فخرج الجنود من النفق ينظرون إليه فى شك وارتياب كما أن البعض منهم أصر على أن يفضل الفرار من طريق النفق إلا أن محمد أمر الفدائيين فوقفوا على باب النفق مجردين سيوفهم .

وقال لهم محمد بن القاسم : مادمنا تركنا لكم الباب مفتوحا فلماذا تختارون الطريق الضيق من النفق ولو أردنا أن نقتل الجميع فليس من الصعب علينا ولكن لا نريد بكم هذا اذهبوا فانتم الطلقاء وعندما سمعوا كلامه ألقوا أسلحتهم وخرجوا من النفق وأمر محمد جنوده ألا يسدوا طريق الهاربين ، فخرجوا من القلعة مترددين خائفين مترقبين .

إن هذا النوع من المعاملة مع العدو المغلوب كان بابا جديدا فى تاريخ السند ، وبينما جندى طاعن فى السن يخطو خطوات بطيئة نحو الباب إذا به يقف ويفكر قليلا ثم يعود أدراجه .

فقال له محمد بن القاسم : إذا كنت فقدت أو نسيت شيئا داخل القلعة فانك تستطيع أن تبحث عنه ! فتأمل الجندى فى وجه محمد ثم قال : أ أنت قائد الجيش العربى ؟ !

فأجابه محمد : نعم صحيح !

ـــ إن العدو لا يستحق حسن المعاملة فى أية حال فلماذا أحسنت إلينا هذا الإحسان ؟

ـــ إن غرضنا ليس إبادة العدو وإنما نريد أن نهديه الطريق . . . طريق الحق والسلام .

ـــ إذن فتأكد ! لن يغلبكم أحد أبدا ، إن هؤلاء الناس الذين تعتبرهم يستحقون هذه المعاملة الحسنة سوف تراهم وهم يقاتلون تحت رايتك ضد ملوكهم الجبابرة الطغاة ، الذين لا يرحمون العدو المنهزم ! ثم خرج من الباب .

تجول محمد داخل القلعة فوجد بعض الأدوار السفلى من الحصن مليئة بالمواد الغذائية كما أنه وجد ستين فرسا فى الاسطبل.

وكان محمد بن القاسم متأكدا بأن الجيش الذى خرج متعقبا لجيش محمد بن هارون سوف يعود أدراجه إلى الحصن عندما يسمع بسقوطه فأرسل أربعة من الفرسان إلى ابن هارون يأمره بأن ينزل بالجيش الإسلامى فى مكان آمن وينتظر أوامره ثم عين الرماة على سور القلعة ورفع الأعلام الإسلامية فى مكان من القلعة .

(٤)

كان محمد بن القاسم واقفا على سور المدينة ينظر إلى الشمس عند طلوعها فرأى كتيبة من الفرسان عددها بين ثلاثين إلى أربعين فارسا يتقدمون قاصدين القلعة فظنهم محمد وأصحابه من جنود السند فأعدوا السهام والأسلحة لمواجهتهم فوقف الفرسان على مسافة مئة قدم من أسوار القلعة ثم تقدم أحدهم مسرعا حتى وصل عند الفصيل . وكان الرماة ينتظرون أمر محمد بن القاسم ، الذى منعهم عن الرمى فتوقف الفارس تحت السور وقال ، بلغة عربية إننا أصحاب الزبير ، اسمحوا لنا بالدخول . .

فتقدم محمد نحوه وسأله : أ أنت خالد ؟

فقال الفارس : نعم !

ــ هات بزملاءك وادخلوا .

فالتفت خالد إلى أصحابه يشير إليهم بالتقدم وأمر محمد جنوده أن يفتحوا الباب ثم خرج محمد يستقبل خالدا وأصحابه فقال له : أين أختك يا خالد ؟

فقال له خالد : إنها معى ولكن أما جاء الزبير ؟

ــ إنه مع بقية الجيش ولكن كيف عرفتم بأننا فى هذه القلعة ؟

ــ كنا قد عرفنا بأنكم قد جاوزتم حدود مكران فجئنا هنا فى زى الجنود السنديين ولعله يدهشك بأن قائد الجيش السندى كان قد عيننا لنحرس نقطة عسكرية على رأس جبل على مسافة

أربعة أميال من هاهنا ! وكنا ننتظركم فى قلق شديد وقد وصل عندنا الجنود الهاربون من القلعلة فأخبرونا بفتح القلعلة أننا نهنئك بهذا الفتح . . ولكن أين القائد ؟

فنظر محمد بن القاسم إلى أحد من جنوده مبتسما فقال الجندى لخالد :

ـ أنت الآن تتحدث إلى القائد !

وبعد لحظة كان زملاء خالد قد وصلوا وأخذوا ينزلون من الخيل فنظر إليهم محمد نظرة عابرة ثم قال لخالد : وأين أختك ؟

فأشار خالد مبتسما إلى فارس ملثم .

فقال لها محمد : الحمد لله أنك الآن بصحة جيدة ، وأما الزبير فهو موجود مع بقية الجيش !

وعندما سمعت ناهيد اسم الزبير شعرت بحرارة مفاجئة تسرى فى أوصالها وإحمرت أذناها وخداها : ثم التفتت لتنظر إلى (مايا) التى كانت تلبس هى الأخرى ملابس الرجال ، فاختطفت نظرة ومازحت ناهيد بقولها مبروك لك يا ناهيد !

﴿ ٥ ﴾

مرة أخرى نظر محمد بن القاسم إلى خالد وزملائه ثم قال وهو يمد يده إلى رجل أبيض اللحية قوى البنية للمصافحة وقال له : لعلك أنت جنجو يا سيدى ؟ أننى أشكرك وأشكر أصحابك !

فنظر (جنجو) إلى خالد وهو يصافح محمد بن القاسم ، فقال

له خالد : إن (جنجو) وأصحابه قد أسلموا جميعا وقد اختار لنفسة اسما إسلاميا جديدا وهو "سعد"

فقال محمد : الحمد لله ! ثم أخذ يصافحهم واحدا بعد الآخر حتى وصل إلى ناصر الدين (جى رام) فقال له وهو يصافحه : لعلك (ناصر الدين) إنك قد كلفت نفسك كثيرا من أجلنا ، جزاك الله خيرا ، ولعل هذه أختك ؟

فقال خالد لمحمد : إنها هى الأخرى قد أسلمت واسمها الزهراء .

فجاءت الزهراء إلى أخيها ناصر الدين فسألته بصوت خافت :

ــ ومن هذا ؟

فقال لها : اسكتى ! ثم وجه سؤالها إلى خالد الذى أعلن بصوت عالى : "هذا هو قائدنا" .

فأخذ سعد (جنجو) وأصحابه ينظرون إلى محمد بن القاسم بعين الدهشة والإعجاب ، ثم ارتفع صوت أقدام الخيل ونادى حارس من أعلى السور : "جنود العدو قادمون" !

فدخل الجميع داخل القلعة مسرعين ، فنظر محمد من أعلى السور فرأى الألوف من الجنود الهنود يتوجهون نحو القلعة ، فأمر محمد عشرة من جنوده الفرسان بابلاغ رسالته إلى نائبه بأن يصل إلى القلعة قبل غروب الشمس .

وعند ما ركب الفرسان خيولهم أمرهم محمد بن القاسم أن

ينحدروا إلى الناحية الغربية ليكونوا فى أمن من هجوم العدو المتوجه نحو القلعة فخرج الفرسان مسرعين إلى هدفهم ، وكان العدو المهاجم قد اقترب فأمر محمد باغلاق الباب ثم صعد إلى السور فتجول فى أنحائه وأكد على الرماة بأن يستعدوا . أما خالد وأصحابه فكانوا فى ناحية من السور ينظرون نحو العدو فى قلق واضطراب فنظر محمد إليهم فوجد بينهم ناهيد والزهراء فقال لخالد : إرسلهما إلى أسفل فلا داعى لخروجهما !

فقالت ناهيد : لا تفكر فى أمرنا أيها القائد ، فاننا نجيد الرماية :

— "كما تحبان ، ولكن خفضى رأسك" ، ثم تقدم محمد إلى الناحية الأخرى من سور القلعة .

أما (بيم سنك) وجنوده فتركوا خيامهم وراء الأطلال ثم بدأوا يحاصرون القلعة من كل ناحية وأقاموا متاريس من الصخور والأحجار وأخذوا بعد ذلك يمطرون القلعة بسهام إلا أنها لم تؤثر على المدافعين خلف السور ، أما محمد بن القاسم فأمر جنوده أن لا يرموا سهما إلا عند هجوم العدو الشديد .

فلم يكن أحد يرد على سهامهم المنهمرة مما جعل (بيم سنك) يعتقد أنه لا يوجد أحد فى القلعة فهتف قائلا : عاش الملك (داهر) ثم اقتحم الجيش الذى كان يرمى من وراء الصخور والأحجار .

وعندما وصل هذا الجيش قريبا من القلعة وأصبح عرضة لسهام الرماة من فوق السور كبر محمد بن القاسم وفجأة أخذت السهام تنهمر على العدو المهاجم وأخذ جنود (بيم سنك) الجرحى يتساقطون

على الأرض إلا أن عشرين ألفا من الجنود لم يحفلوا بخسارة بضع مئات من زملائهم فتقدموا مقتحمين حتى وصلوا تحت الأسوار وبدأوا يصعدون بالوهق وسلاليم الحبال إلا أنهم عجزوا أمام السيل المنهمر من السهام وبعد بضع ساعات كان ألألفان من جنود (بيم سنك) قد هلكوا تحت سور القلعة فاضطر إلى أن يأمرهم بالتراجع .

وحاول (بيم سنك) أن يهاجم القلعة ثلاث مرات حتى الربع الثالث من النهار إلا أنه فشل فى كل محاولة وتراجع هو وجنوده .

وكان (بيم سنك) يستعد لحملة رابعة حاسمة عند الربع الثالث من النهار عندما أبلغوه عن وصول بقية الجيش الإسلامى من الخلف فأمر فرسانه أن يتفقدوا خيلهم كما عين الرماة على الهضاب القريبة فلاحظ محمد بن القاسم من حركة العدو أنه قد علم بوصول محمد بن هارون وجيشه . فتبين الخطر القادم للجيش الإسلامى من هولاء الرماة المختفين فى مواقع مختلفة من الهضاب المحيطة فرسم خريطة على قرطاس وكتب بعض التعليمات العاجلة لمحمد بن هارون فنظر إلى جنوده قائلا : لابد من وصول هذه الرسالة إلى محمد ين هارون قبل وصوله إلينا ، ولا شك أن هذه المهمة لخطيرة وهامة فى نفس الوقت . وكان العدو خلال ذلك يتحول إلى جانب آخر ، حتى بدت الخنادق الشمالية التى صنعها .

فقال محمد بن القاسم : يستطيع أحدنا أن ينزل من السور الآن ، إلا أنه سوف يواجه مخاطر كثيرة قبل أن يصل إلى محمد بن هارون فمن الذى يتطوع لهذه المهمة . . ؟

ولم يكمل محمد عبارته حتى قفز خالد قائلا : أنا إذا سمحت ! ولكن الكثيرين من الجنود عارضوا خالدا ، فقال سعد : لقد سمعت أن المسلمين لا يردون رجاء لأخيهم المسلم حديث الإسلام ، أرجوك أن تأذن لى ، ثم أنهم لا يشكون فى أمرى بسبب هذه الملابس السندية ، وأنا خبير بكل شبر من هذه المنطقة .

رأى محمد بن القاسم الجيش الإسلامى وهو يهبط من طلل على بعد ثلاثة أو أربعة أميال فأعطى الرسالة لسعد وقال له : اذهب والله يحفظك .

فهرول سعد إلى الناحية الشمالية من السور وتسلق سلم الحبل مسرعا .

(٦)

كان محمد بن هارون يرى من بعيد الفرسان للقائد (بيم سنك) وهم يستعدون للهجوم فأمر الجيش بالتأهب ، وكان على وشك أن يأمرهم بالهجوم بعد تسوية الصفوف إذجاءه قائد الميمنة يعدو بفرسه عدوا وأعطاه تلك الرسالة قائلا : يبدو أنها بخط القائد ولكن الذى جاء بها سندى وقد قبضنا عليه أنه يعرف اللغة العربية ويدعى أن الزبير يعرفه ويقول حينا ان اسمه سعد وحينا يقول بأن اسمه جنجو . فانتبه الزبير وقال : نعم أعرفه .

قرأ محمد بن هارون الرسالة ثم قال : لم يكن من المناسب أن تحقق معه فى شئ ، وإذا كنت قد أسأت المعاملة معه فاذهب

واعتذر إليه وقل لفرسانك أن يلحقـوا بى ، يـا زبير . هـذه الجبال المحيطة بنا قـد احتلهـا رمـاة العـدو فأمر ركاب الجمال أن ينزلوا ويقتحموا الجبال مهاجمين وأمر فرسان المـيسرة أن يلتحقوا بمقـدمة الجيش . ومادام رماة العدو موجودين على هـذه الجبال فلا يمكن أن نتقدم خطوة .

وقد كانت مكيدة (بيم سنك) ناجحـة للغايـة فلو أن محمـد بن هارون هجم على العـدو ولأمطر رمـاة العـدو المختفون على جـانبى الجبل بسهامهم الجيش الإسلامى ولأصبح الخطر محققا ولكن لما رأى (بيم سنك) أن مشاة الجيش الإسلامـى من الميمنة والميسرة يتسلقون الجبال أمر جنوده بالهجوم الفورى .

وكان محمـد بن القـاسم فى القلعـة يتوقع هـذا المـوقف فأمر خمسين من الجنود بـالبقاء على السور للحـراسة وأمر بقيـة الفدائيين بالاستعداد للهجوم على العدو من الوراء فاجتمعـوا عند يـاب القلعـة الداخلى ، فأخذ محمد بن القاسم ينظر من ثقب الباب ويراقب حركة الجيش . .

أما خالد وناصر الدين وزملاؤهما فاستعاروا الخوذات والدروع والملابس الحربية من الفدائيين العـرب الذين كانوا يحـرسون سور المدينة وركبوا الخيل ، وفجأة خرجت ناهيد وزهراء من غرفتهما وقد تسلحتا تسلحا كاملا ووقفتا عند الباب .

فقال لهما خالد : لا حاجـة لكما فى الخارج ، اذهبا إلى داخل الغرفة .

وأيد ناصر الدين فكرة خالد والتفت إليهما محمد بن القاسم فقال : انني أستحسن حماستكما للجهاد . إلا أن خير مساعدة نتوقعها منكما هي مساعدة هؤلاء الحراس فان حضانة الأمهات المتحمسات أغلى وأنفع من دمائهن ، ويمكن لهن أن يجعلن من بيوتهن حصونا منيعة للأمة في ساعة الخطر الحرجة فما دمتما في هذه القلعة فان الجنود الذين يحرسون القلعة سيدافعون عنها إلى آخر قطرة من دمائهم ، أما في ميدان القتال فان الجنود سوف يكونون إلى الدفاع عنكم أحوج منهم من قتالهم ضد العدو . فان الواحدة منكما إذا سقطت جريحة سوف تثبط عزم المئات من الجنود ، وليست هذه المعركة مما نحتاج فيها إلى مساعدتكما . . عليكما الآن بالاستراحة فلعلكما سوف تسهران الليلة في علاج الجرحى من المجاهدين ، اذهب بهما يا خالد إلى الداخل .

ثم أخذ محمد يراقب من ثقب الباب وعندما تشابك الجيشان في القتال ركب محمد فرسه وأمر بفتح الباب وعاد خالد بعد أن أوصل ناهيد والزهراء إلى الغرفة إلا أنه لما يصل إلى الباب حتى هرولت إليه الزهراء وجرت ذيله قائلة : أتضرع إليك أرجوك خذني معك ، إنني لا أريد أن أفارقك حية أو ميتة .

فتبرم خالد وقال لها : لا تكوني حمقاء يا زهراء ! لقد سمعت أمر القائد دعيني أذهب ، لقد أخذ الجيش يخرج من القلعة .

فقالت له الزهراء مستعبرة : لله أرجوك ! لا تظن أنني جبانة أنني أريد أن أموت بجانبك .

— زهراء ! دعيني يا زهراء ! ثم دفع يديها عنه إلا أنها وقفت فى سبيله مرة أخرى ، ثم تقدمت نحوه وقالت له : مادمت لا تحرم نفسك من هذه السعادة فلماذا تمنعنى من أن آخذ حظى من هذه السعادة الخالدة !

— يا زهراء ! هذه هى أوامر قائد الجيش وأن عصيان أمره فى الجهاد هو أكبر الكبائر .

فتركت الزهراء ذيل خالد وأخذت تبكى وتنتحب وتعانق زميلتها ناهيد .

تقدم خالد نحو الباب يعدو ، فوجده مغلقا وقد ذهب الجنود كلهم ، فقال خالد للبواب أن يفتح له الباب فرفض قائلا : لن أفتح الباب يا سيدى حتى يأتينى أمر القائد من الخارج ، فصعق خالد لأنه كان يظن أنهم تركوه وراءهم ظنا منهم بأنه جبان ! فأسرع إلى الباب وأخذ ينظر إلى الخارج من ثقبه فرأى أن مشاة القلعة قد هجموا على جيش (بيم سنك) من الخلف ومحمد بن القاسم قد حمل على قلب العدو بستين من فرسانه وحين رأى خالد الهلال فى قلب الجيش السندى أخذ يثور ثورانا شديدا ويقول للحراس : لابد أنهم كانوا قد انتظرونى ثم ظنوا أننى أخاف الموت فاختفيت فى زاوية من زوايا القلعة ! لله أرجوكم أن تخلوا سبيلى .

فقال له أحد الحراس هون عليك يا سيدى ! ان القائد لا يظن بك أنك جبان وإلا كان قد أمر بضرب عنقك ، وإنما كان يقول إنه لا بد أن تبقى عند الفتاتين ، أما فتح الباب فلا إذن لدنيا بذلك .

— إذن فسوف أقفز من السور ! ثم استبق نحو سلم السور فوجد الزهراء واقفة فى الطريق فأرادت أن تقول له شيئا إلا أنها لم تستطع لأنه كان يثور غيظا وغضبا ! فنظر خالد إليها بنظرات الغضب وقال لها ! أنت الآن مبسوطة فرحة !

فقالت له الزهراء : أعتذر إليك يا خالد ! فلست إلا امرأة !

فقال لها خالد : ليحفظ الله شعبا أبيا حيا من النساء من أمثالك ثم أخذ يصعد السلم مسرعا فنزل من السور بطريق سلم الحبل .

فأسرعت الزهراء إلى الغرفة وأخذت سيفا فقالت لها ناهيد : إلى أين يا زهراء ؟

فقالت لها الزهراء : إن أخاك يا ناهيد يخطئ دائما فى أمرى وإذا لم أستطع أن أعود فقولى له بأننى لست جبانة . ويا ليت مجتمعنا علم المرأة أن تموت لهدف سليم بدل أن تلقى بنفسها فى محرقة زوجها فتحرق حية فى ركام النار !

فقالت لها ناهيد : على مهلك يا زهراء ! يا زهراء ! اسمعى ! أما الزهراء فلم تستمع إليها وإنما دخلت الغرفة بسرعة العاصفة ثم خرجت بالسرعة نفسها ، بينما ناهيد أسرعت وراءها فى الدرج إلا أنها كانت قد ألقت سلم الحبل وأراد الجنود أن يمنعوها ولكنها قالت لهم : إن منعتمونى مما أريد فسأرمى بنفسى من السور .

أما الجنود فأخذ ينظر بعضهم إلى وجوه البعض مندهشين مضطربين وأما الزهراء فكانت قد نزلت من سلم الحبل فنادتها ناهيد وهي واقفة علي سور القلعة زهراء ! لا تكونى مجنونة و عودى إلى !

يا زهراء ! إلا أنها لم تلتفت إليها وكلما الحت عليها ناهيد للوقوف أسرعت فى سيرها فأرادت ناهيد أن تنزل وراءها إلا أن جنديا عجوزا قال لها إن المرأة إذا تحمست وثارت عمى بصرها ! فاذا تعاقبتها فقد تعدو مسرعة حتى تقتحم صفوف العدو !

وعندما يئست ناهيد من الزهراء طلبت السهام والقوس من جندى وجلست فى خندق من الخنادق ، فرأت فرسا قد أسقط فارسه وأخذ يعدو فى ميدان الحرب فتقدمت الزهراء نحو ذلك الفرس فأخذت لجامه وركبته وحين رأتها ناهيد تركب الفرس اطمأنت بعض الشئ وبدأت تدعولها .

﴿ ٧ ﴾

كانت الحملة الأولى التى شنها (بيم سنك) على المسلمين شديدة وحامية الوطيس حتى أنهم تراجعوا إلى واد ضيق إلا أن مشاة الجيش الإسلامى كانوا قد احتلوا المناطق الجبلية المحيطة بهم فأخذوا يمطرون بسهامهم على الجيش السندى حتى تفرق وانفصل إلى فئتين وفى الوقت نفسه كان محمد بن القاسم قد حمل على العدو من الوراء فمزق الجيش فرسانه وقلبوه رأسا على عقب حتى وصل إلى قلب الجيش .

وحين رأى محمد بن هارون راية خضراء فى قلب العدو أمر جنوده بالحملة من ثلاث جهات ، فتقدم الزبير مع خمسمئة فارس لمساعدة محمد بن القاسم فاتصل به بسرعة البرق فأخذ جيش (بيم سنك) يتخبط فتراجعا نحو القلعة وكان الغبار الذى أثاره المقاتلون

في الوادي قد زاده المساء ظلمة حتى أظلهم الليل قبل أوانه فحاول (بيم سنك) أن ينظم صفوف جيشه فى محاولة أخيرة ولكن جنود محمد بن هارون كانوا قد تبعوا الزبير حتى اتصلوا بفرسان محمد بن القاسم فتمزق جنود (بيم سنك) فأخذوا يتقاتلون فى جماعات متفرقة ثم توجهت بعضها نحو القلعة تحت ضغط الجيش الاسلامى وحينئذ انهمرت عليها سهام الحراس المسلمين من سور القلعة ففروا متخبطين وتفرقوا أيدى سبأ .

وهبط خالد من جبل مع جماعة من الرماة فكبر و حمل على جماعة أخرى من جيش العدو فتنحى الجنود المتخبطون فتبعهم خالد فانفصل من أصحابه فأحاط به جنود العدو وفجأة ظهر فارس يعدو عدوا سريعا وهو يكبر تكبيرات ثم حمل على العدو فانتبه خالد على صوت الفارس ! إنه لم يكن غير الزهراء فلمع سيفها على رأسى جنديين واحد بعد الآخر فسقطا على الأرض ! وفجأة جفل فرس الزهراء فوقع السيف على إحدى رجليه الأماميتين فوثب الفرس بضع وثبات ثم ترنح وسقط على الأرض ، وعندما رأى جنود (بيم سنك) جماعات الجيش الإسلامى تتقدم نحوهم ، تخلوا عن ذلك الجانب من الميدان فأسرع خالد إلى الزهراء فرآها ملقاة منكبة عند الفرس وعندما اقترب منها فقد رباطة جأشه وأخذ ينتحب ويتأسف ويدعو فى نفس الوقت ، ثم ارتعد وأسرع نحوها فحملها وفجأة رأى قطرات الدم على ظهرها وسهمين قد نفذا فى جسدها فركز نظراته وقواه حتى أخرج السهمين فارتعدت الزهراء وأفاقت ورفعت فنظر خالد إلى وجهها فى ضوء القمر الشاحب فقال لها : أتشعرين بألم ؟

ظهرت ابتسامة الانتصار على شفتيها وقالت : لا أننى لم أشعر بهذين السهمين فلقد فقدت وعيى عندما سقطت من الفرس أما الآن فأنا طيبة . وما هى أخبار القتال ؟

ــ خلا الميدان ، والله قد نصرنا ، ولكن أين ناهيد ؟

ــ هى فى القلعة ! هل تسمح لى بأن أسألك ؟

ــ وما هو ؟

ــ ألست غاضبا على ؟

ــ أف ، يا زهراء تخجليننى أنسى ، آسف على قساوتى إليك وعلى الكلمات الحادة فى الحديث معك .

فقالت له : لا ! إنما كنت أنا المخطئة فقد كنت أخشى أن لا تعود إلى ، ولكننى تأكدت اليوم بأنه لا يمكن أن يموت الإنسان قبل اللحظة التى قدرلها الله . فقد وصلت إلى هذا الميدان بعد أن مررت بسيل منهمر من السهام . ولكن رأيت كأن يدا خفية تصوننى وتحافظ على .

كان جنود الجيش الإسلامى قد أخذوا يجتمعون عند باب القلعة مكبرين شاكرين الله على هذا الانتصار الباهر فقال لها خالد ! تعالى يا زهراء نعود ، فان ناهيد سوف تكون قلقة ، فقامت الزهراء فمشت بضع خطوات مع خالد إلا أن رأسها أخذ يدور فترنحت ثم سقطت على الأرض .

فطلبت ماء من خالد فأخذ خالد سقاء من جندى فأعطاها

لتشرب بضع جرعات ثم جلست فقال لها خالد : هل أحملك يا زهراء فقد وهنت قواك بسبب هذا الدم الذى نزف من جروحك .

فقالت الزهراء : لقد دار رأسي بسبب العطش يكفينى أن أعتمد عليك فقط .

فأسندها خالد بساعده فأخذت تسير بجانبه رويدا رويدا فسمعت صوت ناصر الدين بعد بضع خطوات ينادى زهراء يا زهراء فقالت لخالد : إن أخى يبحث عنى فأرجوك أن تناديه .

فناداه خالد بصوت مرتفع : يا ناصر الدين ! زهراء هنا معى .

فتقدم ناصر الدين والزبير وناهيد نحوهما مسرعين فهرولت ناهيد إلى الزهراء فاحتضنتها وقالت لها : يا أختى كيف أنت الآن ؟

فقالت الحمد لله ! أنا بخير .

فشعرت ناهيد ببلل على أناملها عندما مسحت على ظهرها فنظرت إلى أطراف أصابعها وقالت فى فزع : أنت جريحة يا زهراء ؟ يا أخى ناصر الدين خذها إلى القلعة .

فتقدم ناصر الدين يحاول أن يحمل الزهراء ولكنها قالت له : أخى ، أنى بخير وأستطيع أن أمشى ، ومن هذا ؟

ـــ أنه الزبير .

ـــ أخى ! عفوا يا أخى فما عرفتك !

فقال لها الزبير : أختى الصغيرة ! إنك تزعجين إخواتك كثيرا ، تفضلي الآن نضمد جراحك ونعالجك .

وبعد بضع خطوات ظهر لهم سعد . فكان ينحنى وينظر فى وجوه القتلى فى ميدان القتال فناداه خالد : يا عم ! من الذى تبحث عنه ؟ نحن هنا فى هذه الناحية فأسرع يعدو إليهم ويقول أين كنت يا بنى ! وأين أنت يا ابنتى ! فقال له خالد وهو يضحك كنا نبحث عنك ياعم !

— جميل جدا . . كنت تبحث عنى ؟ أيها الشرير ! اسأل ناهيد كم كنت قلقا بسببك .

فقالت ناهيد : إنه كان مضطربا ! بسببك يا خالد فقد تجولنا نحن مرة واحدة فى الميدان أما العم سعد فانه تجول ثلاث مرات !

فقال سعد : ليس فى هذا الميدان وحده وانما بحثنا عنك فى كل الجبال المحيطة بنا فهلا ناديتنى ، فقد كنت أهتف باسمك .

فقال خالد : ما سمعت صوتك ، وإلا لأجبتك .

فقال سعد : ومن الذى يستطيع أن يسمع فى هذا الخضم من صرخات الجرحى وصياحهم ، وعندما وصلوا عند باب القلعة همست ناهيد فى أذن سعد ببعض الكلمات فأومأ سعد برأسه مؤيدا ثم التفت إلى ناصر الدين وقال له : أريد أن أتحدث إليك على حدة .

فمشى معه ناصر الدين بضع خطوات ثم قال له : تفضل ياعم بم تأمرنى ؟

فنظر سعد إلى الجنود الذين كانوا حولهم ثم قال : ليس هنا فالناس هنا كثيرون .

فرد ناصر الدين : حسنا . . تفضل إلى أى مكان تريد وبعد أن ابتعدا عن باب القلعة حوالى خمسمئة قدم قال سعد وهو يجلس على حجر : تفضل اجلس أنت أيضاً .

فجلس ناصر الدين أمامه على حجر آخر .

فقال له سعد : أعطنى ضمانا أنك لن تطيح برأسى بعد أن تسمع منى ما أقول لك !

فقال ناصر الدين : إذا قلت شيئا يوجب تحطيم رأسك فتأكد أننى سوف أحطم رأسك .

فكر سعد قليلا ثم قال : لا شئ هناك يوجب كل هذا ولكن حسنا لأقول لك بصراحة أن (مايا) لا ، لا ، الزهراء كما أنها أختك فهى ابنتى كذلك، كما أننى أحب خالدا وأعتبره ابنا لى . . ولكن لا أعرف كيف أسوق الحديث بعد هذا ؟ اننى أخشى أنت سوف تغضب على .

فرد ناصر الدين : لقد فهمت قصدك ! انك تريد أن تقول نزوج الزهراء من خالد !

— نعم ، نعم ، جزيت خيرا : هذا ما أريد أن اقول .

— وهذا ما جئت بى من أجله إلى هنا !

فقال سعد : كنت أخشى أنك إذا غضبت لعلك تأخذ بلحيتى وتبدأ تتقاتل ، فهذا مما يخزينى أمام الناس .

فقال ناصر الدين : شئ غريب . . أتظن بى الظنون إلى هذا

الحد ؟ أننى كنت أبغض جنجو ، أما سعد فأحبه وأكرمه كما يكرم راجبوت أباه . أنت صاحب الأمر وتستطيع أن تزوجهما متى تشاء .

فقال سعد : أما أنا فأريد الآن .

— ولكن الزهراء جريحة .

فقال سعد فى دهشة : زهراء جريحة ؟ ولكن لم يخبرنى بذلك أحد . . . تعال نذهب .

فقال له ناصر الدين وهو يلاطفه : لا لا يهمك ياعم فإن الجروح تافهة !

حبيب العامة و منقذهم !

انشغل جنود محمد بن القاسم المتعبون فى تضميد الجرحى ومعالجتهم وتجهيز الشهداء وتكفينهم حتى منتصف الليل بينما كانت صرخات جنود الأعداء الجرحى وصياحهم ترتفع فى كل ناحية من الميدان ، وبعد أن انتهى القائد اليافع ذوالسبعة عشر ربيعا من صلاة الجنازة على شهداء المسلمين ــ ذلك القائد الذى كان قد هده التعب المتواصل لعدة ليال ، والذى كانت ساعده قد كلت من الضرب بالسيف والطعن بالرماح طوال اليوم ــ هذا القائد حمل على ظهره سقاء وأخذ يروى العطشى من هؤلاء الجنود الجرحى الذين كانوا يئنون تحت وطأة الألم والعطش معا ! إن العينين اللتين رآهما جنود ابن القاسم فى النهار وهما تشتعلان نقمة وتتطايران شررا كانتا تسكبان الدموع وتحنوان على العدو المنهزم الجريح . . . إن اليد الصارمة التى كانت تهز السيف اللامع كلمع البرق ، وتخطف رؤوس الأعداء فتطيح بها ، نفس هذه اليد كانت قد تحولت يدا حانية شفيقة تضمد الجروح وتأسو جرحى الأعداء .

كان جنود محمد بن القاسم مثل قائدهم قد هدهم التعب إلا أنهم كانوا يجدون متعة وسرورا فى أتباع قائدهم الفتى اليافع ، فأخذوا يحملون جنود الأعداء الجرحى ويحطونهم فى صفوف أمام القلعة .

وفجأة سمع محمد بن القاسم أنينا متقطعا عند سفح الجبل فأخذ مصباحا وتوجه إلى تلك الناحية وكان يرافقه سعيد وزبير وسعد وناصر الدين وبعض القواد الآخرين فوجدوا جريحا بين جثث القتلى يلبس درعا وعليه قطرات الدم وقد وخزه سهم فى ضلع من ضلوعه . وسقط سيفه من يده ، لكنه كان قد تثبت براية السند فى يده اليسرى بكل قوة ، فأعطى محمد المصباح لأحد رفاقه وجثا على الأرض فأسند الجريح بيده وسقاه جرعات من الماء بيده الأخرى . وبعد لحظة أفاق الشاب الجريح وفتح عينيه فرأى محمدا وأصحابه فأمسك الراية بكلتا يديه وبكل قوة .

فقال ناصر الدين للزبير : أما عرفته يا زبير ؟ فتقدم الزبير نحو الشاب الجريح وقال فى دهشة : آه ! أنه (بيم سنك) !

فتح (بيم سنك) عينيه وقال لهم وهو يبتسم ابتسامة أليمة حزينة : أهنئكم على هذا الانتصار !

فسأل محمد عن معنى كلامه فترجم الزبير كلام (بيم سنك) إلى العربية فقال محمد بن القاسم : عجبا ! كيف فر جيش السند تاركا قائده الجريح !

فتقدم الزبير نحو (بيم سنك) فاسنده فمد محمد يده إليه فترك (بيم سنك) العلم وأمسك بيد محمد بن القاسم ، ثم أشار محمد إلى ناصر الدين فأخذ بكلتا يدى (بيم سنك) فأخرج محمد السهم ورماه فى ناحية ثم قال لناصر الدين أن يخمل درعه .

لم تكن جروح (بيم سنك) عميقة إلا أن قواه كانت قد

انهارت وشحب لونه بسبب ما نزف من الدم الكثير ، وبعد أن انتهى محمد بن القاسم من تضميده ومعالجته أمر الجنود بأن يذهبوا به إلى داخل الحصن ثم واصل معالجته للجرحى الآخرين .

(٢)

لم تحفل الزهراء بجروحها فنهضت فى الصباح كعادتها وصلت الفجر مع ناهيد ، وبعد الصلاة قالت الزهراء وهى تستلقى على سريرها : ليتنى أصابتنى جراحات كبيرة كثيرة إذن لتمتعت بعيادتك يا ناهيد .

فقالت لها ناهيد باسمة : تقصدين عيادتى أم عيادة خالد ؟ !

فغشيت الزهراء حمرة الحياء والخجل وتورد وجهها وفى أثناء ذلك كان ناصر الدين يطرق الباب ويقول : هل أستطيع الدخول ؟

قالت ناهيد وهى تنهض لتذهب إلى الغرفة الأخرى : قومى الآن وإلا . . .

— وإلا ماذا ؟

فردت ناهيد عليها : وإلا . . . فإن زواجك قد يتأخر حتى فتح (ديبل) !

فتتابعت دقات قلب الزهراء ، فأسرعت إلى ناهيد وأخذت بطرفها وقالت لها : ناهيد ! يا أختى ! قولى الحقيقة . . . ماذا تقصدين ؟

فقالت ناهيد وهى تسحب طرفها من يدها ! أيتها الحمقاء ! إن أخاك واقف عند الباب . . . اتركينى !

لا ! لن أتركك قبل أن تخبريني عن كل شيء بصراحة ! انتظر قليلا يا أخي ، فأنا أتحدث إلى ناهيد في موضوع ، نعم اخبريني !

فقالت ناهيد : حسنا سأحدثك بصراحة ، اسمعي أن العم سعد سأل الليلة عنك أثناء عودته من الميدان فأخبرته بكل ما حدث وكان يعرف أمرك قبل هذا أيضا . . . أفلا تذكرين حين كنا ندخل القلعة كيف جاء إلى أخيك وأخذ بيده وذهب به إلى ناحية ؟

— وماذا تتوقعين أنه قال لأخي ؟

— قال له بأنه ينبغي عقد قرانك إلى خالد !

— صدقيني ، ودعي المزاح يا أختي أظنك تمازحينني !

— أني لا أمزح يا حمقاء ، إن أخاك سوف يؤكد ما أقوله الآن .

وما أن سمعت الزهراء ذلك حتى كانت دموع الفرحة تجري على خديها ، كحبات لؤلؤ منظوم . فقالت لها ناهيد في دهشة : ماذا . . . ؟ تبكين ؟ أما تحبين أخي ؟

— فقالت الزهراء وهي تبتسم : لا !

— إذن سأطلب من أخي أن لا يكرهك على هذا الزواج ! ما رأيك ؟ ثم تقدمت نحو الباب وهي تبتسم ابتسامة مزاح وإثارة ، ولكن الزهراء أسرعت إليها وعانقتها قائلة .

— لا يا أختي الكريمة ، لا يا عزيزتي الغالية ! قالت ذلك وهي تمسح دموعها !

فقالت ناهيد : معني هذا أنك راضية بالزواج من خالد ؟

فنظرت الزهراء إليها وابتسمت فرحة جذلى ، ثم دفعت ناهيد إلى الغرفة الأخرى وهي تقول لها : إذهبي . . . أيتها الشاطرة .

فنادى ناصر الدين من الخارج : "ومتى ينتهي حديثكما يا زهراء" ؟

فردت عليه وهي تجلس على سريرها قائلة : تفضل يا أخي لقد ذهبت ناهيد إلى الغرفة الأخرى .

(٣)

فسأل ناصر الدين وهو يدخل الغرفة : كيف حال جراحك الآن ؟

فقالت : إنها لم تكن إلا جروحا خفيفة وأنا الآن بخير .

فجلس ناصر الدين عندها على السرير وكان قلب الزهراء يخفق وبعد تفكير يسير قال لها ناصر الدين : يا زهراء ! إن خالدا شاب شجاع كريم وأود أن يتم زواجك منه ، فهل ترغبين فى هذا الزواج ؟

فبدل أن تجيب الزهراء سترت وجهها بكفيها .

فكر ناصرالدين قليلا ثم قال : كنت أتمنى أن يتم زواجك فى حفلة فاخرة بعد فتح السند ، ولكن المسلمين لا يحبون مثل هذه التقاليد كما أن المعركة الحاسمة النهائية مع جنود السند لم تحدث بعد والجندى المقاتل لا يعرف مصيره ، لذا فانى أود أن أسلم يدك لخالد ، أما ناهيد فهى تحبك كثيرا ، وأنا متأكد بأنها سوف تكرمك وترعى مكانتك وأما أنا فسوف أستطيع التفرغ لخدمة الاسلام بمزيد

من الاطمئنان وراحة البال وفى هذه الظروف التى لا أملك فيها شيئا أهديه إليك ، لاشئ عندى لك إلا صالح دعواتى ولو كنت أملك ثروة تملاء الأرض والسماء لقدمتها إليك هدية بهذه المناسبة ! !

قالت الزهراء وهى تميل برأسها فى حجره باكية منتحبة : لا يا أخى الغالى أنا لست بحاجة إلى شئ" !

وأخذ ناصر الدين يمسح على رأسها بيده الحانية ويربت على كتفها ثم قال: يا زهراء إنى أريد أن يتم زواجكما الليلة ! فان الجيش سوف يمكث هنا بضعة أيام وقد نتحرك إذا عرفنا أن جيش الملك قد خرج من (ديبل) وأن سعدا قد ذكر عن هذا الزواج عند محمد بن القاسم فأعجبه جدا ، كما أنه سأل خالدا وهو موافق أيضا ، وكذلك فان القائد الأعلى قد تحدث معه حول عقد قرآن أخته ناهيد إلى الزبير وقد وافق على ذلك أيضا فقدمى التهنئة إلى ناهيد ، وسوف يتولى القائد نفسه خطبة النكاحين وعقد القرانين .

ونادى سعد ناصرالدين وكان فى الخارج فنهض من مكانه وخرج من الغرفة ، ونهضت الزهراء وفتحت باب الغرفة المجاورة فأخذت تصيح قائلة : ناهيد ! يا ناهيد ! هل سمعت يا ناهيد ؟ اليوم سيتم عقد قرانك !

— عقد قرانى أنا ؟ !

ثم أخذ وجهها يحمر تارة ويبيض أخرى استحياء وخجلا .

— نعم ! يا ناهيد زواجك أنت ، قولى هل تحبين أخى الزبير أم لا ؟ وإلا فسأطلبه حالا وأقول له أن يبحث عن فتاة أخرى غيرك ؟ !

فقالت ناهيد : حقا إنك لشريرة يا زهراء !

طرق خالد باب الغرفة المجاورة للردهة ونادى ناهيد .

فقالت لها الزهراء وهى تضحك : أسرعى يا ناهيد وإلا فان زواجك قد يتأخر إلى ما بعد فتح السند ، ولست أمازح فان أخاك سوف يؤكد لك ما أقوله الآن .

دخلت ناهيد الغرفة الأخرى وهى تنظر إلى الزهراء بنظرات كلها ود وإخلاص ورضا لقد كانت قد غرقت تماما فى بحر من السعادة ، بل أنها من فرحتها كانت تتهادى فى مشيتها .

(٤)

وفى المساء اجتمع قواد الجيش فى غرفة واسعة من غرف القلعة ليهنئوا خالدا والزبير بزواجهما ، أما ناهيد والزهراء فكانتا جالستين تتحدثان فى غرفتهما فقالت ناهيد : ما الذى حدث لك لحظة عقد القران يا زهراء يبدو كأنك خرساء !

ــ لست أعرف يا ناهيد . . . لقد جرت الأحداث بسرعة لم أكن أتوقعها ، وقد كنت أسمع صوتا يشبه حفيف الأشجار ، ولكنى لم أكن أعرف أين أنا ثم لوكان المأذون غير محمد بن القاسم لما ارتبكت و لم أفقد شعورى هكذا ! ما أبدع وجهه وما أكثر هيبته وجلاله ! وما أرهب صوته وأروعه ! إنى أقول لك الحق إنه ليس بشرا وإنما هو . . . علمونا فى الماضى كيف نهاب الآلهة ونخشاها ، لولاك يا ناهيد لما استطعت أن أحرك لسانى ! إنه عندما قال لى : أقبلت خالدا ؟ فكأنه أذابنى

الحياء والخجل أننى لم أتأكد حتى الآن بأن عقد قرانى إلى أخيك قد تم ، إنه يخيل إلى أننى لا أزال أسبح فى دنيا الأحلام! ألا تعتقدين أن زواجك كان حلما ؟

ابتسمت ناهيد بينما علقت الزهراء بيدها حول عنقها وأخذت ناهيد تلهو بشعرها الأسود الجميل ، وفجأة مر بخيالها فكرة فخلعت عقدها من اللؤلؤ وطوقته إياها ، فقالت لها الزهراء : لا ! لا ! إن العقد وهو عليك يبدو أجمل وأبهى !

فأجابتها ناهيد قائلة : لدى عقد آخر أعطانيه خالد ، ثم خلعت خاتمها ذا الفص الكريم وألبسته فى أصبع الزهراء رغم انكارها وهى تقول : إذا كنت تحبين رضائى فلا تخلعى هذا الخاتم أبدا . . . أخذت الزهراء تنظر إلى ناهيد بنظرات حزينة كئيبة حيرى فقالت لها ناهيد : لماذا أنت حزينة يا زهراء ؟ أننى لا أحب الحلى أما فى بلادكم فان التقاليد بالعكس والنساء يتهالكن على الحلى !

فقالت الزهراء : ولكن تقاليدنا لا تسمح لزوج الأخ أن تأخذ شيئا من أخت زوجها وإنما يجب أن تعطيها ولكن ما العمل وأنا بعيدة عن بلادى . . ! فقطعت ناهيد كلامها وقالت لها : إنما أصبحت زوجة أخى اليوم ولكنك قبل ذلك كنت أختى الصغيرة .

فقالت الزهراء : إن أخى يعتزم أن يقوم بتبليغ رسالة الاسلام فى (كاثياوار) بعد فتح السند كما أننى أريد أن أذهب هناك لبضعة أيام ليتك استطعت أن ترافقينا . إن لنا بيتا يقع فى حصن على شاطىء البحر . وتحيط من جهاته الثلاث حدائق المانجو ، وقد كنت ألهو

على أرجوحة علقت على شجرة من بين تلك الأشجار على ضفة النهر . وقد كان ماء هذا النهر يجرى سريعا فى موسم الأمطار وكنت أسبح فيه مع زميلاتى من الفتيات النواهد ، وكنا نجنى فاكهة المانجو خلال الأمطار فنأكلها وقد كانت تبدو أحلى من العسل ، وفى الناحية الأخرى من الحديقة كانت تقع بحيرة جميلة وكنا نقفز فيها ونلعب (الغميضة) ثم نقطف أزهار اللوتس ونترامى بها مع زميلاتنا . . . لابد أن تذهبى معى هناك يا ناهيد !

فقالت ناهيد : الله ينصرنا ، وقد يتوجه جيوشنا إلى بلادكم بعد فتح السند .

وقالت الزهراء : متى يأتى الله لنا بذلك اليوم السعيد ! إنى أتمنى أن أثبت راية الإسلام على تلك القلعة ، إننى مندهشة يا ناهيد ولست أعرف كيف حدث هذا التغير فى نفسى ! فقد كنت أبغض المنبوذين أشد البغض ، وقد ذهبت يوما إلى البحيرة مع صديقاتى فرأينا صبيا من أبناء المنبوذين يغتسل فى تلك البحيرة فضربناه بأحجار حتى أغمى عليه وعندما مر رجل من طبقة المنبوذين من عند حديقتنا ووجد المانجو ساقطة على الأرض تحت الأشجار أخذ البعض منها فشده خدامنا إلى شجرة يوما وليلة ، فمررت من عنده أكثر من مرة فرأيته يشكو الجوع والعطش ولكننى لم أشفق عليه ، أما فى هذه المرة فاذا عدت إلى بلادى فسأدعو المنبوذين من القرى المجاورة وسأقول لهم تعالوا ! ادخلوا حديقتنا وكلوا من المانجو كما شئتم وأشربوا من الماء البارد العذب من بئرنا هناك إن أكبر ما يتمناه هوءلاء المنبوذون هو أن نسمح لهم بدخول معابدنا ولكننى سوف أقول لهم إن

المسلمين قد دخلوا هذه البلاد ليبنوا فيها المساجد بدل المعابد . . . وفيها لا يفرق بين سيد ولا مسود من العابدين المصلين ، وأنه فى إمكان أى منبوذ أن يقف فى صف البراهمة بل فى إمكانه أن يتقدمهم.

فقالت ناهيد : حقق الله آمالك يا أختى !

(٥)

رأى محمد بن القاسم أن القلعة ضيقة ولا تسع الجيش الاسلامى كله فنصب الخيام خارج القلعة ، وأنزل الجنود الجرحى من جيش (بيم سنك) فى هذه الخيام كما أنزل جنوده الجرحى فى الخيام نفسها وأمر الأطباء والجراحين من جيشه أن يعتنوا بجرحى جيش العدو وأن لا يقصروا فى معالجتهم وكان محمد بن القاسم شخصيا يعرف الطب والجراحة معرفة جيدة فكان يتجول بين سرر الجرحى صباح مساء ويتفقد الجميع ويعودهم ويلاطفهم ، وكان يقوم بدور الترجمان بينه وبينهم سعد وكان كلما رأى المرضى والجرحى محزونين قال لهم : انكم سوف تبرأون عما قريب ، ولا تظنوا أنكم أسرى فى أيدينا ، أنتم طلقاء وستذهبون بعد البرء والشفاء حيث تشاؤون !

فينظرون إليه نظرات الشكر والامتنان ويقولون له : نرجوك باسم (بجوان) أن لا تخجلنا ، لا نستحق أن نكلفك أكثر مما ينبغى ، تفضل استرح أنت أيضا فيقول لهم : إن هذا من واجبى !

كان محمد بن القاسم يعتنى بالقائد (بيم سنك) كل العناية فكان يفحص جروحه شخصيا ويعالجها ويضمدها بيديه كما أن الزبير وناصر الدين كانا يحاولان إسعاده والتحبب إليه وتأليف قلبه؛ فظن (بيم سنك)

فى البداية أن هذه المعاملة الحسنة معه ومع جنوده إنما الغرض منه هو إغراء جنوده وإضلالهم إلا أنه أخذ يتبين بعد ثلاثة أو أربعة أيام بأن ما يعمله هؤلاء ليس تصنعا أو رياء وإنما هى الحقيقة والواقع إنها الخلق الإسلامى الذى جعل محمد بن القاسم وجيشه يختلفون عن الآخرين اختلافا بينا .

أن جروحه لم تكن خطيرة ولكنه كان قد ضعف وشحب لونه بسبب الدم الذى نزف نزفا غزيرا من جسمه فى ميدان المعركة ، وبفضل عناية محمد بن القاسم والزبير وخالد واهتمامهم به فان (بيم سنك) برأ بعد اليوم الرابع من المعركة ، وأخذ يمشى قليلا .

وفى اليوم الخامس دخل محمد بن القاسم و سعد كالمعتاد فى خيمة (بيم سنك) ليتفقداه ويعوداه . فوجداه نائما يحلم ويهمهم ويقول : لا ! لا ! لا ترسلنى مرة أخرى لمواجهته فى القتال ! إنه ليس إنسانا وإنما هو إله ! أفرج عن الأسرى ، إنه سوف يغفر ذنبك لا ، لا ! لن أذهب، لماذا تعاقب الرعية على ذنب اقترفه الحاكم ! ؟ إننى لا أخاف الموت ولكنك لن تستطيع الفرار أو النجاة من المصيبة المقبلة ، أنت ظالم ، أنت جبان ، آه ! يا بجوان !

ثم أخذته رعدة فاستيقظ ثم أخذ ينظر إلى محمد بن القاسم وسعد فى دهشة وحيرة ، فقال له محمد بن القاسم : يبدو أنك كنت ترى حلما مرعبا مهيبا !

فاستغرق (بيم سنك) فى خيال عميق ، وكانت قطرات العرق على جبينه تدل على أنه كان يكابد حقا من حالة نفسية مضطربة .

فتقدم محمد بن القاسم نحوه وأخذ يجس نبضه ويقول له :

ـــ إنك الآن بخير ! هل تحس بأى ألم فى جروحك ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة حزينة : لا .

فقال له محمد بن القاسم : إن جيشنا سوف يتحرك غدا من هنا ، وإنى آسف على أننا لا نستطيع أن نطيل الإقامة هنا . وقد كنت أحب أن أقوم بعلاجك وعيادتك لعدة أيام أخرى . . على كل حال فانى تارك فى القلعة خمسمئة جندى . وانهم سوف يرعونكم ويعتنون بأمركم ، أما الجرحى من جنودك الذين برأوا فنسمح لهم بالسفر غدا إلى دورهم ، أما أنت فستبقى هنا حتى نتمكن من ركوب الخيل .

فقال (بيم سنك) هل تعنى بانك سوف تفرج عن جميع الأسرى؟

فقال له محمد بن القاسم : ليس غرضنا القبض على الناس وجعلهم أسرى فى سجوننا . . إننا نريد إنقاذهم من الحكم الفاسد الظالم ونقدم لهم حكما جديدا أساسه العدل والمساواة ، إن جنودك قد واجهونا على أننا المعتدين على بلادكم ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون بأننا لا نحارب من أجل البلاد والأوطان أو الشعوب والأقوام إننا لا نريد انتصارا عربيا على بلاد السند وإنما نريد تغييرا عالميا لخير البشرية كلها . . نريد ثورة مباركة تنتزع سلاح الظلم من أيدى الظالمين وترفع مكانة المظلومين المكبوتين . . . إن حروبنا ليست حروب الأمراء والملوك ، وإنما هو الجهاد فى سبيل الله من أجل القضاء على الظلم والظالمين وإقامة المجتمع الإنسانى العادل . . إننا لا نريد أن ننتزع تاج ملك السند لنضعه على رأس أحد من رعيته . .

إنما نريد أن نؤكد بأن أى شخص لا يستطيع أن يحكم البشر كملك متوج يطبق قانونه الشخصى وهو على البلاد ، إن العروش والتيجان إنما هى أصنام اتخذها أصحاب الأنانية والأغراض الفاسدة ، وأن كل دستور أو قانون وضع من أجل تمجيد هذه الآلهة والأصنام إنما هو دستور يقسم البشرية إلى طبقتين : طبقة الظالمين وطبقة المظلومين فانتم تستخدمون كلمة الراعى والرعية لهاتين الطبقتين ، إن ملك السند قد أغار على سفننا وقبض على نسائنا وأطفالنا لماذا ؟ لأنه يعتبر بأن من حقه أن يفعل بالرعية ما يشاء ولكونه يملك العرش والتاج فانه يظن أنه قد ملك بذالك كل شئ حتى رقاب العباد ! وإنه لا يقاتل ضدنا إلا لأنه يخشى أن ننتزع من يده سيف الظلم والإكراه ، إن هؤلاء الجنود قد خرجوا لمواجهتنا لأنهم يكافأون من أجل مساعدتهم للعروش والتيجان الظالمة ، إنكم تستخدمون هؤلاء المساكين كما يستخدم الحيوان الأعجم . إنهم مساكين مغلوبون على أمرهم . . أن النظام الاستبدادى جعلهم يبيعون نفوسهم لقاء تعريض ضئيل حقير إنهم لم يكونوا يعرفون بأن الثورة التى خرجوا ليقفوا فى طريقها إنما هى ثورة من أجل مصلحتهم . إن الظالمين قد خوفوهم بنا إننى بعد هذا الفتح المبين ، لا أريد أن أصبح ظالما كما لا أريدهم أن يبقوا مظلومين .

فقال (بيمسنك) : وهل أنت واثق بأنهم لن يدخلوا فى جيش الملك مرة أخرى بعد عودتهم ؟

فقال محمد بن القاسم : لا أستطيع أن أتأكد حول سلوكهم بعد العودة ولكنى لا أخافهم ، فانا واثق برحمة الله ، إن المقاتلين

من أجل الحق والعدل لا يضعفون أبدا وإنما يزيدون قوة بعد قوة . وقد قاتل الكثير من الجيوش ضدنا من أجل ملوكهم وسلاطينهم ، ولكنهم عندما عرفوا أننا جئناهم بنظام أفضل من أنظمتهم ، اشتركوا معنا فى القضاء على النظم الفاسدة البائدة ، إن الذين وفقهم الله للتمييز بين الحق والباطل من بين جنودك هؤلاء ، لن يعودوا إلى ما كانوا عليه ولن يحاولوا إنقاذ سفينة الظلم التى هى على وشك الغرق والانهيار . . أما الذين يعودون إلى ما كانوا عليه فانهم سيعرفون بعد معركة أو معركتين بأن سيوفنا لا تكل أبدا .

وقال (بيم سنك) : إنك عدو العرش والتاج ولا تؤمن بتحكم الإنسان فى الإنسان ، إلا أنه لا يستقيم أمن البلاد وسلامتها بدون حكومة .

فأجابه محمد : أن سلاح الاستبداد إذا لم يسمح للمظلوم أن يصيح أو يستغيث فليس معنى هذا أن أمن البلاد قد تحقق . . وقد قلت لك بأننا لا نريد تحكم الإنسان على الانسان وإنما نريد حكم الله على أرضه بين عباده !

فقال (بيم سنك) : ومهما يكن فان الدستور والقانون لا بد له من منفذ يقوم بتطبيقه ، إنه لولم يكن أمير أو ملك فسوف يكون حاكم على الأقل ، ومادام يوجد العصاة المفسدون فى العالم فلا يمكن تنفيذ هذا القانون إلا بقوة العصا .

فقال محمد بن القاسم : هذا صحيح ! ولكن أول ما يطالب به هذا الحكم هو إعداد جماعة من الصالحين وما دمنا مع جماعة

الصالحين فان الله سبحانه سوف يفوض رعاية دستوره إلينا ، أما إذا نشأت جماعة من الصالحين فى بلادكم فهى التى تأخذ على عاتقها رعاية هذا الدستور ولكن هذه الجماعة سوف تستخدم عصا القوة من أجل تطبيق هذا الدستور وليس من أجل حماية سلطتها الذاتية ! إن الفرق بين أمراء المؤمنين وملوك الناس هو أن الآخرين يستخدمون قوة العصا من أجل أن يدافعوا عن سلطتهم الشخصية ! أما الأولون فلا يستخدمون هذه القوة وهذه العصا إلا من أجل حماية المظلومين من الظالمين ونزع حقوق الضعفاء من الأقوياء .

طار (بيم سنك) بخياله وفكر قليلا ثم سأل : هل تسمح لى أن أعود مع بقية الجنود العائدين .

لعلنى قد قلت لك من قبل ، أنك تستطيع أن تسافر متى ما شئت بعد أن تبرأ .

فقال (بيم سنك) : إننى أستطيع أن أسافر فاذا سمحت لى سأسافر غدا .

— ولكن جروحك لم تندمل بعد ! إلا أنك إذا أردت السفر غدا فلا مانع عندى !

فكر (بيم سنك) قليلا ثم قال : لعلك لا تعرفنى ، أنا ابن القائد الأعلى لقوات السند ، فلو دخلت الجيش مرة أخرى فقد أكون خطرا عليك ، وإذا كنت تريد أن تأخذ منى العهد بعدم دخول الجيش قبل الإفراج عنى ! فانى أرفض هذا الشرط بكل صراحة .

— لم أطلب منك أن تعطينى عهدا بذلك ، ولكنى أريد أن تبلغ

رسالتى إلى الملك (داهر) بأن مدينة الرور ليست بعيدة عنا الآن ، فلو أساء إلى الأسرى العرب فان ذلك لن يكون من مصلحته .

فرد (بيم سنك) قائلا : أنا مستعد لذلك . وأرجو أنه سوف يتأثر عندما يعرف معاملتك الحسنة معى ومع الجرحى الآخرين .

— إننى لا أريد جزاء للاحسان وإنما أريدك أن تكشف عن عينيه غطاء الغرور والكبرياء وأن تقول له بأنه على فوهة البركان !
وأضاف محمد بن القاسم وهو يهم بالخروج من الخيمة "ربما قلت لك ما يجرح مشاعرك . فأرجو المعذرة فقد يخطئ الإنسان" .

وأما (بيم سنك) فكان يكرر فى نفسه قائلا : لست إنسانا ! وإنما أنت إله !

❀ ❀ ❀ ❀

نجمة الصباح

بعد أيام كان جيش محمد بن القاسم قد نزل على مسافة أميال من مدينة (ديبل) . . ونهض محمد فى الثلث الأخير من الليل فصلى التهجد ثم أخذ الزبير معه وتجولا حول المعسكر ، وكان الجنود المتعبون بعد سفر طويل ينامون نوما ثقيلا ، وكان الجراس متيقظين يحرسون المعسكر ، كان محمد يشعر بقليل من التراخى والتكسل بسبب النعاس الذى غشيه فى الهواء البارد الرطب ، فقال للزبير : "ما رأيك لو صعدنا هذا التل يا زبير وسنرى أينا يبلغ قمته أولا !

حسنا . استعد : واحد — اثنان — ثلاثة !

فأخذا يعدوان حتى صعدا قمة التل ! وكان محمد قد تقدم الزبير بضع خطوات ، إلا أن الحارس الواقف على القمة ناداهما قائلا : انتظرا ، من أنتما ؟

فوقف محمد ثم قال : أنا محمد بن القاسم !

فعرف الحارس صوته فقال له : "لا يهمك أيها القائد فاننا لن نهمل واجبنا ."

وفى أثناء ذلك لحق الزبير بمحمد أيضا .

تنفس محمد الهواء البحرى البارد ثم دار ببصره حول المكان فرأى النجوم قد تضاءل ضوؤها فى نور القمر فى ليلته السادسة عشر

وكانت الفراشات تطير فى الفضاء فى كل ناحية كأنها مصابيح تعلن مقدم الصباح ، وكان البحر يبدو فى نور القمر كأنه مرآة زرقاء ! وفجأة طلع نجم الصباح فى الأفق الشرقى فنظر محمد إلى الزبير وقال له :

– "انظر يا زبير ! ما أهم هذا النجم وأعظمه ! ولكن ما أقصر عمره ! أنه يطلع صباحا ليعلن مقدم الشمس ثم يختفى أوقل إنه يكشف النقاب عن وجه الشمس ويضعه على وجهه ! ولكنه مع ذلك كله له مكانة ليست للنجوم الأخرى ، ولو أنه تلألأ طول الليل كما تتلألأ سائر النجوم لما كانت له تلك الأهمية أو هذه المكانة ! إننا نرى آلاف النجوم طوال الليل ولكن هذا النجم أكثر جاذبية وأكبر فتنة للناظرين ، إن طلوع النجوم الأخرى أو غروبها لا يهمنا ولا نعتنى بها ! إن هذه النجوم تشبه تماما هؤلاء الناس الذين يعيشون لبضع سنوات من الحياة التى ليس وراءها هدف أو أنهم يقصرون فى عملهم فلا ينفعون أبناء جنسهم بحياتهم ولا يضرونهم بموتهم ! يا زبير ! إننى أغبط هذا النجم ما أقصر حياته وما أرفع هدفه ونفعه ! انظر إليه كأنه يقول وهو يخاطب العالم البشرى : لاتأسفوا على حياتى القصيرة فقد بعثتنى القدرة الإلهية لأعلن مقدم الشمس وقد أديت الواجب ، فياليتنى استطعت أن أقوم بنفس الدور فى الإعلان عن طلوع الاسلام فى هذه البلاد !"

وكان الزبير ينظر إلى محمد بكل انجذاب واهتمام فرأى على

وجهه براءة الأطفال الوادعين وفتنة جمال القمر ! وهيبة الشمس وجلالها ورونق نجم الصباح وطهارته ونقاءه !

ونادى حارس من مسافة خطوات : "قف ! من أنت ؟"

فقال الرجل الصاعد من أسفل التل : "أنا سعد ."

تقدم محمد بن القاسم بضع خطوات فرأى رجلا فى زى مواطن سندى يصعد التل فقال للحراس : "خلوا سبيله ليأتى إلى ."

صعد العم سعد التل ثم أراد أن يهبط من الجانب الآخر إلا أن الحراس وقفوا فى سبيله فأشاروا نحو محمد بن القاسم ثم قالوا للعم سعد "اذهب إليه أولا ."

فأجاب سعد بدون أن يحفل بما قيل له : "لا ! أنا لا أريد أن أتحدث إلى شخص قبل أن أرى القائد الأعلى ."

فناداه محمد بن القاسم قائلا : "أنا هنا يا سعد ."

فالتفت سعد ونظر إلى محمد ثم تقدم نحوه فسأله محمد قائلا : قل لى يا سعد ! ما هى أخبارك ؟"

فأجابه سعد : "إن عدد الجيش المدافع عن (ديبل) يقرب من خمسين ألف جندى وأظنهم سوف يقاتلون داخل أسوار القلعة على أمل وصول مدد جديد من بلاد السند الأخرى ."

فسأله محمد بن القاسم : "حسنا . . لو أقمنا هنا ثلاثة أيام فهل يمكن أن يخرجوا من المدينة ويشنوا الهجوم علينا ."

فرد عليه سعد قائلا : "لا أرى أثراً لذلك ! إنهم بعد سقوط

قلعة (لسبيلا) الجبلية لا يرون من المفيد أن يقاتلوا فى منطقة جبلية !"
فقال محمد بن القاسم : معنى ذلك أنه لا بدلنا من أن نتحرك على الفور من هنا وبدون أى تأخير .

(٢)

كان قد مضى خمسة أيام منذ أن بدأ حصار المسلمين لمدينة (ديبل) . وقد حاول جنود محمد أثناء ذلك أن يصعدوا سور المدينة باستعمال الدبابات ! ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك لأن الدبابات الخشبية كانت تقترب من الفصيل فيصب عليها جنود العدو نفطا مضطرما فيضطر المسلمون إلى التراجع أمام النيران الملتهبة ، وكان مع جيش محمد منجنيق عظيم يسمى العروس يجره خمسمئة جندى ! . . . وكانت الطرق وعرة فجئ به عن طريق البحر وأنزل على البر قرب (ديبل) ثم أخذ جنود محمد بن القاسم يدفعونه دفعا نحو المدينة حتى وصلوا به عند فصيلها ، وقبل ذلك كانت المجانق الصغيرة قد اصطدمت بالفصيل فى عدد من الأماكن ، وكان جنود العدو قد عرفوا خطر العروس من ضخامته حيث كان قد أطلق بضعة أحجار ثقيلة على المدينة قبيل المساء كما أدرك حاكم (ديبل) أن فصيلها القوى لن يقف فى سبيل هذا السلاح الهائل المهيب .

وفى الصباح الباكر من اليوم السادس بدأ محمد بن القاسم يطلق الأحجار على المدينة ، وكانت راية حمراء تخفق فوق برج المعبد فى وسط المدينة ، وكان البرج عاليا جدا وكان يبدو هذا العلم الخفاق أعلى من الأعلام والرايات الأخرى ، فأدرك محمد بن القاسم خطورة

ذلك العلم الخفاق ، وكما تقول رواية بأن أحد البراهمة المعذبين على يد حاكم (ديبل) كان قد فر فاخبر محمدا بأنه مادام هذا العلم يخفق فان أهل المدينة لن يهنوا أبدا .

وكان محمد بن القاسم خبيرا جدا فى استخدام المجانيق فصوب هدف المنجنيق ثم أمر الجنود باطلاق الأحجار ، فما أن وقع حجر ثقيل على البرج حتى دمره وحطمه ! وسقط ذلك العلم الخفاق بتلك الضربة القاضية .

بتدمير البرج وسقوط العلم وهنت قوة الجيش الهندوكى المتشائم ، إلا أنهم لم يسمحوا للمسلمين أن يقتربوا من سور المدينة حتى المساء ، حتى ضعف دفاع الرماة على سور المدينة مع دخول المساء ، فأمر محمد بن القاسم بحملة قاضية حاسمة فكبر جنوده وأخذوا يصعدون سور القلعة بالدبابات والسلالم .

ولم يزل جيش العدو يدافع حتى ثلث الليل إلا أن جنود المسلمين كانوا قد صعدوا على السور فى أثناء ذلك كما أن سور القلعة كان قد تهدم من ناحية بضربات المنجنيق .

فأدرك الملك (داهر) خطورة الموقف فأمر بفتح الباب الشرقى من الحصن فمهد الطريق للجيش بمساعدة الأفيال وولى هاربا ، ولم يستطع المسلمون أن يخططوا لمقاومة مؤثرة إذ كانوا متفرقين على السور ،فخرجت الفيلة تمزق دفاعهم على الباب الشرقى وتبعتها بقية الجيش فخرجوا مقاتلين هاربين ! فاجتمع الجنود المسلمون على الباب فهاجموا جنود العدو ووقفوا فى سبيلهم مصطفين كالبنيان المرصوص

مما جعل الجنود الأعداء يشنون حملات عنيفة على المسلمين ولكن ليس حبا للملك (داهر) وإنما خوفا على نفوسهم ورغبة فى إيجاد الفرصة للفرار ولكن المسلمين أخذوا يقتلونهم شر قتلة حتى انهزم العدو وانكسرت شوكته فدخل المسلمون القلعة كسيل جارف وكانت جماعات من الجيش الإسلامي قد سبقت فى دخول المدينة من ثغرات السور المختلفة وأخيرا استسلمت فلول جيش الملك (داهر) عندما سمعت المسلمين يكبرون قائلين (الله أكبر).

(٣)

أدى محمد بن القاسم صلاة الفجر فى مقر حاكم مدينة (ديبل) وعند طلوع الشمس كان أهالى المدينة المنهزمين الخائفين والذين قتلهم الرعب يشاهدون من فوق أسطح منازلهم موكب القائد الشاب ذى السبعة عشر ربيعا وهو يمر فى شوارع المدينة المفتوحة وكان الأسرى والجرحى الذين أطلقهم محمد بن القاسم بعد فتح تلك القلعة التى تقدم ذكرها قد انتشروا فى نواحى الهند مبشرين بوصول إله جديد لإنقاذهم، حتى أن القصص والوقائع التى اشتهرت عن شبابه وشجاعته وعفوه وشفقته لم يكن من الممكن لهؤلاء المعذبين تحت وطأة الحكومة المستبدة الظالمة أن يصدقوها أو يثقوا بها. أما أهالى مدينة (ديبل) الذين عذبوا على أيدى الجيش الملكى وصارت بيوتهم نهبا لجيش الملك (داهر) حيث كان الجنود يدخلون البيوت وهم سكارى فينهبونها ويفعلون بأهلها ما يشاؤون، والسيدات ذوات الملابس المقطعة والشعور الشعثاء اللائى كن يخرجن كل صباح فى الشوارع يبحثن عن

ضباط ذلك الجيش الملكى ليحكين لهم ما فعل بهن ليلا . . لايجدن من يسمع لهن من هؤلاء الضباط . . بل يجدن منهم بدل الإنصاف والعدل الهزء والسخرية والدعابات البغيضة المخزية .

لم يكن هؤلاء السكان المعذبون على أيدى جيوشهم وحكامهم يأملون فى الإحسان وحسن المعاملة من جيش فاتح أنهم كانوا قد سمعوا الكثير من قصص العفو والسماحة التى تروى عن محمد بن القاسم . ولكنهم حين رأوا الجيش الإسلامى يمر من الشوارع وقد غض رجاله أبصارهم اتباعا لقائدهم الشاب اليافع ، أخذت شكوكهم تزول وتتلاشى ، فصعدت النساء مع الرجال على سطوح المنازل ينظرون ويعجبون وحين عاد محمد وجيشه مرة أخرى إلى القصر الحكومى اندفعت فتاة هندوكية نحوه وأخذت بلجام فرسه وصارت تنظر إليه نظرات ملؤها الالتماس والرجاء وقد ضمت شفتيها الحزينتين وانتشر شعرها الأشعث فى الهواء وعلى وجهها الجميل خدوش وجراح وقد احمرت عيناها حزنا وغضبا فنظر إليها محمد بن القاسم فرأى كأنها وردة مزقتها يد قاسية ظالمة .

فقال لها محمد بن القاسم بوساطة ترجمانه : "أيتها السيدة ! لو أن ما أصابك فعله أحد من جيشنا فسأقتله الآن بين يديك !" فأشارت الفتاة برأسها نافية ثم ارتعدت شفتاها وانهمرت دموعها .

فتقدم رجل عجوز من وجهاء المدينة فوقف بين يديه موقف المصلى المتخشع فقال : يا مولاى ! إنها فتاة من بين الفتيات المعذبات المظلومات اللواتى ذقن مرارة الهمجية على أيدى جنود الملك ! إنها جاءت إليك مستغيثة !

فقام ناصر الدين بدور الترجمان فأخبر محمدا بأن هـذا العجوز هو كاهن مدينة (ديبل) .

فقـال لـه محمد بن القاسم : "لا تقم بين يدى هـذا المـوقف إن إغاثة هذه الفتاة المظلومة إنما هو الواجب الأول على عاتقى ، لقد قبضنـا على اثنى عشر ألفـا من جنـود الملك فـاذهب بهـا إلى أولئك الجنود فان وجـدت المعتدى عليها من بينهم فسأسلمه إليها تعاقبه كما تشاء ، وإلا فسأتبعه إلى آخر حدود البلاد !"

قالت الفتاة "إن المعتدى على هو حاكم (ديبل) فقد قبض على والـدى أول أمس ثم . . . ثم . . وبح صوتهـا وانهمرت دمـوعهـا وأخذت تبـكى وتنتحب .

دعا محمد أحد قواده فقال له : أطلقـوا سراح الأسرى فى سجن (ديبل) افتحو أبواب السجن فورا .

(٤)

وفى اليوم التـالى كان كبير الكهـان فى المـدينـة يجلس بين العابدين ويبشرهم بوصول إله جديد قد بعث به بجوان (اله الآلهة عند الهنادكة) كما أن أحـد النحـاتين فى مـدينـة (ديبل) بـدأ ينحت تمثالا لذلك القائد العربى اليافع ليضعه فى معبد من معـابد مدينة (ديبل) أما محمد بن القاسم فعين الرواتب الشهريـة لورثـة الشهـداء والمقتولين من جيشه كما أصدر أمرا بتعيين ناصر الـدين حاكما جـديـدا لديبل ! ثم خصص مبلغا ضخما لمعبد الأهالى الذى دمر بأحجار المنجنيق .

وتوجه بعد عشرة أيام إلى مدينة (البيرون) وفى أثناء هذه المدة كانت جراحات الأهالى قد اندملت وبدأوا يأنسون إلى الحكم الجديد . فودعه الآلاف من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ بعيون دامعة من الفرح والسرور وعواطف العرفان بالجميل والإحسان ، وقد دخل فى جيشه خمسة آلاف من جنود (ديبل) .

وقبل أن يغادر محمد بن القاسم مدينة (ديبل) خير الزبير وخالدا وناهيد والزهراء فى البقاء مع ناصر الدين الحاكم الجديد المسلم لمدينة (ديبل) إلا أن الجميع فضلوا حياة الجهاد والخشونة والحروب والمعارك بدل الراحة والأمن فى قصور المدينه بينما أيد الزبير وخالد رأى محمد بالنسبة لناهيد والزهراء فتركوهما فى (ديبل) .

القائد الجديد لقوات السند

فى إحدى الغرف الواسعة من القصر الملكى فى مدينة النيرون كان الملك داهر جالسا على كرسى من الذهب ، أما القائد الأعلى لقوات السند (أودى سنك) وولى عهد السند (جى سنك) فكانا واقفين بين يديه فقال (أودى سنك) : مولاى ! لو أذنت جلالتك لدعوت (بيم سنك) يدخل علينا ؟

فرد عليه الملك فى لهجة قاسية : إننى لاأريد أن أرى وجهه هنا ! ولولا أنه ابنك لأمرت به ليلقى أمام الفيل المسعور الوحشى !

فقال له (أودى سنك) : إنه برئ يا مولاى ! مادمنا لم نستطع أن ندافع عن (ديبل) ولدينا خمسون ألفا من الجنود فأنى له أن يقف فى سبيل ذلك الجيش الباسل وليس معه ما يزيد عن عشرين ألف جندى !

— ولكنه كان قد ذهب بدعوى أنه لن يسمح للعدو أن يتقدم ويجتاز المناطق الجبلية ، وقد قال يوم تحركه بأنه لن يعود إلينا إذا لم يستطع هو وجنوده أن يدفنوا جيش العدو تحت سيل منهمر من الحصى والحجارة .

— أنا لم أؤيد رأيه أبدا يا مولاى ! إننى لم أخطئ أبدا حول شجاعة العدو الذى استطاع أن يصعد على سور (ديبل) أمام

سيل منهمر من سهام خمسين ألف جندى ، فكيف يمكن أن يقف فى سبيل ذلك العدو عشرون ألف جندى ويمنعونه من احتلال الهضاب والقلعة .

فقال الملك فى صوت غليظ مرتعد : "لا تذكر أمامى اسم خمسين ألف جندى من جنود (ديبل) فقد كان نصفهم من تجار (ديبل) الجبناء . ليتنى كنت أعرف أن (برتاب راى) إنما كان ينفق من الخزانة الملكية على الأوغاد وقد سماهم جنودا .

فقال له (أودى سنك) : كنت أعترض يا مولاى منذ البداية على فكرة ذهابك إلى (ديبل) فان فرار الملك المنهزم يؤثر فى نفوس الجنود شر تاثير .

فقال الملك : أشكر آلهتى إذ لم اتفق معك فى رأيك وإلا فلم يكن من الممكن أن ينجو من هذا الجيش ثلاثون ألف جندى .

فقال له (أودى سنك) : لو لم يستعجل مولاى بالفرار لكان ..

فقطع كلامه ولى العهد (جى سنك) وصاح به قائلا : أفق من غباوتك يا (أودى سنك) ! إن صاحب الجلالة قد فرمن مدينة (ديبل) لأن الجبناء من أمثالك كانوا معه !

ما كان من الممكن للقائد (اودى سنك) أن يتحمل كلامه إلا انه حاول التحمل وقال : أنت تعرف يا صاحب السمو ! إن ابنى (بيم سنك) لم يكن جبانا ! فقد كان يلعب معك .

— إنه ليس جبانا ولكنه أحمق ، ومع ذالك فأرجو والدى أن

يأذن له بالدخول علينا .

فنظر الملك إلى (جى سنك) ثم التفت إلى (أودى سنك) وقال له: دعه يدخل !

فأشار (أودى سنك) إلى جندى على الباب فخرج ولم يلبث ان عاد ومعه (بيم سنك) فدخل على الملك ثم سلم عليه ووقف بين يديه موقف المصلى الخاشع .

فسأله الملك قائلا : لماذا لم تأت إلى (ديبل) مباشرة بعد الهزيمة ؟

فرد عليه (بيم سنك) : إننى لم أكن أعرف أن مولاى سوف يصل إلى (ديبل) فرأيت أن آتى (النيرون) لأننى كنت أريد أن أتحدث إلى مولاى عن موضوعات هامة .

— ولكن كان يجب أن تصل إلى (ديبل) مع فلول الجيش الذى معك .

— لعل مولاى لا يعرف أننى قد أصابتنى جراحات فى المعركة ثم بقيت أسيرا فى أيدى الأعداء ، وعندما أطلق سراحى لم يكن معى إلا بضعة جنود ، فكان من واجبى أن أبلغهم إلى مكان آمن .

فقال الملك : بيم سنك ! أنت المسئول عن الهزيمة التى أصابتنا فى (لسبيلا) و(ديبل) ولو أنك سددت الطرق على العدو فى المناطق الجبلية لما انهزمنا فى (ديبل) وكنت قد منحتك هذه الفرصة على الرغم من معارضة أبيك وقد قررت الآن أن لا تخرج فى مهمة

عسكرية أبدا بعد هذا .

فرد عليه (بيم سنك) : وأنا شخصيا لا أريد أن أتحمل مسئولية أية مهمة عسكرية بعد هذه .

فأخذ الملك يحدق فى وجه (بيم سنك) بكل ازدراء وغضب ثم قال له بصوت عال ، إذن ما الذى جاءبك هنا ؟

وكان (أودى سنك) قد ارتاب فى جواب نجله فقال : مولاى ! إن الغرض من كلام (بيم سنك) إنما هو أنه لا يريد أن يتحمل مسئولية كبيرة لأنه يعتز بأن يدافع عنك كجندى عادى ، اسمع يا (بيم سنك) إن مولاى غاضب عليك فعليك أن تقبل رجليه وتستعطفه .

فقال له (بيم سنك) : يا أبت ! إن تعظيم مولاى على الرأس والعين ولكنى لا أستطيع أن أكذب بين يديه ، فقد كنت جريحا فعالجنى وضمد جروحى قائد جيش العدو ، إنه أنقذنى من الهلاك وأطلق سراحى بدون أن يأخذ العهد منى بعدم دخول الحرب ضدهم ثم أعطانى فرسه للسفر .

فتدخل (أودى سنك) يقول : مولاى ! إن عدونا لماكر جدا . وربما ظن أنه يستطيع إغراء (بيم سنك) بمثل هذه الحيل ! ولكنه لا يدرى أن آباء (بيم سنك) وأجداده أكلوا على مائدتك وأنه من نسل (راجبوت) وأنه مستعد أن يريق آخر قطرة من دمه فداء لك ودفاعا عن بلادك .

فقال (بيم سنك) : أبت ! لو لم ينقذنى من الهلاك لكان آخر قطرة من دمى قد سال فى ميدان المعركة ، ولست أعرف لماذا أنقذ

نفسى ، ولكنى لا أستطيع الآن أن أحمل السلاح ضده .

فخلع (بيم سنك) سيفه وقدمه إلى الملك وهو يقول .

ـــ مولاى ! هذا السيف قد أعطيتنى أنت ، فخذ أمانتك الآن !

فأخذ الملك يثور ويرتعد غيظا وغضبا وأخذ ولى العهد (جى سنك) السيف من يده وهو يقول له جبان . . . لئيم !

وصار (أودى سنك) يقول : ماذا حدث بك يا (بيم سنك) ؟ اعتذر إلى جلالته ! إنه سوف يغفر ذنبك ! لا تخزنى يا (بيم سنك) ! ماذا سيقول الناس عنا ؟ وقد كنت تقول بأنك قد جئت هنا لتشير على صاحب الجلالة بخصوص الدفاع ! مولاى ! مولاى ! إن ابنى برئ ! قد سحره العدو !

وقال (بيم سنك) : نعم يا مولاى ! إنه قد سحرنى ! إنك إن لم تحاول إدراك الموقف الآن فانه سوف يسحر السند كلها فى يوم من الأيام ، وقد جئت هنا لأخبرك بعلاج يقينى لسحره !

فصاح به (أودى سنك) قائلا : ابعد عنا يا (بيم سنك) أرجوك باسم (بجوان) !

فقال الملك : اسكت أنت يا (أودى سنك) : لقد جاء ابنك هنا باذننا ولا يمكن له أن يخرج بدون الإذن منا . نعم يا (بيم سنك)، كنت تريد أن تحكى لنا العلاج الواقى عن سحره فما ذلك ؟

فقال (بيم سنك) : مولاى ! العلاج الوحيد هو أن تطلق سراح الأسرى العرب وأسرى (سرنديب) وتسلمهم إلى العدو ! وإلا فان

السيل الذى انطلق من بلاد العرب ضدنا لن يتوقف حتى يقضى علينا جميعا .

وفجأة نهض الملك من كرسيه وقال : إنك قد أصبحت من أنصار العدو ، وجئت هنا لترهبنى بقوته ؟

فرد عليه (بيم سنك) بهدؤ : قد جربته فى (ديبل) يا مولاى !

فصاح به الملك قائلا : (ديبل) ! (ديبل) ! لا تذكر لدى اسم (ديبل) فقد ثبط همة الجبناء من أمثالك بعد سقوط برج المعبد .

فقال (بيم سناك) : لست جبانا يا مولاى !

ـــ معنى هذا أننى أنا الجبان ! المهم أنه يوجد هاهنا جبان !

وقف (أودى سنك) موقف المصلى المتخشع فقال فى صوت مرتعش : مولاى ! مولاى ! اغفر ذنبه يا مولاى ! فقد قمنا بخدمة أسرتك منذ سبعة أصلاب .

فغضب الملك وقال له : لا أريد خدمات أسرتك ! لم أعد فى حاجة إليها .

ثم دخل عشرون جنديا وقد سلوا سيوفهم فقاموا ينتظرون أمر الملك فأشار الملك إلى (بيم سناك) قائلا : اذهبوا به واجعلوه فى أظلم زنزانة من سجن (النيرون) .

فقال له (أودى سناك) : مولاى عفوك يا مولاى ! إنه ابنى الوحيد .

ثم مال (جى سنك) على الملك فهمس فى أذنه فرد على (أودى سنك) قائلا : تستطيع أن ترافقه فانني لست فى حاجة إلى قائد مثلك !

وفجأة رفع الستار من وراء الكرسى الملكى فدخلت الملكة (لادى) نتقدمت مسرعة نحو الملك ثم قالت : ماذا تفعل يا مولاى ؟ أن (أودى سنك) هو قائد الجيش وأرى أن الإساءة إليه قد تثير غضب جنوده .

فرد عليها (جى سنك) فورا قائلا : "ولكن حين يعرف الجيش بأنه هو وابنه كلاهما من عملاء العدو فلا يمكن لأى رد فعل ان يحدث بينهم وسيحتمل كل شىء . . ." !

وقالت الملكة : يا بنى ! العدو يقف فوق رؤسنا وهذا ليس أوان الاختلاف والشجار .

فقال لها (جى سنك) : إن آخر مرحلة للعدو هى مدينة (ديبل) وإنه من المستحيل أن يعبر نهر السند . ولا يهمك يا أبت ! فسوف ترى خلال بضعة أيام وقد وصل لمساعدتنا الأمراء من ملتان إلى قنوج وسوف نعطى درسا لعدونا لن ينساه أبدا وسيواجه هزيمة نكراء فوق ما يتصور . . . وإنى أرى أن بقاءهما ليس بالمناسب والأفضل أن نبعث بهما إلى مدينة "السرور" أما سمعتم أمر جلالته أيها الجنود ماذا تنتظرون ! خذوهما إلى السجن .

فتقدم الجنود إلا أن (أودى سنك) منعهم باشارة من يده ثم خلع سيفه وخاطب (جى سنك) قائلا : خذ هذا ! فانه سيف قائد

الجيش ! إن أكبر ما أتمناه هو أن ينتصر الجيش السندى على العدو وعلى يدك !

فبدل أن يأخذ السيف من يده حاول (جى سنك) أن ينتزعه منه قائلا : "لسنا فى حاجة إلى دعواتك لا نتصارنا على العدو" .

وعند المساء كان (أودى سنك) و(بيم سنك) يتوجهان نحو (الرور) بينما كان عبدة الأصنام قد بدأوا يدعون لا نتصار (جى سنك) القائد الأعلى الجديد لقوات السند .

(٢)

عندما وصل (أودى سنك) وابنه (بيم سنك مدينة (الرور) أودعا فى نفق مظلم من سجن المدينة وكان فيه أسيرا آخر قبلهما فحين رآهما الأسير القديم قال لهما فى لغة سندية ركيكة إن المكان ضيق إلا أننا نحن الثلاثة نستطيع أن نقضى وقتنا . ولكن من أنتما ؟ وكيف وصلتما إلى هذا النفق ؟ !

فلم يرد (أودى سنك) و(بيم سنك) على سؤال الأسير القديم وأخذا يحدقان فى وجهه بعيون شاخصة وافواه فاغرة .

وقال الأسير : لعلكما لا تقدران على أن تريانى ولكنكما سوف تتعودان أن تريا فى الظلام ! تفضلا . . . يبدو أنكما متعبان وإذا لم أكن مخطئا فان أحد كما أب والآخر ابنه ؟ !

فأخذ (أودى سنك) و(بيم سنك) يمشيان على مهل وقد مدا أيديهما إلى الأمام حتى صارا عند الجدار ، فاستندا اليه وجلسا على

الأرض ، فقال لهما الأسير مرة أخرى : يبدو أنكما بريئان مثلى ؟ عفوا . . . فقد لا تحبان كلامى ، ولكن ما تحدثت إلى انسان منذ شهور ولهذا السبب نشأت فى ذهنى فكرة أن أقص عليكما قصتى وأسمع منكما قصتكما ! واعتقد أن هذا أمر طبيعى ، وقد قضيت الستة الأشهر الأولى من سجنى فى غرفة واسعة فوق هذا النفق ، وقد كان معى فى تلك الغرفة ستة أسرى من بلادكم وقد تعلمت منهم لغتكم ومع اننى لا أتقن هذه اللغة إلا أننى متأكد بأننى أستطيع أن أعبر عن نفسى ، فهل تفهمان ما أقول لكما ؟

فقال (بيم سنك) : إنك تعرف السندية جيدا !

فنظر الأسير إلى (بيم سنك) وعينيه المتسائلتين وقال له : لعلكما لا تستطيعان أن تريانى جيدا . . . أنا أقترب منكما .

فنهض الأسير من زاوية وجلس عندهما وهو يقول : نعم ، الآن يمكن أن تريانى . . . أنا عربى مسلم ، أما تكرهان أن أقترب منكما ؟

فقال له (بيم سنك) : أعربى أنت ؟ ولكن الأسرى العرب كانوا فى سجن (برهمن آباد) ؟

فقال الأسير : لعلهم غيرى ! فأنا فى هذا السجن منذ البداية .

فسأله (أودى سنك) : هل كنت قادما من (سرنديب) وغرقت سفينتك عند (ديبل) ؟ واسمك أبو الحسن ؟

فأسرع الأسير وهو يرد عليه : إن السفينة لم تغرق وإنما أغرقت . . . نعم كنت تقول شيئا عن الأسرى العرب فى (برهمن آباد) ؟

كيف جاءوا إلى هـذه البلاد ؟ فانـه لم ينج أحد من سفينتى إلا أربعة نفر فقط ، وقد أصيب اثنان منهم بجراح فماتا فى الطـريق بين (ديبل) و(الرور) . والثالث الـذى كانت جروحـه خفيفة فقـد مات عندى فى هذا السجن .

فرد عليه (بيم سنك) : لقـد جاءت سفينتان من (سرنديب) بعد سفينتك ، فقبض عليها حاكم (ديبل) .

ـــ ولـكن ما الذى جاء بهم إلى هنا ؟

فأجابه (بيم سنك) : كانوا قـد خـرجوا من (سرنديب) عائدين إلى بلادهم .

ـــ وهل تعرف اسم أحد منهم ؟

ـــ نعم ! أنا أعرف قائد السفينتين وقد فرمن الأسر واسمه الزبير .

ـــ الـزبير ؟ لم يكن عـربى فى (سرنديب) بهـذا الاسم ! ولعلهما سفينتان أخريان .

فقال (بيم سنك) : كان حاكم البصرة قـد بعث به ليأتى بالنساء الأيامى والأطفال اليتامى من (سرنديب) .

فقلق الأسير وسألـه قـائلا : النساء والولدان ؟ ! وهـل تعرف اسم أحد منهم ؟ !

ـــ أعرف شاباً منهم واسمه خالد ، ولـكنه ليس الآن فى السجن .

ـــ خالد ! خالد ! ابنى خالد ! أين هو الآن ؟

ـــ إنه فى (ديبل) الآن .

ـــ فى (ديبل) ؟ ومـاذا يعمل هنـاك ! قل لى بصراحـة هـل رأيتـه بعينى رأسك ؟

ـــ لقـد رأيتـه فى (لسبيلا) مع الجيش الإسلامى الـذى فتح مدينـة (ديبل) الآن .

بـدا أبـو الحسن كمن أصيب بـالسكتـة ! فصار ينظـر بعينيـه الشاخصتين إلى (أودى سنك) و(بيم سنك) فلم يتـكلم برهة من الزمان ثم نطق ولسانه يرتعد ارتعادا : أصدقونى . . . ولا تسخروا بى .

فقـال (أودى سنك) : إن الـذين سخر بهم القـدر كيف يمكن لهم أن يسخـروا بالآخـرين ؟ ! إن الجيش الإسلامى قـد فتح مـدينـة (ديبل) ولن يمضى وقت طويل حتى يصل إلى هذه المدينة .

ولم يستطع أبو الحسن أن يقول شيئـا لوقت طويل فقـد كانت الدموع تسيل من عينيـه ، ولـكنها كانت دموع الفـرح والشكـر ، ثم أخذ بيد "بيم سنك" وهزها هـزا عنيفا وقـال . لقـد كانت لى زوجـة وابنة فى (سرنديب) أيضا فهل تعرف عنهما شيئا ؟

فأجابه (بيم سنك) قائلا : اننى لا أعرف شيئا عن زوجتك فقـد تـكون مع الأسرى العرب الموجودين فى (برهمن آبـاد) ولـكننى كنت أسيرا عند المسلمين بعد أن أصبت بجروح فى حـرب (لسبيلا) فـرأيت هناك أخت خالد وقدتم عقد قرانها إلى الزبير .

ـــ إذن لابد أن تـكون سلمى معهما . . . لابد أن تـكون معهما !

فسأله (أودى سنك) : من هي سلمي هذه ؟ !

— هى زوجتى ، ولكن قل لى كيف حمل المسلمون على السند ومتى ؟

فحكى (أودى سنك) وقائع حملة محمد بن القاسم ، ثم كرر (بيم سنك) نفس الوقائع مع شيء من التفصيل ثم قص عليهما أبو الحسن قصته ، ولم يأت المساء حتى كان هؤلاء الأسرى قد أصبحوا أصدقاء وأخذوا يفكرون فى الخلاص من السجن .

(٣)

وحين سمع الملك (داهر) بأن محمد بن القاسم أخذ يتقدم من (ديبل) إلى (النيرون) استشار كبار رجاله وقواد جيشه فوافق الجميع على اقتراح (جى سنك) أن تقوم المعركة الحاسمة بينهم وبين العرب على ضفة نهر السند عند (برهمن آباد) وأن يبقى من الجيش فى (النيرون) ما يكفى لتعويق طريق محمد بن القاسم ابضعة أيام حتى يمكن فى خلال هذه المدة أن يعد الملك وقائده الأعلى جيشا عظيما للمواجهة .

كان فصل الصيف قد بدأ ، وكان الملك (داهر) يأمل فى أن تعوق الفيضانات الهائلة فى نهر السند محمد بن القاسم من عبور النهر ! وأن يتمكن خلال ذلك من الحصول على جنود من أقاصى السند إلى جانب الإمدادات الكبيرة التى توقعها من الإمارات المجاورة فاختار الملك (داهر) كبير الكهان فى مدينة (نيرون) والذى كان خبيرا فى الشئون العسكرية إلى جانب ذكائه النادر ، أن يكون حاكم المدينة وقائدها العسكرى ! فأعطاه ثمانية آلاف جندى ثم تحرك مع ابنه وقائده

وقائده الاعلى (جى سنك) على رأس بقية الجيش وتوجه إلى مدينة (برهمن آباد) .

حاصر محمد بن القاسم (النيرون) قبل خمسة أيام مما كان يتوقعه كبير الكهان وحاكم المدينة الجديد ، واهتز الفصيل بالأحجار الثقيلة التى كانت تقذف بالمنجنيق ، وفى اليوم الثالث أخذ الجيش المدافع عن المدينة يضعف ولم يقدر على مواصلة المقاومة وبدأ سكان المدينة يتهامسون فيما بينهم أن الملك كان مخطئا فى تقديره لكفاءة ذلك الكاهن ، وفى اليوم الرابع وبينما كان الجيش الإسلامى يستعد لهجوم حاسم على المدينة ، فتح باب المدينة وخرج بعض البراهمة والكهان يرفعون علما أبيض يريدون الصلح والسلام .

وبعد احتلال المدينة عامل محمد بن القاسم بأهلها نفس المعاملة والسلوك الذى سلكه مع سكان (ديبل) فاحتل فى نفوسهم مكانة الحب والتقدير وبعد أن قام بتنظيم الإدارة لمدينة (النيرون) على أتم وجه (توجه إلى مدينة (سيون) وكان حاكمها (باج رأى) ابن أخ للملك داهر) أما سكان المدينة فقد كان معظمهم من البراهمة والكهان والتجار ، وبعد حصار أسبوع هرب الحاكم ليلا وترك المدينة وشأنها فاستسلم أهل المدينة لمحمد بن القاسم .

وبعد التغلب على مدينة (سيون) اقترح على محمد بن القاسم بعض قواده الخبراء بعبور النهر والتوجه إلى (برهمن آباد) حتى لا يجد الملك فرصة كافية طويلة للاستعداد ، ولكن محمدا أجاب بأن على تلك الضفة من النهر مدينة هامة وهى مدينة (سيوستان) ويمكن التغلب عليها بكل سهولة لأن الملك (داهر) قد ركز الآن على الدفاع عن

(برهمن آباد) وأردف قائلا إننا او توجهنا من (ديبل) إلى (برهمن آباد) مباشرة فان جنود مدينتي (النيرون) و (سيون) قد يلتحقون بالملك فيقاتلون تحت رايته !

إن انتصاراتنا لا تزال تنقص من جنود الملك وتزيد فى قوتنا لأن جيوش المدن المفتوحة يتفرق معظمها ويلتحق بعضها الآخربنا أما الفلول التى تتراجع لتعود إلى الملك فلا تعود إلا بعزيمة محطمة وأن الجيش الذى يكون فيه واحد فى المئة من ذوى العزيمة المنكسرة فانه لا يمكن له أن يقاومنا . . فحين دخلنا هذه البلاد كان عدد جيشنا لا يزيد عن اثنى عشر ألف جندى والآن وعلى الرغم من خسائر (ديبل) و (لسبيلا) فان عددنا لا يقل عن عشرين ألف جندى ، وأن زملائنا من جنود السند قد أكدوا بأنهم قوم باسلون ! وأن سيوفهم وإن كانت كليلة فى مواجهة الحق إلا أنها صارمة فى مواجهة الباطل .

ما أن أنهى محمد بن القاسم كلامه حتى اقتنع جميع القادة ببراهينه وشواهده ، وكان (راج رأى) حاكم (سيون) قد التجأ إلى حاكم مدينة (سيوستان) الأمير (كاكا) رئيس الزط ، وكان هذا الأمير من أخلص حلفاء الملك (داهر) وكانت قصص حماسته وشجاعته معروفة متداولة على ألسنة الناس فى أنحاء السند ، إلا إنه كان خائفا مترقبا من الهزيمة بعد الانتصارات التى حققها محمد بن القاسم فى (ديبل) و (سيون) و (النيرون) وقد كان سور مدينة (سيوستان) قويا جدا إلا أن الأمير (كاكا) فضل المعركة فى الميدان الواسع على البقاء محصورا

داخل القلعة لأن دفاع الجيش المحصور كان قد أصبح غير مؤثر وغير مفيد بسبب المجانيق والدبابات .

﴿ ٤ ﴾

وصل محمد بن القاسم بسرعة البرق إلى (سيوستان) فوجد جيش الأمير (كاكا) مستعدا خارج المدينة ، إلا أن (كاكا) أخطأ فى فهم الموقف فمع شجاعته وخبرته ، استعجل فى الهجوم على الجيش الإسلامى ظنا منه بأنه لن يمهل جيش محمد بن القاسم حتى يستعد ويسوى صفوفه ، وعندما رأى محمد بن القاسم أن الهجوم عنيف أمر قلب الجيش أن يتراجع ، أما جيش (كاك) فلم يفهم هذه الحيلة الحربية فتقدم فى جنونه وأمله فى الانتصار وتغلغل فى الجيش الإسلامى فلم يدرك الأمير (كاكا) زلته العسكرية إلا حين رأى أن قلب الجيش المقابل المتراجع قد توقف فجأة وأصبح بنيانا مرصوصا ، بينما كان فرسان الميمنة والميسرة للجيش الاسلامى أسرعوا كالعاصفة حتى أحاطوا بالعدو من عقبه ! فلم يستطع جيش الأمير (كاك) أن يتماسك أمام الهجوم من الجهات الأربع ، وقتل (باج رأى) حاكم (سبون) سابقا أثناء محاولته للفرار مما ثبط عزيمة جنوده وأما (كاكا) فحاول أن يشجع جيشه ولكنه عندما استيقن الهزيمة هم بالفرار فقطع جانبا من حصار الجيش المحيط برجاله وهرب ، إلا أن جنود محمد بن القاسم تعاقبوه حتى أحاطوا به مرة أخرى فاستسلم هو وأصحابه وعندما جئ به إلى محمد بن القاسم سأله فى دهشة : أنت تقود هذا الجيش !

فقال محمد مبتسما : نعم ! أنا قائد هذا الجيش !

فازداد (كاكا) دهشة وحيرة ونظر إلى محمد من الرأس إلى القدم ثم سأله : وما هي العقوبة التي اخترتها لي ! ؟

فأجابه محمد بن القاسم : بعد هجومنا على السند أنت ثاني الرجال المقاتلين الذين رأيتهم يقاتلون قتال الشجعان الأبطال وسوف أعاقبك بما عاقبت به (بيم سنك) ، أنت حر طليق !

فقال (كاكا) : وما هو الثمن الذي سأدفعه من أجل هذه الحرية ؟

— ما جئنا هنا لنتقاضى أثمان الحرية والاستقلال !

— إذن فلماذا جئت هنا ؟

— جئت هنا لأمنع يد الظلم وأرفع مكانة المظلوم !

فأطرق (كاكا) برأسه وفكر قليلا ثم قال فما دمت على ثقة بأنني ظالم فلماذا تطلقني حرا ؟

— لأن الانسان المغلوب على أمره إذا أضطهد فسوف يثور ويطغى بدل أن يميل إلى الإصلاح والهدى .

وعاد (كاكا) يفكر ثم قال : لقد سمعت بأنك من أكبر الساحرين . . . وإنك تعرف الحيل التي يستحيل بها الأعداء إلى الأصدقاء ! . . فهل يمكن أن أكون من بين أصدقائك قال ذلك وهو يمد يده للمصافحة .

فصافحه محمد بن القاسم بعواطف حارة وهو يقول له : "إنني لم أكن عدوك قبل هذا أيضا" ؟

الهزيمة الأخيرة للملك داهر

قام الأمير (كاكا) بتنظيم فلول جيشه من جديد ثم انضم إلى محمد بن القاسم ، فتوجه محمد من هناك نحو (برهمن آباد) فنزل على ضفة النهر على مسافة بضعة أميال من المدينة . وانشغل بالترتيبات والاستعدادات لعبور النهر فكان سعد (جنجو) عونا كبيراً لمحمد بن القاسم بهذه المناسبة فانتشر سعد وأصحابه فى قرى السند متنكرين فى زى البحارة والملاحين مبشرين بوصول منقذ السند، ولم يمض بضعة أيام حتى كان عدد كبير من الملاحين السنديين قد وصلوا بقواربهم إلى معسكر محمد بن القاسم ليساعدوه ويقوموا بما يأمرهم به من الخدمات ! إلا أن حادثا حدث بالجيش الإسلامى فى هذا المكان أخر العبور وهو أن وباء من أو بئة الخيل انتشر فى الجيش فذهب بعدد ضخم منها وبعث لهم الحجاج بن يوسف مقدارا كبيرا من الخل من البصرة على ألفى جمل وقد أفاد هذا الخل الخيل إفادة كبيرة جدا .

عبر الجيش الإسلامى نهر السند تحت قيادة محمد بن القاسم الثقفى دون أن يواجه أية مقاومة وذلك فى شهر يونيو من عام ٧١٣م.

أما الملك (داهر) فقد أعد جيشا عظيما يشتمل على مئة فيل وخمسين ألفا من الفرسان إلى جانب عدد ضخم من المشاة ، وقد كان النهر متلاطما شديدا فى نهاية شهر يونيو ولم يكن من المتوقع

أن يعبر الجيش الإسلامي بذلك الاستعداد والسرعة ، فأمر الملك (داهر) بتحرك جيشه فورا ، حتى وصل على مسافة ميلين من معسكر محمد بن القاسم .

واستمرت المناوشات بين الكتائب المتجولة من الجيشين لبضعة أيام وفى النهاية وفى مساء يوم من الأيام قرر محمد بن القاسم الدخول فى معركة حاسمة وفى تلك الليلة نفسها جلس محمد إلى ضوء مصباح ليكتب رسالة إلى زوجته فقال فيما كتب إليها :

رفيقة حياتى !

ليحفظك الله ويعطيك من الصبر والعزيمة ما يعطيه لأزواج الصالحين المجاهدين فى سبيل الله !

لقد قررت أن أواجه العدو صباح الغد فى معركة حاسمة وقبل أن تصل هذه الرسالة إلى يديك ، سوف يكون مصير السند قد تقرر بشكل حاسم ونهائى ، وأن قلبى ليشهد على أن الله سبحانه وتعالى سوف ينصرنى فى هذه المعركة نصرا مؤزرا . . أننى فخور بجنودى وأفتخر فوق ذلك بتلك الأمهات العربيات اللواتى ولدنهم وأرضعنهم وربينهم خير تربية . . هؤلاء الأمهات المنجبات اللواتى غذين أولادهن بوقائع البدر وحنين وغنين لهم أناشيد المجد الإسلامى العريق . . أننى أفتخر بتلك الأزواج اللواتى جعلن أزواجهن يتمنون حياة الغزاة الفاتحين الشهداء الأبرار ، أولئك الأزواج اللواتى لم يكن حبهن لأزواجهن أغلالا وسلاسل لهم وإنما أصبح هذا الحب الطاهر النقى وسيلة وسلاحا لهم ليسخروا به العالم كله ويفتحوه ويسجاوا

بذلك مجدا خالدا فى تاريخنا . . وأننى لراض مطمئن بأنه مادام هؤلاء المجاهدون أحياء فسوف يدافعون عن مجد الإسلام ويذودون عن حماه وسوف تظل راية الإسلام مرتفعة خفاقة ما بقيت قطرة من دمائهم فى عروقهم الطاهرة .

وأنه لم يقلقنى فراقك أو فراق أمى أبدا . . ولكننى لم أنسك أبدا كذلك ، إلا أننى عندما أرى هؤلاء الالاف من الشباب المجاهدين الذين فارقوا أزواجهم وأمهاتهم وأقاربهم ويتحملون الشدائد فى سبيل الله تغشانى السعادة ويملأ قلبى السرور لأننى واحد منهم ومعهم ، وأن الذين استشهدوا من هؤلاء الشباب المجاهدين فى الحروب الماضية قد استلمت رسائل من أمهاتهم يسألننى سؤالا واحدا وهو : ألم يقطر دماء أبنائهن على أعقابهم ! وإن رزقنى الله الشهادة فأرجو أمى أن تسأل نفس السؤال من زملائى !

وقد وعدتك بأننى لن أستقر و لن تهدأ ثورتى حتى تتحرر هؤلاء النساء المسلمات الأيامى والأطفال اليتامى الأبرياء ! وسأنجز وعدى هذا لك باذن الله وقد وعدتنى بانك لن تسكبى الدموع على استشهادى فعليك بانجاز وعدك هذا وسلامى مع احترامى لأمى الكريمة وقد كتبت إليها رسالة مستقلة .

الداعى لك

محمد .

وكتب محمد بن القاسم رسالة أخرى إلى أمه ثم أخذ ينظر فى خريطة ميدان القتال .

﴿ ٢ ﴾

وفى الصباح وبعد صلاة الفجر كان الجيش الاسلامى قد اصطف بعد أن تسلح تسلحا كاملا ، فقام محمد بن القاسم خطيبا فى جيشه راكبا فرسه يقول :

"يا جنود الله وجنود رسوله ﷺ ! إن اليوم يوم اختبار لشجاعتكم وهو يوم امتحان لإيمانكم وتضحيتكم . لا تخافوا عدد العدو ! "فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ! والتاريخ يحدثنا بأن المعارك الماضية التى قامت بين الكفر والإسلام قد كان عدد رواد الباطل فيها يفوق عدد أهل الحق بكثير، إلا أن اهل الحق قد حققوا بأن سر القوة العسكرية ليست هى الكثرة والعدة وحدها وإنما السر الحقيقى هو قوة الإيمان والأهداف الكريمة السامية ، إننا لا نحارب ضد قوم أو بلد وإنما نقاتل ضد هؤلاء الطغاة العصاة الذين يفسدون فى أرض الله . إننا لا نريد أن نحكم العالم وإنما نريد حكم الله على خلقه فى أرضه . . ! إننا نريد السلام لأنفسنا كما نريد السلام للبشرية كلها . . وأن الطريق الوحيد نحو السلام على أرض الله إنما هو الإسلام وحده !

هذا هو الدين الذى لا يميز بين سيد ومسود ولا يفرق بين الأسود والأحمر أو العرب والعجم ! إننا نريد الانتصار لهذا الدين . إننا نقاتل ونموت من أجل هذا الدين ! ونعتبره أعظم سعادة وأكبر نعمة فى الدنيا والآخرة ! وقد قاتل آباؤنا وأجدادنا من أجل ذلك !

فنصرهم الله وانتصروا على الدول الكبرى وانحنى أمامهم رؤس الأكاسرة الجبابرة والقياصرة الطغاة !

يا فرسان العرب ! يجب أن تفتخروا بحظكم ونصيبكم بأن الله سبحانه وتعالى قد اصطفاكم لنشر هذا الدين وتبليغ رسالته ، وقد ضحيتم بنفوسكم فى سبيل الله فأفاض عليكم من نعمه الظاهرة والباطنة وفى أرضه وسمائه ، واذكروا إذ نصر الله (٣١٣) من عباده يوم بدر فانتصرت الفئة القليلة بدون السلاح على الفئة الكثيرة الشاكية السلاح وقد كان عدد أهل الباطل وعدتهم تفوق بكثير على عدد أهل الحق وعدتهم فى المعارك التاريخية التى قامت فى اليرموك وفى القادسية وأجنادين إلا أن الانتصار فى هذه المعارك كلها كان من نصيب أهل الحق ! وأن الله سوف ينصركم اليوم أيضا ولكن تذكروا أن نواميس الفطرة وأقضيتها حاسمة نهائية لا تبديل لها . . إن الله ينصر الذين ينصرون أنفسهم ولا يمكن لكم الفوز بنعم الله إلا بعد القيام بواجبكم حق قيام ، إن اليد الكريمة الشفيقة لقدرة الله إنما تمتد إلى الذين يثبتون أمام السيل المنهمر من السهام ، والذين يملأون الخنادق بجثثهم . . إن الله يخص بنعمه هؤلاء الشعوب التى تصبغ صحائف تاريخها بدماء الشهداء !

لا تنسوا يا جنود الله ! إن بنى إسرائيل كانوا أمة أحبهم الله واصطفاهم ولكنهم عندما تخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله وفوضوا أمره إليه وإلى رسوله أصبحوا أمة ملعونة مطرودة ألبسها الله لباس الذل والخزى والخسران ، وأصبحوا اليوم لا مأوى لهم ولا ملاذ وقد

كانوا أمة قاهرة سعيدة ، ولا سمح الله ليوم يأتى عليكم تهملون فيه الجهاد كما أهمله بنو اسرائيل !

إخوتى أصدقائى ! إن يومكم هذا يوم اختبار ومحنة شديدة وسوف تتبعون سنة الذين جاهدوا فى بدر وحنين سوف تتبعون آثار أقدام الشهداء فى اليرموك والقادسية ، اننى على ثقة وإيمان بأن الفئة التى اختارها الله لنصرته اليوم إنما هى أنتم يا جنود الله ، إننى على ثقة وإيمان بأن حديد السند لن يكون أقوى وأصلب من حديد الروم والفرس فى وجه سيوف الحق . . إن الظالمين لا يكونون أبطالا أبدا ولكننى مرة أخرى أؤكد لكم بأنكم ستطهرون طريق الحق بسيوفكم وتزيلون عنها أشواك الباطل ولكن حذار أن تمزقوا زهرة خلال هذه العملية الخطيرة . . لا تقتلوا العدو الساقط ، ولا تعتدوا على النساء والأطفال والشيوخ والضعفاء . . إننى أعرف أن ملك السند قد أساء إلى النساء والأطفال العرب وأخشى أن تسوقكم غريزة الانتقام فتصبحوا ظالمين ! إن فى شريعة الله يقبل توبة المذنبين . تغلبوا على العدو وحققوا له بأن حميتكم إنما هى حمية الله وغيرته ، وأن سيوفنا إنما هى سيوف الله ! ولكنه إذا اعترف بهزيمته واستسلم أمامكم واستجاركم فعليكم أن تعانقوه وتقولوا له بأن أبواب الرحمة الإلهية لا تغلق فى وجه عبد من عباد الله !

إنكم يا فرسان الإسلام ! لتعرفون بأنه ما أوذى أحد كما أوذى الرسول ﷺ على أيدى الكفار بمكة . . إنهم لم يتركوا حيلة من حيل الظلم والأذى إلا جربوها ضد هذا الرسول الصادق الأمين ﷺ

فقد وضعوا الاحجار الساخنة الملتهبة على صدور الفدائيين من أصحاب النبي المبعوث رحمة للعالمين ! وعندما هاجر إلى المدينة تعقبوه ولم يتركوه يعيش آمنا حتى استشهد من اصحابه الكثيرون فى الغزوات والحروب ولكن مع ذلك كله فان المعاملة التي عامل بها الرسول ﷺ أعداءه يوم فتح مكة هى التى لا نجد لها نظيرا فى التاريخ البشرى كله ! وقد كانت النتيجة بأن أعدى أعدائه كانوا قد اصبحوا أوفى أتباعه ! إن بلاد افريقيا وتركستان التى قاتل أهلها ضد جيوشنا قد اخذوا الآن يجاهدون مع جيوشنا من أجل الانتصار لدين الله الحق ومن ذا الذى لا يستطيع أن يقول إن السند بل الهند كلها سوف تقاتل بجانبنا من أجل الانتصار لدين الله الحق . . اصدقائى! إن هدفنا اليوم إنما هى مدينة (برهمن آباد) فلندعو الله عزوجل ان ينصر الحق على الباطل !

ثم أن محمدا رفع يديه يدعو الله ويقول : يارب ! يا مالك يوم الدين ! إننا نريد الانتصار لدينك الحق فأعطنا من التحمس والعواطف ما أعطيته لأسلافنا الصالحين يا رب العالمين ! لا تخز أمهاتنا بسببنا يا رب ! نرجوك حياة الغزاة وموت الشهداء !

كان جيش الملك (داهر) قد تراجع عند المساء بعد أن ترك ثلاثين ألف قتيل فى ميدان المعركة ، أما كتائب الجيش التى كانت قد استيقنت الهزيمة عند الظهر ، فكانت قد توجهت نحو مدينة الرور (حيدر آباد) أما البقية الباقية من الجيش فاتجهت وولت هارية نحو (برهمن آباد) عندما تأكدت من موت الملك (داهر) فى المعركة .

فتعاقبهم المسلمون قليلا ثم عادوا إلى معسكرهم وأما الشهداء

والجرحى من المسلمين فقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة ! وكان الجنود قد أخذوا يحملون الجرحى ويضعونهم فى صفوف . وانشغل محمد بن القاسم بتضميد الجرحى وعلاجهم مع الأطباء والجراحين ، فجاء الزبير يحمل على ظهره جريحا حتى وضعه عند محمد بن القاسم وقال له : أنظر إليه ! فقد أصيب بجروح شديدة هائلة !

فنهض محمد مسرعا حتى اقترب من الجريح فقال : من ؟ سعد؟

وكان وجه سعد قد ضرج بالدم ، فحاول محمد أن ينظف وجهه إلا أن سعدا أخذ بيد محمد فتبسم ثم قال له : لا حاجة إلى ذلك الآن إنما كنت أريد أن أراك للمرة الأخيرة !

فنظر محمد والزبير إلى هنا وهناك فوجدا خالدا يسقى الجرحى فناداه الزبير فأسرع خالد إلى سعد يقول : أنت ياعم ! فمد سعد يده إلى خالد فأخذها وجلس عنده فقال له سعد : إننى لا أخاف الموت إلا أننى أذنبت ذنوبا كثيرة فهل أنت على يقين بأن الله سوف يغفر ذنوبى !

فقال له محمد بن القاسم : إن دم الشهيد يغسل ذنوبه كلها فنظر إلى خالد وقال له فى صوت خافت ضعيف : يا بنى ! أوصيك بالزهراء خيرا أما أنت يا زبير ! فلا أرى حاجة إلى أن أوصيك فى أمر ناهيد . ثم نظر إلى وجوههم وأخيرا ركز نظراته على وجه محمد فتضاءل نور عينيه فتنفس سعد أنفاسا سريعة متقطعة ثم أرخى يدى خالد ومحمد وكان بعض أصحاب سعد قد اجتمعوا حوله ثم جس محمد نبضه فاسترجع يقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) ثم غطى عينيه .

(٤)

ثم نهض محمد بن القاسم يريد أن يواصل علاج الجرحى مرة أخرى إلا أن فارسا فاجأه وكان يحمل جريحا فرآه محمد وسأل : أنت يا (بيم سنك) ومن هذا ؟

فأنزل الفارس جريحا آخر من الفرس ووضعه على الأرض فقال (بيم سنك) وهو ينزل من الفرس : انظر إلى أبيك يا خالد . وكان خالد جالسا عند سعد وقد أطرق برأسه فرأى الجريح وأسرع إليه صارخا وأخذ برأسه فوضعه فى حجره وهو يقول : يا أبت . يا أبى .

وعند ما لم يرد عليه الجريح نظر خالد إلى (بيم سنك) وقال له : من أين جئت به ؟ وكيف أصيب بهذه الجروح ؟

فرد (بيم سنك) : انفلت أنا وأبى وأبوك من السجن بمساعدة ضابط من ضباط الجيش السندى ، وعندما وصلنا هنا رأينا جيش الملك يفر منهزما ومع أن أبى حاول منعه إلا أن أباك حمل على كتيبة فشاركناه أنا وأبى فى هذه الحملة ، أما أبى فقد أصيب بسهم فسقط من الفرس فداسه فيل بأرجله . ثم سكت (بيم سنك) واستعبر باكيا ثم استأنف كلامه يقول : أما أبوك فأخذ يتوغل فى جيش العدو فقتل خمسة أو ستة جنود ثم سقط من الفرس وكان آخر أمنيته أن يرى ابنه ، فافحصه جيدا فأنى أظن إنه لا يزال حيا حتى الآن .

فأشار محمد بن القاسم إلى بعض الجنود قائلا : اذهبوا معه وهاتوا بجثة أبيه يعنى أبا (بيم سنك) . ثم التفت إلى أبى الحسن

فجس نبضه وقال : إنه مغشى عليه . . هاتوا بالماء .

فملأ جندى كأسا من الماء وأعطاه لمحمد بن القاسم الذى فتح فم أبى الحسن وسقاه بضع قطرات من الماء ، فاستفاق أبو الحسن وفتح عينيه إلا أنه عاد إلى ما كان عليه عندما رأى ابنه خالدا وعرفه معرفة جيدة ، وحين أفاق ثانية عالج محمد بن القاسم جروحه وضمد عليها .

وكان أول ما سأله أبو الحسن من خالد هو : "وأين أمك ؟"

(هى ! . . . هى) وأخذ يلتفت يمنة ويسرة فى دهشة فقال له أبو الحسن وعلى وجهه ابتسامة مؤلمة :"لا تحزن يا بنى ! فقد عرفت أنها ليست فى هذه الدنيا الآن ولكن أين ناهيد ؟"

— هى فى (ديبل) .

— معنى ذلك أن زوجتك أيضا فى (ديبل) ؟ يا ليتنى أراهما قبل أن أموت ، ولكن الطريق بعيدة والوقت ضيق !

فقال محمد بن القاسم وهو يواسيه : لا تفكر فيهما ! سأرسل الآن فى طلبهما ! إنهما ستصلان هنا بعد الغد بخيل البريد إن شاء الله.

فنظر أبو الحسن إلى محمد بعين الشكر والامتنان فقال له : شكرا لك يا سيدى ، ولكن ربما لن أعيش إلى ما بعد الغد .

فقال له محمد بن القاسم : إن جراحاتك ليست خطيرة فاذا كان فى إرادة الله أن تراهما فسوف تراهما .

وفى اليوم الرابع بعيد طلوع الشمس كان قد اجتمع حول سرير

أبى الحسن إلى جانب محمد بن القاسم وخالد والزبير ، ناهيد وزهراء ! ومع أن ناهيد والزهراء كانتا متعبتين بعد السفر المضنى الطويل فى تلك الليلة إلا أنهما سهرتا فى عيادة أبى الحسن .

نظر أبو الحسن إلى ناهيد والزهراء وخالد قبيل النزع و هم يسكبون الدموع فقال لخالد : يا بنى ! لم أكن أتمنى موتا أكرم من هذا ! إن البكاء وإراقة الدموع من تقاليد الدنيا القديمة ، بيد أن هذه التقاليد عند الشهادة إنما هو استهزاء بها ! لا تنظر إلى بهاتين العينين المغرورقتين . . إننى أبغض الدموع ! إن رأسمال الرجل المؤمن فى ساعات حرجه فى الحياة ليست الدموع وإنما هو الدم !

فمسح خالد دموعه وقال : عفوا يا أبى .

وعند الظهيرة من ذلك اليوم كان أبو الحسن قد لبى داعى الله وانتقل إلى جوار رحمته .

❁ ❁ ❁ ❁

من برهمن آباد الى الرور

بعد ما وصل (جى سنك) إلى برهمن آباد) بعث برسله إلى كل ناحية من نواحي البلاد ، وكان بعض ملوك (راجبوتانه) وأمراؤها قد تحركوا لمساعدة الملك (داهر) قبيل هزيمته فى تلك المعركة ، إلا أن محمد بن القاسم كان قد توجه بعد فتح (نيرون) إلى (سيون) و (سيوستان) قبل أن يتوجه إلى (برهمن آباد) مما جعل هؤلاء الملوك والأمراء يطمئنون لأنهم ظنوا أن لديهم الوقت الكافى للاستعداد واقتحام المعركة الحاسمة النهائية عند (برهمن آباد) . . كان النهر متلاطما فى شهر يونيو ، ولم يكن أحد يتوقع أن محمد بن القاسم لن ينتظر ليهدأ الماء لذا فان هؤلاء الملوك والأمراء لم يستعجلوا فى الأمر وفضلوا التريث كما أن الملك (داهر) نفسه لم يكن يقدر ذلك وإنما استعجله محمد بن القاسم بالخروج ولم يمهله حتى يستعد كما أن أنصاره ومساعديه لم يتمكنوا من الوصول فى الوقت المناسب .

وقد يئس أكثر هؤلاء المساعدين والأنصار بعد هزيمة الجيش السندى وقتل الملك (داهر) فبدل أن يصلوا إلى (برهمن آباد) لمساعدة (جى سنك) أخذوا يتراجعون من الطريق ! أما (جى سنك) فقد كان يثق فى مساعدتهم ويستعد لحرب حاسمة نهائية ثانية ومن ثم أعان أن الملك (داهر) لم يقتل وإنما انهزم فى المعركة ومن ثم توجه إلى جنوب الهند للحصول على مساعدة من ملوك تلك المنطقة وأمرائها !

وأنه سوف يصل بعد بضعة أيام إلى (برهمن آباد) على رأس جيش عرمرم ، وعند ما وصل رسل (جى سنك) إلى هؤلاء الملوك والأمراء المتراجعين من الطريق ببشرى وصول الجيش العرمرم تحت قياد الملك (داهر) أخذوا يعودون مرة أخرى ويجتمعون تحت راية (جى سنك) رجاء للمساهمة فى معركة مصيرية حاسمة أخرى .

وعندما سمع محمد بن القاسم هذه الأنباء ، أسرع يتقدم نحوهم وكان قد اجتمع تحت راية (جى سنك) خمسون ألفا من الجنود لمواجهة محمد وجيشه خارج مدينة (برهمن آباد) بينما عدد كبير من أهالى السند بالإضافة إلى بعض أمرائها كانوا قد انضموا إلى جيش محمد بن القاسم وكان (بيم سنك) يقود هؤلاء الأهالى والأمراء السنديين فقامت معركة هائلة خارج سور (برهمن آباد) وقاتل جنود (جى سنك) بكل جرأة وحماسة إلا أن بعض الجنود السنديين الذين كانوا قد اشتركوا فى هذه المعركة يئسوا عندما رأوا عددا كبيرا من إخوانهم قد اجتمعوا تحت راية العرب وخذلوا (جى سنك) وجيشه وكذلك فان بعض زملاً (بيم سنك) لبوا دعوته وصاروا الى الجيش الاسلامى قبل أن تنشب الحرب . ورغم ذلك كله فان (جى سنك) كان يثق فى وصول المدد فقاتل قتالا عنيفا وأبلى بلاء حسنا . . وعند الظهر أخذ الجيش السندى ينهزم فهرب إلى ناحية الجنوب تاركا عشرين ألفا من القتلى فى الميدان .

(٢)

كانت (لادى) الزوجة الصغرى للملك (داهر) وأحبهن إليه

جالسة على مسندها الذهبى وقد بدت على وجهها آثار الحزن واليأس وحولها الخوادم والأمراء ورجال الحاشية قد اصطفوا إجلالا وتكريما لها .

دخل (برتاب راى) مطرقا برأسه يمشى بخطوات بطيئة حتى اقترب من الملكة فقال لها فى صوت خافت : لقد انهزم (جى سنك) أيتها الملكة ! وأن العدو على وشك احتلال المدينة وليس لدينا من سبيل سوى الفرار ونستطيع أن نهرب من طريق النفق .

فردت عليه الملكة رد المبغضة المتبرمة تقول : أما نبأ الهزيمة فكفانى بذلك النسوة العاملات وقد أخبرننى فعلا ولا حاجة إلى أن تخبرنى بها ، ولكن لماذا خذلت الجيش ووليت دبرك من الميدان ؟

ــ إنما كنت أريد أن أدافع عن الملكة فقد كان من واجبى أن أحميها ! وليس لدينا وقت للمناقشة وقد أعددت فرسين على رأس النفق وتستطيعين الوصول إلى (السرور) بدون أى خوف أو خطر .

فزجرته الملكة قائلة : إننى أفضل أن أقتل على أيدى العدو الباسل على أن أبقى فى حماية الجبناء من أمثالك .

فخجل (برتاب رأى) من قولها فرد عليها : إن هذا ليس غدلا منك أيتها الملكة نحو خادم مخلص مثلى !

ــ لقد حانت ساعة العدل نحوك ! ثم نهضت الملكة من مكانها فاضطرب (برتاب راى) وقال لها : ماذا تقولين أيتها الملكة ؟

إننى لا أقول إلا ما فيه مصلحتك !

فقالت الملكة فى لهجة راعدة غاضبة : أنت أكبر الأعداء لهذه البلاد ! إن هذا البلاء العظيم إنما نزل على السند بسببك أنت وأنت الذى أغريت الملك وحرضته على عداوة العرب والمقاتلة ضدهم . . وأنت الذى جعلت (جى رام) عدوا لنا ! وقد صار إلى الأعداء أبطالنا من أمثال (أودى سنك) و (بيم سنك) لا لسبب سوى حمقك ، وأنت أول من هرب من ميدان الحرب الأخيرة ، وأنت الآن لا تريد أن تحمينى وتذود عنى وإنما تريد أن تأخذنى معك لتنجو بنفسك وذلك لأن العرب لا يعتدون على النساء ولعلهم يرحمونك بسبب وجودى معك .

فقال (برتاب راى) : ماذا تقولين أيتها الملكة ؟ اسمعى . لقد أخذ العدو يدخل القلعة وإنهم سيدخلون علينا بعد لحظات ، ومادمت لا تخافين ذل الأسر فاننى أستاذنك الآن .

وأراد (برتاب راى) أن يخرج إلا أن الملكة وقفت فى سبيله وجردت خنجرا لامعا وقالت له : انتظر ، فما تم القضاء فى أمرك إلى الآن .

فرأى (برتاب راى) الناس وقد أخذوا يلتفون حوله بسيوف شاهرة فوثب وثبة ثم جرد سيفه من غمده فأخذت الملكة سيفا من يد أحد رجال الحاشية وتقدمت نحوه تقول : أيها الجبان ! إن يديك لم تخلقا لحمل السيف ، وإنما خلقتا لتلبسا الحلى والحلقات الزجاجية .

فحمل (برتاب راى) على الملكة كالوحش الضارى الجريح إلا

انها تنحت مسرعة وقبل أن يرفع سيفه مرة اخرى ، وثب عليه أربعة من رجال الحاشية وخرقوا صدره !

﴿ ٣ ﴾

وكانت هتافات (الله اكبر) ترتفع فى كل جانب من القلعة، فاطلعت الملكة من نافذة الطابق العلوى للقصر وألقت نظرة عابرة على الجهات الأربع فرأت العلم الإسلامى يخفق على باب القلعة مكان علم السند وكان الجيش الإسلامى قد أخذ يجتمع فى الفناء الواسع للحصن وكان على مقدمته شاب يركب فرسا أبيض ، وسمعت الكثرين من جنود السند يهتفون قائلين : "عاش محمد بن القاسم" فأشار أحد رجال الحاشية إلى راكب الفرس الأبيض قائلا : ذاك هو محمد بن القاسم.

فأخذت الملكة تنظر إليه وهى تغلى من الغضب ، فتقدم نحوها رجل عجوز من رجال الحاشية وقال لها : وحتى الآن لدينا فرصة للفرار أيتها الملكة !

فخطفت الملكة قوسا وسهاما من جندى وقالت وهى تصوب هدفها نحو محمد بن القاسم : لا مكان فى هذه الدنيا الملوك والملكات الذين يفرون !

ولكن سمعت فجأة وقع أقدام من ورائها فالتفتت نحو الباب الأيمن من الغرفة فرأت القائد (بيم سنك) يدخل ومعه بعض الكبار من رجال السند ، فأشاحت الملكة بوجهها ، وأخذت تصوب هدفها نحو محمد بن القاسم مرة أخرى فصاح بعض الجنود الموجودين فى الفناء فمال محمد فجأة إلى جانب وقبل أن يسرع (بيم سنك) إلى

الملكة ليأخذ بيدها كان السهم قد سبقه إلى محمد بن القاسم الذى اخطأه السهم فحاولت أن ترمى سهما آخر ، إلا أن (بيم سنك) تقدم نحوها وخطف القوس من يدها قائلا : ماذا تفعلين أيتها الملكة ؟ نشكر إلهنا على أن يديك كانتا ترتعدان حين رميت السهم . . انك لا تعرفين مدى انتقام الجيش الفاتح المنتصر ، وإن كنت تظنين ان موت القائد سوف يجعلهم ييأسون فانت مخطئة . . إن هذا الجيش ليس من تلك الجيوش التى تنهزم بموت القائد فتفر من الميدان ، إن كل جندى من جنودهم لقائد من قوادهم .

فنظرت الملكة إلى (بيم سنك) وقد ترقرت الدموع فى عينيها وقالت له : ماذا تريد بنا الآن يا (بيم سنك) أما شفيت نفسك وغليلك فى الانتقام منا ؟

فقال (بيم سنك) : لا أريد إلا أن أعرف مكان الأسرى العرب فقد عثرنا على بحارة (سرنديب) فقط فى سجنكم وقد علمت من هناك أن الأسرى العرب جئ بهم من السجن إلى القصر بعد موت الملك وأننى على ثقة بأنك ما أسأت المعاملة إليهم ، كما أن الحارس قد أخبرنى أن (برتاب راى) أيضا عندك فى القصر أرجو أن لا تكونى قد أسأت إليهم نزولا على مشورة من (برتاب راى) .

فقالت الملكة : ولنفترض أننى أسأت إليهم فماذا يحدث ؟

— إن المسلمين لا يعتدون على النسوة إلا أنهم لن يعفوا عن (برتاب راى) فيما أعتقد .

— ولنفترض أننى قد أمرت بقتلهم فماذا سوف يحدث ؟

فقال (بيم سنك) فى دهشة : هذا يعنى أن عهدا أكثر شقاء .

ينتظر بلاد السند ، إلا أننى لا أتوقع ذلك منك ! وقد أخبرت محمد بن القاسم أنك كنت تعارضين دائما جلالة الملك و (برتاب راى) فى نياتهم السيئة نحو الأسرى العرب ! وانه ليشكرك على مشاعرك ويعتبرك صاحبة فضل .

تأملت الملكة قليلا ثم قالت : وإن سلمت هؤلاء الأسرى إلى العدو فهل يمكن أن يغادر بلادنا .

فقال لها (بيم سنك) إن الجيش المنتصر لا يرجى منه الموافقة على الشروط ، وإن الفرص التى أتيحت لنا لنتصالح معه قد ضاعت بسبب التكبر ونشوة القوة التى أعمت أبصارنا ، وهم الآن يريدون ان يصلوا فى فتوحاتهم وانتصاراتهم أقاصى بلاد الهند .

— وهل أنت متأكد أنه سوف يهاجم مدينة (الرور) بعد هذا ؟

— نعم ! أعتقد أنهم سيتقدمون نحو (الرور) فى خلال أربعة او خمسة أيام قادمة ! وقد حضرت عندك أيضا من أجل الأمير (فيفى) الذى يحتمى الآن مدينة (الرور) وأظنك لا تحبين أن تطأه سنابك خيل المسلمين . إنك بتسليم الأسرى إلى محمد بن القاسم يمكن أن تخلصيه منه . إن جنود السند الذين انضموا إلى الجيش الإسلامى يفوق عددهم ما عند الأمير من الجنود . وأن الأمير شجاع ولكنه شاب غر لا خبرة لديه إنه لا يستطيع أن يواجه الجيش العربى ، ولا يمكن له النجاة إلا بالاستسلام .

فترددت الملكة متأملة ثم قالت : لقد سمعت أن العرب

يطمعون فى المال فاذا وافقوا على الرجوع ومغادرة البلاد فانا مستعدة أن أدفع لهم كل ما فى خزائن (برهمن آباد) و (الرور) .

فقال لها (بيم سنك) : إنهم يقاتلون من أجل المبادئ ولم يأتوا هنا للتجارة وجمع الأموال !

ـ إنك تحمل فى قلبك إجلالا كبيرا للعرب فما هو السبب ، وما هو السحر الذى أثر فى قلبك إلى هذا الحد ؟

تقدم (بيم سنك) بضع خطوات . ثم أشار إلى الأسفل ثم قال : السحر ؟ انظرى إلى هؤلاء ! من الذى لم يؤثر سحرهم فى نفسه ؟

فنظرت الملكة نحو الجمع المحتشد فاذا بوجهاء المدينة وكهانها يحيطون بمحمد بن القاسم ويحاولون أن يمسوا قدميه ، وقد نزل من فرسه يمنعهم عن ذلك .

وقال (بيم سنك) : أرأيت أيتها الملكة ؟ هؤلاء هم الذين كانوا يعتبرونه أعدى أعدائهم قبل لحظات . . إنه عندما حمل على بلادنا لم يكن لديه غير عشرة آلاف أو أكثر من الجنود أما الآن فقد اشترك معه ما يزيد على ثلاثين ألفا من جنود السند . إننا نملك السلاح والدروع لندافع عن الأجساد ، أما أسلحة الأخلاق الكريمة والشفقة والحب التى تفتح قلاع القلوب وحصون النفوس والأرواح فلا نملك منها شيئا . . . إن الأجيال القادمة من أبناء السند لن يعتبروا محمد بن القاسم عدوا لهم وإنما يعتبرونه أحب أحبائهم وبطلا من أبطالهم إنك لتعرفين بأننى لست جبانا ، إننى لم أذهب إلى (لسبيلا) بعد الهزيمة لأعود حيا سالما ولكن ياليته لم يعانقنى ولم يضمنى إلى

صدره عندما كنت ساقطا على الأرض أكابد آلام الجراح . إنه خطفني من براثن الموت فضمد جروحي وتولى بنفسه علاجي فشعرت بأنه لا يمكن أن يتغلب أحد على عدو من أمثاله ، ولن ينتصر عليه أحد أبدا .

وقد جئت إلى جلالته لأنقذه من السقوط فى المهلكة والوثوب فى النار ولكننى قوبلت أنا ووالدى بما لا يقابل المسلمون به أعداءهم إننى إلى الآن لا أزال أحب شعبى وقد جئت إليك من أجل ابنك لأنقذه من المهلكة ، وإذا كان الأسرى عندك فأرجوك تسليمهم إلى ، إنهم قد وصلوا عند بابك إلا أنهم إذا علموا بأنك لا زلت فى القصر فسوف يصدرون التعليمات إلى الجيش بأن لا يدخل جندى فى القصر مادامت الملكة نازلة فيه !

تقدمت الملكة نحو غرفة وقالت (لبيم سنك) : تعال معى .

فأمر (بيم سنك) جنوده أن ينتظروه هناك ومشى يرافق الملكة فذهبت به أولا إلى غرفة كانت جثة (برتاب راى) ملقاة فيها وحين اخبرته الملكة بأن (برتاب راى) قد قتل بأمر منها سر جدا وقال لها : نشكر (بجوان) على أنك عرفت أخيرا عدوك من صديقك واستطعت أن تميزى بينهما .

فقالت الملكة : كنت أعتبره عدوى منذ البداية ولكن يا ليت جلالته وافقنى فى أمره ! وإذا أردت أن تقابل الأسرى العرب فانهم موجودون فى تلك الناحية من القصر ، إن صاحب الجلالة لم يوافقنى فى حياته أما بعد موته فقد طلبتهم عندى وأنزلتهم ضيوفا لدى ، ولكن

لم يكن ذلك لإرضاء المسلمين وإنما كنت أرى أنهم مظلومون . وقد أشار (برتاب راى) بقتلهم ولو ملك ذلك لم يتردد فى إمضاء ما كان يشيربه .

فقال (بيم سنك) : إن الجبان يظلم دائما ! وكيف حال الأسرى الآن ؟

فأجابته الملكة إننى لم آل جهدا فى الإحسان إليهم وقدمت لهم كل ما فى إمكانى من التسهيلات ، وتستطيع ان تسألهم شخصيا .

فقال (بيم سنك) : ما رأيك لودعونا محمد بن القاسم ليرى بنفسه فقد كان قلقا مضطربا بسببهم .

فقالت الملكة : اذهب وهات به .

﴿ ٤ ﴾

دخل محمد بن القاسم والزبير وخالد وناهيد والزهراء فى غرفة واسعة من ناحية القصر تتقدمهم الملكة ، فهرول على نحو خالد عندما رآه وعانقه وضمه إليه ، وكانت الملكة قد اخبرت عليا بانتصار المسلمين على جيشها ، وعانق خالد والزبير الأسرى الرجال واحدا بعد الآخر ، أما النساء فعانقن ناهيد وسكبن الدموع فرحا وسرورا ، وربت محمد بن القاسم رؤس الأطفال بشفقة وحنان ثم صافح الرجال واحدا بعد الآخر ثم عزى النساء وهدأ من روعهن وأخيرا خاطب الملكة ؟ "ايتها السيدة الكريمة ! إنى لأشكرك" .

فنظرت الملكة إلى محمد بن القاسم نظرة متفحصة فرأت أن

عينيه تشهدان على أن كلماته هذه ليست تقليدا رسميا فقط وانما تعنى أكثر منه .

فقال محمد بن القاسم للزبير وخالد : "إن لدى أعمالا كثيرة اذهبا بهم إلى المسكن" .

فقالت الملكة مترددة : "هل يمكن أن يبقوا عندى فى هذا القصر" ؟

فقال لها محمد : شكرا . ولكنه قد يزعجك ذلك .

فقالت الملكة : إذا لم أكن أسيرة فى أيديكم فسأسافر غدا إلى (الرور) وسأترك لهم هذا القصر خاليا .

فقال محمد بن القاسم : وكيف اكتشفت أن المسلمين يجزون مضيفهم هكذا ؟ وإذا أردت السفر إلى (الرور) فانى مستعد لأن آمر بعض وجهاء (برهمن آباد) ليرافقوك إلى (الرور) .

فألقت الملكة نظرة عابرة على محمد بن القاسم من الرأس إلى القدم ثم قالت له : او ذهبت إلى (الرور) أفلا يتعقبنى الجيش الإسلامى ؟

فقال محمد بن القاسم : إن مدينة (الرور) هى آخر حصن من حصون الملك الظالم ولا أستطيع أن أغير عزمى عن هدمه والانتصار عليه فقد عرفت عن وجود سجن هناك ينوء فيه الأسرى مثل أبى الحسن تحت وطأة القيود والأغلال منذ سنين ولا بد من تحرير هؤلاء الأبرياء .

فقالت الملكة : ولكن أبا الحسن قد هرب من السجن أما

بقية الأسرى هناك فهم من رعايانا . . إن النظر فى أمرهم هى مهمتنا وإذا كان لكم دستور أحسن من دستورنا فعليكم بتطبيقه فى بلادكم واتركونا وشأننا . . فقد تلقينا العقوبة والجزاء أكثر من اللازم لقاء إساءتنا نحو الأسرى العرب !

— ولكننا خرجنا فى سبيل الله ونحن نؤمن بأن البلاد بلاد الله فلابد من أن يطبق دستوره فى بلاده على عباده . . إننا نريد أن نقضى على الفوارق بين السيد والمسود والحاكم والمحكوم وأن نطبق المساواة بين أفراد البشرية أجمعين . . اننا نؤمن بحكم العدل والحق ولا نريد حكم الإكراه والاستبداد !

فقالت الملكة : ولكن الفوارق بين السادة والمسودين والملوك والرعية موجودة فى كل إمارة من إمارات الهند ! أفليس من الممكن أن تترك مدينة (الرور) وشأنها كما أهملتم شرائع الإنسان فى إمارات الهند الأخرى ؟

فقال محمد : إنك تخطئين فى فهمك إيانا ! إن مدينة (الرور) ليست هى آخر ما نهدف إليه وإنما نريد أن نبلغ هذه الرسالة إلى أقصى نواحى الهند ! وقد أصبحت السند هدفنا الأول لأن أصوات المعذبين المكبوتين فيها قد وصلت إلينا أولا !

ومرة أخرى نظرت الملكة إلى محمد بن القاسم ثم قالت له : فكأنك تحلم بفتح الهند كلها ؟

— نعم ! أريد انتصار الإسلام على الهند كلها ، و إنه ليس حلما وإنما هى حقيقة !

وقالت الملكة : لقد خرج الاسكندر اليونانى بالعزم نفسه من اليونان ! ويبدو أنك أصغر منه سنا ؟

— ولكن خرج الاسكندر كامبراطور ضد الملوك ولم يكن يريد تحرير البشر من عبودية الملوك وإنما كان يريد استعبادهم أما أنا فأرفض ملوكية البشر على الناس فى أرض الله ولا أعترف بوجودها ، إنه كان يثق بقوته أما أنا فأثق برحمة الله ، إنه كان يعتمد على مساعدة البشر أما أنا فأومن بنصر الله ، إنه لاقى أكبر هزيمة لأن جنوده كانوا قد عصوه ، أما أنا فأكبر انتصارى هو أن الذين كانوا أعدى أعدائى بالأمس قد اشتركوا اليوم معى ! وأنه ليس انتصارى ، وإنما هو انتصار الإسلام ، دين الله الحق !

فقالت الملكة فى يأس : "معنى ذلك أنك لا بد من أن تهاجم مدينة (الرور) ؟

— إنما هو واجبى !

فقالت الملكة راجية : إننى أعرف بأن المسافة ليست بعيدة بين (برهمن آباد) و (الرور) ولكنك إذا كنت ترانى أستحق أى إحسان فأرجوكِ أن ترحم ابنى ! إنه سيساعدك إلى آخر لحظة فأعطنى فرصة الوصول إلى (الرور) لأقنعه . إن (جى سنك) قد أكد له بأن جلالة الملك لم يمت وإنما هوحى ! وإنى أريد أن أقنعه بأنه لا فائدة فى المقاتلة الآن ! ولكن أرجو أن تعطينى عهدا بأنك لن تتعرض له بسؤ بعد استسلامه ! . . انه ابنى الوحيد . . وإذا لم يعجبك وجده و

فى السند فاننى سأخرج به منها وأذهب إلى بلاد أخرى !

قال محمد : إنى أعطيك العهد بأنه لن يمسه أى سوء . . وإنما نراه يستحق الكرامة منا إذا تنازل عن تأييد الباطل ضد الحق ! ومتى تحبين السفر إلى (الرور) ؟

— إننى أريد أن أسافر صباح الغد !

(٥)

إن مدينة (الرور) وإن كانت عاصمة السند فى تلك الحقبة إلا أن (برهمن آباد) كانت تحتل مكانة كبرى لأهمية موقعها من الناحية السياسية والعسكرية ، كما أن هذه المدينة كانت أكبر مدن السند من ناحية السكان . وأما الرسائل التى كتبها محمد بن القاسم إلى الحجاج بن يوسف والخليفة الوليد بن عبد الملك فكانت كلها تنص على أن دفاع السند العملى قد انتهى وأن قوات (الرور) سوف تستسلم بدون قتال حتى ولو أنها حاولت المقاومة فان هذه المعركة سوف تكون ضئيلة بالنسبة إلى المعارك الماضية ، وأن آخر مدينة من مدن السند المنيعة إنما هى (ملتان) ونظرا لمكانتها الدينية فان بعض أمراء (بنجاب) قد يساعدون حاكم (ملتان) السندى ! ولكنى أثق بنصر الله وعونه .

وكان محمد بن القاسم قد استلم التعليمات من الحجاج التى قال له فيها أن لا يدلل العدو المنهزم أكثر من اللازم ، إلا أن محمدا كتب إليه موضحا بأن سكان السند يختلفون تماما عن سكان بلاد

الترك والأندلس ، فانهم يعتبرون المسلمين منقذين لهم ! ولا يرجى منهم العصيان بعد المعاملة الحسنة من قبل المسلمين ، وأكبر دليل على ذلك هو أن الذين كانوا يحاربون ضدنا بالأمس قد اصبحوا اليوم من أنصارنا وأعواننا !

﴿٦﴾

وصلت الملكة (لادى) من (برهمن آباد) إلى (الرور) يرافقها بعض وجهاء مدينة (برهمن آباد) وحاولت إقناع ابنها بأن الملك (داهر) قد مات إلا أن الأم الرابة للأمير (فيفى) زوجة ابيه عارضت فكرة الاستسلام وطعنت فى أمه الملكة (لادى) بأنها قد صارت عميلة للمسلمين الأنجاس القذرين ! كما أن كاهن المدينة الكبير كان قد أعلن بأن الملكة قد دنست دينها بحديثها مع قائد الجيش الإسلامى[1] !

---

(١) وعلى أساس هذا الحادث يقول بعض المؤرخين بأن الملكة (لادى كانت قد أسلمت وتزوجت محمد بن القاسم وكان اسمها الاسلامى عائشة ! ولكنى أرى أن هذه الرواية اخترعها المؤرخون الذين ينسبون قصصا غرامية إلى كل قائد عظيم ويرون أنه ضرورى ، وهناك قصة مخترعة أخرى وهى أن محمد بن القاسم بعث بابنتين من بنات الملك (داهر) إلى الخليفة الوليد بعد فتح (الرور) وإن إحداهما أرادت أن تنتقم من محمد بن القاسم فقالت للوليد بأن محمد بن القاسم قد جامعها قبل إرسالها إليه فغضب الوليد وأمر بقتل محمد بن القاسم ، وحين أخبرته بأنها قد اختلقت هذه القصة لتنتقم من محمد أمر بقتلها أيضا ، ولو كانت الملكة (لادى) قد أسلمت وأصبحت زوجة لقائد الجيش الاسلامى لم يكن يجوز للمسلمين أن يرسلوها إلى (الرور) كسفيرة لهم وهل يجوز أو يمكن لقائد شاب أن يرسل زوجته إلى بلاط (الرور) علما منه بأن سكان المدينة سوف يثورون ضدها بسبب إسلامها ؟
أما القصة الثانية فرواتها يجهلون بأن الوليد كان قد توفى قبل موت محمد بن القاسم .

وانتشر هذا الخبر بألوان كثيرة فى المدينة على ألسنة الناس وأفواههم . وكان بعض الموظفين بمدينة (الرور) من أقارب الحاكم المقتول (برتاب راى) فأعلنوا على ملأ من رجال الحاشية فى البلاط وكانوا يريدون أن ينتقموا من الملكة (لادى) لقتلها الحاكم (برتاب راى) — بأن الملكة قد قتلت الحاكم (برتاب راى) إرضاء لمحمد بن القاسم ! فغضب الأمير (فيفى) من أمه بسبب هذه الأخبار وقال للملكة (لادى) : ليتك لم تكونى أمى !

ولم تكن تتوقع الملكة ذلك من ابنها الوحيد ! فنفذت كلماته هذه إلى قلبها كما ينفذ المفصد فى العروق ! فأخذت تنظر إلى كل من ابنها الوحيد وضرتها ورجال الحاشية ثم صرخت بصوت مرتعد تقول :

"أفلا تستحيى من أمك يا بنى ، أنا أمك ، ولو كنت آمل أملا ضئيلا فى نجاحك وانتصارا بمساعدة هؤلاء الناس لأمرتك أن تتعقب العدو حتى البصرة ولكن هؤلاء الذين أحاطوا بك لئام وجبناء فى نفس الوقت ! إن الذين لم يراعوا ذمة أبيك لا يمكن أن يراعوا ذمتك يا بنى ! ان العدو الذى هزم مئات الألوف من الجنود لا يمكن أن يواجهه عشرة آلاف أو عشرين ألفا من جندك ، وقد صار إليه نصف الجيش السندى ! وقد رأيت بعينى رأسى الوجهاء وهم يضعون جباههم على قدمى قائد الجيش الإسلامى ، . هؤلاء الوجهاء الذين يفوقون هؤلاء الجبناء بكثير من ناحية الغيرة . . والكرامة والحماسة . . إننى أرى مصلحتك كل المصلحة فى الاستسلام ! وإلا

فتذكر أن هؤلاء سوف يخذلونك فى ساعة الحرج الخطيرة . . إن الـذين يتحمسون الآن إنما هم الذين لم يواجهوا العدو حتى الآن !"

فثار الأمير (فيفى) وقال لأمه : اسكتى أيتها الأم ! إن أصحابى سيرافقوننى حتى الموت !

ـــ إذن فتذكر يا بنى ! إن حظهم فى هذه المعركة ليس إلا الموت !

وبعد شهر أنهى محمد بن القاسم التنظيم الإدارى للمدينة فتقدم من (برهمن آباد) إلى (الـرور) وأدرك الأمير (فيفى) أخيرا أن ما قدرته امه عن أصحابه صحيح ! ففى صباح يوم عرف الأمير ان بعض كبار رجال الحاشية قد فروا ليلا من المدينة بخمسة آلاف من الجنود ومحمد بن القاسم لما يعبر بعد نصف الطريق ! وعندما وصل محمد بن القاسم على مسافة مرحلة واحدة من (الـرور) انطلق ثلاثة آلاف من الجنود نازلين من سور القلعة بسلالم الحبل .

فانسحب قلب الأمير (فيفى) فهرب ببقية الجنود ! أما محمد بن القاسم فمكث بالمدينة بضعة أيام للتنظيم الإدارى ثم عين رجلا من كبار رجال السند الذين اسلموا حديثا ! ثم توجه إلى ملتان .

❀ ❀ ❀ ❀

عبدة الأصنام !

سمع محمد بن القاسم نعي الحجاج وهو يحاصر مدينة ملتان . وفى نفس الوقت تسلم رسالة من زوجته تذكر فيها وفاة أبيها وتخبره بأن أم محمد بن القاسم قد اشتد مرضها ولكنها تريد من ابنه ألا يعود إليها قبل أن يحقق ما يريده من فتوح الهند ، وكتبت زبيدة عن نفسها فى تلك الرسالة تقول :

"إننى لست إلا مثل أزواج المجاهدين الذين يقاتلون فى سبيل الله فى السند وتركستان والأندلس ، وكزوجة للقائد الفاتح لبلاد السند أرى من واجبى أن أتحمل فراقك وأن أكون أصبر على ذلك من أزواج الجنود العاديين وقد كتبت إلينا أنك تريد أن تطلبنا عندك بعد فتح (ملتان) ولكن صحة الأم قد لا تسمح لها بالسفر لبضعة أشهر أخرى ، وأخشى أن تفكيرك فى أسرتك قد يؤثر فى سرعة فتوحك وأن الأم إذا سمعت أنباء فتوحك فان وجهها يتلألأ فرحا وسرورا ويعود إليه رونقه ونضارته ، وكلما حنت إليك أسمعها تدعو الله عز وجل وتقول : اللهم ! أعطنى صبرا واستقامة مثل ما أعطيت لأمهات المجاهدين من الرعيل الأول فى تاريخنا ، وكلما تراني حزينة تهون على وتخفف عني وتقول : يا زبيدة ! إنما أنت زوجة مجاهد ! وسلامي إلى ناهيد والزهراء إننى أغبط تلك الأخوات اللواتى يشاهدن

الغبار الذى تثيره سنابك خيل المجاهدين فى ميادين السند كل يوم ، وإن أهالى البصرة ينتظرون النساء والأطفال الذين حررتهم من سجن (برهمن آباد) ومتى سترسلهم إن شاء الله ؟ ولا أملك من الدعاء لك غير أن أقول : أن تكون كل خطوة من خطواتك نحو العلا ! وأن أراك فى أسمى سعادة وأرفع مكانة ! آمين يا رب !"

وبعد بضعة أيام من المقاومة استسلم سكان ملتان فرجع محمد بن القاسم إلى (الرور) بعد أن عين الأمير (دادو) نصر على إمارة ملتان وبلغه فى طريقه بأن ملك (قنوج)[1] (هرى شندرا) قد أمن الأمير (جى سنك) ويستعد ليشن هجوما على السند ، فزحف محمد بن القاسم إلى (الرور) ومن هناك إلى (قنوج) دون أن يمكث فى مدينة (الرور) فالتقى الجيشان على حدود السند و (راجبوتانه) وكان الأمير (جى سنك) قد خدع الملك (هرى شندرا) قائلا بأن المهاجمين الأجانب لا يزيد عددهم عن عشرة الآف جندى ، ولكنه عندما رأى أن عدد الجنود السنديين يفوق بكثير عدد الجنود العرب لام (جى سنك) ووبخه ثم تركه فى الميدان وهرب ، أما (جى سنك) فقد أشار عليه بعض قواده أن يتصالح مع محمد بن القاسم ولكنه لم يقبل هذه المشورة إلى أن يئس من كل جانب ، وفر إلى المناطق الجنوبية، وأما قواده فرافقه اثنان منهم أما الباقون فطلبوا الأمان من محمد بن القاسم .

ثم عاد محمد إلى (الرور) ليقوم بتنظيم الإدارة فى السند وينظم

---

(١) وهى ليست مدينة قنوج الحالية فى جنوب الهند و إنما كانت عاصمة كبيرة عند (أودى جور) الحالية .

جيشه من جديد قبل أن يشن الهجوم على الإمارات المجاورة ، وكان رسول الخليفة قد وصل إلى (الرور) من البصرة قبل رجوع محمد إلى عاصمة السند فقال الرسول لمحمد بن القاسم : ايها القائد العظيم لقد جئتك بخبر مؤسف جدا !

فظهرت آثار القلق على وجه محمد بن القاسم إلا انه تحمل وابتسم ابتسامة شاحبة حزينة ثم قال : أو ليس هذا الخبر حول أمى ؟

فأومأ الرسول إثباتا ثم أخرج رسالة من جيبه وأعطاها لمحمد ففضها وقرأها ثم استرجع يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون

وفى ناحية القصر الملكى التى كانت قد خصصت لمحمد بن القاسم اجتمع وجهاء المدينة إلى جانب الأيامى من النساء اللاوتى كان ابن القاسم قد احتل فى نفوسهن مكانة الأخ الصالح أو الأب المشفق الرحيم وليس سطوة الفاتح المنتصر على بلادهن . . . كان هؤلاء يعتبرونه معبودا جديدا على أرض الآلهة فى عقيدتهم !

خرج محمد بن القاسم من القصر ليودعهم فألقى كلمة موجزة وشكر لهم على زيارتهم له !

وفى الليل جلس مرة أخرى أمام المصباح وأعاد قراءة الرسالة التى بعثت بها زوجته زبيدة وتركزت نظراته على الكلمات التى قالتها والدته وهى تجود بنفسها . إن روحى الآن سوف تتمكن من الطيران فوق المناطق التى يثبت ابني فيها رايات الفتوح الإسلامية !

﴿ ٢ ﴾

وبعد ثلاثة أشهر كان محمد بن القاسم قد أتم التدريبات والتنظيمات العسكرية لجنوده العرب ومئة ألف من الجنود السنديين حديثي الإسلام إلى جانب عدد ضخم من غير المسلمين الذين وإن لم يسلموا ، إلا انهم كانوا يعتبرون أن المساهمة فى الفتوح والانتصار لذلك القائد الشاب فى أقصى نواحى الهند إنما هى خدمة سامية للبشرية جمعاء ، ذلك القائد الذى أقام نظام الأمن والعدل فى البلاد المفتوحة فأصبح معبودا أو إلاها فى نظر هؤلاء المحليين الذين كانوا يعبدون كل قوة من القوى من دون الله . ، لقد كانوا يعتبرونه منقذا لهم ويشعرون بأن بقية المناطق الهندية فى حاجة إلى ذلك المنقذ العظيم !

وفى يوم من الأيام عرض أشهر الفنانين فى مدينة (الرور) قطعة فنية رائعة فى الميدان ، وقد كانت هذه القطعة الفنية تمثالا من المرمر كتب تحتها الكلمات التالية : "المعبود الذى أقام حكومة العدل والمساواة فى هذه البلاد" .

فاجتمع الآلاف من الأهالى حول ذلك التمثال وغطوه بالأزهار من الرأس إلى القدم ، وكان الكثيرون من وجهاء المدينة على استعداد لأن يدفعوا أغلى الأثمان للنحات إلا أن كهان المدينة كانوا قد قرروا بأن تمثال محمد بن القاسم إنما مكانه معابدهم وليست قصور الأثرياء ونظرا إلى أهمية التمثال فقد قرر الفنان أن يوضع فى معبد من

المعابـد . فاقترح الكهان لتمثال محمد بن القاسم معبـدا من معابد بوذا .

وفى المساء مر موكب من الكهان والأهالى يحملون التمثال إلى المعبد وكان القصر الحكومى يقع على طريق الموكب ، وعندما مر الموكب أمام القصر أسرع (بيم سنك) إلى محمد بن القاسم فأخبره بأن الأهالى يحملون تمثاله ليضعوه فى المعبد .

فاضطرب محمد وخرج من القصر مسرعا ، وعندما رآه المتظاهرون واقفا على درج باب القصر الملكى وقفوا أمامه ينظرون إليه ، فتقدم كبير الكهان إلى محمد وقال له : إن هؤلاء الناس لا يمكن لهم أن يكرموك أكثر من هذا ، إن هذا التمثال من روائع الفنانين فى بلدنا إلا أن صورتك التى فى قلوبهم ونفوسهم فهى أجمل وأطهر من هذا التمثال !

فخاطب محمد موكب الأهالى بصوت جهورى يقول : "انتظروا أريد أن أقول لكم كلمة" .

فهدأت أصوات النواقيس والصفارات وسكنت حركات الجميع فتحدث محمد بن القاسم عن عبادة الأوثان والأصنام وقال : إن الشرك هو أكبر الكبائر وفى ختام كلمته وجه إليهم رجاء يقول : لاتجعلونى عاصيا مذنبا ، إن ما تجدون من المزايا والمحاسن فى شخصى إنما ترجع كلها إلى دين الله الاسلام . فاذا كان فى إمكانى أن أصبح نموذجا جميلا رائعا بسبب هذا الدين القيم فان باب الإسلام مفتوح على مصراعيه أمام البشرية كلها ، لا تعبدونى أبدا ، وإنما يجب عليكم

أن تعبدوا الله الذى خلقنى والذى أعبده أنا . والذى جاء دينه هاديا للانسانية ويعلمها العدل والحرية والمساواة للبشر" .

وكان الناس قد غلبت عليهم العواطف ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يرفضوا أمر المعبود الحى اليقظان من أجل تمثاله . ولكن حين قال لهم محمد بن القاسم : إن هذا الوضع قد آذى روحى وقلبى . تقدم النحات نحوه وطوى يديه على صدره ووقف بين يديه يقول : إنه لا يستطيع أن يترجم عن عواطفه إلا بنحت تمثال . وقد سمعت عن أسماء الآلهة وصنعت تماثيلهم الخيالية إلا إننى استيقنت بعد أن رأيتك بأننى إذا صنعت أية صورة لأى إله فانها لن تكون إلا على صورتك أنت ! وقد أصيب ابنى بالجراح فى حرب (لسبيلا) وكنت الذى قمت بعيادته وتضميده مع بقية الجرحى ، فاندملت جروحه ولكنه مرض عندما وصل عندى فتوفى بعد أيام ، وقد رأيته يقبل منديلك الذى ضمدته به على جراحه وكان قد أخذ منى عهدا بأن أصنع لك تمثالا ، ولكنى أراك غاضبا على هذا وأظن أن روحه قد تتعذب بذلك أيضا ، أننى أفضل إطاعة أمر معبود ابنى على طاعته ومادمت تأمرنى بذلك فانى مستعد لأن أكسر هذا التمثال بين يديك .

فقال له محمد بن القاسم : "وبذلك تحسن إلى وتطوقنى منة" .

— إحسانا ومنة . لا تقل مثل هذا يا سيدى . ، فأنت معبود بالنسبة إلى وحتى بعد أن أكسر تمثالك هذا ، وأن مئات الألوف من سكان السند سوف يعتبرونك معبودا وإلها أيضا .

فقال محمد : أما أنا فأرجو أن أعرف فى هذه البلاد خادما

من خدام البشرية فقط ، وذلك يكفيني .

فقام النحات على رغم أنفه فأخذ مطرقته وضرب بها التمثال ضربة حطمته إلا إن الجميع انكبوا يتهالكون على حطام التمثال كانها كومة من الجواهر واللالى .

وقد أثر الحادث فى نفوس الكثيرين من أهالى (الرور) فأخذوا يرغبون فى تعاليم الإسلام فبدأ عدد معتنقى الإسلام يزيد يوما فيوما فى بلاد السند حتى أصبحت بلادا إسلامية !

﴿ ٣ ﴾

وتوجه بعض قواد الجيش إلى ديارهم فى إجازة وكانوا يعتزمون أن يأتوا بأسرهم معهم ويتوطنوا السند .

فكتب محمد بن القاسم إلى زبيدة أن تأتى إليه وترافق السيدات القادمات من البصرة إلى السند ، كما أنه كتب إلى والى البصرة بأن يقوم بترصيلها إلى (الرور) تحت حماية الجنود مع أولئك السيدات العربيات .

ثم بدأ يخطط لفتح (راجبوتانة) و (بنجاب) وبعد نقاش ودراسة استمرت بضعة أيام قرر فى نفسه أن يفتح (راجبوتانة) قبل (بنجاب) وكان ينوى أن ينهى مهمة (راجبوتانة) قبل وصول زوجته زبيدة ثم يجعل (ملتان) مقاما دائما لجيوشه ويتوجه للاستيلاء على (بنجاب) من بعد فخاطب جنوده يوما فى قاعدة عسكرية خارج المدينة بعد مغادرة الجنود الذاهبين فى إجازة إلى البصرة بسبعة أيام فأمر الجيش الإسلامى

بالتحرك فى الصباح الباكر إلى (راجبوتانة) .

إلا أن شمس السعادة لهذا القائد الإسلامى الفذ كانت قد أخذت تغرب عند منتصف النهار على رأى بعض المؤرخين الأوربيين وبعد صلاة الفجر كان أهالى (الرور) قد اجتمعوا فى المعسكر يودعون محمد بن القاسم وجنوده ، وكانت النساء يتسابقن فى تطويق قلائد الأزهار فى أعناق الجنود وفجأة ارتفع غبار من ناحية وفى لحظات ظهر خمسون من الفرسان العرب المسلحين ، وكان محمد بن القاسم راكبا على فرس أبيض يتجول فى صفوف الجيش ، فدهش محمد لسرعة سير الفرسان العرب القادمين من بعيد فتنحى مع بعض قواده ، وأخذ ينتظر القادمين .

وكان من بين هؤلاء الفرسان بعض قواد محمد بن القاسم الذين كانوا قد ذهبوا إلى البصرة فى إجازات قبل أسبوع ، فتقدم فارس منهم نحو محمد وسلم إليه رسالة قائلا : هذه رسالة إليك من امير المؤمنين سليمان بن عبد الملك .

فقال محمد فى دهشة : امير المؤمنين . . . سليمان . !

فقال الفارس : نعم فقد توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك .

فاسترجع محمد بن الفاسم يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم فتح الرسالة فقرأها ثم أطرق برأسه وفكر قليلا ثم قال للرسول :

ــ هذا ما كنت أتوقعه من سليمان . ومن هو يزيد بن أبى كبشة ؟

فتقدم رجل طاعن فى السن بفرسه وقال له: أنا يزيد بن أبى كبشة.

فتقدم محمد بن القاسم بفرسه إليه وصافح يزيد بن أبى كبشة ثم قال له : أهنئك بمنصب القيادة لهذا الجيش وانا مستعد لأن أتقيد كما أمرنى به أمير المؤمنين !

فما وسع يزيد بن أبى كبشة إلا أن يتأثر بابتسامة محمد الحزينة ثم نظر إلى ذلك الجيش العرمرم الذى كان ينتظر أمر القائد للرحيل ثم نظر إلى هؤلاء القواد الذين كانوا قد اجتمعوا حول محمد بن القاسم عندما سمعوا نعى الوليد وخلافة سليمان بعده فشعر يزيد بن أبى كبشة كأنه فى موقف المتهم بين القائد لمئة ألف فدائى . والجملة التى قالها محمد بن القاسم كانت تتردد فى أذنيه وهى : (وأنا مستعد لأن أتقيد كما أمرنى به امير المؤمنين . .) فشعر يزيد كأن أثقال الأرض والسماء وضعت على عواتقه . فلم يزل ينظر إلى محمد بن القاسم للحظات ثم نظر إلى زملائه فوجدهم وقد أطرقوا برؤوسهم ، فحاول الكلام فأرتج عليه أكثر من مرة وأخيرا قال لمحد بن القاسم : عفوا يا عزيزى ، فكأن الأقدار قد أعدتنى لهذا الهوان والندم !

فقال محمد بن القاسم : هون عليك فلست إلا رسولا . اذهب معه يا خالد إلى القصر وأنت يا زبير ، أعلن فى الجيش بأننا قد أجلنا الرحيل .

فتقدم (بيم سنك) وقال : لعل فى هذه الرسالة سرا مهما وإننا لعلى قلق شديد لمعرفة ما أمرك به أمير المؤمنين . ؟

فأعطى محمد بن القاسم الرسالة لمحمد بن هارون وقال (لبيم

سنك) سيقرأ لك محمد بن هارون هذه الرسالة .

﴿ ٤ ﴾

وما حل المساء حتى كان حديث الناس فى كل زقاق من أزقة مدينة (الرور) وفى كل بيت من بيوتها ، هو خبر العداوة القديمة بين أسرة الحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك ووصول الحاكم الجديد للسند ورحيل محمد بن القاسم ، فاجتمع عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال حول قصر الحكومة .

وبعد صلاة المغرب اجتمع جميع قواد وكبار موظفى الجيش الإسلامى فى القاعة الكبيرة للقصر وألحوا على محمد بن القاسم أن يشترك فى ذلك الاجتماع فألقى محمد كلمة موجزة بهذه المناسبة فقال .

"قد قررت السفر إلى دمشق غدا فى الصباح ولا أريد أى تغيير فى هذا القرار ، وأن واجب الجندى الأول هو إطاعة الأمير ، فلا تضطربوا لهذا الحادث وتعاونوا مع الحاكم الجديد تعاونا تاما ، ولعل أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك يريد أن يعرف مدى إطاعتى لأميرى . إنه كان قد أساء بى الظن عند سفرى من دمشق ، ولكن ذلك يرجع إلى عهد لم يتحمل فيه أية مسئولية وقد أصبح الآن أميرا للمؤمنين وأننى لعلى ثقة بأنه لابد قد تغير ، ويمكن أن يرسلنى مرة أخرى لأكمل عملى فى الهند وإذا لم أستطع فى إقناعه وإزالة سوء التفاهم بيننا فى هذه الظروف أيضا يجب أن تطيعوا يزيد بن أبى كبشة وتتعاونوا معه" .

فقام (بيم سنك) وقال : "إننا رهن إشارتك أيها القائد . ورجال السند جميعهم يرون أن لا تسافر من هنا حتى تتأكد من حسن نية الخليفة ، فقد سمعت من الزبير الأحداث التى وقعت فى دمشق وأن قلبى يشهد على أن سليمان سوف يسىء إليك ، إننا لا نعتبرك من رعايا سليمان وإنما نعتبرك ملكنا وصاحب أرواحنا وأنفسنا وأننا مستعدون لأن نقتحم النار ولكننا لا نستطيع أن نراك تتقيد بين أيدينا ، وقد يمكن أن يحترمه العرب أما نحن فلسنا مستعدين لأن نحترم خليفة يريد أن يحرم السند وأهلها من منقذها و محسنها الأكبر . . وقد وعدناك بموافقتنا لك وتأييدنا إياك وإنه لعهد لا يمكن الخيانة فيه ، وإن رفاقك العرب قد يخذلونك ، أما نحن فلن نخذلك وسوف ترى مئة ألف فارس يحمونك ويرعونك . . إن كبار السند وصغارها كلهم مستعدون لأن يضحوا بنفوسهم من أجلك وأن يموتوا فداءلك . فنرجوك أن لا تسافر . . . أو على الأقل انتظر حتى تتأكد بأن سليمان لن يسىء إليك . . وإذا كانت كلماتى لم تؤثر فى عزمك فأرجوك أن تنظر إلى الجمع المحتشد أمام القصر . . . حتى يمكن لك أن تقرر فى مصير الآلاف من اليتامى الذين يعتبرونك أبا ، والا لآف من الشيوخ الذين يعتبرونك ابنا ، والأيامى اللائى يعتبرنك أخا ، أو ليس لهم حقا عليك ؟

ثم ضاق صوت (بيم سنك) وأما الحاضرون فكان كل واحد منهم ينظر إلى وجه الآخر حائرا مشدوها .

ثم تكلم الزبير وقال : "إنك لتعرف جيدا بأن سليمان لابد وإن يسىء إليك ، فأرجوك أن تبقى هنا واسمح لى بالحضور عند أمير

المؤمنين فان نفسى ليست أغلى من نفسك ، أما أنت فان السند والعالم الإسلامى كله فى أشد الحاجة إليك" .

فقال محمد بن القاسم : إننى أعتبر نفس كل جندى أغلى من نفسى ! وأنت يا (بيم سنك) ! لا أملك الكلمات التى تسعفنى للإعراب عن عواطف شكرى نحوك ونحو زملائك ! ولكنى أراكم تعلقون أهمية على بقائى أكبر من الهدف الذى جئت من أجله إلى هنا ! ولعلك لا تعرف بأن عصيانى للخليفة إنما هو عصيان لذلك الهدف العظيم الذى مات من أجله آلاف من المجاهدين الغزاة ويكفى مئة ألف من هؤلاء الشجعان لفتح بلاد الهند كلها ، وأن نفسى ليست غالية إلى هذا الحد حتى أسمح لمئة ألف سيف من سيوف السند تقاتل ضد مئة ألف سيف من سيوف العالم الإسلامى ! إن الانتصارات التى حققتها ستصبح أسوأ وأضر من هزيمة نكراء ، وأنى لى أن أسمح بأن تعود تلك الجيوش المجاهدة التى تقاتل الآن فى تركستان والأندلس لا لغرض غير أن قائد السند قد ثار ضد الخلافة الإسلامية لأنه كان يخاف على نفسه ؟ ولو كان هذا الأمر بينى وبين سليمان فقط لما استسلمت أبدا ، ولكننى أستسلم أمام شعب قد بايع سليمان كخليفة للمسلمين ! فلو أن موتى يستطيع أن ينقذ المسلمين من شر عظيم وافتراق هائل فانى سأعتبر ذلك سعادة لنفسى ، وقد قلت إنك تستطيع أن تضحى بنفسك باشارة منى ، ولكنى لست أرانى أهلا لأن أطالبك بتلك التضحية . . إنك إذا كنت تحب أن أخرج من السند مطمئنا راضيا حيث أننى أكملت عملى فى السند

فعليك أن تعلن اعتناقك للدين الذى اعترفت بـه عمليا . . إن دعوتى هذه موجهة إلى جميع الأصدقاء الموجودين هاهنا ! إن اعتناق أمثالك من الرجال للاسلام سوف يغنى السند من أى محمد بن القاسم آخر ! وقد حانت صلاة العشاء الآن ، وأن حالى اليوم إنمـا هو حـال مسافر يريد أن يستريح بعـد أوبته من سفـر طويل ! إننى لا أريـدك أن تقـرر شيئا من أجلى ، ولكن مادام قلبك قد اعترف وأقر بمحـاسن الاسلام فان إعلانك بهذا الخصوص سوف يسرنى جدا !"

فقرأ (بيم سنك) الكلمة الطيبة بصوت عال ثم قال : إننى لولم أعترف بمحاسن الإسلام الذاتية لما لبيت دعوتك بطيب خاطرى فان من أكبر محاسن هذا الدين هو وجود الرجال المسلمين من أمثالك .

فنهض محمد بن القاسم من مكانه فعـانق (بيم سنك) وقال له : إنك سوف تجد آلافـا مؤلفة من أمثالى بين المسلمين . ثم تبع عشرة من الكبار (بيم سنك) واعتنقوا الإسلام .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه هؤلاء يخرجون من الغرفة لأداء صلاة العشاء كان الوفد المكون من أهل مـدينة (الـرور) يخرج بعـد لقاء ليزيد بن أبى كبشة ، وكان يقود الوفد كبير الكهان فى المدينة . وكان أعضاء الوفد قـد دخلوا غرفة يزيد بوجوه باسرة حزينة وخرجوا بوجوه باسمة ضاحكة ، إذ كان يزيد قـد وعـدهم بـأنه سوف يحـاول إنقاذ معبودهم ، فظنوا بأن السحب المحيطة بشمس السند قد تبددت !

وعندما خرج الكاهن وزملاؤه من القصر أحاطت بهم الجماهير فقال الكاهن أمام سيل منهمر من الأسئلة : اذهبوا إلى منازلكم ! فقد زالت نحوسة نجم السند الآن ، إن معبودكم سوف يعود إليكم !

أسير سليمان بن عبد الملك الأموى !

بعد صلاة العشاء عندما أراد محمد بن قاسم الثقفى أن يدخل منزله ناداه يزيد بن أبى كبشة ومعه خالد و (بيم سنك) والزبير ، فوقف محمد بن القاسم على الباب وأخذ ينظر إليهم حتى اقتربوا منه فودع يزيد خالدا و (بيم سنك) والزبير فأخذ يد محمد فى يده ودخلا الغرفة معا .

وكانت الغرفة مضيئة بمصباح وكان على يستريح على سرير فى الغرفة . فأشار محمد إلى يزيد أن يجلس على كرسى ثم قال له : "إن هذا الولد يحبنى حبا شديدا وقد كان أسيرا فى سجن (برهمن آباد) مع من سجن هناك من العرب المسلمين ."

فقال له يزيد مبتسما : "ومن الذى لا يحبك فى هذه البقعة من الأرض ؟"

فأراد محمد بن القاسم أن ينتقل إلى موضوع آخر فقال له وهو يجلس على كرسى آخر : "كنت أريد أن أظهرك على الأوضاع فى بلاد السند قبل أن أغادر وأودع أصحابى وأصدقائى ، وقد أردت أن أقابلك فى الصباح الباكر ولكنك ومن حسن الحظ ، بادرتنى بزيارتك الآن ."

فقال يزيد : "إننى ما جئت هنا لأعرف منك أوضاع السند ! وإنما جئت لأقول لك انك لن تغادرنا وستبقى عندنا !"

فرد عليه محمد بن القاسم : "اننى أشكرك على مشاعرك الكريمة !"

ـــ ولكنى أراك نسيت أن سليمان بن عبد الملك هو أعدى أعدائك ويحقد عليك أشد الحقد !

ـــ أعرف هذا ! ولكنى لا أريد أن ينقسم العالم الإسلامى إلى قسمين لا لسبب سوى حقن بضع قطرات من دمى يا يزيد !

ـــ إنى أراك بصيرا ذكيا فوق ما كنت أتصور ، ولكنى مع ذلك على ثقة بأنى إذا عدت إلى سليمان وأخبرته بأن هناك مئة ألف جندى مستعدون لأن يموتوا فداء لك ومن أجلك فلن يعلن الحرب ضدك !

ـــ ولكن ماذا سوف تكون النتيجة لهذا كله ؟ إن جناحا كبيرا من المسلمين سوف ينفصل من العاصمة المركزية ! وسوف نحرم بهذا من ثمرة الكفاح الجماعى ولست فى حاجة إلى أن أقنعك بأن الانفصال والافتراق يقضى على الدول والقوى !

فقال له يزيد : لقد زارنى وفد من وجهاء مدينة (الرور) قبيل صلاة العشاء وكانوا يلحون على ويتضرعون إلى أن لا أنتزع منهم "إلههم ومعبودهم" ، وأنهم سوف يثورون وتثور معهم الهند كلها إذا أساء إليك سليمان بن عبد الملك !

— لا تفكر فى أمرهم ، فانى سأقنعهم بذلك !

وأدرك يزيد أن محمدا قد قرر فى نفسه قرارا حاسما ونهائيا لا يقبل التغيير والمناقشة فسكت عن الموضوع ، ثم أن محمد بن القاسم أخبر يزيد عن الأوضاع والأحوال فى السند وأوصاه بالمرؤة والتسامح نحو سكانها وبالمشاورة والرجوع إلى ناصر الدين حاكم (ديبل) و (بيم سنك) فى كل المشاكل الهامة .

فقال له يزيد وهو ينهض : ولكنى أقول لك كلمة أرجوك أن توافقنى عليها وهى أن لا تصر على تقييدك عند مغادرتك امتثالا لأمر سليمان ! فانه لمما يجرح مشاعر الآلاف المؤلفة من الناس .

— إذا كنت ترى فيه مصلحة ، فاننى لن أصر على ذلك وإلا فانى أعتز بالتقييد امتثالا لأمر أمير المؤمنين !

قال له يزيد وهو يصافحه : أريد أن أسألك عن أخلص أصدقائك بين القواد العرب ؟

— جميعهم أصدقائى ومخلصون ولكن الذى يعرف كل جانب من جوانب حياتى فهو الزبير ، وأنه سوف يرافقك دائما .

— لا ، وإنما أريد أن أبعثه إلى المدينة المنورة فى مهمة فورية خطرة .

— إنه يأتمر بكل ما تأمره .

— إنى أريد أن أبعثه قبل أن نودعك ، أرجوك أن ترسله إلى فى غرفتى .

فأيقظ محمد بن القاسم عليا وقال له : اذهب معه إلى غرفته ثم قل للزبير أن يوافيه هناك .

(٢)

أوصل على يزيد إلى غرفته الخاصة ثم ذهب ليأتى بالزبير إليه ، أما يزيد فجلس فى ضوء المصباح وأخذ يكتب رسالة ، وبعد لحظات دخل الزبير مع على فأشار إليه أن يجلس وينتظر حتى ينتهى من الرسالة .

بقى الزبير جالسا عنده لمدة طويلة وبعد أن أنهى يزيد الرسالة التفت إلى الزبير وقال : عليك أن تستعد لسفر طويل ، واقرأ هذه الرسالة .

فأعطى يزيد الرسالة للزبير فقرأها فأخذ نور الأمل والرجاء يضىء فى وجهه الذابل الحزين ، فقد كانت هذه الرسالة من يزيد بن أبى كبشة إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، قال فيها يزيد لعمر إن محمد بن القاسم علم من أعلام العالم الإسلامى المجاهدين ورجاه أن ينقذه من غضب سليمان ابن عبد الملك وانتقامه وأن يستخدم كل وسيلة ومحاولة من أجل ذلك . . . وكان فى نهاية ما كتبه يزيد ما يأتى :

"إن الأفذاذ من أمثال محمد بن القاسم قلما يجود بهم الزمان ، وقد رأيت الكثيرين من العظماء فيما مضى من عمرى ولكننى لا أستطيع أن أقدر مكانة هذا البطل الشاب وعظمته تقديرا صحيحا . . إن هذا

الشاب البطل الذى فتح بلاد السند وعمره لم يتجاوز السبع عشرة سنة لديه الآن من الجنود الذين يفادونه بأرواحهم ما يزيد على مئة ألف جندى ولكنه مع ذلك مستعد لأن يتقيد امتثالا لأمر أمير المؤمنين ، أمام هؤلاء الجنود الفدائيين . ! إن مثل محمد بن القاسم مثل قلب الخفاق فى جسد الإسلام الذى تفوق خفقة واحدة من خفقاته أعمار الكثيرين من أمثالى ! وأنت الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ العالم الإسلامى من هذه الخسارة الهائلة التى لا يمكن تعويضها !"

قرأ الزبير الرسالة ثم نظر إلى يزيد فقال له : "هل أنت متأكد بأن عمر بن عبد العزيز يمكن أن يقنع سليمان ويحول بينه وبين ما يريده من الشر نحو محمد بن القاسم ؟"

— إننى متأكد ، اذهب فورا ، إنه الآن بالمدينة المنورة ، وعليك أن لا تضيع لحظة واحدة من الوقت فى الطريق ، إن مستشارى سليمان الذين يعادون محمد ابن القاسم لا لسبب إلا لأنه زوج ابنة الحجاج، سوف يحاولون القضاء عليه قضاء فوريا ! وإن سليمان شخصيا لا يمكن له أن يترك رجلا خطيرا مثله يعيش طويلا . . ولو لم تجد عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنووة فابحث عنه أينما كان وحاول أن يصل عمر إلى دمشق قبل القضاء فى أمر محمد بن القاسم ! وإنى أرى أن هذه المهمة أكبر وأهم من فتح الهند كلها الآن !

فقال الزبير وهو ينهض : "إنى ذاهب الآن !"

— اذهب والله يحفظك وينصرك !

فخرج الزبير من غرفة يزيد مسرعا ودخل غرفته فوجد خالدا وناهيد والزهراء فى انتظاره ! فقال الجميع بصوت واحد : "ما الخبر ؟"

فقال الزبير : "أنا ذاهب إلى المدينة المنورة الآن !"

ثم دخل الغرفة الخلفية ليغير ملابسه ثم خرج بعد لحظات ليجد ناهيد قد نهضت من مكانها وأخذت السيف لتناوله للزبير ، فقال له خالد وهو ينهض من مكانه : وأنا أيضا أرافقك !

فقال الزبير وهو يشد السيف فى حزامه : لا ترافقنى وإنما تذهب مع محمد بن القاسم إلى البصرة وسترافقك ناهيد والزهراء !

فقالت الزهراء للزبير : "ولماذا أنت ذاهب إلى المدينة يا أخى ؟"

فأجابها الزبير قائلا : إننى ذاهب برسالة من يزيد إلى شخص يستطيع أن ينقذ محمد بن القاسم ، وأنت يا خالد بعد أن تصل إلى البصرة تذهب إلى منزل محمد بن القاسم لتخفف عن زوجته السيدة زبيدة حزنها وتسليها ، وأننى آمل فى أن أصل إلى البصرة بأسرع ما يمكن ، ومع السلامة يا ناهيد ! واذكرينى فى دعواتك يا زهراء وادعى لنجاحى فى مهمتى هذه ! ثم خرج الزبير بعد أن ودع الجميع .

وكانت غرفة محمد بن القاسم فى طريقه فرأى الزبير مصباحا مضيئا فى داخل الغرفة فوقف على الباب ثم دخل بخطوات بطيئة خفيفة فوجد محمدا قدنام نوما عميقا هادئا وعلى وجهه تلك الابتسامة

البريئة التى كان الزبير قد شاهدها أكثر من مرة ، ورأى السيف معلقا على وتد فى الجدار ، ذلك السيف الخالد الذى فتح به القائد الشاب بلاد السند وحصونها الحصينة المنيعة ، وسخر قلوب الآلاف من الناس !

وبعد النظر إلى هذا المشهد البرئ أخذ قلب الزبير يخفق حول فكرة مجهولة فترقرقت الدموع فى عينيه فخرج على مهل وهو يقول فى صوت مرتجف : "فى حفظ الله أيها الأخ الصديق القائد !"

وخرج الزبير من القصر وهو يقول لنفسه الوجلى المروعة : لا ، لا . لن يحدث ذلك ، وإنما ستعيش أنت يا صديقى القائد ، وسوف نلتقى مرة أخرى باذن الله .

﴿٣﴾

وفى الصباح ازدحم على باب القصر جموع كبيرة فخرج محمد بن القاسم فوسعت الجموع الطريق وفسحوا له فى درج الباب فتقدم قواد الجيش ووجهاء المدينة وكهانها يصافحون محمدا وعندما جاء دور (بيم سنك) للمصافحة تعلق به وعانقه ثم قال له : "إنك يا سيدى ، لم تختر لى إسما إسلاميا" .

فقال له محمد بن القاسم : "إذا أعجبك فانى أسميك سيف الدين !" وكان جندى واقفا عند درج الباب ومعه فرس ينتظر محمد بن القاسم فأراد أن يركب الفرس فأسرع إليه يزيد بن أبى كبشة فأخذ لجامه ومع أن محمدا كان يمنع الناس ويزجرهم إلا أنهم كانوا يسرعون إليه فيمسون قدميه تكريما له !

فركب محمد الفرس ثم فظر إلى ماحوله فلم يرعينا لم تكن باكية عليه فقد كان العجائز والشيوخ يعتقدون أن ابنهم يفارقهم وقد خرجوا لتوديعه ! أما الأيامى واليتامى فقد كانوا يشعرون بأن القدر قد انتزع منهم موئلهم وملاذهم ! وأما الفتيات فكن يقلن فى أنفسهن بان الحامى لكرامتهن والدافع عن أعراضهن يفارقهن ! وأما مدينة (الرور) كلها فقد كانت صورة حزينة من الكآبة واليأس والحرمان على فراق ذلك القائد الفذ والبطل العظيم !

وفجأة تقدمت فتاة من أهل المدينة وكان أبوها الكاهن قد أشار إليها بذلك فقدمت عقدا من الأزهار لمحمد بن القاسم وقالت له : يا أخى ! هذه هدية متواضعة أقدمها لك بالنيابة عن فتيات المدينة كلها فأخذ مجد منها العقد وهو ينظر إليها نظرة الشاكر الممتن المخلص !

وخرج فرس أسير سليمان بن عبد الملك يمر فى أسواق المدينة وهو يدوس أكوام الأزهار ! إنه لم يتح لسكان مدينة (الرور) أن يشاهدوا موكبا ملكيا أروع من ذلك الموكب ! ولم يسكبوا قط بهذا المقدار من الدموع على فراق أى شخص من أقاربهم ! إن الذين كانوا قد استقبلوا محمدا كأعدى أعدائهم وواجهوه بالرماح والسهام قبل سنتين كانوا الآن يودعونه تحت وابل من الأزهار وبسيل من الدموع !

أما ناهيد والزهراء وخالد وعلى فكانوا قد سبقوا محمدا فى الخروج من المدينة مع بعض الجند الذين أمروا أن يرافقوه فى هذا

السفر كحرس له ، وقد كانت هذه القافلة مكونة من ستين شخطا بما فيهم أربعون جنديا كانوا قد جاءوا مع يزيد بن أبى كبشة للقبض على محمد بن القاسم ليذهبوا بـه مكبلا مغلـولا إلى دمشق ! وكان يرأسهم مالك بن يوسف صاحب شرطـة واسط ذلك لأن صالحا كان قـد عينه فى هذه الوظيفة وكان صالحـا قـد أمر مالك بن يوسف أن لا يترفق بمحمد بن القاسم فى الطريق ، وإنما يعذبـه تعذيبا بقـدر مـا يمكنه ، وإلى جانب ذلك فقد كان مالك هذا من أقدم الأعداء لأسرة الحجاج بن يوسف ، إلا أنه كان قد تغير تمامـا مثل يزيـد بن أبى كبشة بعـد أن وصل إلى (الرور) وتأثر بشخصية محمد بن القاسم ! كما أن البعض من أصحابه كانوا قد أخذوا يطعنون فى أوامر سليمان الخاطئة ، لأنهم أيضا كانوا قد تأثروا بوقائع التوديع فى مدينة (الرور) وكان يزيد قـد أمر هؤلاء الجنـود بأن يـذهبوا بـه إلى البصرة بكل إعزاز وتكريم ، متحملا بنفسه المسئولية أمام أمير المؤمنين بهذا الخصوص .

وقـد كان سيف الـدين (بيـم سنك) واقفـا على طلل مع كاهن مدينة (الرور) ينظران إلى قـافلة تختفى فى سحب الغبـار عنـد الظهـر ، فقال الكاهن وهـو يتنفس تنفس الحزين المتأوه : "كأن شمس السند قد حان غروبها عند منتصف النهار !"

❁ ❁ ❁ ❁

غروب الشمس

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، يخرج من المسجد النبوى بعد أن أدى صلاة الظهر وإذا بفارس يقف على الباب أشعث أغبر وقد ذبل وجهه جوعا وعطشا فأشار إلى عمر يستلفته إليه وحاول أن يقول له شيئا إلا أن صوته التصق بحلقومه فلم يرتفع ، فنزل من الفرس فأدخل يده فى جيبه وأخرج الرسالة ثم تقدم نحو عمر ولكنه أخذ يترنح بعد خطوات ثم سقط على الأرض ، وأما الفرس فقد سقط كذلك على الأرض وارتعد ارتعادا ثم انقطعت أنفاسه !

كان هذا الفارس هو الزبير فحمله الناس وذهبوا به داخل المسجد ، وبعد لحظات استفاق الفارس فوجد عمر يرش الماء على وجهه فانتزع كأس الماء وحاول أن يشربه فمنعه عمر وقال له : اصبر قليلا : فقد شربت كثيرا قبل هذا . فكل الآن شيئا من الطعام . . يبدو أنك لم تأكل شيئا منذ أيام !

فأشار عمر بن عبد العزيز إلى رجل فوضع الطعام بين يدى الزبير ولكنه امتنع قائلا : لا ! لا ضرورة لى إلى الطعام وإنما يكفينى الماء ، ثم انتبه إلى أمر ما فأدخل يده فى جيبه وهو يقول : "لقد ضيعت وقتا طويلا وهذه رسالة من . . . ويجد جيبه فارغا فظل شاخصا مندهشا للحظات ثم قال له عمر بن عبد العزيز : لقد قرأت الرسالة وكنت قد

تأكدت بأنك قد جئت برسالة هامة إذ رأيتك تسقط مغشيا عليك وفرسك يموت من التعب والجوع والعطش !"

فقال له الزبير : "إذن فماذا ستستطيع أن تفعل من أجل محمد بن القاسم !

— إنى ذاهب إلى دمشق الآن . قال عمر وهـو ينظر إلى رجل هل أعد الفرس ؟

فأجاب الرجل : نعم !

فقال له الزبير : إنى سأرافقك !

فأاجابه عمر : لا ! ستستريح أنت فقد تعبت فى سفرك هذا !

— لا ! لا ! لست متعبا ! أن سبب تعبى وإجهادى إنما هو قلقى واضطرابى وليس السفر كما تظن ، وإن الإقامة والانتظار هاهنا سوف يؤذينى ويتعبنى أكثر من السفر معك .

فقال له عمر : حسنا ! كل الطعام إذن .

فاستعجل الزبير فتناول بضع لقيمات من الطعام وشرب كثيرا من الماء حتى امتلأ بطنه فقال وهو ينهض ! هيا بنا فقد شبعت وأنا مستعد الآن !

فأمر عمر شخصا ليعد له فرسا آخر وقال للزبير : اجلس قليلا واسترح ريثما يعود بالفرس .

فقال الزبير : إذا لم يكن هذا أمرك فانى أفضل القيام على

الجلوس هاهنا ، لأن الإنسان المتعب إذا قعد حمل عليه التعب والنوم !

فسأله عربى : لعلك لم تسترح فى طريقك أبدا ؟

فأجابه الزبير : "أما نهارا فلا ! وأما ليلا فعندما كنت أفقد صوابى تعبا أوجوعا أو عطشا !"

فسأله عمر بن عبد العزيز : كم فرسا غيرت فى الطريق ؟

— أما من (الرور) إلى البصرة فقد كنت أغير الفرس بعد كل مرحلة خامسة فى المراكز العسكرية وأما من البصرة إلى المدينة المنورة فقد اخترت الطريق الأقصر المستقيم المباشر لأوفر الوقت وقد عبرت الصحراء أنا على فرس واحد مجتازا العديد من المراحل حتى مات أربعة أو خمسة من الخيل فى الطريق !

فقال عمر بن عبد العزيز : لقد كان الناس يسمعون قصص فتوح وانتصارات محمد بن القاسم فى السند باعجاب وتقدير وقد عرفت الآن سر ذلك ! إن قائدا يقود جيشا فيه جنود أبطال من أمثالك ليس صعبا عليه أن يفتح القلاع والحصون ويحقق الانتصارات الباهرة !

وجاء الخادم فأخبرهما بأن الفرسين مستعدان للسفر ، فخرج الزبير وعمر بن عبد العزيز من الغرفة وركبا الفرسين .

(٢)

كان سليمان بن عبد الملك قد أبلغ عن تحرك محمد بن القاسم من السند كما أنه كان قد عرف استقبال الناس له والترحيب به فى

مدن مكران وفارس مثل ما ودعه به سكان مدينة (الرور) وغيرها من مدن السند . وأن يزيد بن أبى كبشة لم يقيده خوفا من الثورة والعصيان فى الجيش مما زاده غضبا ونقمة وحقداً . فنظر فى سهامه كلها فاختار أحدها وأمضها ثم بعث به إلى البصرة وقد منحه سلطة كاملة ليقضى فى أمر محمد بن القاسم بما يشاء وقد كان هذا السهم الأحد الأمض هو صالح الذى كان أعدى أعداء محمد الغازى المجاهد !

وكان صالح قد أدرك خطورة الموقف حيث رأى الاضطراب الشديد والقلق الممض بين أهالى البصرة الذين كانوا ينتظرون وصول محمد بن القاسم فظن أنهم سيثورون عليه إذا أساء إلى محمد بين أيديهم ، وقد كان صالح يريد أن يذهب به من البصرة إلى واسط مكبلا مغلولا إلا أنه عندما رأى عواطف البصريين وقلقهم غير هذه الإرادة !

وفى مساء أحد الأيام وصل موكب محمد بن القاسم على مسافة ثلاثين ميلا من البصرة ، وكان الناس قد عرفوا بأن فاتح السند وأسير سليمان بن عبد الملك سوف يقضى ليله فى ذلك المكان ، فاجتمع الرجال والنساء والأطفال أمام المركز العسكرى ، وكانت النساء على قلق من أجل تلك الفتاة التى غير صوتها مجرى تاريخ السند إلى جانب قلقهن على محمد بن القاسم . وأسرع الشباب نحو محمد بن القاسم حين رأوه فتقدمت أيادى كثيرة دفعة واحدة لتمسك بعنان الفرس ، أما النساء فقد أوقفن الجمل ذا الهودج بعيدا عن المخفر

فذهبن بالزهراء وناهيد إلى بيت فانزلنهما فيه .

وأخبر جنود المخفر مالك بن يوسف بأن صالحا مضطرب جدا بالأنباء التى تقول بأن محمد بن القاسم يستقبل استقبالا حارا ، ويرحب به فى كل مخفر فى الطريق ، وأنه يخشى أن يرحب أهالى البصرة به ترحيبا أحر وأكثر حماسة مما سبق ، كما أنه يخاف من صوت ناهيد فى البصرة ويرى أنهما تضره أكثر ، لذا فانه قرر أن يذهب بمحمد بن القاسم من هنا إلى واسط مباشرة كما أنه قرر أن يمنع دخول الفتاتين إلى البصرة على أية حال ، على أمل أن يصل شخصيا صباح الغد إلى هناك .

وعرض قائد المخفر رسالة صالح على مالك بن يوسف التى قال فيها أن لا يتحرك محمد بن القاسم قبل وصوله .

أما مالك بن يوسف فكان قد أخذ يحب محمدا حين رآه من قريب خلال الأسفار البعيدة ، وكان يعتقد بأن اضطراب أهل البصرة واهتياجهم سوف يكره سليمان بن عبد الملك على أن يغير قراره فى أمر محمد بن القاسم ، أما مدينة واسط فكانت قد أصبحت مركزا للخوارج بعيد وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك ولذا فلم يكن يتوقع أى صوت يرتفع للدفاع عن محمد بن القاسم .

بقى مالك يتجول خارج خيمته بعد العشاء فى قلق واضطراب ، وأخيرا دخل خيمة محمد بن القاسم بعزم فرآه يكتب شيئا فى ضوء شمعة فقال له مالك : إذا أردت أن ترسل خطابا إلى شخص فانا مستعد لأن أقوم بايصاله .

فقال له محمد بن القاسم : "هذه ليست رسالة وإنما هو تصميم جديد للمنجنيق قد أعددته بعد التجربة والخبرة وأرى أنه من الممكن أن يرمى به الحجر إلى أبعد حد وعلى هدف أصح !"

فأجابه مالك : كان يجب أن تفكر فى نفسك فى مثل هذا الأوان !

فرد عليه محمد بن القاسم يقول : "إنما أنا فرد واحد ، أما المنجنيق فهى ضرورة الشعب والدولة ! وإذا قبض على فعليك أن تذهب بهذا التصميم إلى أمير المؤمنين !"

فقال له مالك : لقد تم اتخاذ القرار فى مصيرك ، إنك ذاهب من هنا إلى واسط مباشرة بدل البصرة .

فأجابه محمد بن القاسم : لقد كنت أخال أنه لن يخطىء فى الذهاب بى إلى البصرة !

فقال مالك : إنك تستطيع الآن أن تقضى فى أمرك بنفسك أما أهل واسط فقليل منهم الذين ينصرونك ويؤيدونك وأما فى البصرة فسوف تجد آلافا من المجاهدين مستعدين لأن يموتوا فداءمنك ! وسيصل صالح الليلة أو صباح غد ، أما بعد وصوله فلا فائدة فى تدبيرنا ولم يبق لديك إلا طريق واحد وهو أن تذهب الآن على الفور مع هاتين الفتاتين فستجد كل بيت هناك حصنا منيعا للدفاع عنك أن هذه لحظة حاسمة .

فأجابه محمد بن القاسم قائلا : "كم تريد من نفوس المسلمين

أن تضحى بهم من أجل نفس واحدة ؟ أليست هى حركات عصيان البصريين هى التى خسر بها العالم الإسلامى أكثر مما خسر فى غيرها من الفتن ؟ أفتعتقد أن النفس الواحدة هى أغلى من مئات الألوف من نفوس المسلمين الذين سوف يتقاتلون بسببى ومن أجلى ؟ أفتريد أن تصبح الآلاف من النساء أيامى ، والآلاف من الولدان يتامى من أجلى ؟ أفتظن لو أننى أفدى بنفسى وحدة العالم الإسلامى ودعمه ألا تكون لها قيمة ؟ إنه لمن سوء حظ المسلمين حيث استحالت الخلافة الآن إلى ملوكية . . على كل حال فان الأغلبية الساحقة قد بايعته كخليفة وأن عصيانى هذا لن يكون ضد الخليفة سليمان وحده وإنما هو خروج على جماعة المسلمين . . ولكنه من الممكن بعد أن أضحى بنفسى أن يدرك جماهير المسلمين خطأهم فتستيقظ فيهم الروح الجماعية التى تهدى سليمان إلى طريق الحق ، ، أو على الأقل أن يكونوا على حذر واحتياط فلا يبايعون خليفة يكون على شاكلة سليمان وأصحابه من بعده ! إن الأمة ستدرك خطأها فى اعترافها بالخلافة الوراثية لأسرة من الأسر بعد أن ترى جزائى ومصيرى على أيديهم . . ان الأمة الإسلامية لو اعتبرت بمصيرى فلن تبايع أحدا من ورثة سليمان من بعد وإنما تبايع خليفة صالحا فان هذا هو الهدف العظيم السامى الذى أرى الموت من أجله سعادة كبرى !"

فقال له مالك بن يوسف وقد بهت أمام بيانه الواضح الجلى :
إنك فى رأيك حاسم وصارم ، وأنا أعترف بذلك ، ولكن ما رأيك فى هاتين الفتاتين ؟ فقد عرفت من جنود المخفر أن صالحا يريد أن

يذهب بهما أيضا إلى واسط خوفا من اهتياج الناس ، ولكن أرى أنهما إذا لم تصلا إلى البصرة فان الناس سوف يثورون أكثر وأشد من وصولهما إليها ! فان كل أسرة فى البصرة تنتظر وصول ناهيد ! أفليس من الأحسن أن نبعث بهما إلى البصرة قبل وصول صالح إلى هنا !

فأجابه محمد بن القاسم بعد أن فكر قليلا : إن أشد ما أخافه هو مصير ناهيد هذه ، فهى زوجة الزبير ويعتبره صالح من أعدى أعدائه مثلى ، ولكنى لا أتوقع منه أى سوء نحو ناهيد وأظنه لن يجترىء على ذلك .

فرد عليه مالك : إننى قد قضيت وقتا طويلا مع صالح وأعرفه جيدا ، إنه ليس إنسانا وإنما أفعى خبيثة . . ولكن مع ذلك نؤكد لك بأننى أنا وزملائى سوف نموت دفاعا عنهما أوإذا قال شيئا بسوءهما . أو أراد بهما أى سوء ! فأرجوك أن تقبل نصيحتى وتبعث بهاتين الفتاتين إلى البصرة ، وأنا أبعث معهما بعض الجنود ليبلغوهما مأمنهما وما دمت تحب مستقبل الإسلام ووحدة الأمة الإسلامية فأنصحهما أن لا تشجعا أية حركة عصيان فى البصرة .

وفجأة فكر محمد فى موضوع فاستيقظت مشاعره فنهض وأخذ يتجول داخل الخيمة ، وكان مالك بن يوسف يراقب حركاته فرآه هائجا يضم أنامل يديه ضما كأنه يريد أن يدافع عن نفسه ضد فكرة طارئة أو إرادة قوية ، وبعد أن تجول داخل الخيمة ثلاث أو أربع

مرات لم يقل لمالك شيئا وإنما أسرع الى الخارج فنادى خالدا فى الخيمة المجاورة فخرج خالد مسرعا فقال له محمد : يا خالد ! اذهب إلى القرية وهات بالزهراء وناهيد ، وأسرع !

فتوجه خالد يعدو نحو القرية فالتفت محمد إلى مالك وقال له : جهزلنا أربعة من الخيل ! لأن عليا أيضا سوف يرافقنا !

فسأله مالك وهو يأمل فى نجاته : أراك قررت السفر ؟

فقال له محمد بن القاسم : استأذنك إنى أريد أن أوصلهم إلى البصرة وسأعود عند الصباح باذن الله !

فأجابه مالك : لا تقل إنك ستعود ! خير لك أن تتوجه إلى السند ! فانى سأرسل إليك زوجتك خلال بضعة أيام .

فقال له محمد : صديقى العزيز ! لا تظن بى السوء مرة بعد أخرى ، فلست من الذين يمكن أن يختفوا أو يغيبوا بين العامة ! إنما أريد أن أزور أهلى لبضع لحظات وذلك أيضا بشرط أن تثق بعودتى ، فان صالحا إذا لم يكن قد تحرك من البصرة الليلة فانى أعطيك الوعد بأنى سوف أعود إليك قبل وصوله هاهنا .

ـ إن الرجال من أمثال صالح لا يسافرون ليلا فى مثل هذه الظروف إنه يمشى حذرا فى النهار على أرض العراق . إنى أعد الخيل لكم ، وإذا غيرت رأيك بعد وصولك إلى البصرة فلا تعد ، ولا تفكر فى مصيرى بعدك ! فسوف أعود مع زملائى إلى السند إن شاء الله !

فقال له محمد بن القاسم فى لهجة مرة : لا تخجلنى مرة بعد أخرى يا مالك ! وما دمت لا تثق بى فلا أريد أن أذهب بهم !

فندم مالك وقال : لا ، لا ، أبدا ! إنى أعد الخيل لسفركم فاستعد أنت للذهاب .

وبعد لحظات كان محمد بن القاسم وخالد والزهراء وناهيد وعلى يتوجهون إلى البصرة على خيل سابحة ! وأدرك محمد خطر المواجهة مع صالح فى الطريق فترك الطريق العامة إلى البصرة واختار طريقا آخر وأطول من الطريق العامة .

(٣)

وعند منتصف الليل دخلت الخادمة على زبيدة مسرعة فهزتها وأيقظتها من نومها وهى تقول : زبيدة ! زبيدة ! إنه قد جاء ! قدجاء سيدنا !

فدهشت زبيدة ولم تزل صامتة لا تتكلم ، فقالت الخادمة بصوت عال : أبشرى يا زبيدة فقد جاء محمد !

وكانت حال زبيدة هى حال مسافر هام على وجهه فى صحراء مجدبة ملتهبة فخطفه شخص فاوصله إلى واحة . . ذلك المسافر الذى كاد يموت عطشا وإذا به أمام بحر من الماء البارد العذب يغوص فيه كما يشاء ! وغلبت عليها العواطف الهائجة المتدفقة فلم تستطع أن تتحرك لبضع ثوان . فأضاءت الخادمة المصباح ووضعته بين يديها وقالت لها : "أفيقى يا زبيدة ! فان معه بعض الضيوف أيضا !"

وفى أثناء ذلك كانت زبيدة قد استفاقت وعادت إلى وعيها فقالت للخادمة : أين هو ؟" سألتها وهى ترتعد حيرة ودهشة !

— إنه يشد الخيل فى الاسطبل ومعه فتاتان واقفتان فى صحن الدار !

فخرجت زبيدة فرأت الزهراء وناهيد فى ضوء القمر فقالت لهما لماذا أنتما واقفتان هاهنا ؟ تفضلا . . لقد كنت أرى حلما قبل بضع دقائق كأنكما ناهيد والزهراء ؟

فتقدمت ناهيد نحو زبيدة بدون أن تجيبها فتعلقت بها ، أما الزهراء فحاولت أن تمسك دموعها ففشلت فانهمرت دموعها فالتفتت زبيدة إلى الزهراء وقد تركت ناهيد فأرادت أن تسألها عن سبب دموعها إلا أنها رأت محمدا وخالدا وعليا قادمين .

فأرادت زبيدة أن تذهب بالزهراء وناهيد إلى الداخل إذ رأت رجلين غريبين مع محمد بن القاسم ولكن ناهيد قالت لها ، نرجوك أن تسمحى لنا بالاستراحة فى غرفة أخرى فاننا متعبات جدا !

فقالت زبيدة : حسنا . . خذا راحتكما !

فأشارت زبيدة إلى الخادمة فأخذت الزهراء وناهيد معها وذهبت بهما إلى غرفة أخرى ، أما محمد فأبلغ خالدا وعليا إلى غرفتهما ثم دخل على زبيدة .

﴿٤﴾

كان محمد بن القاسم يتحدث إلى زوجته زبيدة فى غرفته فى

الهزيع الأخير من الليل ، وكان باب الغرفة مفتوحا ، فكانت زبيدة تحول نظرها من وجه زوجها وتنظر إلى الخارج فترقرق الدموع فى عينيها فان الصباح كان لها رسول الفراق فاستعد محمد للسفر قبيل صباح الديكة .

وكانت أم زبيدة عرفت نية سليمان حول محمد بن القاسم فتوجهت إلى دمشق فى وفد مكون من خال زبيدة ووجهاء البصرة من المسلمين.

فقال محمد لزوجته وهو ينهض : يا للأسف ! لم أستطع أن أقابل أمك يا زبيدة ، وأرجو أنك لن تحزنى ومعاك ناهيد والزهراء ، وحاولى أن لا يعرف أحد بوصولهما لبضعة أيام !

وكانت زبيدة تضم شفتيها وتحاول أن تمنع انتحابها وتنهداتها أما نظراتها فكانت تقول : أحقا أنت ذاهب يا محمد ؟

فقال محمد بن القاسم ! فى حفظ الله يا زبيدة !

فقالت زبيدة بلهجة الملتمسة : هل تأذن لى أن أرافقك إلى الاصطبل ؟

فرد عليها قائلا : لا ! ستبقين هنا ! ولا تنظرى إلى هكذا !

وكانت حجب الدموع قد تسدلت على عينى زبيدة فأغمضت عينيها ثم قالت له : مع السلامة يا محمد !

فلم يزل محمد بن القاسم ينظر لبضع لحظات إلى تانك القطرتين من الدموع اللتين كانتا تعبران عن مئات الألوف من بحار الحب والطاعة ، فأخرج منديله ليمسح دموعها فمد يده إليها ولكنها قالت له : مرة أخرى مع السلامة !

فتقدم محمد خطوتين ثم التفت إلى الوراء ثم خرج مسرعا وهو يخطو خطوات طويلة !

فوجد عليا وخالدا على باب الأصطبل فسألهما محمد : ألا تزالان تسهران حتى الآن ؟

فقال له خالد : لم ينم أحد منا !

فقال محمد : اذهبا واستريحا .

— ولكنى أريد أن أصاحبك .

فقال محمد بن القاسم وهو يربت على عاتق خالد : إنى أعرف مشاعرك ولكن المصلحة تقتضى أن تبقى هاهنا ! إن الجهاد من أجل الأمة وأما حياتى فلا أريد جنودا من أجلها .

— إننى لا أستطيع أن أخالف أمر القائد ولكن كل ساعة من بقائى وانتظارى هنا لا تقل عن الطامة الكبرى !

فأجابه محمد : إن هذا ليس أمر قائدك وإنما هو نصيحة لك من صديقك ! إنه ليس من الجائز أن ترافقنى فى مثل هذه الظروف ولكنك تستطيع أن تأتى فيما بعد .

فنظر خالد إلى على فى حال من اليأس فذهب إلى الاصطبل فجاء بفرس .

فركب محمد الفرس ثم مد يده نحو خالد للمصافحة فغلبته العواطف فوضع يده على شفتيه وأخذ يقول : "يا صديقى ! يا أخى ! يا سيدى !"

فسقطت دموع خالد على يد محمد بن القاسم ، فانتزع يده ثم التفت إلى على فأخذ على يده فى كلتا يديه بكل قوة وقال له فى صوت يرتجف :

— فى حفظ الله يا سيدى ! ثم أخذ ينتحب !

فنظر محمد ملتفتا وراءه وهو يخرج من الباب فرأى ثلاثة من النساء واقفات فى وسط فناء الدار .

وحين ارتفع أصوات المؤذنين فى مساجد البصرة كان محمد بن القاسم يمر فى شوارعها وأسواقها . . نفس الشوارع والأسواق التى مربها موكب الجيش الإسلامى للجهاد فى السند تحت قيادة محمد بن القاسم القائد الشاب اليافع ذى السابعة عشرة ربيعا .

وصلى صلاة الفجر على ضفة النهر حين ابتعد من البصرة ثم ركب الفرس فأخذ يعدوبه سريعا .

(٥)

كان الخليفة سليمان بن عبد الملك يدخل من باب القصر الحكومى بعد صلاة المغرب إذا بصوت من الوراء يقول له : يا سليمان ؟ . كان هذا الصوت مليئا بالهيبة والغضب معا ، فانتبه سليمان فالتفت وراءه قائلا : من ؟ ولكن لم يرد عليه عمر بن عبد العزيز وإنما أخذ سليمان من ساعده وقال : ماذا سوف يكون جوابك عند الله يا سليمان ؟

كان سليمان بن عبدالملك متكبرا مستبدا إلا أنه ارتـاع أمام جلال وهيبة عمر بن عبد العزيز وكان الزبير واقفا على بعـد بضعة أقـدام إلا أنه لم يستطع أن يراه فى الظلمة فنظر إلى هنا وهناك ثم قال له : يبدو أنك تريد أن تتحدث فى موضوع خطير ما رأيك لو تحدثنا فى الخلوة تعال ندخل الغرفة !

فقـال عمـر بن عبـد العزيز : كنت أريـد أن آخـذك من طرف ثوبك بين يـدى المصلين فى الـمسجـد ولكن لا تؤخر الآن ، تعـال يا زبير !

فمشى الثلاثة بضع خطوات حتى دخلـوا فى غرفـة واسعـة من غـرف القصر . فرأى سليمـان الزبير فى ضؤ المشعل فقال له : كأنى رأيتك قبل هذا فى مكان ما ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ليس هذا وقت استعادة الذكريـات فقد جئت إليك لأتحدث معك فى موضوع محمد بن القاسم !

وعندما سمع سليمان اسم محمد هاج غضبا واضطرابا ثم قـال وهو ينظر إلى عمـر : إذن فقـد وصلت مؤامرتـه إلى المـدينة وهـذا هـو صديقه ؟

فقال الزبير : نعم أنا صديقه ، ولكن ليس صحيحـا أن محمد بن القـاسم يتآمر ضدك ، وإنمـا ذهبت إلى المـدينة الـمنورة كرسول ليزيد بن أبى كبشة .

وأراد سليمان أن يقـول شيئا ، ولكن عمـر أخرج رسالة يزيـد

فقدمها لسليمان قائلا : اقرأ الرسالة أولا فان يزيد بن أبى كبشة من أخص أصدقائك وأخلص زملائك ، فاذا كانت براءة محمد بن القاسم دفعته للكتابة إليك فلا تأمل منى بأن أسكت ، وقد رأيتك تضرب أعناق المسلمين ، لعلك سعيد بأن الأقدار قد أتاحت لك فرصة الانتقام اليوم ولكنك لا تستطيع أن تقلل من شأن وعظمة ذلك الشاب البطل الذى يزيد عدد أتباعه على عدد أتباعك بكثير ! ذلك القائد اليافع الذى لازال سيفه أمضى من سيفك وسهامه أوقع من سهامك ، ولكنه مع ذلك مستعد لان يستسلم أمام خليفة لا يحفل بعواقب الأمور . . وكنت قد بعثت خمسين رجلا إلى السند للقبض عليه ولكن قل لى لو كنت مكانه ومعك مئة ألف فدائى فقال لك يزيد بأنه قدجاء ليقبض عليك ويقيدك بأمر من الخليفة فماذا سيكون رد فعلك ؟ وماذا ستفعل بهؤلاء الخمسين ؟ وقد كان أخوك أميرك لكنك لم تزل تتآمر ضده طول حياته . . أما محمد بن القاسم فقد كان يعرفك حق المعرفة ولم يكن يرجو منك أى خير ، فلو أراد لجعل كل منزل من منازل السند حصنا حصينا له ليذود عن نفسه ! انه لو قتل رسولك لم يكن فى إمكانك أن تلحق به أى ضرر ، إلا أنه مع ذلك كله لم يعص أمرك . . أما أنت فلم تفكر فى شىء غير الانتقام ، إنه يفكر فى الأمة الاسلامية ومستقبلها وفى مجد الإسلام وغده ! وتريد أنت أن تنتقم منه لا لسبب غير أنه قريب الحجاج وزوج ابنته ؟ أو لأنه انتصر عليك فى يوم استعراض الفنون الحربية ؟ فابئس ما تفكر فيه يا سليمان ! يا ليتك كنت تعرف مكانتك كخليفة كما يعرف هو واجبه

كجندى وفى مطيع ! إن جنوده كانوا قد اعتزموا على الا ستيلاء على الهند إلى أقصى نواحيها ونصب الرايات الإسلامية المنتصرة فى كل جانب من جوانبها وإنك لو لم تأمره بالتراجع لكان قد انتصر حتى الآن على مقاطعة (راجبوتانه) كلها ! وقد عرفت اليوم بعد وصولى إلى دمشق بأنك قد أرسلته إلى واسط تحت رقابة صالح ، وأنك قد قررت فى أمره أشنع قرار وأفظع عقوبة ! ولكنى أوكد لك كل تأكيد بأنك لن تستطيع أن تنتزع منه المجد والفخار الذى حققه كبطل من أبطال الإسلام ! أن الناس قد ينسون سيف الجلاد ، أما الشهداء فلا يمكن أن ينسوه أبدا . . لقد كان فى مقدرتى أن أقول لك أكثر من هذا يا سليمان ! ولكن هذا ليس أوان الحديث والنقاش ! إن السهم الذى تريده أن ينفذ فى قلب فاتح السند إذاكان فى امكانك أن ترده فعليك ألا تضيع الوقت ! وإلا فتذكر بأن الأجيال القادمة من المؤرخين سوف يذكرونه كمجاهد شهيد كما أنهم سيذكرونك كأعدى أعداء الإسلام فى العصر الذى أنت فيه ، إنك إذا لم توافقنى فقد ترانى غدا أقول لمسلمى دمشق بأن يخلعوك ولا يرضوا بك خليفة عليهم ! إن الأمة الاسلامية سوف تثور ضدك !

كان غضب سليمان قد استحال إلى ندم ! فنهض من مكانه وأخذ يتجول فى الغرفة ، وهو يضم أنامله ويرسلها مضطربا ثم وقف عند المصباح ، ونظر إلى الزبير وعمر بن عبد العزيز وقال لهما فى صوت مضطرب : ليتكما ! جئتمانى قبل يومين ، إن السهم قد نفذ ولا أستطيع أن أسترده ، إنى لا أستطيع أن أفعل شيئا الآن !

فسأله عمر بن عبد العزيز : إذن فقد أصدرت الأمر بقتله ؟

فهز سليمان رأسه بالايجاب !

قال الزبير : إذا كتب لى أمير المؤمنين بأمر آخر ، فلعلى أستطيع أن أصل به قبل فوات الأوان !

صفق سليمان . . فحضر أحد العبيد . . فقال له سليمان : جهز أفضل فرس فى الاصطبل للسفر فورا . . ذهب العبد لتنفيذ الأمر ، بينما انصرف سليمان إلى كتابة الرسالة . . وبعد أن انتهى من كتابتها قال لعمر ابن عبد العزيز وهو يسلمه إياها :

— تفضل بقراءتها . .

نظر عمر بن عبد العزيز فى الرسالة ثم سلمها إلى الزبير ، وهو يقول له : إذا شاء الله ستصل هذه الرسالة فى الوقت المناسب . . يا زبير لقد أزهقت من التعب ، ألا ترى أنه من الأفضل أن يذهب غيرك بهذه الرسالة ؟

أجاب الزبير : لقد انتهى كل تعب كنت أحس به ، بعد حصولى على هذه الرسالة ، وأود أن أطمئنك بأننى سوف أستطيع الوصول إلى واسط ، دون أن أستريح فى أى مكان على الطريق . . وإذا تيسرلى تغيير الفرس فى المراكز الواقعة على الطريق ، فانى أفضل أن أعبر الصحراء إلى واسط مباشرة ، بدل أن اختار الطريق العادية الطويلة !

فكتب سليمان أمرا آخر إلى رؤساء المراكز التى على الطريق ،

وأعطاه للزبير ، وخلال ذلك كان العبد قد عاد ، ليطلع أن الفرس جاهز . . وبعد أن صافح الزبير سليمان ، مد يده نحو عمر بن عبد العزيز وقال له : ادع لى بالتوفيق يا سيدى !

وأثناء توديعه كان عمر يتمعن فى الزبير . . فيرى أن وجهه الذى أتعبه الارهاق وأذبله متاعب السفر الشاق . . استعاد نضارته ، وأضاءه نور الأمل !

وما هى إلا لحظات حتى كان الزبير قد توجه نحو واسط ممتطيا صهوة جواد سريع !

(٦)

بعد أن عبر الزبير الصحراء ، وصل إلى إحدى الواحات الخضراء ، بعد منتصف الليل . وبعد متاعب سفر متواصل ، إذا به يحس كأن أطرافه وجسمه قد شلت عن الحركة ! وشعر بصداع شديد يكاد يفجر رأسه ، فرغم سرعة الجواد ، وجودة الهواء ، كانت متاعبه المضاعفة قد بدأت تنتزعه من دنياه ، وتتلاشى عزيمته القوية تحت سلطان النعاس الذى هجم عليه . فلم يعد يستطيع السيطرة على عينيه اللتين كان يغمضهما أحيانا ويفتحهما أحيانا أخرى وبسبب استرخاء يديه كانت قبضته على اللجام تضعف ، ويقل بالتالى سرعة الجواد لبعض الوقت لكن فكرة ما كانت تخترق قلبه كالسهم النافذ فيفتح عينيه وينظر إلى النجوم ويشد على الفرس فتجرى مسرعة . . حتى وصل إلى الحد الذى كان يتخيل وكأنه قد سلم صالحا رسالة الخليفة

سليمان . . وتصور نفسه عند باب السجن وقد التقى بمحمد بن القاسم، الذى أخذ يعانقه . . وفجأة صار يخاطبه ويقول له : يا محمد ! إنى أريد الآن أن أستريح قرب ضفة نهر تحت شجرة ذات ظل ممدود . . انظر يا محمد ! لا توقظنى حتى أفيق بنفسى نشيطا قويا وبعد نوم طويل مريح ممتع لمرة واحدة على الأقل ! فما أعجبه هذا النوم ، دواء كل داء ! وراحة بعد كل كرب ! أريد أن أتمتع بنوم عميق . . أريد إرضاء حاجتى من النوم ! ولكن لا ! لا يا صديقى الأعز . . سيغيب النوم ويتلاشى التعب عندما أراك قد نجوت من أيدى المعتدين !

رأى نجمة الصباح طالعة فى أفق الشرق ، فطاربه الخيال بعيدا فرأى نفسه واقفا على تل عند مدينة (ديبل) يسمع صدى الكلمات التى قالها له ذلك القائد اليافع فى ليلة من الليالى على طلل من أطلال السند :

— إنى أغبط هذه النجمة وحياتها يا زبير ! ما أقصر حياتها ! وما أرفع هدفها ! انظر إليها تقول لأهل الدنيا : لا تتأسفوا على حياتى القصيرة ، أن الله قد بعثنى رسولا بين يدى الشمس إلى الدنيا وأهلها لأعلن إليهم مقدمها ، فقد أديت الواجب والآن فانى ذاهبة ! يا ليتنى ! أقوم بنفس الدور الذى تقوم بها هذه النجمة ! إنى أتمنى أن أكون نجمة الصباح تعلن طلوع الإسلام فى شبه القارة !

تنهد الزبير فى حسرة ، وأطلق للفرس المتعب عنانه مرة أخرى ، فنظر إلى الظلام على أفق الشرق وهو يتقلص فى ردائه الأسود ، ورأى

لنجمة الصباح وهى تغيب تحت ستار النور ، لتطلع الشمس من بعدها وقد لبست قباء أحمر قانيا . .

بدل الزبير فرسه بفرس جديد فى آخر مركز على طريقه ، واستأنف السير ، ثم لاحت له مآذن مدينة واسط على بعد فرسخين ، بينما استمر هو يسبح فى طوفان من مصابيح الرجاء وعواصف اليأس مع كل خطوة يخطوها نحو المدينة !

وعندما رأى الزبير ازدحام الناس عند الباب الغربى للمدينة جر لجام الفرس نحوهم ، فرأى بعض الشباب يحملون جنازة على أكتافهم ، فنزل من فرسه ، وحاول أن يتماسك فلم يقدر ، إلا أنه استجمع قواه مرة أخرى وسأل رجلا عربيا بالقرب منه : أين مسكن صالح ؟

فنظر الرجل إليه باحتقار و ازدراء وقال له : من أنت ؟ وماذا تريد من ذلك السفاح الآثم ؟

فنظر الزبير إلى بعض الشباب الذين فاضت أعينهم بالدموع الساخنة ثم التفت إلى الرجل وقال له ، وقلبه يخفق ويضطرب : لقد جئت من دمشق برسالة هامة من الخليفة !

فسأله الرجل فى غيظ : من الذى أصدر الخليفة الأمر بقتله الآن !

فأخذ الزبير ينظر إلى الرجل بعينيه الشاخصتين وسأله : لمن هذه الجنازة التى يحملها الناس ؟

فقال له الرجل : ألا تعرف فاتح السند !

فاسترخى الزبير مندهشا وأفلت اللجام من يده ثم أخذ يترنح حتى سقط على الأرض مغشيا عليه فاجتمع الناس حوله وقال فتى من بين الشباب الموجودين هناك : زبير ، يا زبير ، وأخذ يتقدم نحوه حتى اقترب منه فجلس عنده فأخذ يحاول أن يعيده إلى صوابه ، وكانت عيناه مخضلتين بالدموع وكان يقول فى لهجة حزينة كئيبة : يازبير ! أسرع ! هذه جنازة عماد الدين محمد بن القاسم !

أما الزبير فكان يهمهم فى غيبوبته : يا محمد ! إنى أريد الآن أن أستريح ! على ضفة النهر ! تحت شجرة ذات ظل ممدود ! وما دمت لا أستفيق من النوم فلا تفقنى !

فهزه الشاب قائلا : زبير ! يا زبير ؟ أنا خالد . انظر إلى ! انظر ! فقدمات محمد . . لقد غربت شمس السند وسيدفن فى تراب واسط ! قم يا زبير ، هؤلاء الشباب يحملون جنازة صديقك !

فاستفاق الزبير وفتح عينيه وقال فى قلق شديد : أنت يا خالد ! وأين أنا الآن ! آه ! لعلنى قد أغمى على ! تلك الجنازة ! . . . كان أحد يقول لى بأنه . . . لا ، لا ، لا يمكن أن تكون جنازة محمد بن القاسم ! انظر ! فقد جئت بأمر الإفراج عنه !

فأخرج الزبير الرسالة وأعطاها لخالد وقال له ، خذها يا خالد واذهب بها إلى صالح بسرعة !

فنظر خالد إلى قطعة الورق دون أن يحفل بها ثم رمى بها على

الأرض ! مما أدهش الزبير وبهت فأخذ ينظر إلى خالد بعينيه الشاخصتين !

فانحنى رجل عجوز على الرسالة فأخذها وفتحها وقرأها ثم أخذ يصيح : كان أمير المؤمنين قد أمر باحضار محمد إلى دمشق مع كل الإكرام والاحترام ، أن صالحا قد قتله بارادته انتقاما وإرضاء لشهوته الانتقامية ولم يكن لأمير المؤمنين أن يصدر أمرا كهذا ، ولا ينبغي له ! أيها المسلمون من أهالى واسط ! إن روح محمد بن القاسم يناديكم للثأر ! ما لكم ؟ تعالوا معى !

وبعد أن انفلتت الجموع حاول خالد أن يسند الزبير لكى ينهض إلا أنه امتنع عليه قائلا : أنا الآن بخير ! هيا بنا !

فنهض كلاهما وتوجها إلى المقبرة .

وفى حين كان المشيعون يهيلون التراب على قبر محمد فى نفس الوقت كان خمسون من الشاب يهاجمون منزل صالح ويقتحمون عليه الباب ويحملونه على سيوفهم المسلولة !

❀ ❀ ❀ ❀

فهرس الابواب

ص

القسم الاول

القسم الثانى